ميغيل دي أونامونو

حياة دون كيخوته و سانتشو

ترجمة : صالح علماني

مكتبة بغداد
twitter@baghdad_library

الكتاب: حياة دون كيخوته وسانتشو
المؤلف: ميغيل دي أونامونو
المترجم: صالح علماني
الطبعة الأولى: ٢٠١١
حقوق الطبع محفوظة

دار رفوف للنشر
دمشق - هاتف: ٤٤٧٦٤٤٧/٨ ١١ ٠٠٩٦٣
www.rufof.com
info@rufof.com

GOBIERNO DE ESPAÑA MINISTERIO DE CULTURA

Esta obra ha sido publicada con una subvención"
" de la Dirección General del Libro Archivos y Bibliotecas
تمت ترجمة هذا الكتاب بتكليف ومساعدة من المديرية
العامة للكتاب والأرشيف والمكتبات في وزارة الثقافة الاسبانية

twitter @baghdad_library

حياة دون كيخوته وسانتشو

حسب

ميغيل دي ثربانتس سابيدرا

بشرح وتعليق

ميغيل دي أونامونو

ترجمة: صالح علماني

العنوان الأصلي

VIDA DE DON QUIJOTE Y SANCHO
Según
MIGUEL DE CERVANTES SAAVEDRA
Explicada y comentada
por
Miguel de Unamuno

twitter @baghdad_library

تقـديـم

ولد ميغيل دي أونامونو آي خوغو بمدينة بلباو ببلاد الباسك عـام 1864. ودرس الفلسفة والآداب بجامعة مدريد، ومنهـا تخرج بدرجة امتياز وهـو في الحادية والعشرين مـن عمـره. وحصل في العـام التـالي على الدكتوراه عـن أطروحـة حـول اللغـة الباسكية بعنـوان: ***نقـد لمسألة أصـل العـرق الباسـكي ووجوده منذ ما قبل التاريخ.*** وعمل منذ العام 1891 أستاذاً للغة اليونانية في جامعة سلمنكا، ثم صار منذ العام 1901 رئيساً لهذه الجامعة، وهو المنصب الذي شغله لسنوات طويلـة. وبـالرغم من أنه فُصل من منصبه هـذا ثـلاث مرات لأسباب سياسية، إلا أنـه كـان يعـود إليـه إلى أن مُنح في العـالم 1934 لقـب «الـرئيس الفخـري لجامعـة سـلمنكا مدى الحيـاة». وبـسبب معارضـته لدكتاتورية بريمو دي ريبيرا، نفـي إلى جزيـرة فوريبينتـورا، ورجـع بعـد سـقوط الدكتاتورية عام 1930 إلى سلمنكا. في العام 1935 منحتـه الحكومـة الجمهوريـة لقب «مواطن الشرف»، ولكن ذلك لم يمنعه من التعبير العلـني عـن خيبـة أملـه من الجمهوريـة لـسياستها في الإصـلاح الزراعـي وفي الـدين والحكـم. وقـد تـوفي بمدينة سلمنكا في الحادي والثلاثين من ديسمبر (كانون الأول) 1936.

يعتبر أونامونو أبرز ممثلي كتّاب جيل الـ 98، وكان محط تقدير واحترام جميع كتّاب جيله الذين اعترفوا بمهابة شخصيته وعمق أفكاره وتـشويق أسـلوبه. وعلـى الـرغم مـن أن قلقـاً فلسفياً وجوديـاً يـسيطر علـى أعمالـه كلـها، إلا أن ذلـك لا يُفقـدها قيمتهـا الأدبيـة. ويُلمـس في رواياتـه ودراسـاته إحـساس كـبير بـالقلق مـن الموت ورغبة في حيـاة أبديـة تتـيح للمـرء مواصـلة الوجـود. كمـا أن المـسألة الدينيـة والبحث القلق عن الرب هي موضوعات دائمة في حياته وأعماله.

يتميز أسلوبه بالأناقة، ولكنه بالغ الدقة في التعبير والتحفيز. يدفعه إلى ذلك الاهتمام بالتعبير عن عالمه الداخلي وإقناع قرائه بآرائه. ومن هنا تتبدى نبرته الحماسية وحججه غير الرتيبة.

نتاجه الأدبي شاسع جداً، يجول فيه على جميع الأجناس الأدبية:

الرواية هي الجنس الذي يستخدمه للتعبير عن مشاكله الشخصية الخاصة، كالتعطش إلى الخلود، والمغزى التراجيدي للحياة، والصراع بين العقل والإيمان. ومن أبرز أعماله الروائية: «الخالة تولا»، «هابيل سانتشيث»، «القديس مانويل الطيب»، «ضباب».

في **الشعر** يكشف عن عمق قلقه الديني. كما في «مسيح بيلاثكيث»، و«تيريسا»، و«كتاب الأغنيات».

الدراسة والمقالة يعرض فيهما أونامونو قلقه الوطني، ومستقبل الإنسان في ما وراء الموت. كما في «حياة دون كيخوته وسانتشو»، و«المغزى التراجيدي للحياة»، و«احتضار المسيحية».

القصة القصيرة، وقد جُمعت أعماله القصصية في مجلد واحد بعنوان «مرآة الموت». وكتب للمسرح عدداً من الأعمال، أبرزها: «سوليداد»، و«راكيل»، و«الآخر».

هموم أونامونو وجيل 98

انتهى القرن التاسع عشر بهزيمة كبرى لإسبانيا، لا تقل أثراً عن هزيمة أسطولها «الأرمادا التي لا تُهزم» عام 1588 في مواجهة الأسطول الانكليزي. ففي العام 1998، وقعت الحرب الأمريكية الإسبانية التي هُزمت فيها إسبانيا هزيمة نكراء، اضطرت حيالها إلى توقيع اتفاقية باريس التي تنازلت بموجبها عن آخر مستعمراتها في العالم الجديد (كوبا وبورتوريكو)، وكذلك مستعمرتها الآسيوية (الفيليبين) التي أخضعت للسيطرة الأمريكية.

twitter @baghdad_library

أثار هذا الحدث في إسبانيا موجة سخط واستياء عام، تمثلت أدبياً بظهور جيل كتّاب 98 الذي ضم عدداً من أبرز أدباء إسبانيا في ذلك الحين، مثل رامون دل بايي إنكلان، وبيو باروخا، وأثورين، وأنطونيو ماتشادو، وكان على رأسهم ميغيل دي أونامونو. وقد واجه هؤلاء الكتّاب حالة الانحدار التي وصلت إليها إسبانيا وأدت إلى كارثة عام 1989 وعكفوا على دراسة وتحليل ما حل ببلادهم من العلل في محاولة لاقتراح الحلول. وكان أونامونو أشدهم قلقاً على مصير إسبانيا بعد حالة الضياع التي وقعت فيها البلاد، فسعى إلى البحث عن جوهر إسبانيا الحقيقي أو ما أسماه «روح إسبانيا» و«مغزى الحياة».

وقد شهدت إسبانيا في تلك المرحلة حالة من التخلف، سبقها صراع على العرش أدى إلى حرب أهلية مديدة (الحرب الكارلستية)، وانتهت بضعف النظام الملكي وسيطرة دكتاتورية بريمو دل ريفيرا على مقدرات البلاد. وتلا ذلك سقوط نظام بريمو دل ريفيرا الدكتاتوري في العام 1930، وقيام الجمهورية التي رحب بها أونامونو بحماسة، وتقدم كمرشح مستقل لانتخابات المجلس البلدي في سلمنكا، وكذلك للانتخابات البرلمانية (مجلس الكورتيس)، وفاز بالموقعين. ولكنه ما لبث أن فقد حماسته تلك، وخاب أمله بالجمهورية، رواح ينتقدها علناً في كتاباته وخطاباته، ورفض التقدم للانتخابات التالية.

ومع بداية الحرب الأهلية الإسبانية عام 1936، أيد أونامونو حركة التمرد العسكري التي قادها الجنرال فرانثيسكو فرانكو ضد الحكومة الجمهورية المنتخبة. فقد رأى أونامونو في العسكريين المتمردين «جماعة من الوطنيين الأقوياء المستعدين والقادرين على تصويب وجهة البلاد». ووصل به الأمر في صيف 1936 إلى توجيه نداء إلى المثقفين الأوروبيين يدعوهم فيه إلى دعم العسكريين المتمردين، مؤكداً أنهم يمثلون «الدفاع عن الحضارة الغربية والتقاليد المسيحية»، وقد أثار نداءه ذاك الحزن والرعب في دنيا

الثقافة، على حدّ تعبير المؤرخ فرناندو غارثيا كورتاثار. ولكن حماسته للتمرد ما لبثت أن تحولت إلى خيبة أمل. فقد أذهله ما رأى من همجية الانقلابيين الفرانكويين وتماديهم في اقتراف المجازر، وأعلن بكل وضوح أن «الحرب في إسبانيا ليست حرباً أهلية، وإنما هي حرب همجية، وليست حرب إسبانيا ضد إسبانيا الأخرى، وإنما هي حرب إسبانيا ضد نفسها». وقال في فاشيي حزب الفلانخه (الكتائب): «ليسوا حزباً، وإنما هم قطيع، وراء تحيتهم العدم، ووراء العدم الجحيم».

ونورد هنا وصفاً مفصلاً للموقف الأخير الجريء الذي اتخذه أونامونو المثقف والمفكر من تلك الحرب الأهلية التي شغلت العالم بأسره. فقد أعرب، علناً، عن ندمه على دعمه للتمرد في احتفال أقيم بمناسبة بدء العام الدراسي في الثاني عشر من شهر أكتوبر (تشرين الأول) 1936 (ويتوافق الاحتفال به مع الاحتفال بـ «عيد السلالة»، ذكرى وصول كولومبس إلى العالم الجديد). وما جرى في ذلك الاحتفال، كما يرويه المتأسبن الإنكليزي هوو توماس في كتابه الضخم والموثق «الحرب الأهلية الإسبانية»، كان على النحو التالي:

بعد خطاب ألقاه الكاتب خوسية ماريا بيمان، ألقى البروفيسور فرانثيسكو مالدونادو خطاباً هاجم فيه كتالونيا وبلاد الباسك، معتبراً هاتين المنطقتين «سرطاناً في جسد الأمة. ولكن الفاشية التي هي مداوي إسبانيا، ستعرف كيف تقضي عليهما، ببترهما من لحمها الحي، كطبيب متحرر من المشاعر الزائفة»

عندئذ صرخ أحدهم من أحد أركان مدرج قاعة الاحتفالات الجامعية، بالشعار الفاشي الشهير «يحيا الموت!». وقد حاول بعض الطلاب الشباب من حزب الفلانخه (أو ربما هم من الحزب الكارلستي) أن يخففوا من وطأة شعار «يحيا الموت» بشعار «يحيا يسوع الملك». غير أن الجنرال ميّان أستراي (وهو مشوه حرب، فقد ذراعه وإحدى عينيه في حرب إسبانيا الاستعمارية في

twitter @baghdad_library

المغرب، وكان أحد أشد العناصر دموية في حركة فرانكو الانقلابية)، عاد للصراخ بالشعار الذي اعتاد أن يحرض به الشعب: «يحيا الموت». وتلا ذلك وقوف جماعة من أنصار الفلانخه، يرتدون القمصان الزرق، ويرفعون أيديهم بالتحية الفاشية أمام صورة لقائد التمرد فرانثيسكو فرانكو.

عندئذ نهض ميغيل دي أونامونو ببطء، ولم يكن مقرراً له أن يلقي كلمة في ذلك الاحتفال، وارتجل خطاباً يعتبر اليوم أحد النصوص الهامة في تاريخ إسبانيا الحديث، أدان فيه همجية الجنرالات المتمردين ودمويتهم في عقر دارهم وبحضورهم، بجرأة لا تعرف التردد أو الخوف، وهو يعلم أن من قتلوا غارسيا لوركا في تلك الأيام، لن يمنعهم شيء من قتل كاتب عجوز يكشف لهم حقيقتهم دون رياء أو مواربة. وما قاله في خطابه التاريخي ذاك.

«إنكم تنتظرون كلمتي. فأنتم تعرفونني جيداً وتعرفون أنني غير قادر على الصمت. لأن الصمت أحياناً يوازي الكذب. ولأنه يمكن تفسير الصمت على أنه موافقة.

«كنتُ قد قلتُ إنني لا أريد التكلم، لأني أعرف نفسي: ولكنني سُحبتُ من لساني وصار من واجبي أن أتكلم. لقد جرى الحديث هنا عن حرب دولية للدفاع عن الحضارة المسيحية؛ وأنا نفسي فعلتُ ذلك في مناسبات أخرى. ولكن لا، فحربنا الآن هي مجرد حرب همجية. لقد ولدتُ على "هدهدة" حرب أهلية أخرى (الحرب الكارلستية الثانية) وأعرف ما أقول. فالانتصار لا يعني الإقناع، ولا بد من الإقناع قبل كل شيء، ولا يمكن للحقد الذي لا يترك مجالاً للرحمة أن يُقنع أحداً؛ الحقد الناقم على الفكر، وهو فكر ناقد، ومفاضل، ومفتش، ولكنه ليس محكمة تفتيش.

«أريد أن أعلق على خطاب البروفسور مالدونادو (وأقول خطاب لمجرد إطلاق تسمية على ما قاله). ولنترك جانباً الإهانة الشخصية التي يتضمنها انفجار الشتائم المفاجئ ضد الباسكيين والكتلانيين. والمطران ـ قال وهو يشير

إلى بلا إي دانييل، مطران سلمنكا ـ الحاضر بيننا هو كتلاني، سواء شاء ذلك أم لم يشأ، فقد ولد في برشلونة ليعلمنا الديانة المسيحية التي لا تريدون معرفتها. وأنا كما تعلمون ولدتُ في بلباو، فأنا باسكي أمضيت حياتي في تعليمكم اللغة الإسبانية التي لا تعرفونها. وهذه اللغة هي إمبراطورية حقيقية، إنها إمبراطورية اللغة الإسبانية...»

كانت العصبية قد سيطرت في أثناء ذلك على الجنرال ميان أستراي، فخبط بيده الوحيدة على المنضدة وقاطع المتكلم بصفاقة: «أيمكنني التكلم؟ أيمكنني التكلم؟». وبدأ الكلام فوراً. فألقى خطبة قصيرة، غير متماسكة، أملتها عليه حالته الهستيرية، مدافعاً عن التمرد العسكري. غير أن أونامونو تمكن بدوره من العودة إلى مواصلة كلمته:

«لقد سمعت للتو صرخة تهين حرمة الموتى ولا معنى لها، تقول: "يحيا الموت!"، وأشعر بأن هذه الصرخة هي معادل للقول: "فلتمت الحياة!". وأنا الذي أمضيت حياتي في الجمع بين متناقضات ظاهرية أثارت حفيظة من لم يفهموها، يجب عليّ أن أقول لكم، بصفتي مرجعاً في هذا الشأن، إن التناقض الظاهري السخيف في هذه العبارة يبدو لي مثيراً للاشمئزاز. ذلك أنها أُطلقت تكريماً للمتحدث الأخير، أنا أفهم أنها موجهة إليه، مع أن ذلك قد حدث بطريقة ملتوية ومفرطة في الشطط، إنها موجهة إليه كشاهد على أنه هو نفسه رمز للموت. وهناك شيء آخر! فالجنرال ميان أستراي شخص مشوه، ولا حاجة إلى قول ذلك بصوت خافت، إنه مشوه حرب. وقد كان ثربانتس أيضاً مشوه حرب. ولكن الأطراف لا تنفع مقياساً. فهناك اليوم مشوهون كثيرون في إسبانيا. وسيكون هناك المزيد منهم عما قريب، ما لم يدركنا الله بعونه. يؤلمني أن أفكر في أنه يمكن للجنرال ميان أستراي أن يملي القواعد السيكولوجية للجماهير. لأنه مشوه يفتقر إلى عظمة ثربانتس الروحية، ثربانتس الذي كان رجلاً فحلاً وكامل الرجولة بالرغم من عاهته.

twitter @baghdad_library

إن مشوهاً، مثلما قلتُ، يفتقر إلى هذا التفوق الروحي، يشعر عادة بالمواساة وهو يرى تزايد أعداد المشوهين من حوله.

«ليس الجنرال ميان أستراي واحداً من العقول المتميزة، حتى وإن كان غير ذي شعبية، أو ربما هو لهذا السبب نفسه غير ذي شعبية. الجنرال ميان أستراي يريد أن يخلق إسبانيا جديدة ـ وهي عملية خلق سلبية بكل تأكيد ـ على صورته نفسها. ولهذا السبب يرغب في رؤية إسبانيا مشوهة ومبتورة، مثلما بيّن لنا دون قصد منه»

في هذه اللحظة قاطعه الجنرال ميان أستراي صارخاً «الموت للفكر!». فصحح له الكاتب خوسيه ماريا بيمان محاولاً أن يُبيّض ما لا يمكن تبييضه بقوله: «لا! فليعش الفكر! والموت للمثقفين الخبثاء!». وكان بيمان يعرف عمَّ يتكلم. ففي عام 1935، ألقى محاضرة في قاعة «أكثيون إسبنيولا» بعنوان: **خيانة المثقفين**؛ وكانت تبشر بالسياسة الفرانكوية التي ستظهر في العام التالي.

ويمكن تصور ضجة الاستنكار التي أثارها الكتائبيون، من الأساتذة والجمهور، في مواجهة رجل عجوز تجرأ على قول ما لم يكن هناك أحد في إسبانيا، في تلك الظروف، قادراً على التوجه به إلى كائن مثير للاشمئزاز أخلاقياً. وعندما تمكن أونامونو أخيراً من فرض الصمت مجدداً، واصل كلامه بالقول مشيراً إلى الجامعة التي يترأسها:

«هذا معبد للفكر، وأنا كاهنه الأكبر. وأنتم تدنسون حرمته المقدسة. لقد كنتُ على الدوام ـ ولا يهمني ما تقوله الأمثال ـ نبياً في وطني. ستنتصرون، ولكنكم لن تقنعوا أحداً. ستنتصرون لأنكم تملكون فائضاً من القوة البهيمية. لكنكم لن تُقنعوا أحداً، لأن الإقناع يعني تقبل الحجة، ولكي تُقبل حجتكم تحتاجون إلى شيء تفتقدونه: العقل والحق في القتال. ويبدو لي من العبث الطلب منكم أن تفكروا بمصير إسبانيا».

بعد أن أنهى أونامونو كلمته الجريئة، وسط صرخات الفاشيين وشتائمهم

وهم يتوعدونه بالموت، مدّ بعض الضباط أيديهم إلى مسدساتهم... ولكن أونامونو نجا بفضل تدخل كارمن بولو (زوجة الجنرال فرانكو) وكانت حاضرة في الاحتفال، فقد سارعت إلى الإمساك به من ذراعه واقتادته خارجاً ورافقته حتى بيته، مما حال دون أن تنتهي الواقعة بمأساة. وظل محتجزاً في بيته إلى أن توفي بعد أقل من ثلاثة أشهر من ذلك، قبيل انتصاف ليل 1936/12/31.

بعد بضعة أيام من تلك الواقعة، أجرى الكاتب اليوناني نيكولاس كازانتزاكي مقابلة صحفية معه، ومما قاله أونامونو في تلك المقابلة:

«في هذه اللحظات الحرجة من وجع إسبانيا، أعرف أنه عليّ أن أتبع الجنود. إنهم وحدهم من سيعيدون إلينا النظام. فهم يعرفون ما يعنيه الانضباط ويعرفون كيف يفرضونه. لا، لم أتحول إلى يميني. لا تهتم بما يقوله الناس. لم أخن قضية الحرية. ولكن الجوهري، في الوقت الراهن، هو إقرار النظام. وسوف أنهض في أي يوم ـ عما قريب ـ وانطلق في النضال من أجل الحرية. لا، لست فاشياً ولا بولشيفياً؛ إنني متوحد.

وفي يوم 21 تشرين الثاني، كتب إلى صديقه لورينثو غيسو:

«البربرية شاملة. إنه نظام الرعب من الجانبين. إسبانيا مذعورة من نفسها، إنها مرتعبة. لقد انبثق جذام الكاثوليكية والعداء للكاثوليكية. الجانبان يطالبان بالدم. وهنا إسبانياي المسكينة تنزف، تُدمر، تُسمم وتصاب بالجنون...

مات في بيته بسلمنكا يوم 31 ديسمبر (كانون الأول) 1936، بصورة مفاجئة، بينما هو يتسامر مع صديقين كانا يزورانه. وعلى الرغم من الأمر باحتجازه في بيته، أقام له الفرانكويون جنازة مهيبة على أنه بطل كتائبي. أما في الجانب الجمهوري، فقد كتب الشاعر أنطونيو ماتشادو في يوم موته: «نشير اليوم إلى أن أونامونو قد مات، كمن يموت في الحرب. ضد من؟ ربما ضد نفسه بالذات».

twitter @baghdad_library

كيخوته ثربانتس

«دون كيخوته» هو الشخصية الرئيسية التي تمنح العنوان لرواية الكاتب الإسباني ميغيل دي أونامونو التي صدرت بعنوان «قصة النبيل العبقري دون كيخوتي دي لا منتشا»، وكان صدورها أول مرة في جزأين، الأول منهما عام 1605، بينما صدر الجزء الثاني بعد عشرة أعوام، في العام 1614. وتعتبر رواية ثربانتس من أوسع الكتب قراءة في العالم. وقد تحول بطلها دون كيخوته مع مرور الزمن إلى أسطورة ونموذج للمغامر المثالي المناضل ضد الجور. فدون كيخوته هو فارس جوال يظهر في عصر اندثار الفروسية الجوالة، كما أن سماته الشخصية تختلف اختلافاً تاماً عما اتصف به أبطال روايات الفروسية في العصور الوسطى، بل إنه لا يشاركهم سمة واحدة من سماتهم. فهو لا يتحدر من أسرة مشهورة، وليس شاباً، ولا قوياً، ولا وسيماً. وهو فوق ذلك غير بارع في استخدام الأسلحة، بل على العكس من ذلك كله. إنه صورة للبطل المضاد. فهو مجرد نبيل ريفي خمسيني ومفتقر، يتلهف إلى العيش في عالم متخيل يستمده من كتب الفروسية التي أدمن قراءتها، ويخفق في مغامراته كلها. ومع ذلك، فإن دون كيخوته شخصية حميمة، تجمع بين الجد والهزل وتفيض بأعمق المشاعر الإنسانية. ومع أن كل قارئ يعرف منذ البدء أن دون كيخوته مجنون، إلا أنه من النادر ألا يشعر المرء بالتعاطف، وحتى بالتطابق معه، والعثور على الذات فيه. إنه مجنون يريد «إصلاح الاعوجاج»، وجعل العالم أكثر عدلاً، ويناضل من أجل تعميم الخير والحب.

إحدى أعظم قيم رواية ثربانتس هي إبداعه ثنائية البطل المتمثلة في دون كيخوته وتابعه سانتشو بانثا. دون كيخوته هو رمز المثالية والخيال والروحانية، أما سانتشو فبرغماتي واقعي ومادي. الشخصيتان تكمل كل منهما الأخرى، ولا تتعارضان. ولأنهما يمثلان وجهي الكائن البشري، يشكلان تفخيماً شاعرياً للكائن البشري. وعلى امتداد الكتاب تتطور

الشخصيتان سيكولوجياً: دون كيخوته يتحول أكثر فأكثر إلى واقعي وكئيب، بينما ينتهي الأمر بسانتشو إلى الاقتناع بأن هنالك ما يستحق النضال في سبيل المثل التي يسعى إليها دون كيخوته. يمكننا القول إن سانتشو قد أصيب بالكيخوتية بينما تحول الكيخوته نفسه إلى السانتشوية.

أسطورة الكيخوته

شهدت القرون الأربعة الماضية، أي الأربعمائة سنة الأخيرة التي تلت صدور رواية ثربانتس العظيمة، سيلاً جارفاً من النصوص التي تحاول تفسير العمل وتقويمه. وكان كتّاب وفلاسفة وأدباء كل عصر يفهمون الكيخوتي على طريقتهم. فيبرزون طبيعته الساخرة من كتب الفروسية، ووظيفته التهكمية من رذائل وعادات معينه، وموقفه في الدفاعِ عن المثل العليا و«تقويم الاعوجاج»، على حدّ تعبير دون كيخوته نفسه. فضلاً عن التركيز على طبيعة العمل الروائية الواقعية التي دشنت مسار الرواية العالمية بمفهومها الحديث. ويمكن لنا، بالإجمال، تصنيف تلك الدراسات والنصوص في ثلاثة اتجاهات أساسية: أولها يحاول التركيز على دراسة الكيخوته كعمل أدبي، وآخر يسعى إلى إبراز الطابع الفلسفي لنص ثربانتس، وموقف ثالث يمكن القول إنه موقف وسط بين هذا وذاك، يحاول المواءمة بين الدراسة الأدبية والتأملات الفلسفية.

وفي هذا الاتجاه الأخير يندرج كتاب أونامونو هذا الذي نُشر أول مرة عام 1905، أي عام الذكرى المئوية الثالثة لصدور رواية ثربانتس. وكان قد سبقه في إسبانيا تلك المرحلة كم هائل من الأدب التجديدي الإصلاحي، ساهم أونامونو نفسه في إثرائه، بصورة متوالية وحاسمة، بأعمال ومقالات مهمة حوّل فيها دون كيخوته، ضمن موضوع التجديد، إلى مركز تأملاته حول أسباب انحدار الإسبان وسباتهم، والبحث عن حلول للخروج من ذلك الوضع. فجعل منه مثلاً لفارس الإيمان، الإيمان بمُثل دون كيخوته في إصلاح الاعوجاج ونشر العدالة والمحبة.

twitter @baghdad_library

وكانت رواية ثربانتس قد تلقت في القرن التاسع عشر دفعة كبيرة حوّلت الكيخوته إلى أسطورة، وذلك بما قدمه الرومانسيون الألمان من قراءات مثالية للكتاب وسعت من انتشاره عالمياً. وفي هذا السياق، جرى تحويل بطل رواية ثربانتس إلى مادية أولية لكل داعية، حيث يعتقد كل شخص أنه يرى فيه تلك القيم التي توافقه أيديولوجياً. فالتجديديون حولوا الكتاب إلى إنجيل للتجديد، وفتحوا بذلك أبواب استخدام نص ثربانتس من مختلف المواقع الأيديولوجية، وهكذا نجد أن هناك قراءات فوضوية (كما في ما كتبه ألفريدو كالديرون «دون كيخوته فوضوياً» (1905)، وما كتبه بعده بقليل مانويل لوخيلدي في «شخصيات فوضوية من خلال الكيخوته»، وقراءات ليبرالية (لدى الروائي بينيتو بيرث غالدوس على سبيل المثال) وغيرها... بل إن مختلف المواقع المتعارضة مدت يدها واستعانت بالكيخوته لتأكيد معتقداتها، فظهرت سلسلة طويلة من القراءات السياسية المتناقضة في ما بينها، وكلها ترفع عالياً صورة الكيخوته التي تحولت إلى أسطورة حديثة لتقديم تفسير أيديولوجي للحاضر.

ومن المناسب الإشارة إلى أن مقاربة أونامونو لكتاب ثربانتس جاءت ضمن سلسلة أعمال أخرى، سابقة ولاحقة، قدّمها كتّاب جيله، من أمثال: غالدوس، وأثورين، ورامون آي كاخال، وسيليو، وكثيرين غيرهم. ويصل دون كيخوته أخيراً إلى يدي أونامونو وقد تحول إلى أسطورة جوالة.

ومن أجل فهم دقيق لهذا الكتاب ولطروحات أونامونو فيه، لا بد لنا من العودة مجدداً إلى أجواء المرحلة التي كُتب فيها، أي مرحلة ما بعد هزيمة إسبانيا في مواجهتها مع الولايات المتحدة عام 1898، تلك الهزيمة الكبرى التي شعرت فيها إسبانيا بالإهانة، وانعكست على كافة مستويات الحياة اليومية الإسبانية، فكان هناك اختلال توازن هائل، جرى التعبير عنه على المستوى الفكري من خلال كتّاب جيل 98 الذين عكسوا في أعمالهم احتضار الكارثة الاستعمارية والغم الوجودي لموضوع إسبانيا، وأسهم بذلك

أونامونو في بعض مؤلفاته. في ذلك المشهد القاتم نفسياً واقتصادياً واجتماعياً، عكف عدد من الكتّاب الذين يمثلون جيل 98 على المواجهة، وتدفق على المجتمع الإسباني سيل جارف من النقد والأفكار المطالبة بانبعاث وطني.

لقد كانت إسبانيا تنام على غار أمجادها الغابرة، وأتتها اليقظة المريرة... لتغرق من جديد في إغفاءة أشد عمقاً، أو لتهرب من العار. هذه هي إسبانيا التي وجد جيل 98 نفسه فيها، وأراد أن يوقظها بإظهار روحها الخاصة، جوهرها، هوية إسبانيا وشخصيتها.

وقد كان الكيخوته، طبعاً، هو الرمز الوطني الذي اختاره ذلك الجيل للتجديد الأخلاقي، كبطل يقود كل الجهود. فضائله وروحه المتحدية وإخلاصه، وبنيان أخلاقه المعافاة هي ما يرسم طريق الخلاص للشبيبة الجديدة. وهكذا ظهرت مؤلفات مثل: «تأملات الكيخوتية» (1914) للفيلسوف الإسباني خوسيه أورتيغا آي غاسيت، «ومسار دون كيخوتي» (1905) لأثورين، وكتاب أونامونو هذا الذي بين أيدينا.

كيخوته أونامونو

رأينا كيف أن كتّاباً كباراً كثيرين اهتموا بدراسة الكيخوته وتحليله بدقة، وفعلوا ذلك كجزء من مهمتهم الأدبية ومن حياتهم الشخصية. وفي هذه الحالة، أحد أفضل ممثلي أولئك الكتّاب هو ميغيل دي أونامونو بكتابه العجيب «حياة دون كيخوته وسانتشو». ففي هذا العمل يدخل أونامونو حتى نخاع تربانتس والكيخوته ودولثنيا وسانتشو. وقد فعل ذلك بزخم وعمق جعلا معاصره وصديقه الشاعر أنطونيو ماتشادو يقول فيه قصيدة، نقتطف منها:

هذا الدون كيخوته
ميغيل دي أونامونو، الباسكي القوي،
يرتدي الدروع الفجة

twitter @baghdad_library

ويعتمر الخوذة التافهة
خوذة ابن المنتشا الطيب، ويمضي دون ميغيل
فارساً على ركوبة وهمية
يهمز جنونه بمهمازين من ذهب،
غير عابئ بألسنة النميمة.
وعلى شعب من البغّالين،
يملي دروساً بالفروسية

نشر أونامونو كتاب «حياة دون كيخوته وسانتشو» عام 1905، أي في سنة الاحتفال بالذكرى المئوية الثالثة لصدور كتاب ثربانتس، ولكنه في مقدمة الطبعة الثانية يؤكد أن صدور كتابه توافق مصادفة وليس عمداً مع الاحتفال بالذكرى المئوية الثالثة لطباعة ***الكيخوته*** أول مرة. وأنه يجب عدم فهم كتابة على أنه «عمل بمناسبة الذكرى المئوية». والحقيقة أن اهتمام أونامونو بكتاب ثربانتس وبشخصية دون كيخوته ليس وليد لحظة معينة، فلدى أونامونو نتاج كيخوتي حقيقي سابق وتالٍ لكتابه هذا. فقد كتب في العام 1905 نفسه مقالة بعنوان «حول قراءة الكيخوته وتفسيره»، ومقالة أخرى بعنوان «ضريح دون كيخوته»، وهو النص الذي أضافه في مطلع الطبعة الثانية من كتابه هذا الصادرة عام 1914، كما أنه يتناول شخصية دون كيخوته في كتابه «الشعور المأساوي بالحياة» وكذلك في قصيدته المطولة «مسيح بيلاثكيث» (قصيدة مؤلفة من ألفين وخمسمائة وتسعة وثلاثين بيتاً). كما فعل ذلك في دراسات عديدة أخرى، منها: «عظماء، زنوج وشهداء»، و«دون كيخوته وبوليفار» و«حول دون خوان تينوريو». وكان قبل ذلك كله قد كتب ثلاثة مقالات في العام 1898، هي على التوالي[1]: «الموت لدون كيخوته!»، و«الحياة لألونسو الطيب!»، و«المزيد حول دون كيخوته».

ويشير أونامونو في الفصل الرابع والستين من القسم الثاني من «حياة دون كيخوتي وسانتشو» إلى تلك المقالات، وبصورة خاصة إلى مقالة «الموت لدون كيخوته»، ويطلب المعذرة لإطلاقه صرخة الموت تلك ضد دون كيخوته:

«أنا أطلقت ضدك، يا سيدي دون كيخوته، دعوة الموت تلك. فاغفر لي، اغفر لي، لأنني أطلقتها ممتلئاً بنية سليمة وطيبة، وإن كانت خاطئة، أطلقتها بحب لك. ولكن الأرواح الشحيحة، تلك التي أفسدها صُغارُها أخذت كلامي على عكس ما أردته، وبينما أنا أسعى لخدمتك، ربما أكون قد أسأت إليك... سامحني إذاً يا عزيزي دون كيخوته على ما يمكن أن أكون قد سببته لك من أذى حيث أردت لك الخير. أنت من أقنعتني بخطر الوعظ بالعقل بين تلك الأرواح المتحجرة. أنت من بينت لي الشّر الذي يتبع توبيخ رجال ميالين إلى أشد أشكال المادية فظاظة، حتى لو تنكروا بالروحانية المسيحية.»

يهرب أونامونو في «حياة دون كيخوته وسانتشو» من الطريقة التقليدية في قراءة عمل ثربانتس التي سار عليها التجديديون من أبناء جيله. ففي طرحه أسطورة الكيخوته، لم يتبع أونامونو الدروب التي خطها غيره من التجديديين الإصلاحيين، وإنما استفاد من شخصية الكيخوته بصورة أساسية ليحدد نفسه في دور المثقف المصمم على لعب دور البطولة. و«حياة دون كيخوته وسانتشو» ليس في الواقع إلا صورة ذاتية يقدمها أونامونو لنفسه، مزينة بمجموعة من القيم (الإيمان، الشجاعة، الجنون، العاطفة... الخ) كي يعرض نفسه للقارئ كمثال لبرنامج حيوي، وهو برنامج خاص بأونامونو قبل أن يكون لثربانتس. فنجده يقول في مقدمته للطبعة الثالثة: «إن ثربانتس هو الذي أخطأ، وإن تفسيري وتعليقي، وليس تفسيره، هو الأمين». فدون كيخوته هو القناع الذي اختاره أونامونو ليفسر (ويبرر لنفسه) نشاطه العام. ومما لا شك فيه أن أونامونو لا يهمه من قريب أو بعيد تفسير النص الثربانتسي: «أترك للعلماء والنقاد الأدبيين والباحثين التاريخيين المهمة

twitter @baghdad_library

الجديرة والمفيدة جداً في التحري عما كان يمكن لكتاب *الكيخوته* أن يعنيه في زمانه، وفي الجو الذي أُنتج فيه، وما أراد ثربانتس التعبير عنه فيه وعبر عنه».

ينطلق أونامونو في تأملاته حول شخصية الكيخوته من إنكار أي مغزى موضوعي إلى هذا الحد أو ذاك في كتاب ثربانتس، ويُبقي خطابه موجهاً، حصرياً، إلى ذاتية القارئ. فنراه ينطلق في خطابه على الدوام من «تجربة» واردة في الكتاب، تُرفع هذه «التجربة» لديه إلى مقولة فلسفية، ثم تُحوّل إلى نظرية، وأخيراً، وفي حركة ثالثة، ينزلق اهتمام النص إلى مناحي الحياة العامة.

يتابع أونامونو بدقة تسلسل حبكة الكيخوته كما هي عند ثربانتس. ويتيح له الاقتباس النصي اختيار المقاطع التي يُفترض أنها أثرت بقوة أكبر على مخيلته، بينما نراه يختزل للقارئ تلك الأجزاء من قصة النبيل العبقري والتي لا تتوافر على الدسم الذي يخدم مصالحه. وهكذا، في الفصل السادس، من القسم الأول من الكيخوته، ذاك الذي يتناول «التفتيش الكبير والشيق الذي قام به الكاهن والحلاق في مكتبة نبيلنا العبقري». يكاد أونامونو لا يعلق إلا بقول ما يلي: «إنه فصل يتحدث عن الكتب وليس عن الحياة. فلنتجاوزه.». ولا يمكننا أن نغفل واقع أن أونامونو، في الوقت الذي يعمد فيه إلى تكريس صفحات عديدة للتعليق على بعض الفصول، نجده يقتصر في فصول أخرى على التعليق ببضعة أسطر فقط، فهو يعلق على هذا النحو على الفصلين (33 و34): «هذان الفصلان يتناولان حكاية "الفضولي السفيه" وهي حكاية ليس لها أي علاقة بسياق هذه القصة»، وكذلك في تعليقه على الفصول (39، 40، 41، 42) إذ يكتفي بالقول: «هذه الفصول مليئة بقصة الأسير وقصة كيف عثر المندوب على أخيه»

فصلاً ففصلاً يعمد أونامونو إلى الكتابة، على طريقته، فارضاً روايته ورؤيته على القصة التي قدمها ثربانتس لمغامرات دون كيخوته. إنها عملية

تحوير بارعة تستحق نتيجتها التأمل: يحوّل أونامونو، في الظاهر، قارئ «حياة دون كيخوته وسانتشو» إلى قارئ متميز لعمل ثربانتس. ومع ذلك، فإن اختيار الاقتباسات (وهي منتقاة بدقة عالية جداً) وتعليقات أونامونو المرافقة لها، تحوّل بعمق معنى تلك القراءة «الجديدة». وأونامونو في المقدمة التي كتبها لطبعة كتابه هذا، عام 1930، وفي رده على ملاحظات جاءته من مترجمه الأمريكي حول «خطأ» في بعض الاقتباسات من نص ثربانتس، يقول أونامونو الذي تعمد ذلك التلاعب:

«وعلى كل حال أنا أملك نص سيدي حامد بن إينخيلي بالعربية، أملكه وإن كنت قد نسيت كل قليل اللغة العربية الذي علمني إياه السيد كوديرا في جامعة مدريد ـ وقد منحني الجائزة في هذه المادة! ـ ولكنني أقرأ النص العربي بسهولة وقد رأيتُ فيه بشأن الفقرة التي يشير إليها البروفيسور إرل، أن ثربانتس هو الذي أخطأ، وأن تفسيري وتعليقي، وليس تفسيره، هو الأمين.»

أي أنه في مواجهة «حياة دون كيخوته وسانتشو حسب ثربانتس، يُقدَّم إلى القارئ هنا نصاً موازياً ومختلفاً يمكن لنا أن نسميه: «حياة دون كيخوته وسانتشو حسب أونامونو».

ولا يكتفي أونامونو في تفسيره لنص ثربانتس بتقديم روايته الخاصة، بل إنه يمضي إلى ما هو أبعد من ذلك. فما يفعله، أو يحاول على الأقل أن يفعله، هو تحرير دون كيخوته من سجن التخييل الروائي، لجعله ينطلق من جديد في دروب الواقع. وفي هذا الشأن يقول أميركو كاسترو في كتابه «الكلمة المكتوبة والكيخوته»: «لقد وضع أونامونو في ذهنه عنصر سحر خارق للطبيعة، إذ يبدو لديه كما لو أن الكيخوته قد خلق نفسه بنفسه. وقد توصل أونامونو إلى اختزال ثربانتس إلى "مجرد أداة" أرسلها الله إلى الدنيا كي تكتب الكيخوته، معتبراً إياه مجرد عامل يعمل في خدمة دون كيخوته (لأن الكيخوته شخصية تاريخية حقيقية) الذي أملى قصته الحقيقية والواقعية على

twitter @baghdad_library

سيدي حامد بن إينخيلي». وتبين الباحثة ماريا ثمبرانو، تلميذة أونامونو ودارسة أعماله، أنه «يجب عدم الثقة بتفسيرات من يشكو من أن الآخرين لم يتمكنوا من فهمه. فأونامونو يعترف، في الواقع، بموضوع مركزي في ذهنه وربما هذا الموضوع هو نقطة ضعف دون كيخوته: كونه حلماً بشرياً وليس إلهياً». أي أنه يريده، بطريقة ما، أن يكون مسيحاً مخَلِّصاً.

من أجل فهم أفضل لتعليق ثمبرانو هذا، لا بد من مواصلة تفسير موقف أونامونو حيال ثربانتس وحيال شخصية دون كيخوته. ففي مقدمته للطبعة الثالثة من هذا الكتاب، يؤكد أونامونو أنه يشعر بأنه أكثر كيخوتية من ثربانتس ويقول لنا إنه يسعى إلى تحرير الكيخوته من ثربانتس نفسه، بل إنه يسمح لنفسه أحياناً بمخالفة طريقة فهم ثربانتس للبطلين وتعامله معهما، وخاصة سانتشو. يعترف أونامونو لثربانتس بميزة أنه قد خلق شخصيات مهمة للثقافة والتاريخ الإسبانيين، ولكنه يؤكد أن ثربانتس هو حالة نموذجية للكاتب الأدنى مكانة من عمله. ومن الممكن تحديد سببين لتدني ثربانتس المزعوم هذا عن عمله: فمن جهة، دون كيخوته وسانتشو مستقلان عن إرادة الكاتب، وهما «ابنا» روح الشعب الإسباني، إنهما شخصان خالدان وبطوليان؛ ومن جهة أخرى، لم يستطع ثربانتس فهم الشخصيتين، لدرجة أنه عاملهما بصورة سيئة، وخاصة سانتشو. وهذا السبب الأخير هو الذي يدفع أونامونو إلى تسمية ثربانتس بالـ «المؤرخ الرعديد»، و«الخبيث»، و«ثربانتس المسكين».

في مقاله المنشور عام 1905 بعنوان «قبر دون كيخوته» يكتب أونامونو حول موقفه الخاص ويؤكد أنه لا يريد أن يشرح ما أراد ثربانتس قوله، وإنما ما يفهمه هو نفسه من العمل.

«ماذا يهمني ما أراد أو لم يرد ثربانتس وضعه أو ما قد وضعه فعلاً؟ فما هو حي هو ما أكتشفه أنا، سواء أأورده ثربانتس أم لم يورده، هو ما أضعه وأفرضه وأخفيه، وما نضعه نحن جميعنا». فما يرمي إليه أونامونو هو تفسير

مغامرات نبيل المنتشا وتابعه، والتعليق عليها ليجد فيها مفاتيح سرية لقراءة وتفسير تاريخ إسبانيا وشخصيتها. ويرى أن هذه هي مهمة حياته:

«... وأنا أقول إنه من أجل أن يروي ثربانتس سيرة حياة دون كيخوته، وأقوم أنا بشرحها والتعليق عليها ولد دون كيخوته وسانتشو. لقد ولد ثربانتس ليرويها، وولدت أنا لشرحها والتعليق عليها... لا يستطيع رواية حياتك، وشرحها والتعليق عليها، يا سيدي دون كيخوته، إلا من به مس من جنونك نفسه بعدم الموت. فتدخل لأجلي إذاً يا سيدي ومولاي، كي تأخذ دولثنيا بيدي وتقودني إلى خلود الاسم والشهرة. وإذا كانت الحياة حلماً، فدعني أحلم بأنها بلا نهاية».

موقف أونامونو يقوده إلى حدّ إلغاء ثربانتس بصورة سافرة، والتحوير في قصة الرواية الثربانتسية، وإضفاء أهمية على بعض الحوادث والوقائع دون غيرها، وحتى الإشادة ببعض شخصيات العمل والحط من غيرها (مثلما هي حال الكاهن، والمجاز، والحلاق، والدوق وزوجته، وبصورة خاصة شخصية أنطونيا كيخانا، ابنة أخت دون كيخوتي والشخصية المقابلة للشخصية المثالية دولثنيا دل توبوسو.

مشروع أونامونو لا يتلخص فقط في إنقاذ دون كيخوته وسانتشو من «المؤرخ الرعديد» أي ثربانتس، وإنما من كل أولئك المتشدقين المتحذلقين (مثل الكاهن، والمجاز، والحلاق) الذين يلوذون بالعقل الإيجابي كي يفهموا ويفسروا العالم ولهذا لا يتوصلون إلى فهم الجنون.

«حتى الجنون لم يعد مفهوماً هنا. فحتى المجنون يظنون ويقولون إنه يفعل ذلك من أجل أن يؤخذ في الحسبان وأن يُعتبر على صواب. لقد صار صواب اللاصواب واقعاً في نظر جميع أولئك البؤساء. ولو انبعث سيدنا دون كيخوته حياً وعاد إلى إسبانياه هذه، لانهمكوا في البحث عن نية أخرى وراء هذياناته النبيلة».

ثم يضيف: «حسن، بلى، أظن أنه بالإمكان محاولة القيام بحملة صليبية

twitter @baghdad_library

مقدسة للذهاب من أجل إنقاذ قبر دون كيخوته من سلطة المتشدقين والقساوسة والحلاقين والدوقات والكهنة القانونيين الذين يحتلونه. أظن أنه بالإمكان القيام بحملة صليبية مقدسة لإنقاذ قبر فارس الجنون من سيطرة نبلاء العقل».

يعتقد أونامونو أنه لا بد من إعطاء الصوت مجدداً لدون كيخوته وسانتشو وأن هذا هو العلاج الوحيد لإنقاذ النفوس المهزومة، والتي مالت إلى «التعقل المادي والإيجابي»، الخاص بمن يبتهجون ويرضون بالنجاح المجرد، و«لا يشعرون بأن هناك ما هو أكبر وأعظم من مجرد الوجود»

ما الذي أراده أونامونو من هذا كله؟ ولماذا يتدخل في قراءته لنص ثربانتس تحويراً وتحليلاً؟ إنه يبحث عن الأبعاد الفلسفية لشخصيتي دون كيخوتي وسانتشو، تلك الأبعاد التي لم ينتبه إليها ثربانتس في روايته، لأن أبعاد الرواية أكبر منه، وأكبر من أن يفهمها ذلك المؤرخ الرعديد. وها هو ذا أونامونو يتساءل، ويجيب:

«هل هنالك فلسفة إسبانية يا سيدي دون كيخوته؟ أجل، إنها فلسفتك، فلسفة دولثنيا، فلسفة عدم الموت، فلسفة الإيمان، فلسفة خلق الحقيقة. وهذه الفلسفة لا يمكن تعلمها في الجامعات، ولا عرضها من خلال المنطق الاستقرائي أو الاستنتاجي، ولا تُستخرج بالقياس، ولا من مختبرات، وإنما تنبع من القلب».

فلسفة عدم الموت، فلسفة الخلود، هي هاجس أونامونو إذاً، ولكن الخلود يحتاج إلى الإيمان، الإيمان بالنفس وبالقدرة على تجسيد الأحلام من خلال خلق الحقائق. وفي مسعاه هذا من أجل إنقاذ دون كيخوته من غموض الرواية الثربانتسية والتباسها، ينتهي إلى تحويل بطل الجنون إلى شخصية تراجيدية، إلى بطل تراجيدي. فجنون دون كيخوته «جنون مجيد» قوامه التلهف إلى المجد، إلى مواصلة البقاء وعدم الموت.

«اللهفة إلى المجد والشهرة هي روح الكيخوتية الحميمة، وجوهرها وعلة وجودها، وإذا لم يكن بالإمكان نيلها بالانتصار على مردة وتقويم اعوجاجات،

فإنه سينالها بالتغني بالقمر والتحول إلى راعٍ. المسألة هي خلود الاسم عبر العصور، والبقاء حياً في ذاكرة الناس. المسألة هي في عدم الموت! في عدم الموت! عدم الموت! هذا هو الجذر الأخير، جذر جذور الجنون الكيخوتي. عدم الموت! عدم الموت! اللهفة إلى الحياة؛ اللهفة إلى حياة أبدية هي حياة خالدة يا سيدي دون كيخوته. فحلم حياتك كان وما زال الحلم بعدم الموت».

دون كيخوتي، كبطل، لم يتوقف عند حد الحلم، بل أراد أن يحقق حلمه. لقد أخضع دون كيخوته نفسه لفكرته. ففيه انصهرت كينونته وما يريد أن يكونه. ولهذا استطاع أن يؤكد «أنا أعرف من أنا»، وهو ما يعني «أنا أعرف من أريد أن أكون»، لأن الأبطال وحدهم يعرفون ويستطيعون إخضاع أنفسهم لما يريدون أن يكونوه، يعرفون كيف يحولون حلمهم إلى حقيقة، وإرادتهم إلى كينونة. هذا هو سبب جنونه "الظاهري"، نتيجة عجز البشر الآخرين عن فهم هذا التصرف البطولي والذهاب به إلى حدوده القصوى.

انطلاقاً من «أنا أعرف من أنا» (العبارة التي يردّ بها دون كيخوته على جاره بيدرو ألونسو)، يقدم أونامونو صورة شعاعية روحية لبطله الجديد:

«يستطيع البطل أن يقول «أنا أعرف من أنا» وفي هذا تكمن في آن واحد قوته وبؤسه. قوته، لأنه مادام يعرف من يكون، فليس هناك ما يدعوه إلى الخوف من أحد، باستثناء الرب الذي جعله من يكون. وبؤسه، لأنه هو وحده من يعرف، هنا على الأرض، من يكون. وبما أن الآخرين لا يعرفون ذلك، فإن كل ما يقوله أو يفعله يبدو لهم كعمل أو قول من لا يعرف نفسه، أي كعمل أو قول شخص مجنون.

نص ثربانتس يدعم تفسير أونامونو. فما إن تصاغ المقولة كقانون عام حتى تتحول إلى قالب لتعميم وجود تلك «الأنا الجمعية»، والتي تتوارى خلفها في أحيانا كثيرة «الأنا الفردية» الأونامونية الخاصة:

«هذا هو محور الحياة الإنسانية برمتها: معرفة الإنسان ما يريد أن يكون. لابد

twitter @baghdad_library

أن يكون اهتمامك ضئيلاً بمعرفة من تكون، لأن المهم بالنسبة إليك هو ما تريد أن تكون. فالكائن الذي هو أنت زائل وقابل للفناء، يأكل من الأرض، وستأكله الأرض ذات يوم. ما تريد أن تكونه هو فكرتك عن الرب، عن ضمير الكون: إنه الفكرة الإلهية عن أنك ظاهرة في الزمان والمكان. وحافزك الدافع نحو هذا الذي تصبو إلى أن تكونه ليس إلا الحنين الذي يجرجرك نحو منزلتك الإلهية. فالإنسان لا يكون إنساناً مكتملاً وسوياً إلا عندما يتطلع إلى أن يكون أكثر من مجرد إنسان. وإذا ما وجهت اللوم إلى دون كيخوته على غطرسته، ولم تتطلع إلى أن تكون إلا ما أنت عليه، فإنك إنسان ضائع، وضائع لا خلاص له»

وماذا عن سانتشو بانثا؟

ماذا عن سانتشو، سانتشو التابع البائس، حامل أسلحة سيده، سانتشو الفلاح البسيط، إنما العملي العقلاني (على طريقة الكاهن والحلاق والفحام)، إنه لا يبحث عن المجد والخلود، بل يسعى لتأمين لقمة العيش لزوجه وأبنائه. يدفعه الطمع، وليس الطموح، إلى إتباع سيده أملاً في الحصول على الجزيرة التي وعده دون كيخوته بأن ينصّبه حاكماً عليها. سانتشو الذي يقدمه ثربانتس في روايته على هذا النحو، يتحول عند أونامونو إلى شخصية ذات أهمية كبيرة، فهو ليس التابع وحامل أسلحة الفارس وحسب، إنه البشرية كلها في نظر دون كيخوته، ودون كيخوته يحب البشرية، ويتحدث إليها من خلال توجهه إلى سانتشو. وأونامونو يمنح سانتشو أهمية كبرى كذلك لأن الأمر ينتهي بتحول سانتشو إلى الكيخوتية، إنه ينتهي إلى الإيمان بسيده ومولاه. ومن هو الأكثر جنوناً عندئذ؟ أهو المجنون؟ أم إنه العاقل الذي يتبع المجنون؟

سانتشو هو دون كيخوته «الآخر». والثنائي دون كيخوته ـ سانتشو يمثلان حوار الشعب الإسباني المنقسم إلى هاتين الشخصيتين، وإذا كان أولهما أعلى مرتبة فإن الآخر لا يقل عنه، إذ أنه كورال التراجيديا. ولهذا

يوكل إليه أونامونو الواقع. وفي تفسيره التراجيدي لرواية ثربانتس، يكون دون كيخوته هو البطل وسانتشو هو البطل الآخر، إنه الكورال. على حد قول ماريا ثمبرانو في مؤلفها «دليل أونامونو»

شخصية سانتشو بانثا مهمة بقدر ما هي معقدة: فهو يتبدى في بداية المغامرات على أنه المعبر عن الحس العام، عن العقل الإيجابي والمادي الذي يسخر من أي مثالية كيخوتية، لأنه يضحك من كل ما لا يستطيع رؤيته ورصده مباشرة. وعلى امتداد الشروح الأونامونية تأخذ السانتشوبنثية بالتحول إلى طريقة في البطولة، لأنها في صراع دائم مع شكوك العقل. ففي محاولته لإنقاذ فارس الجنون، ينقذ أونامونو كذلك سانتشو، الذي يعتبره صورة لنوع آخر من الإيمان والبطولة المكملة لصورة سيده. فدون كيخوته، وجنونه هو جنون عقل يتكامل فقط مع تابعه سانتشو بانثا الذي هو «البشرية كلها» في نظر سيده. دون كيخوته يحتاج إلى سانتشو، مثلما يحتاج بطل تراجيدي إلى كورل يتحدث إليه، كما هي الحال في التراجيديا الإغريقية.

وعندما يكون سانتشو على فراش الموت ويعترف بأنه قد شفي من جنونه، يقول له سانتشو بغضب: «الآن يا سيد دون كيخوته، وبعد أن بلغنا خبرَ أن السيدة دولثنيا لم تعد مسحورة، تخرج علينا حضرتك بهذا؟ الآن ونحن على وشك أن نصير رعاة لنقضي الحياة في الغناء كالأمراء، تريد حضرتك التحول إلى ناسك؟ اسكت بحياتك، وثب إلى رشدك، ودعك من هذه الحكايات». ويضع أونامونو في سانتشو أمله في أن يتحول التابع إلى فارس ذات يوم، ونعود إلى امتلاك مجنون إلهي على الأرض. وهو يوازي بين الإسبان وسانتشو الفظ والمتخلف أحياناً، ولكنه من يصاب أخيراً بمس من جنون دون كيخوته، وينتظر أونامونو أن تستيقظ إسبانيا ذات يوم من سباتها، وتجد جنونها الخاص، ولهذا يكتب كتابه، من أجل إيقاظ الوعي، من أجل أن يجد الشعب دولثنياه التي توحي إليه بالمآثر وتخرجه من سباته الذي هو فيه.

twitter @baghdad_library

إيمان سانتشو بدون كيخوته لم يكن إيماناً ميتاً، هذا يعني، خادعاً، من ذلك الإيمان الذي يستند إلى الجهل؛ إنه ليس إيمان الفحام، وليس إيمان الحلاق طبعاً، المستند إلى ثمانية ريالات. بل هو، على العكس، إيمان حقيقي وحي، إيمان يتغذى على الشكوك. لأن من يتشككون فقط يؤمنون حقاً، أما من لا يشكون، يشعرون بإغراءات ضد إيمانهم، ولا يؤمنون حقاً. الإيمان الحقيقي هو في الحفاظ على الشك؛ على الشكوك التي هي قوت الإيمان وغذائه، إنه إيمان يتغذى ويتعاظم لحظة فلحظة، مثلما تحافظ الحياة الحقيقية على نفسها من الموت وتتجدد ثانية فثانية.

إن سانتشو الذي يتبع سيده في البدء لأنه مغرم بالثراء، انتهى إلى المضي مغرماً بدولثنيا، أي بمن تجسد المجد. فدولثنيا دل توبوسو التي يصفها لنا أونامونو على أنها الأم الروحية للشعب، تصل لأن تكون، بحسب ماريا ثمبرانو، «الإشارة الغيبية» لإيمان دون كيخوته، وهدفاً إيروتيكياً تتغذى منه الإرادة الكيخوتية: حلم الإنسان. والإيروس الكيخوتي نزق وساخط، ولهذا يظل في العفة.

ربما تلخصت إضافة أونامونو الحقيقية في إنقاذه صورة سانتشو وربما يكون سانتشو هو الشخصية التي يتطابق معها أونامونو، على الرغم من كثرة التفسيرات التي تقرب الكاتب الباسكي من دون كيخوته: فبفضل الإيمان البسيط فقط للتابع البائس سيكون بإمكان الإيمان الكيخوتي أن ينتعش، أن ينبعث، وقد صار إنسانياً هذه المرة، مختلطاً بشكوك العقل. فسانتشو هو الوريث الحقيقي لدون كيخوته، وهو «من سيوطد الكيخوتية على أرض البشر إلى الأبد». إنه النموذج الذي يجب على الشعب أن يقتفي أثره. إيمانه إيمان بشري، وليس مثالياً، وإرادته مختلطة بالحب تجاه سيدة. وهو حب استطاع أن ينقذه ويمنحه الشهرة الأبدية.

يثبت لنا أونامونو في كتابه هذا أنه فيلسوف بامتياز، فيلسوف محض، إنه

الرجل الذي يتعرى أمام الحياة بلا أحكام مسبقة، يعري روحه. وبذلك الألم الذي يسميه هو نفسه «الشعور المأساوي بالحياة»، يسأل الهواء، والسماء، والرب دون أي وسطاء، عن مغزى الحياة، سؤال مفعم بالحاجة إلى المعرفة، سؤال مترع بالألم، لأن أونامونو تؤلمه الحياة، يرفض قبول عالم عبثي وبلا مغزى جئنا إليه لما هو أكثر قليلاً من التسلية وانتظار الموت. إنه يصرخ: لا، لا، لا. ومن ألم الحياة، من ذلك الشعور المأساوي بالحياة، يبني فلسفته، فلسفة مفعمة بالحيوية، مفعمة باليقين، مترعة بالحقيقة، كثير من الحقيقة، نشرب منها بجزع حقيقي، نحن جميع من شعرنا ذات يوم، مثله، بعدم تحمل حياة بلا مغزى.

وهدف الفلسفة عند أونامونو هو الإنسان الذي من لحم وعظم، إنها مفهوم عن الإنسان لا يتضمن العقل أو الفكر وحسب، وإنما كذلك الشعور والعاطفة. ومن هذا الفهم للإنسان ينمي فلسفته.

«انظر أيها القارئ، على الرغم من أني لا أعرفك، إلا أنني أحبك كثيراً إلى حد أنني إذا ما استطعت الإمساك بك بين يدي، سأفتح صدرك وأُحدث في لبِّ قلبك الداخلي جرحاً وأضع لك فيه خلاً وملحاً كيلا تتمكن من الراحة أبداً وتعيش في قلق دائم وفي لهفة لا تنتهي. وإذا كنتُ لم أتمكن من إقلاقك من خلال هذا الكيخوته الخاص بي فصدقني أن السبب في ذلك هو غبائي، ولأن هذا الورق الميت الذي أكتب عليه لا يصيح، ولا يصرخ، ولا يتنهد، ولا يبكي، ولأن اللغة التي يمكن أن نتفاهم بها أنا وأنت لم تُخترع بعد.

أونامونو ودون كيخوته، دون كيخوته وأونامونو، يبدو أن كلاً منها قد وُجد من أجل الآخر. ففلسفة أونامونو تتطابق تماماً مع الكيخوته، ويبدو أن الكيخوته قد كُتب ليكون نموذجاً لأفكاره. من الصعب عدم تقبل مفهوم الكيخوته بالطريقة التي يفهمها بها أونامونو في «حياة دون كيخوته وسانتشو».

twitter @baghdad_library

قبر دون كيخوته[1]

تسألني، يا صديقي الطيب، إن كنتُ أعرف الطريقة لإطلاق عنان هذيانٍ، أو دوارٍ، أو جنون هذه الحشود البائسة العادية والهادئة التي تولد، تأكل، تنام، تتوالد، وتموت. أليس هناك من وسيلة، تقولَ لي، لإعادة إنتاج جائحة التائبين سائطي أنفسهم أو جائحة المتطيرين الراجفين؟ وتحدثني عن الألفية.

كثيراً ما أشعر، مثلك، بالحنين إلى العصر الوسيط؛ وأرغب مثلك وسط تشنجات الألفية لو أننا نتوصل إلى إشاعة الاعتقاد بأنه في يوم معيّن ــ وليكن يوم 2 أيار 1908، يوم الذكرى المئوية لصرخة الاستقلال ــ ستنتهي إسبانيا إلى الأبد، وأنهم سيتقاسموننا في هذا اليوم كالخراف، فإنني أظن أن يوم 3 أيار 1908 سيكون أعظم يوم في تاريخنا، سيكون فجر حياة جديدة.

إنه لبؤس، بؤس كامل. فليس هنالك من يهمه شيء من أي شيء. وعندما يحاول أحد أن يحرك، بصورة معزولة، هذه المسألة أو تلك، فتح هذه القضية أو تلك، فإنهم يصفون عمله إما تجارة أو سعياً إلى الظهور ولهفة إلى البروز.

حتى الجنون لم يعد مفهوماً هنا. حتى المجنون يظنون ويقولون إنه يفعل ذلك من أجل أن يؤخذ في الحسبان وأن يُعتبر على صواب. لقد صار صواب اللاصواب واقعاً في نظر جميع هؤلاء البؤساء. ولو انبعث سيدنا دون كيخوته حياً وعاد إلى إسبانياهُ هذه، لانهمكوا في البحث عن نية أخرى وراء هذياناته النبيلة. وإذا ما شهَّر أحد بتعسف، ولاحق الظلم، وندد بالفظاظة، يتساءل

---

(1) هذا المقال الذي نشر في مجلة "إسبانيا الحديثة"، العدد 206، مدريد، شباط 1906، الصفحات 5 ـ 17، أضافه أونامونو إلى نص كتابه ***حياة دون كيخوته وسانتشو*** في طبعته الثانية عام 1914. وظل يُطبع منذ ذلك الحين مع طبعات الكتاب التالية، باستثناء المقاطع التي نشير إليها بنجوم. إذ أن هذه الفقرات تظهر في المقال المذكور، ولكنها حُذفت عندما أعاد أونامونو نفسه نشرها في صدر الطبعة الثانية من كتابه هذا.

العبيد: ما الذي يسعى إليه من ذلك؟ ما الذي يتطلع إليه؟ يظنون أحياناً ويقولون إنه يفعل ذلك كي يسدوا فمه بالذهب، ويقولون في أحيانٍ أخرى إن الدافع مشاعر خسيسة وميول منحطة إلى الانتقام أو الحسد؛ وفي أحيان أخرى إنه لا يفعل ذلك إلا لإحداث ضجة وجعل الآخرين يتكلمون عنه، من أجل التفاخر؛ وفي أحيان أخرى إنه يفعل ذلك للتسلية وتمضية الوقت، كنوع من الرياضة. للأسف الشديد أن قلة قليلة هم من يمارسون هذه الأنواع من الرياضة!

تنبّه وراقب. حيال أي فعل كرم، أو بطولة، أو جنون، لا يخطر لجميع متشدقي هذه الأيام السخفاء، والقساوسة، والحلاقين، إلا أن يتساءلوا: لماذا فعل ذلك؟ وعندما يظنون أنهم اكتشفوا سبب فعله ـ سواء أكان ما افترضوه أم لم يكن ـ يقولون: عجباً! لقد فعل ما فعله لهذا السبب أو ذاك. فكل أمر له مسوغ وجود، ويفقد قيمته كلها عندما يعرفون علة وجوده. هذا ما يفيدهم به المنطق، المنطق القذر.

لقد قيل: الفهم يعني المغفرة. وهؤلاء البائسون يحتاجون إلى الفهم كي يغفروا لمن يذلهم، من يخبرهم ببؤسهم مواجهة، بأفعال أو بكلمات، دون أن يكلمهم عنه مباشرة.

لقد بلغوا حدّ التساؤل بغباء لماذا خلق الله العالم، وردوا على أنفسهم: من أجل مجده! وملأهم ذلك بالزهو والرضا، كما لو أن بالغو الحمق يعرفون ما الذي يعنيه مجد الله.

الأشياء وُجدت أولاً، وجاءت علّة وجودها في ما بعد. فليقدموا لي فكرة جديدة، أي فكرة، حول أي شيء، ولسوف يخبرني هذا الشيء بفائدته.

في بعض الأحيان، عندما أعرض مشروعاً ما، شيئاً يبدو لي أنه عليّ فعله، لا أعدم من يسألني: وماذا بعد؟ وعلى هذا النوع من الأسئلة لا وجود إلا لجواب واحد يأتي على شكل سؤال، فعلى سؤال «وماذا بعد؟» لا يمكن الرد إلا بالقول «وماذا قبل؟».

لا وجود لمستقبل. ما من مستقبل أبداً. وهذا الذي يسمونه مستقبلاً هو أحد

twitter @baghdad_library

أكبر الأكاذيب. فالمستقبل الحقيقي هو اليوم. ما الذي سنصير إليه غداً؟ لا وجود للغد! ما الذي نحن عليه اليوم، الآن؟ هذه هي القضية الوحيدة.

أما بشأن اليوم، فجميع هؤلاء البائسين يشعرون بالرضا الكبير لأنهم موجودون اليوم، وهذا الوجود كافٍ لهم. الوجود، مجرد الوجود البحت والخالص، يملأ روحهم بالكامل. فهم لا يشعرون بأن هناك ما هو أكثر من الوجود.

ولكن، أهم موجودون؟ أموجودون حقاً؟ أنا أظن أن لا. لأنهم لو كانوا موجودين، لو كانوا موجودين حقاً، لكانوا تألموا لوجودهم ولما رضوا به. لو أنهم موجودون فعلاً وحقاً في الزمان والمكان، لتألموا لأنهم ليسوا في الخلود واللامتناهي. وهذا الألم، هذا العذاب الذي ليس هو إلا عذاب الرب فينا، في زمانيتنا، هذا الألم الإلهي يجعلهم يحطمون كافة حلقات المنطق البائسة التي يحاولون بها ربط ذكرياتهم الفقيرة بآمالهم البائسة، أوهام ماضيهم بأوهام مستقبلهم.

لماذا يفعل ذلك؟ هل تساءل سانتشو مرة واحدة لماذا يفعل دون كيخوته الأشياء التي كان يفعلها؟

ولنعد إلى الموضوع نفسه، إلى سؤالك، إلى ما يقلقك: أي جنون جماعي يمكن لنا زرعه في أذهان هذه الحشود البائسة؟ وأي هذيان؟

أنت نفسك اقتربت من الحل في إحدى رسائلك التي تلاحقني فيها بالأسئلة. فقد قلت لي في الرسالة: ألا تظن أنه يمكن محاولة القيام بحملة صليبية جديدة؟

حسن، بلى، أظن أنه بالإمكان محاولة القيام بحملة صليبية مقدسة للذهاب من أجل إنقاذ قبر دون كيخوته من سلطة المتشدقين والقساوسة والحلاقين والدوقات والكهنة القانونيين الذين يحتلونه. أظن أنه بالإمكان القيام بحملة صليبية مقدّسة لإنقاذ قبر فارس الجنون من سيطرة نبلاء العقل.

سيدافعون عن اغتصابهم، وهذا طبيعي، وسيحاولون أن يبرهنوا،

بمسوغات كثيرة ومدروسة جيداً، أن حماية القبر وحراسته من مسؤوليتهم. وأنهم يحرسونه كي لا يُبعث الفارس حياً.

الردّ على هذه المسوغات يجب أن يكون بالسباب، بالرجم بالأحجار، بصراخ الألم، بجِزَم حراب. يجب عدم التقارع بالحجة معهم. لأنك إذا ما حاولت مقارعتهم بالحجة العقلية فإنك ضائع لا محالة.

وإذا سألوك، مثلما اعتادوا، بأي حق تطالب بالقبر، فلا تجبهم بشيء، لأنهم سيرون ذلك فيما بعد. فيما بعد...، ربما عندما لا تكون أنت ولا هم موجودين، على الأقل في عالم المظاهر هذا[2]

❖ ولهذه الحملة الصليبية المقدسة مزية كبيرة تجعلها تفوق تلك الحملات الصليبية المقدسة الأخرى التي طلع منها نهار حياة جديدة في هذا العالم القديم. فتلك الحملات الصليبية المتأججة كانت تعرف أين هو قبر المسيح، أين يقال إنه موجود، أما رجال حملاتنا الصليبية فلا يعرفون أين هو قبر دون كيخوته. لا بد من البحث عنه في أثناء القتال لإنقاذه.

❖ جنونك الكيخوتيّ حملك أكثر من مرة إلى التحدث إلي عن الكيخوتية كما لو أنها ديانة جديدة. وفي هذا الشأن عليّ أن أقول لك إن هذه الديانة الجديدة التي تقترحها وتحدثني عنها، إذا ما توصلت إلى النجاح والرواج، سيكون لها تفوقان فريدان يميزانها. أولاهما أننا لسنا متأكدين من أن مؤسسها، نبيّها، دون كيخوته ــ وليس ثربانتس بالطبع ــ، كان رجلاً حقيقياً من لحم وعظم، بل إننا أقرب إلى الشك في أنه كان محض دم. والتفوق الثاني هو أن هذا النبي كان نبياً مضحكاً، كان سخرية الناس ومسخرتهم.

❖ وهذه هي الشجاعة التي نحتاج إليها أكثر من أي شيء آخر: شجاعة مواجهة السخرية. فالسخرية هي السلاح الذي يتحكم به جميع المتشدقين

---

(2) الفقرات التالية المشار إليها بنجمة حذفها أونامونو من الطبعة الثالثة، واختفت كذلك من الطبعات اللاحقة. وقد أعاد مانويل غارثيا بلانكو ضمها إلى طبعة الأعمال الكاملة (طبعة إسثيليثر، مدريد 1966، المجلد الثالث، الصفحات 53 ـ 54) ونحن أيضاً نعيد استنساخها.

twitter @baghdad_library

البائسين والحلاقين والقسس والكهنة القانونيين والدوقات الذين يخفون قبر فارس الجنون. الفارس الذي أضحك العالم بأسره، مع أنه لم يطلق نكتة واحدة قطّ. فقد كانت روحه أكبر كثيراً من أن تولّد دعابات. لقد أضحك الجميع بجديته.

❖ فلتبدأ إذاً يا صديقي بالتحول إلى بيدرو الناسك وادعُ الناس لأن ينضموا إليك، ينضموا إلينا، ولنمضِ جميعنا لإنقاذ هذا القبر الذي لا نعرف مكانه(*)

❖ وسترى هكذا كيف أنه ما إن ينطلق الفيلق المقدس حتى يظهر في السماء نجم جديد، لا يراه إلا رجال الحملة الصليبية، نجم ساطع ورنان، يترنم بنشيد جديد في هذا الليل الطويل الذي يلفنا، وينطلق النجم فور انطلاق فيلق الصليبيين، وعندما ينتصرون في حملتهم الصليبية، أو عندما يلقون حتفهم جميعاً ـ وربما هذه هي الطريقة الوحيدة للانتصار حقاً ـ، يسقط النجم على الأرض، وفي المكان الذي يسقط فيه يكون موقع القبر. القبر موجود حيث يموت الفيلق.

وهناك حيث يوجد القبر، يوجد المهد، يوجد العش. ومن هناك سيعود النجم المشع والرنان للانبثاق في طريقه إلى السماء.

ولا تسألني المزيد يا صديقي العزيز. لأنك عندما تدفعني إلى الكلام عن هذه الأمور تجبرني على أن أُخرج من أعماق روحي الموجوعة من ابتذال السائد الذي يحاصرني من كل الجهات ويثقل عليّ، الموجوعة من لطخات وحل الكذب الذي نتخبط فيه، الموجوعة من خدوش النذالة التي تلفنا، تجبرني على أن أُخرج من أعماق روحي الموجوعة رؤى بلا تعقل، ومفاهيم بلا منطق، الأشياء التي لا أدري أنا نفسي ما الذي تعنيه، ولستُ أريد بأي حال الانشغال بالتحري عنها وتقصيها.

ما الذي تريد قوله بكل هذا؟ ـ تسألني مرة بعد أخرى ـ وأنا أجيبك: أتراني أعرفه؟

لا يا صديقي الطيب، لا! فكثير من خواطر روحي هذه التي أبوح لك بها

(*) *الحملة الصليبية نفسها ستكشف لنا مكانه المقدس.*

لا أدري أنا نفسي ما الذي تعنيه، أو أنني أنا نفسي، على الأقل، من لا أعرف ذلك. هناك أحد في داخلي يمليها عليّ، يخبرني بها. وأنا أطيعه دون أن أتوغل لأرى وجهه أو لأسأله عن اسمه. كل ما أعرفه هو أنني إذا ما رأيت وجهه، وإذا ما أخبرني باسمه، فسوف أموت أنا ليحيا هو.

أشعر بالخجل لأني اختلقت ذات مرة كائنات متخيلة، شخصيات روائية، كي أَضع على شفاههم ما لا أجرو على وضعه على شفتيّ وأجعلهم يقولون على سبيل المزاح ما أشعر أنه جديّ جداً.

أنت تعرفني، أنت، وتعرف جيداً كم أنا بعيد عن تعمد البحث عن مفارقات، وحالات شذوذ، وغرائب، وليفكر بعض الحمقى ما يشاؤون. فأنت وأنا، يا صديقي الطيب، يا صديقي المطلق الوحيد، تبادلنا الحديث على انفراد مرات كثيرة، عن الجنون، وعلقنا على «*براند*» ابسن ذاك، ابن كيركيغارد، وعن أن المجنون هو من يكون وحيداً. واتفقنا على أن أي جنون لا يعود كذلك حين يصير جماعياً، حين يصبح جنون شعبٍ بأسره، وربما الجنس البشري كله. وعندما تتحول هلوسة ما إلى جماعية، فإنها تصبح شعبية، اجتماعية، وتصير شيئاً خارج كل واحد ممن يتقاسمونها. وأنت وأنا متفقان على ضرورة أن تُحمل إلى الحشود، إلى الشعب، أن يُحمل إلى شعبنا الإسباني جنونٌ من أي نوع، جنون أي فرد من أفراده يكون مجنوناً، على أن يكون مجنوناً بالفعل وليس بالمزاح. وأن يكون مجنوناً، وليس غبياً.

أنت وأنا، يا صديقي الطيب، استُثرنا حيال هذا الذي يسمونه هنا تعصباً، والذي هو ـ لسوء الحظ ـ ليس كذلك. لا، لا يمكن أن يكون تعصباً ما ينظمه ويضبطه ويوجهه ويقوده المتشدقون والحلاقون والقسس والكهنة القانونيون والدوقات. ولا يمكن لشيء يحمل بيرقاً بصيغ منطقية، ولا لشيء له برنامج، ولا لشيء يقترح للغد هدفاً يستطيع خطيب أن يعرضه في خطاب منهجي أن يكون تعصباً.

twitter @baghdad_library

في إحدى المرات ـ هل تتذكر؟ ـ رأينا ثمانية أو عشرة شبان يجتمعون ويتبعون واحداً يقول لهم: هلموا لنقوم بعمل رهيب! وهذا ما نتلهف أنا وأنت إليه: أن يلتئم شمل جمع الشعب ويصرخ منطلقاً في مسيرته: هلموا بنا نقوم بعمل رهيب! وإذا ما أوقفهم متشدق، أو حلاق، أو قسيس، أو كاهن قانوني أو دوق ليقول لهم: «لا بأس يا أبنائي! أراكم مفعمين بالبطولة، مترعين بالغضب المقدس؛ ولهذا سأذهب أنا أيضاً معكم. ولكن قبل ذهاب الجميع، وأنا معكم، للقيام بعمل رهيب، ألا ترون أنه علينا أن نتفق على الأمر الرهيب الذي سنفعله؟ أي عمل رهيب سيكون؟» فإذا أوقفهم أحد أولئك الذين ذكرتهم ليقول لهم هذا القول، فعليهم أن يطرحوه أرضاً على الفور ويمروا جميعهم فوقه، يدوسوه، وعندئذ يبدأ العمل الرهيب البطولي.

ألا تعتقد، يا صديقي، أن هناك أرواحاً متوحدة كثيرة يطالبها القلب بالإقدام على عمل رهيب، على شيء يجعلها تنفجر؟ اذهب إذاً وانظر إن كنت تستطيع جمع صفوفها وتشكيل فيلق منها والانطلاق بنا جميعاً ـ لأنني سأذهب معهم وخلفك ـ لاستعادة قبر دون كيخوته الذي لا نعرف، والحمد لله، مكان وجوده. ولسوف يخبرنا بمكانه النجم الساطع والرنان.

ألا يحدث ـ تقول لي في ساعات خمود همتك، عندما تغادر ذاتك ـ ألا يحدث أننا حين ننطلق في مسيرتنا معتقدين أننا نمضي عبر حقول وأراض، إنما ندور حول المكان نفسه؟ وعندئذ يكون النجم ثابتاً، ساكناً فوق رؤوسنا، ويكون القبر فينا بالذات. وعندئذ سيسقط النجم، لكنه سيسقط ليندفن في أرواحنا. وتتحول أرواحنا عندئذ إلى نور، وتذوب كلها في النجم الساطع والرّنان الذي سيعلو أشد سطوعاً مما كان عليه، متحوّلاً إلى شمس، إلى شمس لحنٍ أبدي، تضيء سماء الوطن المفدّى.

فلننطلق إذن. وكن يقظاً لئلا يندس في فيلق الصليبيين المقدس متشدقون وحلاقون وقساوسة وكهنة قانونيين ودوقات متخفين بهيئة سانتشو. ليس مهماً

أن يطلبوا منك جُزُراً، فما عليك عمله أن تطردهم حين يطلبون منك مخططاً لطريق المسيرة، أو حين يحدثونك عن برنامج، حين يسألونك همساً في أذنك، بخبث، أن تخبرهم أين هو القبر. اتبع النجم. وافعل مثلما فعل الفارس: أصلح الاعوجاج الذي يعترض طريقك. فالآن ما للآن وهنا ما لهنا.

انطلقوا في مسيركم! أتسألني إلى أين تذهبون؟ النجم سيخبركم بذلك: إلى القبر! ماذا سنفعل في الطريق ونحن سائرون؟ ماذا؟ سنناضل! سنناضل! وتسأل: كيف؟

كيف؟ أتصادفون شخصاً يكذب؟، اصرخوا في وجهه: كذاب! وواصلوا إلى الأمام! أتلتقون بشخص يسرق؟ اصرخوا به: لص! وواصلوا إلى الأمام! تلتقون بشخص يقول سخافات، بشخص يصغي إليه حشد كامل بأفواه مفتوحة؟ اصرخوا بهم: أغبياء! وإلى الأمام! إلى الأمام دائماً!

وهل بهذا ـ يقول لي شخص أنت تعرفه ويتلهف إلى أن يكون صليبياً ـ، وهل بهذا سيُمحى الكذب، أو السرقة، أو البلاهة من العالم؟ ومن قال لا؟ إن أشد حالات البؤس بؤساً، وأشد ترهات الجبن نتانة وإثارة للاشمئزاز هي هذا القول بأنه لا شيء يتقدم بالتشهير بلص لأن آخرين سيواصلون السرقة، ولا جدوى من القول للأبله في وجهه إنه أبله، لأن ذلك لن يقلل من البلاهة في العالم.

بلى، يجب أن نكرر مرة وألف مرة: بالقضاء مرة، مرة واحدة فقط، قضاء كاملاً وإلى الأبد على مخادع، سيكون في ذلك القضاء على الخداع نهائياً وإلى الأبد.

إلى الأمام إذاً! واستبعد من الفيلق المقدس كل من يبدؤون بدراسة الخطوة التي سيمضون بها في المسيرة، وكيف سيكون إيقاعها ووقعها. واستبعد جانباً بصورة خاصة من ينشغلون طوال الوقت بمسألة الإيقاع تلك! لأنهم سيحولون لك الفيلق إلى فرقة رقص، وسيحولون المسيرة إلى رقصة. أبعدهم خارجاً! فليذهبوا إلى مكان آخر للغناء للجسد.

إن هؤلاء الذين يسعون إلى أن يحولوا لك فيلق المسيرة إلى فرقة رقص،

twitter @baghdad_library

يسمون أنفسهم، ويسمي بعضهم بعضاً: شعراء. إنهم ليسوا كذلك. إنهم أي شيء آخر. وهؤلاء لا يذهبون إلى القبر إلا بدافع الفضول، ليروا كيف هو، وربما للبحث عن حسيّة جديدة، وليستمتعوا في الطريق. فاصرفهم بعيداً!

هؤلاء هم من يساهمون بتساهلهم كبوهيميين في الإبقاء على الجبن والكذب والبؤس الذي يقضي علينا. وعندما يعظون بحريات، لا يفكرون إلا في حرية واحدة: اشتهاء امرأة الغير. كل شيء فيهم حسي، وحتى الأفكار، الأفكار العظيمة، يحبونها بحسيّة. إنهم عاجزون عن الزواج بفكرة عظيمة ونقية وإنشاء أسرة منها. لا يفعلون شيئاً سوى التلهي بالأفكار. يتخذون منها عشيقات، بل أقل من ذلك، ربما خليلات ليلة واحدة. أبعدهم جانباً!

وإذا ما أراد أحد أن يأخذ في الطريق هذه الزهرة أو تلك التي تبتسم بالقرب منه، فليأخذها، لكن بسرعة، دون أن يتوقف، وليلحق بالفيلق الذي يتوجب على قائده ألا يحيد ببصره عن النجم الساطع والرنان. وإذا ما وضع الزهرة على واقية الصدر فوق درعه لا ليراها هو، وإنما ليراها الآخرون، فاستبعده بعيداً! وليذهب وزهرته في العروة ليرقص في مكان آخر.

انظر، يا صديقي، إذا أردت إنجاز مهمتك وخدمة وطنك، فلا بد أنك ستكون مكروهاً من الفتيان الحساسين الذين لا يرون العالم إلا من خلال عيون خطيباتهم. أو ما هو أسوأ من ذلك. ستكون كلماتك صاعقة وحريفة في مسامعهم.

على الفيلق ألا يتوقف إلا في الليل بجانب الغابة أو في كنف الجبل. ينصب هناك خيامه، ويغسل المحاربون أقدامهم، ويتناولون العشاء الذي تعده لهم زوجاتهم، ويزرعون بعد ذلك ابناً فيهن، ثم يُقبّلونهن وينامون ليتابعوا مسيرتهم في اليوم التالي. وعندما يموت أحدهم يتركونه إلى جانب الطريق مكفناً بدرعه، تحت رحمة الغربان. ولتبق للموتى مهمة دفن الموتى.

وإذا حاول أحدهم في المسيرة أن يعزف على مزمار، أو ناي، أو قصبة أو قيثارة، أو أي آله أخرى، حطّم له الآلة الموسيقية واطرده من الصفوف، لأنه

يعكر على الآخرين سماع غناء النجم. فضلاً عن أنه هو لا يسمعه. ومن لا يسمع غناء السماء يجب ألا يذهب للبحث عن قبر الفارس.

سيحدثك هؤلاء المتراقصون عن الشعر. لا تعرهم التفاتاً. ومن سيعزف على محقنته ـ وهي ليست سوى «السيرينغ» ـ تحت السماء، دون أن يسمع موسيقى الكواكب، لا يستحق أن يُستمع إليه. إنه لا يعرف عمق أغوار شعر التعصب، لا يعرف رحابة شعر المعابد الخاوية التي بلا أنوار، بلا زينات مذهبة، بلا صور، بلا أبهة، بلا أسلحة، بلا أي شيء من كل هذا الذي يسمونه فناً. أربعة جدران ملساء وسقف من ألواح خشبية: مجرد عنبر عادي.

اطرد من الفيلق جميع راقصي المحقنة. اطردهم قبل أن ينفضوا من حولك مقابل صحن من اللوبياء. إنهم فلاسفة كلبيون، متساهلون، فتية طيبون، ممن يفهمون في كل شيء ويغفرون كل شيء. ومن يفهم كل شيء لا يفهم شيئاً، ومن يغفر كل شيء لا يغفر شيئاً. ليس لديهم وازعاً يمنعهم من بيع أنفسهم. وبما أنهم يعيشون في عالمين فبإن باستطاعتهم الحفاظ على حريتهم في العالم الآخر والاستعباد في هذا العالم. إنهم جماليون وبيريثيون ولوبيثيون أو رودريغيثيون في آن واحد.

لقد قيل منذ زمن إن الجوع والحب هما نابضا الحياة الإنسانية. الحياة الإنسانية الدنيا، الحياة الأرضية. والراقصون لا يرقصون إلا بدافع الجوع أو الحب، الجوع الجسدي، والحب الجسدي أيضاً. اطردهم من فيلقك، وليُتخموا عندئذ هناك، في أحد المروج، من الرقص بينما أحدهم يعزف على محقنته، وآخر يصفق، وغيره يغني لطبق لوبياء أو لفخذي حبيبته الموسمية. وليبدعوا هناك بهلوانيات جديدة، ضفائر أقدام جديدة، هيئات ريغودون جديدة.

وإذا جاءك أحدهم قائلاً إنه يعرف كيفية مدّ الجسور وإنه ربما تأتي مناسبة يجب عليكم فيها الاستفادة من معارفه من أجل عبور نهر، فاستبعده! استبعد المهندس! لأن الأنهار تُعبر بالخوض فيها أو بالسباحة، حتى لو غرق نصف المحاربين. وليذهب المهندس لبناء جسور في مكان آخر، حيث الحاجة ماسة إليها. لأن الذهاب إلى القبر لا يتطلب سوى الإيمان جسراً.

twitter @baghdad_library

وإذا أردت، يا صديقي الطيب، أن تكمل دعوتك على أفضل وجه، فارتب بالفن، وارتب بالعلم، على الأقل بهذا الذي يسمونه فناً وعلماً، مع أنه ليس سوى تقليد بائس للفن وللعلم الحقيقيين. وحسبك إيمانك. فإيمانك سيكون فنك، وإيمانك سيكون علمك.

لقد خامرتني الشكوك أكثر من مرة في تمكنك من إنجاز عملك حين انتبهتُ إلى الحذر الذي تبديه في كتابة الرسائل التي تكتبها. فقد وجدتُ فيها ـ ليس مرات قليلة ـ شطباً، تعديلات، تصحيحات، ضربات محاقن. إنها ليست تدفقاً ينبثق عنيفاً، مطيحاً بالسدادة. وفي أحيان كثيرة تنحطُّ رسائلك إلى مستوى الأدب، إلى مستوى هذا الأدب القذر، الحليف الطبيعي لكل أشكال العبودية وكل أنواع البؤس. والمستعبدون يعرفون جيداً أنه ما دام العبد يتغنى بالحرية فإنه يواسي نفسه في عبوديته ولا يفكر في تحطيم أغلاله.

ولكنني أستعيد الإيمان والثقة بك في مرات أخرى، حين ألمس تحت كلماتك المتعثرة، المرتجلة، المتنافرة، رعشةَ صوتك المحموم. هناك مناسبات يمكن القول فيها إن لها لغتها المحددة. وإنه يمكن لكل واحد أن يترجمها على طريقته.

اعمل على أن تعيش في دوار عاطفي متواصل، مسكوناً بعاطفة ما. فالعاطفيون وحدهم هم القادرون على إنجاز أعمال لها صفة الديمومة والخصوبة حقاً. عندما تسمع من شخص أنه منزه، بأي معنى من معاني هذه الكلمة البلهاء، فاهرب منه، وخاصة إذا كان فناناً. لأنه مثلما يحدث أن أشد الرجال جنوناً في العالم هو الذي لم يُقدم على عمل جنوني واحد في حياته، فإن الفنان الأقل شاعرية، الأكثر مناهضة للشعر ـ وتكثر بين الفنانين الطبائع المناهضة للشعر ـ هو الفنان المنزه، الفنان الذي يُكلله راقصو المحقنة بإكليل الغار، إكليل الكرتون، إكليل التنزه.

تُضنيك، يا صديقي المسكين، حمى متواصلة، ظمأ محيطات بعيدة الغور وبلا ضفاف، جوع أكوان، اشتياق حزين إلى الخلود. إنك تعاني من العقل. ولا تعرف ماذا تريد. والآن، تريد الآن أن تذهب إلى قبر فارس الجنون وأن تنفجر

هناك بالدموع، وتستنفد نفسك بالحمّى، تموت بالظمأ إلى المحيطات، بالجوع إلى الأكوان، وباشتياق الحزين إلى الخلود.

انطلق في مسيرتك وحيداً. وسيمضي جميع المتوحدين الآخرين إلى جانبك، حتى لو لم ترهم. سيظن كل واحد أنه يمضي وحيداً، ولكنكم ستشكلون كتيبة مقدسة: كتيبة الحرب الصليبية المقدسة التي بلا نهاية.

أنت لا تعرف جيداً، يا صديقي الطيب، كيف أن المتوحدين جميعهم، دون أن يعرف بعضهم بعضاً، دون أن ينظروا إلى وجوه بعضهم البعض، دون أن يعرفوا أسماء بعضهم بعضاً، يتصافحون، يتبادلون التهاني في ما بينهم، يراقبون بعضهم بعضاً، يتبادلون الذمّ والتنديد، يتهامسون، ويمضي كل منهم في سبيله. ويهربون من القبر.

أنت لا تنتمي إلى حظيرة المتسكعين، وإنما إلى كتيبة المحاربين الأحرار. لماذا تطل على سياج الحظيرة لتسمع ما يقوقون به هناك؟ لا يا صديقي، لا! أغلق أذنيك كلما مررت بحظيرة. سدّ أذنيك، قل كلمتك وواصل قُدماً، نحو القبر. وليهتز في كلمتك هذه ظمأك كله، جوعك كله، اشتياقك كله، حبك كله.

إذا أردت أن تعيش عليهم، فلتعش من أجلهم. ولكنك ستكون عندئذ قد مت وانتهيت يا صديقي المسكين.

إنني أتذكر تلك الرسالة المؤلمة التي كتبتها لي عندما كنت على وشك الانهزام والرضوخ، على وشك المخالفة، على وشك الدخول في جمعية الأخوة. لقد رأيت حينذاك كيف كانت وحدتك تثقل عليك، هذه الوحدة التي يجب أن تكون عزاء ومناعة لك.

لقد بلغتَ أقصى حالات الرهبة، أشدها تدميراً، بلغت حافة هاوية ضياعك: بلغت حدّ الشك بوحدتك، بلغت حدّ الاعتقاد بأنك مصحوب برفقة. «ألا يكون ـ كنت تقول لي ـ محض تأمل وثمرة غطرسة وزهو، ألا يكون جنوناً ربما هذا الاعتقاد بأنني وحيد؟ لأنني حين أهدأ، أرى نفسي مصحوبا برفقةٍ، وأتلقى مصافحات أيد حميمة، وأصواتاً مشجعة، وكلمات تعاطف،

twitter @baghdad_library

وكل أنواع الأدلة على أنني لست وحيداً، ولا بأي حال». وهكذا ستواصل. لقد رأيتك مخدوعاً وضائعاً، رأيتك تهرب مبتعداً عن القبر.

لا، لا تنخدع في احتدام نوبات الحمّى عليك، في احتضارات عطشك، في كروب جوعك. إنك وحيد.. وحيد إلى الأبد. ليست عضات وحسب تلك العضات التي تشعر بأنها عضات، إنها كذلك مثل تلك التي تشعر بها كأنها قبلات. يصفّر لك مستهزئين من يصفقون، يريد وقف مسيرتك إلى القبر من يصرخون: «إلى الأمام!» أغلق أذنيك. وقبل كل شيء عالج نفسك من داء رهيب، من داء مهما نفضته عنك، يعود إليك بعناد ذبابة: عالج نفسك من داء الاهتمام بكيف تبدو للآخرين. واهتم فقط بكيف تبدو أمام الرب، اهتم بالفكرة التي يكونها الرب عنك.

إنك وحيد، أكثر وحدة بكثير مما تتصور، ولستَ مع ذلك إلا في الطريق إلى الوحدة المطلقة، الكاملة والحقيقية. فالوحدة المطلقة والكاملة والحقيقية تتمثل في ألا تكون حتى مع نفسك بالذات. ولن تكون وحيداً بالكامل والمطلق حقاً ما لم تتخلص من ذاتك، عند حافة القبر. الوحدة مقدسة!

قلتُ هذا كله لصديقي وردّ عليّ برسالة طويلة مترعة بيأس غاضب، كهذه الكلمات.

«كل هذا الذي قلته لي جيد جداً، إنه جيد، ليس سيئاً. ولكن، ألا ترى أنه بدل الذهاب للبحث عن قبر دون كيخوته وإنقاذه من المتشدقين، والقسس، والحلاقين، والكهنة القانونيين، والدوقات، ربما يكون علينا أن نذهب للبحث عن قبر الرب واسترجاعه من المؤمنين والكافرين، من الملحدين وأنصاف المؤمنين الذين يحتلونه، وأن ننتظر مطلقين صرخات أقصى اليأس، وذارفين القلب دموعاً، من أجل أن ينبعث الرب وينقذنا من العدم؟»

twitter @baghdad_library

مقدمة أونامونو

للطبعة الثانية

ظهر هذا العمل في طبعته الأولى في العام 1905، متوافقاً بالمصادفة وليس عمداً مع الاحتفال بالذكرى المئوية الثالثة لطباعة *الكيخوته* أول مرة. لم يكن إذاً عملاً بمناسبة الذكرى المئوية.

وقد خرجت الطبعة الأولى ممتلئة، بسببي، ليس فقط بأخطاء مطبعية، وإنما كذلك بأخطاء الإهمال في المخطوط الأصلي، وقد سعيتُ إلى تصحيح ذلك كله في هذه الطبعة الثانية.

فكرتُ للحظة في أن أستبقه بمقالة «حول قراءة *الكيخوته* وتأويله» الذي نشرته في العام 1905 نفسه، في عدد نيسان من مجلة *إسبانيا الحديثة*، ولكنني تخليت عن ذلك نظراً لأن هذا العمل بمجمله ليس إلا تنفيذاً للبرنامج المعروض في تلك المقالة.

للطبعة الثالثة

هذه الطبعة - وهي الثالثة - لكتابي *حياة دون كيخوته وسانتشو* الذي يشكل جزءاً من *أعمالي الكاملة*، لا تختلف في شيء عن الطبعة الثانية التي صُححت فيها، ليس الأخطاء المطبعية الكثيرة وحسب، وإنما أخطاء الأصل، بنات تسرعي المرتجل التي كانت تشوه الطبعة الأولى الصادرة عام 1905 - منذ ثلاثة وعشرين عاماً - متوافقة، مصادفة وليس تعمداً، مع الاحتفال بالذكرى المئوية الثالثة لصدور كتاب *دون كيخوته*، ذلك أنني لم أتعمد تأليف كتاب خاص بالذكرى المئوية.

وبينما أنا أصحح هنا، في منفاي الحدودي[1]، التجارب المطبعية لهذه الطبعة الجديدة، شعرت أكثر من مرة بإغراء أن أضيف شيئاً إلى النص أو تعديله، ولكنني امتنعت عن ذلك مفكراً في أن أي إضافة أو تعديل سيجد مكاناً أفضل له في مؤلفٍ آخر. إنها إضافات وتعديلات أوحت بها تجربتي الكيخوتية لأربع سنوات من النفي من إسبانياي المسكينة المستعبدة. فعند مراجعتي، على نحو خاص، تعليقي على مغامرة تحرير السجناء المحكوم عليهم بالتجديف، فكرت في إضافة بعض الفقرات أشرح فيها كيف رجم السجناء دون كيخوته لأن ما يريدونه ليس فك قيودهم، وإنما إضافة قيود أخرى إليها بجعلهم رؤساء زُمَرٍ في جمعية الأخوة المقدسة، وهو ما أشار به عليّ في أتينيو مدريد بعض الشبان الذين يقولون إنهم من الأقلية المصطفاة.

في هذه الأثناء صدرت أربع ترجمات لكتابي هذا: اثنتان بالإيطالية، وواحدة بالألمانية، وأخرى بالإنكليزية. والحقيقة أن صاحب هذه الترجمة الأخيرة والرائعة، البروفيسور هومر ب. إرل، من جامعة كاليفورنيا، تفضل بلفت انتباهي إلى أنني أضع في إحدى الفقرات على لسان سانتشو كلمات ترد في نص ثربانتس على لسان شمشوم كاراسكو، وسؤالي إن كان عليه أن يعدل المقطع المذكور أو يحذفه أو يضيف ملاحظة كحماية مسبقة من لوم النقد المتبحر. وكان يمكن لي أن أحيله إلى دراستي ***حول قراءة الكيخوته وتأويله***، المنشورة أول مرة في عدد شهر نيسان 1905 من مجلة «**إسبانيا الحديثة**»، حيث بينت بوضوح نيتي وروحي التعليقية ـ الصوفيون علقوا بطريقة مماثلة على الكتابات المسيحية المقدسة ـ وأن أقول له إنني أترك للعلماء والنقاد الأدبيين والباحثين التاريخيين المهمة الجديرة والمفيدة جداً في التحري عما كان يمكن لكتاب ***الكيخوته*** أن يعنيه في زمانه، وفي الجو الذي أُنتج فيه، وما أراد ثربانتس التعبير عنه فيه وعبر عنه. ولكنني فضلّت أن أقدم إليه تفسيراً آخر، وهو التالي:

---

[1] كان أونامونو منفياً آنذاك في مدينة هندايا على الحدود الفرنسية الإسبانية.

twitter @baghdad_library

في مقدمة كتاب ***دون كيخوته*** ـ وهي مثل جميع مقدمات الكتب تقريباً (بما فيها هذه المقدمة) تكاد لا تكون سوى محض صياغة أدبية ـ كشف لنا ثربانتس أنه عثر على قصة مآثر حياة الفارس ذي الهيئة الحزينة في أوراق تعود للمدعو سيدي حامد بن إينخيلي، وهو كشف عميق يبين لنا فيه ثربانتس الطيب ـ والطيب جداً! ـ، ما يمكننا تسميته موضوعية، ووجود ـ ***الوجود*** يعني الكينونة خارجاً ـ دون كيخوته وسانتشو وجوقتهما كلها خارج تخييل الروائي وفوقه. وأنا من جهتي أظن أن ذلك المدعو سيدي حامد بن إينخيلي لم يكن عربياً وإنما هو يهودي، ويهودي مراكشي، وأنه لم يختلق القصة أيضاً. وعلى كل حال أنا أملك نص سيدي حامد بن إينخيلي بالعربية، أملكه وإن كنت قد نسيت كل قليل اللغة العربية الذي علمني إياه السيد كوديرا في جامعة مدريد ـ وقد منحني الجائزة في هذه المادة! ـ ولكنني أقرأ النص بسهولة وقد رأيتُ فيه بشأن الفقرة التي يشير إليها البروفيسور إرل، أن ثربانتس هو الذي أخطأ، وأن تفسيري وتعليقي، وليس تفسيره، هو الأمين. وبهذا أظن أنني بمنجى من أي انتقاد مهني أو أستاذي.

ولست أظن أنه يجب عليّ أن أطيل أكثر هنا، في هذه المقدمة، لأعرض نظرية طالما عرضتها من قبل بخصوص الحقيقة التاريخية، ولاسيما أنني أعدّ كتاباً حول الكيخوتية، سأسعى فيه لتوضيح الاختلاف بين أفعال (الكون والكينونة والوجود). وكيف أن دون كيخوته وسانتشو مستقلان ـ ولم يكونا مستقلين وحسب ـ عن تخييل ثربانتس الشعري الذي ظننت أنني منحته الحياة كي أمنحه الموت بعد ذلك، خلافاً لما كان، وبحق، يحتج عليه.

في منفاي بهندايا، وفي مسقط رأسي بلاد الباسك على حدود إسبانياي، في أيار 1928.

ميغيل دي أونامونو

للطبعة الرابعة

ليس لدي ما أضيفه إلى مقدمة الطبعة الثالثة وأنا أصحح التجارب الطباعية للطبعة الرابعة.

م. دي أو.

سلمنكا آخر كانون الأول 1930

twitter @baghdad_library

الفصل الأول

[وفيه أحوال النبيل الشهير دون كيخوته دي لامنتشا وممارسته]

لا شيء لدينا عن ولادة دون كيخوته، ولا شيء عن طفولته وشبابه، ولا كيف تشكلت نفس فارس الإيمان التي جعلتنا عقلاء بجنونه. إننا لا نعرف شيئاً عن أبويه وسلالته ونسله، ولا كيف استقرت في روحه رؤى سهول المنتشا الهادئة التي اعتاد الصيد فيها، ولا نعرف شيئاً عن الأثر الذي خلّفه في روحه تأملُ حقول القمح المرقشة ببقع من شقائق النعمان والقرنفل البري، ولا نعرف شيئاً عن شبابه.

لقد طوى النسيان كل ذكر لنسبه ومولده وطفولته وشبابه، ولم تحفظه لنا التقاليد الشفوية ولا أي شهادة خطية، وإن كان ثمة شهادة من هذا النوع، فقد ضاعت أو أنها تقبع تحت غبار دهري. ولا نعرف إن كان قد أظهر أدلة على روحه الباسلة والبطولية منذ طفولته المبكرة، كما هي حال أولئك القديسين بالولادة الذين يمتنعون منذ ولادتهم عن الرضاعة أيام الجمعة وأيام الصيام، في فعل تقشف وقهر للنفس، ولتقديم المثل الصالح.

وبشأن نسبه، صرح هو نفسه لسَنتشو حين تبادل الحديث معه بعد ظفره بخوذة مَمبرينو، بأنه إذا كان صحيحاً أنه «نبيل من بيت معروف، لي عقار وأملاك وأتقاضى خمسمئة سويلدو» إلا أنه لا يتحدر من ملوك، وإن يكن، مع ذلك، بإمكان الحكيم الذي سيكتب تاريخه أن يرتب بطريقة ما قرابته وتحدره ليكون حفيداً من الجيل الخامس أو السادس لأحد الملوك. وليس هناك عملياً من لا يتحدر، على المدى الطويل، من ملوك، ومن ملوك مخلوعين. أما هو فكان من سلالات كائنة ولم تكن. لأن سلالته تبدأ به.

ويبدو غريباً، مع ذلك، كيف أن الباحثين المدققين الذين عكفوا بجد على التحري عن حياة ومعجزات فارسنا، لم يتوصلوا بعد إلى تقصي آثار ذلك

النسب، وبخاصة الآن حيث تُعزى أهمية كبيرة في قَدَر الإنسان لمسألة إرثه هذه. ويجب ألا نُفاجأ بأن ثربانتس لم يفعل ذلك، لأنه كان يعتقد، في نهاية المطاف، أن كل شخص هو ابن أعماله وأنه يأخذ بالتشكل حسب عيشه وعمله. ولكنني أُصدم بعدم توصل محققي التفتيش هؤلاء الذين يعمدون من أجل تفسير عبقرية بطل إلى اشتمام ما إذا كان أبوه مصاباً بالنقرس أو مزكوماً أو أعور، ولا أجد له تفسيراً إلا بافتراض أنهم يعيشون الاعتقاد المفرح بقدر ما هو مقيت، بأن دون كيخوته ليس إلا كائناً متخيلاً ووهمياً، كما لو أنه بإمكان المخيلة البشري توليد مثل هذه الشخصية المدهشة.

يظهر لنا النبيل وهو يقارب الخمسين من عمره، في مكان ما من المنتشا، حيث يعيش ببؤس على «قِدر يطهو فيه من لحم البقر أكثر من لحم الضَأن، ولحم مخلل في معظم الليالي، وعجة الشحم والبيض أيام السبت، والعدس ليوم الجمعة، وربما فرخ حمام إضافي أيام الآحاد»، وكان ذلك كله يستهلك «ثلاثة أرباع دخله»، وينفق ما تبقى لشراء «صدرية من جوخ رخيص، وسروال من المخمل مع خفين من القماش نفسه لأيام الأعياد، أما بقية أيام الأسبوع... فثوب من قماش قطني». فعلى طعام معتدل يذهب ثلاثة أرباع دخله، ويذهب الباقي على لباس متواضع. إنه نبيل فقير إذاً، وربما هو نبيل تقتير، ولكنه نبيل ممن يتنكبون رمحاً.

كان نبيلاً فقيراً، ولكنه ابن خيرات على الرغم من ذلك، لأنه كما يقول معاصره الدكتور دون خوان هوارتي، في الفصل السادس عشر من كتابة *امتحان العباقرة*: «يقول قانون تقسيم المراتب إن النبيل يعني ابن الخيرات، فإذا فهم بها الخيرات الدنيوية، فلا حق في ذلك، لأن هناك ما لا حصر له من النبلاء، أما إذا كان يراد بابن الخيرات ما نسميه الفضيلة، فسيكون له المعنى الذي أوردناه». وألونسو كيخانو كان ابن طيبة.

على فقر نبيلنا هذا ترتكز معظم شؤون حياته، بالطريقة نفسها التي ينبثق فيها من فقر شعبه ينبوع رذائله ومعها فضائله أيضاً. والأرض التي تغذي دون كيخوته هي أرض فقيرة، معراة ومسلوخة تماماً بوابل أمطار العصور، تظهر

twitter @baghdad_library

أحشاؤها الصّوانية على السطح في كل مكان. وتكفي رؤية أنهارها في الشتاء تندفع محصورة لمسافات طويلة في شروخ وأودية ومضايق، حاملة إلى البحر في مياهها الموحلة غطاء الطمي الغني الذي كان سيمنح الأرض خضرتها. وفقر الأرض هذا جعل ساكنيها رُحلاً متنقلين، عليهم أن يذهبوا بحثاً عن الخبز في أراض بعيدة، أو أن يسوقوا الأغنام التي يعيشون عليها من مرعى إلى مرعى. ولا بد أن نبيلنا كان يرى، عاماً بعد عام، مرور الرعاة مع أغنامهم، بلا مسكن ثابت، يرتحلون على بركة الله، وربما حلم ذات مرة حين رأى ذلك، بأن يرى أراضي جديدة ويجوب عالماً.

كان فقيراً، «مجدول الخلق، جاف اللحم، أعجف الوجه، شديد البكور، مولعاً بالصيد». يستخلص من ذلك أنه كان غضوب المزاج، تغلب عليه الحرارة والجفاء، ومن يقرأ كتاب ***امتحان العباقرة*** سابق الذكر الذي ألفه الدكتور دون خوان هوارتي، وأهداه إلى جلالة الملك دون فيليبه الثاني، سيرى كيف ينطبق تماماً على دون كيخوته ما يقوله الفيزيائي العبقري عن ذوي المزاج الحامي والجاف. ومن هذا المزاج نفسه كان أيضاً فارس يسوع المدعو اينيغو دي لويولا الذي سيكون لدينا الكثير مما نقوله عنه هنا، والذي يقول لنا عنه الأب بيدرو دي ريبادنيرا(*) في [قصة] *حياة* التي ألفها عنه، وفي الفصل الخامس من الكتاب الخامس منها، إنه كان حار الطبع، شديد الغضب، ومع أنه تغلب على الغضب فيما بعد، إلا أنه ظل يحتفظ «بالهمة والحيوية التي يوفرها الغضب، والضرورية لتحقيق الأمور التي تهمه». ومن الطبيعي أن يكون للويولا مزاج دون كيخوته نفسه، لأنه كان قائد ميليشيا دينية وفنه هو الفن العسكري. وحتى في أدنى التفاصيل، كان يُشار إلى ما سيصير إليه، لأن مؤرخه، الأب المذكور، حين يكشف عن قامة جسده وتناسقه في الفصل الثامن عشر من الكتاب الرابع،

(*) أسميه أباً تمشياً مع المألوف، بمعنى سوء الاستعمال الشائع في مثل هذه الحالات، رغم أنني أعلم أن يسوع قد قال: لا تسموا نفسكم آباء على الأرض، لأن أباكم واحد: إنه في السماء (إنجيل متى، 23 ص 9).

يقول لنا إن له جبهة عريضة بلا تجعدات وصلعة مهيبة المظهر. وهو ما يتوافق مع العلامة الرابعة التي يضعها الدكتور هوارتي لمعرفة من لديه نبوغ عسكري، وذلك بامتلاك رأس أصلع، و«السبب واضح جداً» كما يقول، ثم يضيف: «لأن هذا التميز بسعة المخيلة يكمن في الجزء الأمامي من الرأس، مثلما هي المميزات الأخرى، وشدة الحر تحرق جلدة الرأس وتغلق الدروب التي يجب مرور الشعر منها، فضلاً عن أن المادة التي يتولد منها، كما يقول الأطباء، هي الفضلات التي يطرحها الدماغ حين يتغذى، ولشدة النار الموجودة هناك، تُستنفد تلك الفضلات كلها وتُستهلك ولا يتبقى شيء من المادة التي تولّد الشّعر». وبهذا أستنتجُ، وإن لم يقل لنا ذلك مؤرخ دون كيخوته الدقيق، أن دون كيخوته كانت له جبهة عريضة واسعة، بلا تجاعيد، وأنه كان أصلع فوق ذلك.

وكان دون كيخوته مغرماً بالصيد، وبممارسته يُكتسب دهاء الحرب وخدعها، ولا بد أنه بهذه الطريقة طارد الأرانب والحجل، وجاب تلك المناطق، ولا بد أنه جابها وحيداً ومستنزفاً تحت سماء المنتشا الصافية التي لا تشوبها شائبة.

كان فقيراً وبطالاً، عاطلاً طوال معظم السنة. وليس هناك في الدنيا ما هو أكثر عبقرية من الفقر في البطالة. فالفقر يحبب إليه الحياة، ويبعده عن أي تخمة ويغذيه بالآمال، ولابد أن البطالة جعلته يفكر في الحياة اللامتناهية، في الحياة الباعثة على التشوش. كم مرة لم يحلم وهو في جولات صيده الصباحية بأن اسمه سينتشر بوضوح في تلك السهوب المفتوحة ويلف البيوت كلها ويدّوي على اتساع الأرض والعصور! ومن أحلام الطموح رعى بطالته وفقره، وفي انصرافه عن هبة الحياة، تاق إلى خلود لا ينتهي.

في تلك الأربعين سنة ونيف التي يلفها الغموض من حياته، لأن تلك الحياة كانت تقترب من الخمسين حين بدأ نبيلنا أعمال خلوده، في تلك الأربعين سنة ونيف، ما الذي يمكن أن يكون قد فعله ما خلا الصيد وإدارة ممتلكاته؟ وبأية تأملات غذي روحه في الساعات الطويلة لحياته البطيئة؟ لأنه كان تأملياً، على

twitter @baghdad_library

اعتبار أن التأمليين وحدهم هم من يكرّسون أنفسهم لمهمة مثل مهمته.

ولا بد من الانتباه إلى أنه لم يقتحم العالم ويُقدِم على مهمته الفادية إلا وهو على مشارف الخمسين، في مرحلة اكتمال نضج حياته. فجنونه لم يتفتح إذاً إلا بعد أن نضج رشده وطيبته جيداً. لم يكن فتى يندفع بجنون وبلاهة إلى عمل يجهله، بل كان رجلاً عاقلاً وحكيماً يجن بنضج روحٍ مكتمل.

إن البطالة [وحب مشؤوم سأتحدث عنه فيما بعد]، حملاه إلى الإنكباب على قراءة كتب الفروسية «بمتعة ونهم كادا ينسيانه ممارسة الصيد، وحتى إدارة أملاكه»، حتى إنه «باع الكثير من الأرض والزرع ليشتري كتب فروسية». فليس بالخبز وحده يحيا الإنسان. وعلق قلبه ببطولات ومآثر أولئك الفرسان المجدين الذين بتخليهم عن الحياة العابرة، تطلعوا إلى المجد الذي يبقى. وقد كان التطلع إلى المجد هو الدافع في عملهم.

«وهكذا، لقلة النوم وكثرة القراءة جف دماغه وراح يفقد العقل». وبشأن جفاف الدماغ، فإن الدكتور هوارتي، الذي تحدثتُ عنه، يقول لنا في الفصل الأول من كتابه إن الفهم يتطلب «أن يكون الدماغ جافاً ومكوناً من أجزاء خفيفة ورقيقة جداً»، أما بشأن فقدان العقل، فإنه يحدثنا عن ديموكريتو أبديرتا «الذي بلغ من حدة الفهم في الشيخوخة ما أفقده ملكة التخيل، فصار يقوم بأفعال ويقول أقوالاً وأحكاماً بعيدة عن الضوابط، مما جعل مدينة أبديرا بأسرها تعتبره مجنوناً»، ولكن عندما ذهب أبقراط لرؤيته ومعالجته وجد أنه «أوسع الرجال حكمة في العالم» وأن المجانين والمعتوهين هم الذين حملوه على الذهاب لمعالجته. وقد كانت سعادة ديموكريتو ـ يضيف الدكتور هوارتي ـ في أن كل ما تحدث به مع أبقراط «في ذلك الوقت القصير كانت أقوالاً صادرة عن العقل وليس عن المخيلة، حيث يكمن العطب»، وهو ما يتبدى كذلك في حياة الكيخوته عند سماع كلامه الصادر عن العقل، حيث يتبين الجميع أنه رجل رصين وحكيم جداً، ولكن عند الوصول إلى المخيلة، حيث يكمن العطب، يُعجب الجميع بجنونه، وهو جنون مثير للعجب حقاً.

«راح يفقد عقله». ولحسن حظنا أنه فقده، ليترك لنا نموذجاً أبدياً من الكرم الروحي. أيمكن له، لو كان عاقلاً، أن يكون بهذه البطولة؟ لقد قدم أعظم تضحية في سبيل شعبه: التضحية بعقله. لقد ملأته التخيلات بمغالطات هذيانية جميلة، وظن أن الحقيقة موجودة في ما هو جميل وحسب. وآمن بذلك إيماناً حياً، إيماناً مولّداً لأعمال، حتى إنه صمم على أن يطبق عملياً ما يُظهره له هذيانه، وبمجرد إيمانه به حوّله إلى حقيقة. «وبالفعل، وبعد أن فقد عقله، استبدت به أشد الأفكار غرابة، ومما لم يتوصل إليه مجنون في العالم قطّ، فكان أن بدا له أنه من الملائم، وحتى من الضروري، سواء لزيادة شرفه أو لخدمة موطنه، أن يصير فارساً جوالاً، وأن يجوب العالم كله، بسلاحه وحصانه، بحثاً عن المغامرات، وأن يمارس بنفسه كل ما قرأ أن الفرسان الجوالين يمارسونه، فيقضي على كل أنواع الإساءات، ويعرض نفسه لمحن ومخاطر، حيث ينال، بتغلبه عليها، خلود الاسم والسمعة». وفي خلود الاسم والسمعة هذا تكمن عظمة مشروعه، وفيه تكمن زيادة شرفه أولاً وخدمة موطنه تالياً. وماذا كان شرفه؟ ما هو ذلك الشرف الذي كانت تغص به إسبانيا آنذاك؟ أهو شيء أكثر من توسع الشخصية في المكان وتمددها في الزمان؟ أهو أكثر من تحوّلنا إلى التقاليد لنحيا فيها، ولا نموت بذلك نهائياً؟ يمكن لذلك أن يبدو أنانية، وأن يكون من الأنبل والأنقى السعي إلى خدمة الموطن أولاً، إن لم يكن سعياً إلى ملكوت الرب وعدالته فقط، فسعياً في سبيل حب الخير نفسه، ولكن حتى الأجسام لا يمكن لها إلا السقوط على الأرض، هذا هو قانونها، ولا يمكن للأرواح إلا أن تخضع لقانون الجاذبية الروحية، لقانون حب الذات والرغبة في الشرف. يقول الفيزيائيون إن قانون السقوط هو قانون الجاذبية المتبادلة، تجاذب متبادل بين الحجر الذي يسقط على الأرض، والأرض التي يسقط عليها، مع مراعاة كتلة كل منهما. وهكذا هو التجاذب متبادل أيضاً بين الرب والإنسان. فإذا كان يجذبنا إليه جذباً لانهائياً، فإننا نحن أيضاً ننجذب عنه. مجده يتحمل القوة. وهو يعني لنا، قبل كل شيء وفوق كل شيء، المُنتِج الأبدي للخلود.

twitter @baghdad_library

لم يسعَ النبيل المسكين والساذج إلى منفعة عابرة أو إلى متعة جسدية، بل أراد خلود الاسم والشهرة، مقدماً بذلك اسمه على ذاته. لقد أخضع نفسه لفكرته، أخضعها لدون كيخوته الأبدي، للذاكرة التي ستبقى عنه. «من يفقد روحه يكسبها» ـ قال يسوع ـ، وهذا يعني أنه يكسب روحه الضائعة وليس شيئاً آخر. وقد أضاع ألونسو كيخانو العقل ليكسبه في دون كيخوته عقلاً مُمَجداً.

«كان يُخيل إلى المسكين أنه قد تُوج، بقوة ساعده، على إمبراطورية ترابيسوندا على الأقل، وسارع لوضع أمنيته موضع التنفيذ.» لم يكن تأملياً وحسب، وإنما انتقل من الحلم إلى تحقيق ما حلم به. «فكان أول شيء عمله هو أن نظّف أسلحةً كانت لأجداده»، فهو يخرج ليناضل في عالم مجهول بالنسبة إليه، بأسلحة موروثة «ظلت قابعة ومنسية في أحد الأركان منذ قرون طويلة». ولكنه، قبل أن يخرج، نظّف تلك الأسلحة.

«التي كان صدأ السلام قد أتى عليها»

(كامونس Camoens: Os Lusiadas IV, 22 : اوس لوسياداس 4 : 22)[1]

وتدبر أمره بخوذة من ورق مقوى، وكل تلك الأشياء الأخرى التي تعرفون كيف اختبرها ولم يشأ إعادة الاختبار، مبرهناً بذلك كم هو جنونه حكيم. «وذهب بعد ذلك بحثاً عن حصانه» فأعظمه بعيني الإيمان وأطلق عليه اسماً. ثم بعد ذلك بحث لنفسه عن اسم جديد، يتناسب مع تجدده الداخلي، فسمى نفسه **دون كيخوته**، وبهذا الاسم حقق خلود الشهرة. وقد أحسن صنعاً باستبدال اسمه، لأنه توصل باسمه الجديد إلى أن يصبح نبيلاً حقاً، هذا إذا استندنا إلى ما ذهب إليه ألدكتور هوارتي سابق الذكر الذي يقول لنا في كتابه المذكور سابقاً: «الإسباني الذي ابتكر تسمية تلك المرتبة من النبالة (إيخودالغو / hijodalgo)،

---

[1] لويس باز كامونس Luis Vaz Camoens: شاعر برتغالي (1524- 1580)، حملته حياته المغامرة إلى القتال في أفريقيا، حيث فقد إحدى عينيه، وشارك في حملة استطلاعية إلى الهند، أوحت له بقصيدته الملحمية الخالدة «لوسياداس» المهداة إلى أمجاد فاسكو دي غاما والشعب البرتغالي.

قد أظهر بوضوح... أن للناس نوعين من الولادة. إحداهما هي الطبيعية، وفيها نتساوى جميعنا، والأخرى هي الروحية. فعندما يقوم الإنسان بعمل بطولي أو يحقق مأثرة وفضيلة غريبة، فإنه يولد عندئذ من جديد ويكتسب آباء آخرين أفضل، ويفقد الكائن الذي كانه من قبل. فبالأمس كان يدعى ابن بيدرو حفيد سانتشو، وصار الآن ابن أعماله. ومن هنا منشأ المثل القشتالي القائل: كل امرئ هو ابن أعماله. ولأن الكتابات المقدسة تطلق على الأعمال الصالحة والفاضلة تسمية "شيء"، وعلى الرذيلة والخطايا تسمية "عدم/لا شيء"، فقد صاغ هذه الكلمة "ايخودالغو" التي صارت تعني سليل من حقق فضيلة ما...» وهكذا فدون كيخوته هو سليل نفسه، ولد روحياً عندما قرر الخروج بحثاً عن مغامرات، واتخذ لنفسه اسماً جديداً على حساب ما ينوي تحقيقه من مآثر.

ثم بحث الفارس بعد ذلك عن سيدة يعشقها. فوجدها في ألدونثا لورينثو «فتاة فلاحة مليحة المظهر، أحبها حيناً من الزمن، وإن كانت هي، كما يبدو، لم تعلم بذلك ولم تلحظه قطّ»، فجسدت له المجد، وسماها دولثينيا دل توبوسو.

الفصل الثاني
[في أول خَرجة قام بها دون كيخوته من موطنه]

«وهكذا، دون أن يخبر أحداً بنواياه ودون أن يراه أحد، قام ذات صباح، قبل طلوع النهار، فتقلد أسلحته، وامتطى صهوة روثينانته... ومن باب خلفي لحظيرة دجاج، خرج إلى الحقول، وكان فرحه وابتهاجه عظيماً حين رأى السهولة التي كانت البدء في تنفيذ رغبته الطيبة». هكذا، وحيداً، دون أن يراه أحد، ومن باب خلفي في حظيرة، كمن هو ذاهب لعمل شيء محظور، انطلق في العالم. يا له من نموذج فريد في التواضع! والمسألة هي أن خروج المرء من أي

twitter @baghdad_library

باب هو خروج إلى العالم، وعندما يتصدى أحدهم لمأثرة عظيمة لا يتوجب عليه أن يولي اهتماماً للباب الذي سيخرج منه.

ولكنه سرعان ما انتبه إلى أنه فارس غير مُكرّس، ولأنه خاضع للتقاليد دوماً فقد «قرر أن يُسلَّح فارساً على يد أول شخص يصادفه». لأنه لم يخرج إلى العالم لمخالفة أي نظام، وإنما لفرض تطبيق أنظمة الفروسية والعدالة.

ألا يذكركم هذا الخروج بخروج ذلك الفارس الآخر، من ميليشيا يسوع، المدعو إنييغو دي لويولا، الذي سعى في صباه إلى «أن يتفوق على جميع أترابه ويصيب شهرة رجل شجاع، وشرفاً ومجداً عسكريين»، وحتى في بداية تحوله إلى الهداية، حين كان يستعد للذهاب إلى إيطاليا، وكان «معذباً بغواية المجد والعظمة»، وقد كان، قبل تحوله «شديد الفضول ومحباً لمطالعة كتب الفروسية الدنيوية»، وعندما قرأ، بعد إصابته بالجراح في بامبلونا، سيرة حياة يسوع وسير القديسين، وبدأ «قلبه يتبدل وصار راغباً في محاكاة ما يقرأه والعمل بمقتضاه»؟ وهكذا، في ذات صباح، ودون أن ينجز أشياء عظيمة وشديدة الصعوبة... وليس ذلك لأي سبب آخر إلا لأن القديسين الذين اتخذهم نموذجاً وقدوة قد سلكوا ذلك الطريق. هذا ما يرويه لنا الأب بيدرو ريبادينيرا في الفصول الأول والثاني والعاشر من الكتاب الأول في مؤلفه ***حياة الطوباوي الأب إغناثيو دي لويولا*** وهو عمل ظهر بلغة الرومانس القشتالية في العام 1583، وكان أحد المؤلفات التي ورد ذكرها ضمن مكتبة دون كيخوته الذي قرأه، وكان أحد الكتب التي انتهت خطأً إلى النار في الحظيرة، عندما قام الكاهن والحلاق بالكشف على الكتب، ولم يدققا في هذا الكتاب، لأنهما لو فعلا لكان الكاهن احترمه ووضعه على رأسه. وعدم إتيان ثربانتس على ذكره هو دليل مؤكد على أن الكاهن لم ينتبه إليه.

وبتصميم دون كيخوته أن يُرسِّمه فارساً أول من يصادفه «اطمأنت نفسه، وواصل طريقه، دون أن يختار طريقاً إلا ذاك الذي يريده حصانه، معتقداً أن قوة المغامرات تكمن في ذلك». وقد أحسن الظن حين اعتقد ذلك. فروحه البطولية لن تجد فرقاً في خوض هذه المغامرة أو تلك التي يشاء لها الرب أن

تواجهه. فمثل يسوع المسيح، ودون كيخوته تلميذ وفيّ له، كان يمضي مستعداً لما ستواجهه به مصادفات الطريق. فالمعلم الإلهي، وبينما هو ماض ليوقظ ابنته جايرو من سبات الموت، توقف عند المرأة النازفة. فالمُستَعجَل هو ما يحدث الآن وما يجري هنا؛ ففي الزمن الذي يمر حالياً وفي المكان الضيق الذي نشغله الآن توجد أبديتنا ولانهائيتنا.

يُسلم الفارس قياده لحصانه، ولمصادفات دروب الحياة. وما الصغر في ذلك ما دامت روحه البطلة هي نفسها ومادامت ثابتة على الدوام؟ فقد خرج إلى العالم ليُقَوِّم ما يصادفه من اعوجاج، دون خطة مسبقة، وبلا أي برنامج إصلاحي. لم يخرج إليه ليطبق ترتيبات مهيأة مسبقاً، وإنما ليعيش مثلما عاش الفرسان الجوالين؛ كانت قدوته حيوات أبدعها الفن ورواها، وليس أنظمة ركّبها وفسرها أي علم. ومن الملائم أن نضيف إلى ذلك أنه لم يكن معروفاً في ذلك الحين هذا الشيء الذي ندعوه الآن سوسيولوجيا، كي نسميه بطريقة ما.

ومن الملائم أن نرى أيضاً في مسألة انقياده لمشيئة الحصان أحد أعمق مظاهر التواضع والانصياع لمشيئة الرب. فهو لا ينتقي المغامرات كالمتغطرس، ولا يمضي ليفعل هذا الأمر أو ذاك، وإنما ليفعل ما تخصه به مصادفات الدروب، وبما أن غريزة البهائم تعتمد على المشيئة الإلهية مباشرة أكثر مما هي حرية اختيارنا، فقد اسلم قياده لحصانه. وإنييغو دي لويولا أسلم نفسه أيضاً، في مغامرة مشهورة، سنتحدث عنها، لإلهام مطيته.

هذا الانصياع الذي يبديه دون كيخوته لمشيئة الرب هو أحد أهم الأمور التي ينبغي لنا التمعن فيها وتقديرها في حياته. فقد كان انصياعه انصياعاً تاماً، انصياعاً أعمى، إذ لم يخطر له التوقف قطّ ليفكر في ما إذا كانت المغامرة التي تواجهه ملائمة له أم لا. فقد أسلم قياده، مثلما يتوجب، حسب رأي لويولا، على المنصاع التام أن يسلم قياده، مثل عكاز بيد شيخ عجوز، أو «مثل صليب صغير معلق يتأرجح من جهة إلى أخرى دون صعوبة».

وبينما هو مغامرنا الجديد ماض في طريقه، كان يكلم نفسه ويقول: «من

twitter @baghdad_library

يخامره الشك في الأزمنة المقبلة، حينما تُذاع قصة أعمالي المجيدة المشهورة... »، وكل الأمور الأخرى التي يقولها دون كيخوته لنفسه، مثلما يرويها لنا ثربانتس. لقد كان جنونه ينشدّ نحو ذاته دوماً، بحثاً عن خلود اسمه وشهرته، وعن أن تُكتب قصته في الأزمنة المقبلة. فقد كان أصل الخطيئة، أي الجذر الإنساني العميق، في مشروعه الكريم، هو السعي إلى الاسم والشهرة، والانطلاق فيه لبلوغ المجد. ولكن أصل الخطيئة ذاك هو الذي أوجد المشروع، هذا طبيعي! إنه أمر إنساني محبب. فأي حياة بطولية أو قدسية إنما سعت على الدوام إلى المجد الزمني أو الأبدي، الأرضي أو السماوي. ولا تصدقوا من يقولون لكم إنهم يسعون إلى الخير للخير بذاته، دون أمل في مكافأة. فلو صح ذلك لكانت أرواحهم أجساداً بلا وزن، مجرد ظهور طيفي وحسب. فمن أجل الحفاظ على الجنس البشري وتكاثره زُودنا بغريزة، وبمشاعر، الحب بين المرأة والرجل، ومن أجل إغنائه بأعمال عظيمة مُنحنا طموح التطلع إلى المجد. فما هو فوق بشري في كماله يتلامس مع ما هو بشري، ويغرق فيه.

ومن أولى الحماقات التي راح فارسنا ينظمها في هذا الفصل من خَرجته الأولى، تذكّره الأميرة دولثنيا المجيدة التي وجهت إليه الإهانة بصده وتأنيبه واتخذت موقفاً صارماً بأن أمرته بعدم الظهور أمام جمالها. المجد شيء يمكن اقتحامه بالعمل الشاق، ونبيلنا الطيب، القلق كمستجد، راح يشعر باليأس لأنه مشى طوال ذلك النهار «دون أن يقع على ما يستحق أن يذكر». لا تيأس أيها الفارس الطيب. فالبطولة هي في الانفتاح على نعمة الأحداث التي تأتي إلينا، دون إكراهها على المجيء.

ولكن مع غروب ذلك اليوم الأول من مسيرة مجده «رأى، غير بعيد عن الطريق التي يسلكها، فندقاً» ووصل إليه «مع مسقط الغروب». وكان أول من التقى بهم «امرأتين شابتين، من أولئك اللاتي تُطلق عليهن تسمية بنات الهوى». لقد كان اللقاء بعاهرتين بائستين هو لقاؤه الأول في مهمته البطولية. ولكنهما تبدتا له «آنستان جميلتان أو سيدتان ظريفتان، تقفان أمام باب الحصن ـ لأنه

هكذا رأى الفندق ـ للترويح عن نفسيهما». يا لسلطة الجنون الفادية! لقد بدت فتاتا الهوى في عيني البطل آنستين جميلتين، تنعكس عفته عليهما فتؤدبهما وتطهرهما. إن نقاء دولثنيا يلفهما وينظفهما في عيني دون كيخوته!.

وفي تلك اللحظة نفخ راعي خنازير في قرن ليجمع خنازيره، فرأى دون كيخوته في ذلك إشارة إلى قدوم قزم، ووصل إلى الفندق وإلى الفتاتين المتحولتين. فملأ الخوف الفتاتين ــ وهل يمكن لمهنتهما المشؤومة أن تثير فيهما سوى الخوف؟ ـ فهمّتا بدخول الفندق حين رفع الفارس حافة الخوذة الكرتونية وكشف عن وجهه الجاف الأغبر، وكلمهما «بلهجة مهذبة وصوت رزين» مطلقاً عليهما تسمية الآنستين. آنستين! يا للصدقة المقدسة في الكلمة! ولكنهما حين سمعتاه يدعوهما بتلك الصفة «البعيدة جداً عن مهنتهما، لم تتمالكا نفسيهما من الضحك، وفعلتا ذلك بطريقة أربكت دون كيخوته».

هذه هي مغامرة النبيل الأولى، حين تُقابل براءته الساذجة بالضحك، وحين يسكب على العالم ما يملأ قلبه من الطهارة، يتلقى صداً يتمثل بالضحك القاتل لكل رغبة كريمة. وانظر كيف تضحك التعيستان من أعظم شرف يمكن أن يُقدّم إليهما تحديداً. أما هو، المرتبك، فأنّب غباءهما، فزاد ذلك في ضحكهما، وازداد هو غضباً، وعندئذ خرج صاحب الفندق، «وكان رجلاً بديناً بقدر ما هو وديع» وقدّم له مأوى. وإزاء تواضع صاحب الفندق يتواضع دون كيخوته ويترجل. وراحت الفتاتان، وقد تصالحتا معه، تخلعان عنه سلاحه. ابنتا هوى يجعل منهما دون كيخوته آنستين، يا لقُدرة جنونه المُخَلِّصة! كانتا أول من خدمتاه بمحبة منزهة.

لم يحدث لفارس قط
أن تخدمه سيدات على هذا النحو.

ولنتذكر مريم المجدلية تغسل قدمي السيد وتدهنهما بالزيت، وتجففهما بشعرها الذي طالما دُوعب في الخطيئة، تلك المجدلية المجيدة التي آمنت بها بورع

twitter @baghdad_library

تيريسا دي خيسوس، مثلما روت لنا هي نفسها في الفصل التاسع من سيرتها المعنونة *حياة*، وكانت تتوكل عليها لنيل الغفران.

وأعرب الفارس عن رغبته في تحقيق مآثر في خدمة تينك الفتاتين البائستين اللتين تأملان منه رفع الضيم عنهما. «ولكن سيأتي زمن ـ قال لهما ـ تأمراني سيادتكما فيه وأنا أطيع». أما الفتاتان اللتان «لم تتعودا سماع مثل هذه البلاغة»، وإنما الفظاظات البذيئة، «فلم تردا بكلمة واحدة»؛ وسألتاه فقط «هل يريد أن يأكل شيئاً». لقد توقف الضحك، وأحست آنستا العهر الشابتان بأنهما أصبحتا امرأتين محترمتين، فسألتاه إن كان يرغب في تناول الطعام. «إن كان يرغب في الأكل... » هناك سرّ كامل من أشد أشكال الرقة بساطة في ذلك الملمح الذي نقله لنا ثربانتس. فالفتاتان البائستان تفهمتا الفارس مكتشفتين عمق طفولة روحه، وبراءته البطولية، وسألتاه إن كان يرغب في الأكل. خاطئتان بائستان، رغماً عنهما، هما أول من حرصتا على الحفاظ على حياة البطل المجنون. لا بد أن الشابتين اللتين صارتا آنستين قد أحستا، لدى رؤيتهما ذلك الفارس شديد الغرابة، بالتأثر في أعمق أعماق أحشائهما المهانة، في أعماق أمومتهما، وحين أحستا بأنهما أُمين، رأتا الطفل في دون كيخوته، مثلما ترى الأمهات أبناءهن، وسألتاه بأمومية إن كان يريد أن يأكل. فكل شفقة تصدر عن امرأة، وكل إحسان، وكل صدقة تقدّمها، إنما تفعل ذلك بإحساسها كأم. وبروح الأمهات سألت ابنتا الهوى دون كيخوته إن كان يريد أن يأكل. تأمل، إذاً، كيف جعلهما آنستين بجنونه، فكل امرأة، عندما تشعر أنها أم، تتحول إلى آنسة.

إن كان يريد أن يأكل... «أرى أن ذلك مناسب جداً ـ أجاب دون كيخوته ـ، لأن التعب وثقل السلاح لا يمكن تحملهما دون قوة الأحشاء.» وأكل. وحين سمع، وهو يأكل، صفير قصبة خاصي الخنازير، تأكد أنه «في قصر مشهور، وأنهم يقدمون له الطعام بمصاحبة موسيقى، وأن الأباديخو هو لحم سمك الترويت. وأن الخبز الأسود هو خبز من قمح كنديال، وأن العاهرتين سيدتان

محترمتان، وصاحب الفندق أمين القصر، وبهذا قدَّر أنه أحسن صنعاً بقراره وخروجه». وقد صدق من قال إنه لا مستحيل على المؤمن، وإنه لا شيء مثل الإيمان يُطيب الخبز اليابس ويطريه.

«ولكن أكثر ما كان يقلقه هو أنه لم يُسلح فارساً بعد، إذ بدا له أنه لا يمكنه، شرعياً، أن يخوض أية مغامرة قبل أن يتلقى مراسم الانضمام إلى نظام الفروسية». فقرر أن يفعل ذلك.

الفصل الثالث

[وفيه تعليق على الطريقة المجيدة التي رُسِّم بها دون كيخوته فارساً]

يوشك ألونسو كيخانو أن يتلقى تعميده الفروسي باسم دون كيخوته. وهكذا جثا بكلتا ركبتيه أمام صاحب الفندق طالباً منه جميلاً، مُنح له، بأن يُرَسِّمه فارساً، ومتعهداً بالسهر تلك الليلة سهرة السلاح في مصلى القصر. «ولكي يضحك ـ صاحب الفندق ـ في تلك الليلة، قرر أن يجاريه في مزاجه»، وبهذا يتبدى أنه من أولئك الذين ينظرون إلى الدنيا على أنها استعراض، وهو أمر طبيعي لدى من هم معتادون مثله على كثرة حركة المغادرين والقادمين. وكيف لا ينظر إلى الدنيا باعتبارها استعراضاً من يعيش في فندق لا يتخذه أحد مسكناً حقيقياً؟ واضطرارنا إلى مفارقة من لم نكد نتعرف إليه ونتعامل معه تحملنا إلى البحث عما يُضحك.

وكان صاحب الفندق رجلاً جاب الدنيا زارعاً الإساءات وحاصداً الفطنة. وهي فطنة تحيط بكل التفاصيل، فعندما أجابه دون كيخوته على سؤال وجهه إليه بأنه «لا يحمل معه قرشاً واحداً لأنه لم يقرأ قطّ في قصص الفرسان الجوّالين أن أحداً منهم يحمل نقوداً معه»، قال له صاحب الفندق إنه مخطئ، وإنه «إذا كان ذلك غير وارد في القصص، فلأنه بدا لمؤلفيها أنه من غير الضروري كتابة

twitter @baghdad_library

شيء جلي وضروري، مثل حمل المال والقمصان النظيفة، وليس لكي نظن أنهم لا يحملونها؛ وإنه واثق ومتأكد من أن جميع الفرسان الجوالين كانوا يحملون أكياسهم مملوءة جيداً تحسباً لما قد يحدث لهم». ورداً على ذلك «وعده دون كيخوته بأن يعمل بما نصحه به»، فقد كان مجنوناً شديد التعقل، وحيال إنذار المال لا وجود لجنون لا ينكسر.

ولكن، سيقال: ألا يعيش الكاهن من المعبد؟ وسيقال: أليس جيداً أن يعيش مجترح المآثر من مآثره؟ أموال وقمصان نظيفة! نجاسات من الواقع! نجاسات من الواقع، أجل، ولكن على الأبطال أن يعتادوا عليها. وقد كان إنييغو (إغناثيو) دي لويولا أيضاً يسعى جاهداً لأن يعيش كفارس جوال بتوجه إلهي، وفور شفائه من أمراضه يعود إلى خشونة عيشه المعهودة، «ولكن الخبرة الطويلة، وألماً شديد في معدته كان ينتابه بكثرة ـ كما يروي لنا مؤرخه في الكتاب الأول، الفصل التاسع ـ فضلاً عن قسوة المناخ، إذ كان ذلك في أوج الشتاء، أدى ذلك كله في نهاية المطاف إلى تليينه قليلاً كي ينصاع لنصائح مريديه وأصدقائه الذين جعلوه يأخذ ثوبين قصيرين، من قماش سميك وخشن لبدنه، وشبه قلنسوة لتغطية رأسه من القماش نفسه».

بدأ دون كيخوته بعد ذلك سهرة حراسة السلاح في فناء الفندق، تحت ضوء القمر ونظرات الفضوليين الذين يراقبونه من بعيد. ودخل بغَّال ليسقي دوابه، فأزاح الأسلحة الموضوعة فوق حوض الماء، لأننا حين نورد بهائمنا نزيح من طريقنا كل ما يعيق الوصول إلى المنهل. ولكن البغَّال تلقى على عمله ضربة محكمة بقناة رمح أوقعته أرضاً وبلبلته. ثم جاء آخر للغاية نفسها، وأصابه ما أصاب ذاك. وما هو إلا قليل حتى راح بقية البغَّالين يرجمون الفارس بالحجارة، بينما راح هو يصيح فيهم «سفلة وأوغاد أدنياء». وكان يقول ذلك «برباطة جأش واستكبار» مما أدخل الرعب في قلوبهم. ضَعُوا روحاً في أصواتكم إذاً، وتوجهوا باستكبار ورباطة جأش إلى البغّالين الذين ينتزعون السلاح من مكانه ليتمكنوا من إيراد دوابهم، ولسوف تملؤون بالرعب قلوبهم.

ولخشية صاحب الفندق من وقوع مكروه آخر، اختزل الطقوس، وجاء بسجل حيث «يسجل ما يعطيه للبغَّالين من تبن وشعير، وعقب شمعة يحمله صبي، وبصحبته الفتاتان المذكورتان»، وجعل دون كيخوته يجثو على ركبتيه وراح يتلو صلاة ورعة ثم ضربه بصفحة السيف على كتفه. وهكذا حلّ دفتر تسجيل التبن والشعير محل إنجيل الطقوس، لأن الأمر سيان عندما يتحوّل الإنجيل إلى مجرد طقس. ونطّقته بالسيفَ إحدى الفتاتين، المدعوة تولوسا، وهي من طليطلة، متمنية له وافر الحظ في مغامراته. فرجاها أن تضيف إلى اسمها لقب «دونيا»، وأن تُسمى «دونيا تولوسا». وقامت الشابة الأخرى، وتدعى لامولينيرا، بوضع المهماز في قدميه «ودار بينه وبينها الحوار نفسه تقريباً». ثم خرج دون أن تقاضي أي أجر منه.

لقد صار لدينا فارس مكرس على يد وغد ملّ من اختلاس الحياة كفاف يومه، فراح يؤمنها من نهب المسافرين دون خطر، وعلى يد غانيتين تبدوان عذراوين. هؤلاء الثلاثة أدخلوا الفارس عالم الخلود، وهو عالم يمكن أن يلاقي فيه تأنيب الكهنة القانونيين ورجال الكنيسة المتزمتين. والغانيتان نفسيهما، تولوسا ولامولينيرا، هما من قدّمتا إليه الطعام، وهما من زنرتاه بالسيف، ووضعتا له المهماز، وأظهرتا في تعاملهما معه الخضوع والتذلل. وهما الذليلتان على الدوام في مهنتهما المشؤومة، والموغلتان في بؤسهما، حتى إنهما لا تبديان كبرياء الانحطاط النتنة، جعل منهما دون كيخوته عذراوين، ورفع مكانتهما إلى مكانة السيدتين المحترمتين بمنحهما لقب «دونيا». وكان ذلك هو أول اعوجاج قوَّمه فارسنا، ولكنه ظل معوجاً مثل كل الاعوجاجات الأخرى التي قوّمها. يا للفتاتين البائستين اللتين تنصاعان للرذيلة ببساطة ودون تبجح صفيق، مستسلمتين لفظاظة الرجل وتستكينان للمهانة من أجل كسب قوتهما! يا لحاميتي فضيلة الغير، تتحولان إلى مجرور فجور يُلطخ بانسداده الأخريات! كانتا أول من استقبل المجنون العظيم. فهما من قلدتاه السيف، وهما من ألبستاه المهماز، وعلى أيديهما دخل طريق المجد.

twitter @baghdad_library

ألا تذكرك سهرة السلاح تلك بفارس فرقة يسوع الجوال المدعو إنييغو (إغناثيو) دي لويولا؟ فإنييغو أيضاً، في ليلة الميلاد من عام 1522، سهر على حراسة سلاحه في مذبح كنيسة سيدتنا عذراء مونسرات. ولنستمع إلى ما يقول الأب ريبادينيرا (الكتاب الأول، الفصل الرابع): «وبما أنه قرأ في كتب الفروسية أن الفرسان المستجدين يسهرون على حراسة سلاحهم، ومن أجل أن يحاكي، باعتباره فارساً مستجداً ليسوع، ذلك العمل الفروسي بروح خاشعة، ويسهر على أسلحته الجديدة، والتي يبدو أنها كانت أسلحة بائسة وضعيفة، ولكنها في الحقيقة شديدة الغنى والقوة، وقد تقلدها لمواجهة عدو طبيعتنا، فقد أمضى تلك الليلة كلها، واقفاً حيناً وجاثياً حيناً أمام صورة سيدتنا العذراء، متوجهاً إليها من أعماق قلبه، باكياً بمرارة من خطاياه، ومتعهداً بإصلاح حياته الآتية».

الفصل الرابع

[حول ما جرى لفارسنا حين غادر النزل]

خرج دون كيخوته من الفندق، وحين تذكر نصائح صاحب الفندق الحصيف، قرر العودة إلى بيته ليتزود بما يحتاج إليه، وليكون له حامل سلاح. لم يكن مغفلاً يمضي واثقاً من مقاصده، بل هو مجنون يتقبل دروس الواقع.

ولدى عودته إلى البيت «ليتزود بكل شيء» سمع أصواتاً تنبعث من أعماق غابة، فدخلها ورأى فلاحاً يجلد صبياً «عارياً من الخصر إلى أعلى»، ويؤنبه مع كل جلدة. وحين رأى الفارس ذلك العقاب ثارت فيه روح العدالة ووبخ الفلاح الذي يهاجم من هو عاجز عن الدفاع عن نفسه، ودعاه إلى المبارزه، لأن ما يفعله عمل جبناء. فأجابه الفلاح بكلمات مهذبة: «إنه خادمي»، ثم أخبره كيف أنه يضيع له نعاج القطيع، وكيف أن الخادم يدعي أن سيده يجلده لأنه بخيل وخسيس، وهذا كذب على حدّ قول السيد. عندئذ يقول دون كيخوته: «أتكذب أمامي أيها الوغد الدنيء؟ بحق الشمس التي تضيء لنا سأجعل حربتي

هذه تخترق جسمك من جانب إلى آخر. ادفع إليه أجره في الحال دون أن تنبس ببنت شفة؛ وإلا أقسم بالرب المتحكم بنا، سأقضي عليك هنا بالذات. حلّ وثاقه حالاً».

كذب؟ أيكذب أمام دون كيخوته؟ لا يكذب أمامه إلا من يتهم غيره بالكذب، على أن يكون هذا المتهِم هو الأقوى. ففي العالم السفلي والكئيب، لا يبقى للضعفاء عادة من وسيلة دفاعية سوى الكذب لمواجهة قوة الأقوياء، وهكذا فإن هؤلاء الأقوياء، هؤلاء السباع، قد أعلنوا نُبل أسلحتهم، فكوكهم القوية، ومخالبهم الصلبة، بينما وصفوا بالدناءة سمّ الأفعى، وقوائم الأرنب السريعة، ومكر الثعلب، وحبر الحبَّار، ووصفوا الكذب بالدناءة الشديدة، وهو سلاح من لا سلاح آخر له. ولكن، أهناك من يكذب أمام دون كيخوته، أو بتعبير أدق، أيكذب على انفراد أمام من يعرف الحقيقة؟ ومن يكذب هو القوي الذي يقيّد الضعيف ويجلده ويتهمه بالكذب في وجهه. أيكذب؟ ولماذا يعمد خوان هالدودو الثري، وقد ضُبط متلبساً بالجرم المشهود، إلى مضاعفة جرمه بتنصيب نفسه متهِماً، شيطاناً؟ فكل رب عمل يتولى أخذ العدالة بيده لا بد له من التحوّل إلى شيطان ليتمكن من أخذ العدالة واختلاق التهم. فالقوي يبحث دائماً عن مسوغات يبرر بها أعمال عنفه، مع أن عنفه وحده يكفيه دليلاً، لأنه مسوغ بحد ذاته، ولا حاجة لمزيد من الأسباب. من الأفضل أن يدوس أحدهم قدمك وحسب، وهو غير متعمد، على أن يُتبع ذلك بالقول «أرجو المعذرة».

طأطأ الفلاح الغني رأسه ـ وما الذي يستطيع عمله حيال الحقيقة المسلحة برمح وتتكلم إليه متوعدة؟ ـ، أحنى رأسه دون أن يجيب. وحلّ وثاق الفتى وتعهد، تحت طائلة التهديد بالموت أن يدفع له ثلاثة وستين ريالاً عند وصولهما إلى البيت، لأنه لا يحمل مالاً. رفض الفتى الذهاب، خوفاً من أن يُضرب من جديد، ولكن دون كيخوته ردّ عليه: «لن يفعل شيئاً من ذلك. يكفي أن آمره حتى يطيع ويحترم، فإن أقسم على هذا بناموس الفروسية الذي تلقاه تركته

twitter @baghdad_library

حراً، وأضمن الدفع». فاحتج الخادم بأن سيده ليس فارساً، وإنما هو خوان هالدودو الثري المقيم في كينتانار. فكان ردّ دون كيخوته على ذلك بأنه ليس هناك ما يحول دون أن يكون أحد أبناء آل هالدودو فارساً، و «كل امرئ ابن أعماله». والسبب في أن دون كيخوته اعتبره فارساً هو أنه رأى الفلاح يملك «رمحاً أُسند إلى شجرة السنديان التي ربط إليها فرسه»؛ ومن غير الفرسان يحمل الرماح، وكيف يمكن التعرف إليهم لولا الرماح؟

لنتأمل في ما قاله: «لن يفعل شيئاً من ذلك. يكفي أن آمره حتى يطيع ويحترم». إنه حكم يؤكد عمق إيمان الفارس بنفسه، وهو إيمان يعتز به، ومادام لم ينجز مآثر بعد، فإنه يعتقد أنه ابن الأعمال التي يفكر في اجتراحها، والتي سيكتسب بها السمعة والشهرة. وقد يبدو ضعفاً في المسيحية للوهلة الأولى النظر إلى ابن للرب على أنه ابن أعماله، ولكن مسيحية دون كيخوته أعمق، وأعمق بكثير، في كنف نعمة الإيمان وميزة الأعمال، في الجذر المشترك للطبيعة ونعمة الإيمان.

وبتلقيه وعد خوان هالدودو الثري بأنه سوف يدفع الدين المستحق لخادمه ريالاً فوق ريال، وأنه سيضيف إليه علاوة، وهي علاوة أسعدت دون كيخوته، فأوصاه بأن يبر بقسمه، وإلا فإنه يقسم هو نفسه إنه سوف يعود للبحث عنه ومعاقبته، وسوف يجده حتى لو اختبأ أكثر من سحلية. وبعد تلقيه هذا الوعد من خوان هالدودو، انصرف دون كيخوته مبتعداً. وما كاد يمضي في الغابة ويختفي عن النظر حتى عاد هالدودو الغني إلى خادمه، فأعاد شد وثاقه إلى شجرة السنديان وجعله يدفع غالياً ثمن عدالة دون كيخوته. وبذلك «مضى لطريقه باكياً بينما ظل سيده يضحك. وبهذه الطريقة قوّم دون كيخوته الشجاع الاعوجاج الذي وقع» ــ أضاف ثربانتس بخبث. وبخبث مثله يتحدث كثيرون عن النتائج العكسية للمثالية. ولكن الآن، من الذي يضحك الآن ومن الذي يبكي الآن؟ لقد مضى الفارس في طريقه مفعماً بالإيمان، منتشياً بقيمة مأثرته، وكيف أنه انتزع السوط من يد «ذلك العدو القاسي الذي كان يجلد، دون سبب وجيه، ذاك الطفل الضعيف». الذي نال في الجولة الثانية جائزة أكبر من الجلد، حيث تركه سيده وهو أقرب إلى الموت، وهو

ما لم يحدث في جولة الضرب الأولى التي تُعتبر مستحقة جداً، دون شك، في العدالة الإنسانية. وقد أفادته جولة الجلد الثانية وعلمته أكثر مما كان يمكن أن تفيده وتعلمه إياه الثلاثة والستون ريالاً والعلاوة عليها. أضف إلى ذلك أن لمغامرات فارسنا كلها زهرتها في الزمان وفي الأرض، لكن جذورها في الأبدية، وفي الأبدية والأعماق وجد الضرر اللاحق بخادم خوان هالدودو الثري تقويمه الدائم إلى الأبد.

واصل دون كيخوته في الطريق التي ارتضاها جواده روثينانته، لأن الدروب كلها تقود إلى الشهرة طالما الصدر يحتضن التصميم في سعيه. وهذا ما فعله أيضاً لإنييغو (إغناثيو) دي لويولا، عندما فارق المغربي الذي اختلف معه وهو في طريقه إلى مونسرات، إذ قرر أن يترك لمطيته أمر اختيار الطريق والمستقبل. وبينما دون كيخوته يمضي على تلك الحال، التقى بتلك الجماعة من تجار طليطلة الذاهبين لشراء الحرير من مورثيا. فرأى أن مغامرة جديدة أمامه، واعترض طريقهم كما يروي لنا ثربانتس، وأراد أن يجبرهم على الاعتراف، (أيجبر التجار على الاعتراف!) بأنه «لا وجود في الدنيا بأسرها فتاة أجمل من إمبراطورة المنتشا عديمة النظير دولثنيا دل توبوسو».

القلوب الدنيئة التي تقتصر على قياس عظمة الأعمال الإنسانية بقدر ما تتمخض عنه من نفع جسدي دنيء أو راحة للحياة الخارجية، تُبارك مسعى دون كيخوته حين أراد إجبار هالدودو الثري على الدفع أو سعيه إلى إغاثة المحتاجين، ولكنها لا ترى سوى محض جنون في سعيه إلى حمل التجار على الاعتراف بجمال دولثنيا دل توبوسو الفريد، دون أن يكونوا قد رؤوها من قبل. مع أن هذه إحدى أشد مغامرات دون كيخوته «كيخوتية». بمعنى إنها إحدى أكثر المغامرات التي تثلج قلوب من يتمثلون جنونه. فهنا لا يتصدى دون كيخوته للصراع من أجل إغاثة ملهوفين، ولا لرفع أذى أو إصلاح مظالم، وإنما يفعل ذلك من أجل اقتحام مملكة الإيمان الروحية. فقد أراد أن يجبر أولئك الرجال ذوي القلوب المالية التي لا ترى سوى مملكة الثروات المادية، أن يعترفوا بأن هناك مملكة روحانية، وأن يُخَلِّصهم بذلك، على الرغم منهم.

twitter @baghdad_library

لم يخضع التجار في البدء، فهم صعبو المراس، معتادون على الضحك والمساومة، فساوموا متذرعين بأنهم لا يعرفون دولثنيا. وهنا يتأجج دون كيخوته بالكيخوتية ويهتف قائلاً: «لو أني أريتكم إياها، فأي فضل يكون لكم في الاعتراف بحقيقة جلية كل الجلاء؟ المهم هو أن تؤمنوا بها، دون أن تروها، وأن تعترفوا، وتؤكدوا، وتقسموا، وتدافعوا عنها.» يا لفارس الإيمان المهيب! ويا لعمق حسه بالإيمان! وقد كان من شعبه أيضاً ذاك الذي انطلق والسيف بيمينه واسم يسوع بيسراه، ليجعل أناس أمكنة نائية يعترفون بمعتقد ما كانوا يعرفونه. ولم يبدّل وضع يديه ذاك إلا في أحيان قليلة، فرفع السيف بيده عالياً، وضرب بالصليب. «أيها الأدعياء المتغطرسون» هكذا دعا دون كيخوته تجار طليطلة، وأي غطرسة أعظم من امتناعهم عن الاعتراف، والتأكيد، والقسم، والدفاع عن جمال دولثنيا دون أن يكونوا قد رأوها؟ ولكن التجار قليلو الإيمان أصروا، وطلبوا من الفارس ـ مثلما فعل اليهود المتمادين في غيهم حين طلبوا من السيد المسيح أن يأتيهم بإشارات ـ أن يُريهم صورة لتلك السيدة، ولو كانت «بحجم حبة حنطة»، لقد جدفوا فضلاً عن تماديهم في الخطأ.

لقد جدفوا حين افترضوا أن تكون العديمة النظير، ونجمة جولاتنا الهادية على دروب هذه الحياة الدنيا، وعزاؤنا في النكبات، ومحفزة مبادراتنا الحماسية، والعذراء راعية الأعمال المجيدة، ومن لأجلها تصبح الحياة محتملة ويصبح الموت حياة؛ لقد افترضوا أن تكون العديمة النظير دولثنيا «عوراء العين، وأن عينها الأخرى تنز زنجفراً وكبريتاً». فأجاب دون كيخوته متأججاً بالغضب: «لا ينز منها شيء أيها الوغد الحقير، لا ينز منها شيء مما ذكرتم، بل تقطر عنبراً ومسكاً بين أقطان، وهي ليست عوراء ولا حدباء، بل أشد استقامة من مغزل من غواداراما». لا يقطر منها! لا يقطر منها! ـ ولنردد جميعنا ـ لا يقطر منها! لا يقطر منها أيها التجار الأوغاد! لا يقطر منها سوى العنبر والمسك بين أقطان! عنبر يقطر من عيني المجد اللتين ترانا بهما، أيها التجار الأوغاد.

وكي يجعلهم يدفعون غالياً ثمن تجديفهم، اندفع دون كيخوته موجهاً رمحه

إلى صدر ذاك الذي تفوه بتلك الكلمات، اندفع «بحماسة وغضب كان سيوقع التاجر الوقح في وضع عصيب لولا أن حسن الطالع قد جعل روثينانته تتعثر في منتصف الطريق وتسقط أرضاً».

لقد صار دون كيخوته على الأرض، يتذوق بأضلاعه صلابة الأرض الأم. إنها سقطته الأولى. فلنتوقف للتمعن فيها. «هوت روثينانته على الأرض وتدحرج سيدها بعيداً على التراب، وحين حاول أن ينهض، لم يستطع ذلك. فقد كان مثقلاً بالرمح والترس والمهمازين والبصلة وسلاحه العتيق.» لقد سقطتَ أرضاً يا سيدي دون كيخوته، لأنك وثقت بصلابتك الشخصية، وبقوة ذلك الحصان الذي أسلمت لغريزته قياد مسيرتك. لقد ضيّعك زهوك: اعتقادك أنك ابن أعمالك. لقد سقطتَ أرضاً يا نبيلي المسكين، وعلى الأرض أسلحتك التي كانت عائقاً يضايقك أكثر مما ينفعك. ولكن ذلك لا يُقلقك، لأن انتصارك كان على الدوام في الجرأة وليس في حصد النتائج. فما يسميه التجار انتصاراً هو أمر لا يليق بك، لأن عظمتك قامت على عدم اعترافك بهزيمتك. فحكمة القلب، وليس علوم العقل، تتمثل في معرفة المرء كيف يكون مهزوماً ويستفيد من الهزيمة. وتجار طليطلة هم المهزومون اليوم بينما أنت في قمة المجد أيها الفارس النبيل.

حتى وأنت على الأرض، مطروحاً على أديمها تحاول النهوض، واظبتَ على تسميتهم «جبناء وعبيد»، وجعلهم يعرفون أن سقوطك على الأرض لم يكن بسببك وإنما بسبب حصانك. وهذا ما يحدث لنا نحن المؤمنين بك: إننا مطروحون أرضاً وغير قادرين على النهوض، ليس بسببنا وإنما الأحصنة التي تحملنا على دروب الحياة، ويمنعنا من النهوض ثقل الدروع القديمة التي تغطي أبداننا. فمن الذي سينزع هذه الدروع عنا؟

وجاء بغّالٌ «ولم يكن طيب النوايا»، وفق ما ذكره ثربانتس، «وحين سمع الكلمات المتغطرسة التي يطلقها المسكين الملقى على الأرض لم يستطع إلا أن يقدم إليه الردّ عليها ضرباً على أضلاعه». فأوسعه ضرباً «حتى أفرغ عليه جام

twitter @baghdad_library

غضبه كله»، دون أن يعير اهتماماً لأصوات أسياده الذين أمروه بأن يتركه وشأنه. والآن، الآن وأنت ممدد على الأرض غير قادر على النهوض يا سيدي دون كيخوته، الآن يأتي البغَّال، وهو أسوأ طوية من التجار الذين يخدمهم، فيجلدك بالعصا. أما أنت أيها الفارس الفريد، فبعد أن طُحنت عظامك، وأوشكتَ على الموت، ظللت جذلان راضياً، معتبراً أن «هذه المحنة أمراً خاصاً بالفرسان الجوالة». وباعتقادك هذا يمكنك التغطية على هزيمتك، وتحويلها إلى انتصار. آه، لو أننا نستطيع، نحن المؤمنين بك، أن نعتبر أنفسنا محظوظين إذا ما طُحنت عظامنا بالضرب، لأن ذلك محنة خاصة بالفرسان الجوالة! فمن الخير للمرء أن يكون أسداً ميتاً على أن يكون كلباً حياً.

مغامرة التجار هذه تعيد إلى ذاكرتي تلك المغامرة الأخرى لإغناثيو دي لويولا التي يرويها لنا الأب بيدرو دي ريبادينيرا في الفصل الثالث من الكتاب الأول لسيرة حياته. فعندما كان إغناثيو في طريقه إلى مونسرات «التقى بمسلم ممن ظلوا آنذاك في إسبانيا، في مملكتي بالينسيا وأراغون» و«مشيا معاً وتبادلا الأحاديث، وبالتنقل من موضوع إلى آخر وصلا إلى الكلام عن عذرية وطهارة سيدتنا العذراء المجيدة». وحين فارق إغناثيو الرجل المسلم «أرقته الشكوك والحيرة في ما يتوجب عليه أن يفعله. فهو لا يدري إن كان إيمانه وتقواه المسيحية يفرضان عليه أن يسرع ويلحق بالمسلم ويطعنه لتجرئه على عدم احترام السيدة العذراء الطوباوية الطاهرة». ولدى وصوله مفترق دروب، ترك لمطيته اختيار الطريق الذي سيمضي فيه، فإما أن يلحق بالمسلم ويقتله طعناً بمديته، وإما أن يتركه وشأنه. وشاء الرب أن ينير ذهن الحصان «فترك الطريق العريضة والسهلة التي سلكها المسلم، ومضى في الدرب الأكثر موافقة لنوايا إغناثيو». فتأمل كم تدين مؤسسة يسوع لإلهام حصان.

الفصل الخامس

[وفيه تتواصل رواية محنة فارسنا]

بينما دون كيخوته مطروح على الأرض لجأ إلى تذكر كتبه، مثلما نلجأ نحن إلى استحضار أسلافنا في هزائمنا، وشرع يتقلب على الأرض باستظهار مقاطع شعرية. ولا بد أن نرى في ذلك نوعاً من التلذذ بالهزيمة وتحويلها إلى جوهر الفروسية. ألا يحدث لنا الشيء نفسه في إسبانيا؟ ألسنا نتلذذ بهزيمتنا ونشعر بشيء من المتعة، كما هي حال الناقهين، بعد المرض؟

وتصادف مرور بيدرو ألونسو، وهو فلاح من جيرانه، فساعده على النهوض عن الأرض، وتعرف إليه، وأسنده واقتاده إلى بيته. لم يفهم أحدهما الآخر في حديثهما أثناء الطريق، وهو حديث اطلع عليه ثربانتس دون شك من بيدرو ألونسو نفسه، الرجل البسيط وضئيل المعرفة. وخلال ذلك الحديث نطق دون كيخوته بالحكم المترع بالجوهر، والقائل «أنا أعرف من أنا!».

أجل، هو يعرف من يكون، ولكن لا يعرفه، ولا يمكن أن يعرفه الأتقياء أمثال بيدرو ألونسو. «أنا أعرف من أنا!» ـ يقول البطل، لأن بطولته تجعله يتعرف إلى نفسه. يستطيع البطل أن يقول «أنا أعرف من أنا» وفي هذا تكمن في آن واحد قوته وبؤسه. قوته، لأنه مادام يعرف من يكون، فليس هناك ما يدعوه إلى الخوف من أحد، باستثناء الرب الذي جعله من يكون. وبؤسه، لأنه هو وحده من يعرف، هنا على الأرض، من يكون. وبما أن الآخرين لا يعرفون ذلك، فإن كل ما يقوله أو يفعله يبدو لهم كعمل أو قول من لا يعرف نفسه، أي كعمل أو قول مجنون.

إنه لأمر عظيم بقدر ما هو رهيب أن تكون للمرء رسالة لا يعلم بها أحد سوى صاحبها، ولا يتمكن من جعل الآخرين يؤمنون بها: سماعه في أعمق أركان روحه صوت الرب الخفي يقول له: «عليك أن تفعل هذا» دون أن يقول للآخرين: «هذا الذي ترونه هو ابني وعليه أن يفعل هذا». يا لرهبة سماعه:

twitter @baghdad_library

«افعل هذا، افعل هذا الذي سيرى فيه إخوتك، بالاستناد إلى القانون العام الذي يحكمكم، خرقاً للقانون نفسه أو إخلالاً به. افعله لأن القانون الأعلى هو أنا، وأنا من آمرك به». ولأن البطل هو وحده الذي يسمع ذلك ويعرفه، ولأن طاعة هذا الأمر والإيمان به هو ما يفعله، ويصبح بفضل ذلك بطلاً، يصبح من يكون، فبإمكانه أن يقول بكل جدارة: «أنا أعرف من أنا. وأنا وربي وحدنا نعرف ذلك، ولا يعرفه الآخرون». وبإمكانه أن يضيف: بين الرب وبيني لا وجود لأي قانون وسيط، فنحن نتفاهم مباشرة وشخصياً، ولهذا أنا أعرف من أنا. ألا تتذكرون بطل الإيمان إبراهيم في جبل موريا؟.

إنه لأمر عظيم ورهيب أن يكون البطل هو الوحيد الذي يرى بطولته من الداخل، في أعماقه بالذات، بينما لا يراها الآخرون إلا من الخارج، من خلال شؤونه الخارجية الغريبة. وهذا ما يجعل البطل يعيش وحيداً وسط البشر، ويجعل هذه الوحدة تنفعه كرفيقة تعزز قواه. فإذا قلتم لي إنه يمكن لأي شخص، بمثل هذا الزعم عن وحي حميم، أن يزيد من تهوره، بحجة إحساسه بأنه بطل بإيحاء من الرب، فأقول لكم إنه لا يكفي قول ذلك وإدعاؤه، وإنما لا بد من الإيمان به. لا يكفي القول «أنا أعرف من أنا!»، وإنما لا بد له من أن يكون عارفاً ذلك. وسرعان ما يتكشف خداع من يقول ذلك إن كان لا يعرفه، وربما لا يؤمن به. وإذا كان يقول ذلك ويؤمن به، فإنه سيتحمل باستسلام خصومة الأقارب الذين يحاكمونه طبقاً للقانون العام، وليس بإرادة الرب.

«أنا أعرف من أنا!». عند سماع هذا التأكيد من الفارس المتعجرف لا ينعدم من يقول «يا لغطرسة النبيل!... منذ قرون ونحن نقول ونكرر إن أكبر دأب للإنسان يجب أن يوجه نحو البحث عن معرفته نفسه، وإنه من هذه المعرفة تنطلق الصحة كلها، ثم يأتينا الشديد الغطرسة بقوله الواضح: "أنا أعرف من أنا!". وهذا يكفي لتقدير عمق جنونه».

حسن، إنك مخطئ يا من تقول هذا. فدون كيخوته كان يفكر في الإرادة، وعندما قال «أنا أعرف من أكون!»، لم يكن يعني إلا القول «أنا أعرف من أريد

أن أكون!». وهذا هو محور الحياة الإنسانية برمتها: معرفة الإنسان ما يريد أن يكون. لابد أن يكون اهتمامك ضئيلاً بمعرفة من تكون، لأن المهم بالنسبة إليك هو ما تريد أن تكون. فالكائن الذي هو أنت زائل وقابل للفناء، يأكل من الأرض، وستأكله الأرض ذات يوم. ما تريد أن تكونه هو فكرتك عن الرب، عن ضمير الكون: إنه الفكرة الإلهية عن أنك ظاهرة في الزمان والمكان. وحافزك الدافع نحو هذا الذي تصبو إلى أن تكونه ليس إلا الحنين الذي يجرجرك نحو منزلتك الإلهية. فالإنسان لا يكون إنساناً مكتملاً وسوياً إلا عندما يتطلع إلى أن يكون أكثر من مجرد إنسان. وإذا ما وجهت اللوم إلى دون كيخوته على غطرسته، ولم تتطلع إلى أن تكون إلا ما أنت عليه، فإنك إنسان ضائع، وضائع لا خلاص له. إنك ضائع إذا أنت لم توقظ في أعماقك آدم وخطيئته السعيدة، الخطيئة التي جعلتنا جديرين بالخلاص. لأن آدم أراد أن يكون شبه إله، أراد معرفة الخير والشر، ولكي يصير كذلك أكل الثمرة المحرمة من شجرة المعرفة، فتفتحت عيناه ووجد نفسه مشدوداً إلى العمل والتقدم. وبدأ منذ ذلك الحين يكون أكثر من إنسان، يستمد القوة من ضعفه، ويجعل من انحطاطه مجداً، ومن الخطيئة ركيزة لخلاصه. فحسده حتى الملائكة، كما يخبرنا الأب غاسبار دي لافيغيرا اليسوعي في مؤلفه *حصيلة روحية* ـ وحين يؤكد لنا ذلك فلأنه يعرفه معرفة موثوقة ـ بأن إبليس ورفاقه أُعجبوا بأنفسهم، ورأوا أنهم على أحسن حال، و«وعندما جاء أمر الرب بأن يعبد الملائكة جميعهم يسوع، وكشف لهم أن إلهاً سيجعل من نفسه إنساناً، وسيكون طفلاً وسيموت، وجدوا نقصاً كبيراً في طبيعته الإلهية، وواجهوا ذلك؛ وفضلوا الحرمان من رحمة الرب، ومن المجد الذي قد يمنحهم إياه على القبول بتلك المهانة». وهكذا يُفهم أن الملاك الساقط قد سقط لأنه يُعجب بنفسه ويرضى عنها، لقد سقط بسبب الزهو، بينما يسقط الإنسان لأنه يريد أن يكون أكثر مما هو، لأنه طموح. لقد سقط الملاك لغروره، وظل في سقوطه. وسقط الإنسان لطموحه، لكنه ينهض ويعلو إلى ما فوق المنزلة التي سقط منها.

twitter @baghdad_library

البطل وحده هو القادر على قول: «أنا أعرف من أكون!»، لأن كينونته في نظره هي ما يريد أن يكونه. البطل يعرف من يكون. وما يريد أن يكون، ولا أحد يعرف ذلك إلا هو نفسه والرب، أما البشر الآخرون فيكادون لا يعرفون من هم أنفسهم، لأنهم لا يريدون أن يكونوا شيئاً في الحقيقة، وهم لا يعرفون بالتالي من هو البطل. ولا يعرفه أشباه بيدرو ألونسو الذي أنهضه عن الأرض. يكتفون بإنهاضه عن الأرض وإيصاله إلى بيته، دون أن يروا في دون كيخوته سوى جارهم ألونسو كيخانو، وينتظرون حلول الظلام ليدخلوا به إلى البلدة كيلا يرى الناس في «النبيل المهشّم فارساً بالغ السوء».

وفي أثناء ذلك كان كاهن البلدة وحلاقها، ومعهما مدبِّرة المنزل وابنة أخت دون كيخوته يتبادلون الرأي حول غيابه، ويتفوهون بحماقات أكبر من تلك التي سيتفوه بها فارسنا. فواصل هذا، ودون أن يعيرهم اهتماماً، تناول طعامه ونام.

الفصل السادس

يُدخل هنا ثربانتس ذلك الفصل السادس الذي يروي لنا فيه «التفتيش الكبير والشائق الذي قام به الكاهن والحلاق في مكتبة نبيلنا العبقري». وذلك كله نقد أدبي ينبغي ألا ينال سوى القليل جداً من اهتمامنا. فهو يتعلق بالكتب وليس بالحياة. فلنتجاوزه.

الفصل السابع
[في الخَرجَة الثانية لفارسنا الطيب دون كيخوته دي لامنتشا]

قطعت أشواق دون كيخوته نومه، إذ كان يمارس كيخوتيته حتى في نومه، لكنه عاد لينام من جديد، وليجد عند استيقاظه أن فِرستون الساحر قد سرق له

كتبه، فقد ظن عديم الفطنة ذاك أنه بأخذ الكتب سيجرد الفارس من سخاء عزيمته. وهرعت ابنة أخته لمساعدة فِرستون متوسلة إلى خالها أن يتخلى عن العراك وعن التجوال في العالم «بحثاً عن خبز يفوق خبز القمح»، دون أن تدرك أن ذلك الخبز هو الذي يصنع الإنسان «خارق التفوق» أو السوبرمان، كما يقولون اليوم. ومن أجل ثني إغناثيو دي لويولا أيضاً عن الخروج للبحث عن مغامرات في سبيل يسوع، جاء أخوه الأكبر مارتين غارثيا دي لويولا ليحول بينه وبين الاندفاع في أمر «لا ينتزع منا ما نأمله منك وحسب ـ قال له، حسب رواية الأب ريبادينيرا، الكتاب الأول، الفصل الثالث من مؤلفه ـ، وإنما تلطخ كذلك سمعة سلالتنا بخزي وعار دائمين». لكن إغناثيو أجابه بكلمات قليلة بأنه سيهتم بنفسه، وسيظل يتذكر أنه ابن أناس صالحين. وخرج فارساً جوالاً.

ظل فارسنا هادئاً في منزله خمسة عشر يوماً، وفي أثنائها استدعى جاراً له «وهو فلاح طيب، ولكنه قليل الملح في المخ». وهذا تأكيد مجاني من ثربانتس، ستكذبه في ما بعد رواية ظرافاته وفطنته. والواقع هو أنه لا وجود لما يدعى رجل طيب، رجل طيب حقيقي، ما لم يكن هناك ملح في المخ، لاسيما أنه ما من أحمق طيب في الواقع. لقد استدعى دون كيخوته جاره سانتشو وأقنعه بأن يكون حاملاً لسلاحه.

ها قد صار لدينا في الحملة سانتشو الطيب الذي ترك زوجته وأولاده مثلما طلب يسوع ممن يريدون اتباعه، «وعُيِّن حامل سلاح لجاره». وصار دون كيخوته مكتملاً. لقد كان بحاجة إلى سانتشو. بحاجة إليه ليتكلم، أجل، لكي يفكر بصوت عالٍ دون خجل، كي يسمع نفسه بنفسه، وليسمع استنكار العالم المدوي لصوته. لقد كان سانتشو جوقته، وكان الإنسانية بأسرها بالنسبة إليه. وبرأس سانتشو أحب الإنسانية كلها.

«أحبب قريبك كما تحب نفسك» ـ هذا ما قيل لنا ـ، ولم يُقل «أحبب الإنسانية»، لأن الإنسانية كلمة مجردة يحددها كل شخص بنفسه، والدعوة إلى حب الإنسانية تعني، بالتالي، دعوة إلى حب الذات. وهذا حب يمتلئ به دون كيخوته، بفعل الخطيئة الأصلية، ولم تكن مسيرته كلها سوى سعي إلى التطهر منه. لقد تعلم

twitter @baghdad_library

أن يحب الأقرباء جميعهم عبر حبه لسانتشو، لأنه في رأس قريب واحد، وليس في الجماعة يمكن حب الآخرين جميعهم. فالحب الذي لا يختص بشخص ليس حباً حقيقياً. ومن يحب شخصاً آخر حباً حقيقياً، كيف يمكن له أن يكره أحداً؟ ومن يكره آخر، ألا تفسد عليه تلك الكراهية كل ما فيه من حب؟ أو أنها، بعبارة أدق، تفسد ما لديه من حب، لأن الحب واحد ووحيد، وإن كان يشمل أبعاداً كثيرة.

بالنسبة لسانتشو، سنبدأ بتقدير إيمانه، الإيمان عبر طريق الاعتقاد بما لم يره يقوده إلى خلود الذكر ـ وهو ما لم يحلم به مجرد حلم من قبل ـ وإلى تألق حياته. يمكن له أن يقول إلى أبد الآبدين: «أنا سانتشو بانثا، حامل أسلحة دون كيخوته.» وهذا هو مجده الذي سيظل لعصور العصور.

قد يقال إن ما أخرج سانتشو من بيته هو الطمع، مثلما كان التطلع إلى المجد هو ما أخرج دون كيخوته من بيته. وهكذا نجد في السيد وحامل الأسلحة، كلّ على حدة، الدافعين اللذين اجتمعا في واحد وأخرجا الإسبانيين من بيوتهم. ولكن العجيب هنا هو أنه لم يكن لدى دون كيخوته أدنى ظل من الطمع عند خروجه. وأن لخروج سانتشو خلفيته من الطموح، وإن كان هو نفسه لا يدري. وقد تنامى ذلك الطموح في نفس التابع حامل الأسلحة على حساب الطمع، حتى حوّل تعطشه إلى الذهب في نهاية الأمر إلى تعطش إلى الشهرة. وهذه هي القدرة العجيبة للهفة الخالصة إلى السمعة وسعة الشهرة.

ومن الذي يتحاشى الطمع، ومن الذي يتحاشى الطموح؟ كان إغناثيو دي لويولا يخشاهما، وقد بلغ في خشيته حدّ أنه عندما قام دون فرناندو النمساوي، ملك هنغاريا، بتعيين الأب كلاوديو جابو مطراناً لمدينة تريستا، وصادق البابا عليه، هرع إغناثيو إلى هذا الأخير لعرقلة الأمر، لأنه يريد لأبنائه الروحيين الذين «تبهرهم وتغشي أبصارهم تيجان البطاركة ومظاهر الرفعة، أن يأتوا إلى فرقة يسوع لا ليهربوا من أباطيل الدنيا، وإنما ليبحثوا فيها عن الدنيا نفسها». (ريبادينيرا، الكتاب الثالث، الفصل الخامس عشر). وهل توصل إلى ذلك؟ ألا يمكن لهذا الهرب من وجاهة الكنسية وأبهتها أن ينطوي على زهو مرهف أكثر مما ينطوي عليه قبولها، بل وربما

البحث عنها؟ لأنه «أي خديعة أكبر من سعي المرء لأن يكون محترماً ومحط تقدير الآخرين عن طريق التذلل؟ وأي كبرياء أعظم من سعي المرء إلى أن ينظر إليه كمتواضع؟» ـ هذا ما يقوله أحد أبناء لويولا الروحيين، الأب ألونسو رودريغيث، في الفصل الثالث عشر من كتابه «ممارسة الكمال والفضائل المسيحية». والتكبر، ألا ينتقل من الأفراد إلى الجماعة نفسها ويصبح جماعياً؟ أوليس كبرياء ما يُزعم ـ مثلما يزعم أبناء ليولولا ـ بأن كل من يموت ضمن صفوف الجماعة سيجد الخلاص، أما من لم ينضموا إليها فلن يكون الخلاص من نصيبهم جميعاً؟»

التكبر، التكبر المرهف الصافي، هو تكبر يتبدى في تجنب العمل من أجل عدم التعرض للانتقاد. وأعظم فعل تواضع هو فعل إله يخلق عالماً دون أن يضيف ذلك مثقال ذرة إلى مجده، ثم يخلق بعد ذلك سلالة بشرية لتنتقد خلقه، وإذا ترك خيوطاً مفلتة توفر دعماً، ولو ظاهرياً، لذلك الانتقاد، فإن التواضع يكون أكبر بكثير. وحيث أن دون كيخوته قد انطلق في العمل وعرض نفسه لسخرية الناس من عمله، فقد كان بذلك أحد أنقى نماذج التواضع الحقيقي، وإن كانت المظاهر الخادعة توهمنا بأشياء أخرى. وبهذا التواضع حمل سانتشو على اللحاق به محوّلاً طمعه إلى طموح، وتعطشه للذهب إلى تعطش للمجد، وهي الوسيلة الوحيدة الفعالة في علاج الطمع والتعطش للذهب.

وبعد ذلك، جمع دون كيخوته بعض المال، «باع أشياء ورهن أخرى، وبدد كل ما يملك»، عملاً بنصيحة صاحب الفندق البدين. لقد كان فارسنا مجنوناً عقلانياً، وليس كائناً تخييلياً كما يظن الدنيويون، وإنما هو من البشر الذين أكلوا وشربوا وناموا وماتوا.

تزود سانتشو بحمار وخرج، وتزود دون كيخوته بقمصان وملابس أخرى «ولم يودع بانثا أولاده وزوجته، ولم يودع دون كيخوته مدبرة منزله وابنة أخته»، قاطعين برجولة أواصر قربى الدم الخاطئة. «وخرجا ذات ليلة من القرية دون أن يراهما أحد». إنها المرة الثانية التي يخرج فيها الفارس دون أن يراه أحد، متستراً بالظلام. لكنه لم يخرج وحيداً في هذه المرة، بل أخذ البشرية معه. وقد

twitter @baghdad_library

خرجا وهما يتبادلان الحديث، يُذِكّرُ بانثا سيده بموضوع الجزيرة. وهو الموضوع الذي يريد الخبثاء، مرة أخرى، أن يروا فيه طمعه، وان هذا الطمع هو دافعه لخدمة سيده، دون أن يدركوا أن أكبر دليل على الكيخوتية هو في انسياق عاقل لمجنون وليس في مضي المجنون وراء جنونه، فالإيمان مُعدٍ، وإيمان دون كيخوته قوي وحار إلى حدّ يتجاوزه لينتقل إلى من يحبونه، فيمتلؤون به، دون أن يُنقص ذلك من إيمانه، بل إنه يزداد ويتعاظم. وهذا هو شرط الإيمان المتوقد؛ ينمو ويتعاظم كلما ازداد انسكابه توزعاً. مثلما هو الحب حين يكون حقيقياً ومتأججاً.

يا لإعجاز الإيمان! ما كاد سانتشو يخرج مع سيده حتى بدأ يحلم بأن يصير ملكاً، وتصير زوجته خوانا غوتيريث ملكة، وأولاده أمراء. كل شيء من أجل البيت! ولكن بسبب زوجته ـ والزوجة هي دائماً سبب العرقلة ـ يرتاب في الأمر، فما من مملكة تناسبها. «سلّم الأمر لله، فهو من سيعطيها ما يناسبها» ـ يجيبه دون كيخوته الورع ـ. فيقول سانتشو وقد انتقلت إليه عدوى الإيمان، إن سيده سيعرف كيف يعطيه ما يليق به وما يستطيع عاتقه أن يحمله. آه يا سانتشو الطيب، يا سانتشو البسيط، يا سانتشو المؤمن! لم تعد تطلب جزيرة، ولا مملكة، ولا كونتية، وإنما ما يعرف حب سيدك أن يعطيك إياه. هذا هو أكثر المطالب صحية. وقد تعلمته من «لتكن مشيئتك على الأرض كما في السماء». فجميعنا نطلب أن نأخذ بطيبة ما يعطى لنا بسوء، ونكون قد طلبنا كل ما يمكن أن يُطلب.

الفصل الثامن

[في النجاح السعيد الذي أحرزه الشجاع دون كيخوته في مغامرة طواحين الهواء المروعة، وحوادث أخرى خليقة بطيب الذكر]

وبينما هما في ذلك الحديث «اكتشفا ثلاثين أو أربعين طاحونة هوائية موجودة في ذلك السهل». رأى فيها دون كيخوته مردة عتاة، ودون أن يعير

اهتماماً لكلام سانتشو، فوّض أمرة من أعماق قلبه لسيدته دولثنيا وانقضّ عليها، فهوى جسده مرة أخرى على الأرض.

لقد كان الفارس محقاً. فالخوف، والخوف وحده، هو ما يجعل سانتشو، ويجعلنا نحن البشر الفانين العاديين، نرى طواحين هواء في المردة العتاة الذين يزرعون الشر في الأرض. لقد كانت تلك الطواحين تطحن خبزاً، ومن ذلك الخبز يأكل بشر متصلبين في عمى البصيرة. وهي لم تعد تبدو لنا اليوم كطواحين، وإنما كقاطرات، ومولدات، وعنفات، وبواخر، وسيارات، وتلغرافات بأسلاك أو من دون أسلاك، ورشاشات، وأدوات لاستئصال المبايض ولكنها تتواطأ على التسبب بالأذى نفسه. الخوف، والخوف السانتشوبانثي وحده هو الذي يلهمنا عبادة وتوقير البخار والكهرباء؛ الخوف، والخوف السانتشوبانثي وحده يجعلنا نسقط جاثين أمام مردة الميكانيكا والكيمياء العتاة متوسلينهم الرحمة. وفي النهاية يُسلّم الجنس البشري روحه المستنفدة من التعب والضجر عند قدمي مصنع عملاق ينتج إكسير الحياة المديدة. وسيعود دون كيخوته المحطم إلى الحياة، لأنه بحث عن الصحة في ذاته وتجرأ على الانقضاض على الطواحين.

وصل سانتشو إلى حيث سيده وذكّره بتحذيره له بأنها «ليست إلا طواحين هواء، ولا يجهل ذلك إلا من امتلأت رأسه بأمثالها». الأمر واضح أيها الصديق سانتشو، إنه لواضح وجلي؛ فوحده من يحمل في رأسه طواحين من تلك التي تطحن قمحاً يدخل إلينا عبر حواسنا دقيق خبز روحي، وحده من تملأ رأسه طواحين تطحن، هو من يستطيع الانقضاض على الطواحين الأخرى، الظاهرية، على المردة المتنكرين بهيئتها. ففي الرأس يا صديقي سانتشو، في الرأس ينبغي أن تُحمل علوم الميكانيكا، والديناميكا، والكيمياء، والبخار، والكهرباء، وبعد ذلك... الانقضاض على الآلات والأدوات التي تتضمنها. ووحده من يحمل في رأسه الجوهر الأزلي للكيمياء، هو من يعرف كيف يحس، عبر قانون مؤثراته، بالقانون الكوني لمؤثرات الجزيئيات المادية، ومن يحس أن

twitter @baghdad_library

إيقاع الكون هو إيقاع قلبه، وهذا وحده هو من لا يخاف من فن تركيب العقاقير وتحويلها، أو تركيب أجهزة آلية.

وأسوأ ما في الأمر هو أن رمح دون كيخوته قد انكسر في تلك الهجمة. وهذا هو ما يستطع فعله أولئك المردة: أن يكسروا أسلحتنا، ولكن ليس قلبنا. وما أكثر أشجار البلوط والسنديان التي تعوضنا عن أسلحتنا المفقودة.

وتابعا سيرهما، فمضى دون كيخوته دون شكوى، لأنه لا يجوز للفرسان الجوالة أن يشكوا ويتذمروا، ودون رغبة في تناول الطعام حين تأهب سانتشو للأكل. وفي أثناء الطريق، كان سانتشو يأكل ويمشي، ويرتشف جرعات خمر تُنسيه وعود سيده له، وتُشعره براحة كبيرة في الترحال بحثاً عن المغامرات. ويا لشؤم سلطة الأحشاء التي تُظلم الذاكرة، وتعكر الإيمان، وتقيّدنا إلى اللحظة العابرة. فحين يأكل الإنسان ويشرب فهو كائن للطعام والشراب. وأدركهما الليل، فقضاه دون كيخوته دون نوم، مفكراً في سيدته دولثنيا، بينما نام سانتشو بعمق ودون أحلام. وعندئذ أوصى دون كيخوته سانتشو بألا يحاول الإمساك بالسيف للدفاع عنه إلا إذا كان المهاجمون من السفلة والرعاع. فالرجل المقدام في الماضي كان يتضايق من مدّ أتباعه يد المساعدة إليه.

وبينما هما في هذا الحديث، حدثت لهما أيضاً مغامرة البشكونشي، عندما خرج دون كيخوته ليحرر الأميرة التي يقتادها مسحورةً كاهنان من طائفة القديس بينيتو. وقد حاول الكاهنان تهدئة الفارس، فأفهم الغدرة اللئام أنه لا يعرفهما، وأنه لا نفع معه لذلك الكلام اللطيف المعسول. واندفع نحوهما فوراً واضطرهما إلى الفرار. وحين رأى سانتشو أحدهما مطروحاً على الأرض، انقض عليه لخلع ثوبه عنه، مستجيباً بذلك دون شك إلى المثل السائر بأن المسوح لا تصنع الراهب.

آه منك يا سانتشو، وكم أنت من تراب يا سانتشو! أتعري الرهبان من ثيابهم! ما الذي تكسبه من ذلك؟ لهذا جاءك اثنان من الخدم وأشبعوك ضرباً بسبب فعلتك.

ولاحظ هنا كيف أن سانتشو، ما إن وجد نفسه في مغامرة، حتى سارع من

فوره إلى الغنيمة، مؤكداً بذلك كم هو منتمٍ إلى سلالته. وقليلة هي الأشياء التي تزيد من سمو دون كيخوته أكثر من ازدرائه لثروات الدنيا. فالفارس يتحلى بأفضل ما في سلالته وشعبه. وهو لم يخرج إلى حملته كما خرج **السيد** «على مذاق المكاسب». ومن أجل «النسيان وإتباع الاستقامة» (*أنشودة السيد*، البيت 1689)، ولم يقل قطّ ما يقال إن فرانثيسكو بيثارّو[1] قد قاله في جزيرة الديك، عندما رسم بالسيف خطاً على الأرض، من الشرق إلى الغرب، وأشار إلى منتصف النهار على أنه وجهته، وهتف: «من هنا طريق الذهاب إلى البيرو لتصيروا أثرياء، ومن هناك طريق الذهاب إلى بنما لتصيروا فقراء، فليختر القشتالي الصالح ما يراه خيراً له». لكن دون كيخوته من معدن آخر؛ فهو لم يسعى قطّ إلى البحث عن الذهب. وحتى سانتشو نفسه الذي بدأ بالبحث عنه، سوف نراه يكتسب شيئاً فشيئاً الميل إلى المجد ومحبته، وإلى الإيمان به. وهو الإيمان الذي يقوده إليه دون كيخوته، ولا بد لنا من الموافقة على أن رجالنا فاتحي أميركا أنفسهم قد جمعوا على الدوام بين تعطشهم للذهب وتعطشهم للمجد، دون التوصل في كل حالة إلى فصل أحد الأمرين عن الآخر. ويقال إن فاسكو نونيث دي بالبوا[2] تحدث إلى رفاقه عن المجد والثراء معاً في ذلك اليوم المجيد، يوم الخامس والعشرين من شهر سبتمبر (أيلول) 1513، وهو جاث على ركبتيه تغمره السعادة، والدموع في عينيه، يعلن من فوق قمة جبال الأنديز، في دارين، عن اكتشاف البحر الجديد (المحيط الهادئ).

المحزن هو أن المجد كان في العادة قَوَّادة للطمع. والطمع، الطمع الخسيس، تسبب في ضياعنا. يمكن لشعبنا أن يقول ما يقوله الشعب البرتغالي في قصيدة *الوطن* العظيمة، للشاعر غيرّا جونكيرو:

---

[1] فرانثيسكو بيثارو Francisco Pizarro (1473- 1541) أحد قادة الغزو الإسباني في أميركا، وفاتح البيرو.

[2] Vasco Núñez de Balboa (1475- 1517): أحد قادة الغزو الإسباني، يُنسب إليه أنه هو من اكتشف المحيط الهادي، حين رأى من فوق جبال دارين، في برزخ بنما، أن هناك بحراً آخر غير الأطلسي في الجانب الآخر من البرزخ.

twitter @baghdad_library

رأيتُ عوالم جديدة، فضاءات جديدة،
ليس لمعرفة المزيد، ولا لمزيد من العشق؛
دافع ضارٍ قاد خطواتي،
كبرياء انتقام حركت ذراعي
وأشعلت بالغضب عيني!
لن تغسلك، لا، أيها الدم القاتل
ألف مليون سنة من البكاء...
صليب الجلجلة تُرجم حديداً،
سيفي، سيف الأبطال، صليب الموت،
صليب أنكر الرب ليمنحنا الحياة؛
رفع ممالك، أخضع الشرق،
لكن روح الرب... ليست شيئاً يذكر هنا...

بعد مغامرة سانتشو، هرع الفارس الكريم إلى الأميرة ليطلعها على الخبر الطيب بتحريرها، فالرهبان الذين كانوا يقتادونها مسحورة قد هربوا، دون أن ينتبه ـ وآه من عمى بصيرة النبالة! ـ إلى أنها ربما تحمل الكهنوت في أعماقها. وطلب منها أن تكافئه، مقابل تحريره إياها، بأن تعود إلى توبوسو وتَمثُل باسمه أمام دولثنيا. لم يولِ اهتماماً للباسكي الذي «تحدث إليه بلغة قشتالية ركيكة، وبباسكية أسوأ منها»، وهذا صحيح جداً، لأنه من المشكوك فيه أن يكون دون سانتشو دي أثبيتيا قد تحدث بالضبط مثلما جعله ثربانتس يتحدث. وكثيراً ما يقتبسون كلمات لدون سانتشو دي أثيبيتيا لمجرد التهكم ـ وإن يكن ذلك باحترام ومحبة أحياناً ـ من طريقتنا نحن الباسكيين في الحديث. صحيح أننا قد تأخرنا في تعلم لغة دون كيخوته، وسنتأخر أكثر في إجادة استعمالها على طريقتنا، ولكننا وقد بدأنا نجد فيها الآن روحنا، وكانت بكماء حتى الآن، فسوف تسمعون... وقد استطاع تيرسو دي مولينا أن يقول:

باسكيٌّ هو الحديد الذي أوصيكم به
قصير الكلام في الحديث، ولكنه طويل الباع في الفعال.

ولكن سيتوجب سماعنا عندما نطيل كلامنا على مقاس أفعالنا.

ومع أن دون كيخوته يسارع إلى تسمية كل من يصادفه بالفارس، إلا أنه أنكر على الباسكي هذه الصفة، متجاهلاً أن الباسكيين ـ وأنا واحد منهم ـ كما يقول تيرسو دي مولينا:

حفيد لنوح منحهم النُّبل،
فنبلهم لم يأتِ من وثيقة إثبات نسب.
ولا مزيج الدم، أو اللغة، أو اللباس،
فهذا فسيفساء خزي تزدريه عراقتهم.

ألم يكن دون كيخوته يعرف كلمات دون دييغو لوبيث دي هارو، كما جعله تيرسو دي مولينا يتكلم في المشهد الأول من الفصل الأول من مسرحية ***الفطنة عند المرأة***، حين يبدأ القول:

أربعة برابرة لدي من الأعوان،
لم تستطع روما غزوهم قطّ،
بلا سلاح، بلا أسوار، بلا خيول
يصونون حريتهم ببسالتهم العارية.

أولم يكن يعرف ما قاله كامونس في المقطع الحادي عشر من النشيد الرابع في قصيدته ***لوسياداس***:

الباسكيون خلو
من العقلانية المهذبة، ويعانون من الغبن
كثيراً في أعماقهم.

twitter @baghdad_library

وعلى الأقل، كانت ملحمة *أراوكانا* لدون ألونسو دي إرثيا آي ثوينيغا[1]، الفارس الباسكي، أحد الكتب الموجودة في مكتبته والتي احتُرمت عند الكشف والتصويت عليها، ولا بد أن يكون قد قرأ ما جاء في النشيد السابع والعشرين الذي يقول:

من خشونة فيثكايا القديمة،
وهذا مؤكد،
ولدت النبالة حقاً وانتشرت
في كل ما نراه من اكتشافات.

«أأنا لست فارساً؟» ـ أجاب الباسكي وقد اشتد به الغضب العادل، وتلاقى شخصان كيخوتيان وجهاً لوجه. ولهذا أسهب ثربانتس في رواية هذا الحدث.

وحين تحداه الباسكي، ألقى المانتشي رمحه واستل سيفه وحمل ترسه، واندفع نحوه.

الفصل التاسع
[وفيه تُختتم المعركة الرهيبة بين الباسكي والمقدام المانتشي الشجاع]

ونشبت الواقعة الفريدة أو «المعركة الرهيبة التي دارت بين الباسكي المقدام والمانتشي الشجاع» كما يدعوها ثربانتس في عنوان الفصل التاسع، مولياً إياها كل الاهتمام الذي تستحقه.

يمضي الآن ندٌّ لند، مجنون لمجنون، ويبدو أنهما يهددان السماء والأرض

---

(1) أروكانا La Araucana: ملحمة شعرية للشاعر الإسباني ألونسو دي إرثيا، يتغنى فيها بمآثر وبطولات الهنود الأروكانيين (أو المابوتشي) في تصديهم للغزو الإسباني جنوبي تشيلي، نُشرت عام 1569، وتعتبر أطول ملحمة في الشعر الإسباني.

والجحيم. ويا له من مشهد لم يُعرف له مثيل على امتداد عصور وعصور، مشهد الصراع بين شخصين كيخوتيين: المانتشي والباسكي، ابن السهوب، وابن الجبال الخضراء! [علينا أن نعيد قراءته كما رواه لنا ثربانتس.

«ألأنا لست فارساً؟» أنا لست فارساً؟ أيسمع باسكي هذا من فم دون كيخوته؟ لا، لا يمكنه تحمّل ذلك.

دعني يا دون كيخوته أتكلم عن دمي، عن عرقي، عن سلالتي، لأني أدين لها بما أنا عليه وبما أساوي، ولها أدين أيضاً بقدرتي على الإحساس بحياتك وأعمالك.

آه يا أرض مهدي، يا أرض آبائي وأجدادي، وأسلافي جميعهم. يا أرض طفولتي وصباي. أيتها الأرض التي اخترتُ فيها شريكة حياتي، يا أرض حبي، أنت قلب روحي! بحرك وجبالك يا بلاد الباسك هي التي جعلتني ما أنا عليه. من التراب الذي تجبل منه أشجار سنديانك وزانك وجوزك وكستنائك جُبل قلبي يا فيثكاياي.

في جدل بين شخص من آل مونتمورنسي ورجل باسكي، ووجد الأول نفسه يقول لمواطني في فورة نزق إن أصول آل مونتمورنسي تعود إلى القرن الثامن أو العاشر أو الثاني عشر (لست أذكر ذلك جيداً). فرد عليه مواطني الباسكي: هكذا؟ نحن أبناء بلاد الباسك لم نعد نعرف قِدم تاريخنا! وأقول إننا نحن الباسكيين لم نعد نحسب التاريخ. ولكننا نعرف من نحن، ومن نريد أن نكون.

وهاأنتذا ترى يا دون كيخوته أن باسكياً هو من ذهب بحثاً عنك في موطنك المنتشا، وهاجمك لأنك جادلت مشككاً في كونه فارساً. وكيف لا نتذكر في هذا المقام باسكياً آخر، ومن أثبيتيا بالتحديد، كيف لا نتذكر مرة أخرى ذلك الفارس الجوال الباسكي، ومن أثبيتيا أيضاً، المدعو إنييغو يانيث دي أونياث آي ساينث دي بالدا، من قرية لويولا، ومؤسس ميليشيا يسوع؟ ألا تبلغ به الذروة سلالتنا كلها؟ أليس بطلنا؟ ألا يتوجب علينا نحن الباسكيين أن نعلن مفاخرين أنه لنا؟ أجل، إنه لنا، لنا بالكامل، لنا أكثر مما هو لليسوعيين. فقد حولوا

twitter @baghdad_library

إغناثيو دي لويولا إلى إغناثيو دي روما، حولوا البطل الباسكي إلى قديس يسوعي. ولكم هو مؤسف أن البطل كان يمتطي بغلة!

وبتقافزها، ألقت مطية دون سانتشو دي اثبيتيا بالباسكي أرضاً، وهو ما يعلمنا وجوب أن نقاتل راجلين. وهكذا انهزم الباسكي، ولكن ليس لضعف في ذراعه، ولا لنقص في شجاعته، وإنما بسبب بغلته التي لم تكن باسكية في الواقع. فلولا البغلة اللعينة لمرّ دون كيخوته بلحظة عصيبة، كونوا على ثقة من ذلك، ولكان عليه أن يتعلم الاحترام وكبح جماح نفسه في مواجهة الحديد الباسكي.

قصير الكلام في الحديث، ولكنه طويل الباع في الفعال.

تعلموا يا أخوتي في الدم أن تقاتلوا راجلين، مترجلين عن البغلة النزقة الحرون التي تحملكم في مشيها إلى دروبها هي، لا إلى دروبنا ودروبي، لا إلى دروب روحنا، وبتقافزها تلقي بكم أرضاً، ما لم يحل الرب دون ذلك. ترجلوا عن تلك البغلة، فهي لم تولد هناك، ولا ترعى هناك، ولننطلق جميعنا لاقتحام مملكة الروح. حتى وإن لم يكن معروفاً لنا ما الذي قد نستطيع عمله في عالم الرب ذاك. وتعلّموا في الوقت نفسه أن تجسدوا أفكاركم في لغة ثقافة متخلين عن لغة آبائنا المغرقة في القِدم. ترجلوا عن البغلة بعد ذلك، وروحنا، روح سلالتنا ستُحيط بهذه اللغة، بلغة دون كيخوته، العوالم كلها، مثلما أحاطت بالعالم، أول مرة، سفينة مواطننا سيباستيان إلكانو، ابن جيتاريا القوي، ابن جيتاريا التي هي ابنة بحرنا الباسكي.

وبفضل تدخل السيدتين المترهبتين عفا دون كيخوته عن حياة دون سانتشو دي أثبيتيا، مع الوعد بأن يذهب لزيارة دولثنيا. وكانت السيدتان هما اللتان قدمتا هذا الوعد، ولو أن دون سانتشو هو الذي وعد، لقام بالزيارة بكل تأكيد، ولكان في أغلب الظن قد هامَ حباً بدولثنيا وهامت هي نفسها به.

الفصل العاشر

[وفيه الآراء الشيقة التي تبادلها دون كيخوته وتابعه سانتشو بانثا]

ويأتي سانتشو، سانتشو الجسد، سيمون بيدرو فارسنا[1]، ويطلب منه الجزيرة، فيجيبه دون كيخوته: «انتبه يا أخي سانتشو، فهذه المغامرة وما يشبهها ليست مغامرات جزر، بل مغامرات مفترقات دروب، لا يكسب أحدنا منها سوى الخروج محطم الرأس أو مصلوم الأذن». آه يا بطرس، يا بطرس، بل أقول يا سانتشو، يا سانتشو! متى ستدرك أن مكافأتك ليست الجزيرة، ولا السلطة الدنيوية، وإنما مجد سيدك، والحب الأبدي؟ ولكن سانتشو الجسد يعاود الإلحاح ويطلب من سيده أن يلوذا بإحدى الكنائس خوفاً من الأخوة المقدسة. ولكن «أين رأيتَ أو قرأتَ - نردُ عليه مع دون كيخوته - أن فارساً جوالاً قد قُدم للمحاكمة، مهما ارتكب من أعمال القتل؟» من يحتضن القانون في قلبه يكون فوق ما يمليه البشر من قوانين، ولا قانون له سوى حبه. وإذا هو قَتَل من أجل الحب، فمن ذا الذي سيجده مذنباً؟ كما أن لدى دون كيخوته سلطة أكبر مما يحتاج إليه لإخراج السانتشوات «من أيدي الكلدانيين»، فكم بالحري من أيدي الأخوة المقدسة.

وحدث بعد ذلك أن شرح دون كيخوته لسانتشو فوائد بلسم فييرابراس، وطلب سانتشو من دون كيخوته أن يعطيه طريقة تحضير البلسم كأجر وحيد له على خدماته. فهكذا هم الخدم الجسديون، مهما كان إيمانهم عظيماً: يطلبون وصفات التحضير ليبيعوها ويتاجروا بها. وعندئذ أقسم الفارس على أن يستولي على خوذة ممبرينو بدلاً من الخوذة التي كسرها دون سانتشو دي اثبيتيا. وهنا أعاده البطن إلى صوابه وطلب الطعام.

بصلة وقليل من الجبن، لا أكثر، هو ما جاء به سانتشو، وبدا له أنها مأكولات لا تليق بفارس على مثل تلك الشجاعة، ولكن الفارس أخبره يفخر

---

[1] سيمون بيدرو المقصود هو القديس بطرس الذي أنكر السيد المسيح

twitter @baghdad_library

«بالامتناع عن الأكل طوال شهر، وحين يأكل يُطعم من أي شيء في متناول اليد». «وستتأكد لك صحة ذلك لو أنك قرأت من القصص بقدر ما قرأتُ. وبرغم وفرة ما قرأتُ منها لم أجد فيها أدنى ذكر لأكل الفرسان الجوالة، اللهم إلا عرضاً وفي مآدب حافلة تقام لهم. أما بقية أيامهم فيقضونها على الطوى». وكم ستكون السعادة يا سيدي دون كيخوته لو أننا نستطيع تمضية الحياة كلها على الطوى. فمن الأكل يأتي، مع القوة كلها، ضعف البطولة كله أيضاً.

وعندئذ، بينما كان دون كيخوته يشرح لسانتشو كيف أن الفرسان الجوالة «لا يمكنهم تمضية عمرهم دون طعام ودون قضاء حاجاتهم الطبيعية»، كشف له، وكشف لنا، حقيقة أساسية وذات سلوى عظيمة لمن لا يعرفون كيف يعيشون جنونهم، ألا وهي حقيقة أن الفرسان الجوالين هم «بشر مثلنا». وهو ما يُستنتج منه أنه بإمكاننا نحن أيضاً أن نصبح فرساناً جوالين، وهذا غير قليل. «ولهذا لا تحزن يا صديقي سانتشو من أمر يجلب لي البهجة، ولا تحاول صنع عالم جديد، أو تحويل الفروسية الجوالة عن طبعها.» لا، يا سانتشو المسكين، لا تحاول صنع عالم جديد تُشفي فيه ذوي السخاء من جنونهم، ولا حتى تحويل الجنون عن طبعه المزهو به، والسوي كالحكمة ذاتها، مثلما هو ذاك المسمى الحس السليم. ولأن سانتشو لا يعرف القراءة ولا الكتابة، فإنه غير مطلع على قواعد مهنة الفروسية، كما قال هو نفسه. وما قلتَه يا سانتشو صحيح تماماً: فعن طريق الكتابة والقراءة دخل الجنون إلى العالم.

الفصل الحادي عشر

[وفيه ما جرى لدون كيخوته مع رعاة الماعز]

واصلا المسير واستقبلهما بعض رعاة الماعز الطيبين بالترحاب. وقد كافأهما الرب بأن جعل الرعاة يدعونهما إلى الطعام. تقبل دون كيخوته الدعوة، وجلس

على مذود مقلوب، وأجلس سانتشو بكل أخوية إلى جانبه، وعندما أشبع دون كيخوته معدته، أخذ في كفه حفنة من ثمار البلوط، ووجه إلى الرعاة ذلك الخطاب حول العصر الذهبي الحافل بأمثلة البلاغة. ولكننا لسنا بصدد ممارسة الأدب هنا، وليس همنا الكلمات الرنانة، وإنما الروح الخصبة حتى لو كانت صامتة. وذلك الخطاب هو واحد من الخطابات الكثيرة المبتذلة التي تلقى، وذلك العصر الذهبي الماضي، هو وميض منطفئ للعصر المقبل الذي سيموت فيه الذئب مع الحمل، وسيأكل فيه الأسد التبن مثل الثور كما تروي لنا رؤيا النبي أشعيا (الفصل الثاني).

الخطاب الحماسي بحد ذاته لا يتضمن الكثير من الكشف. «ما أسعد العصور وأهنأ القرون التي أطلق عليها الأوائل اسم العصر الذهبي...» وما يلي ذلك. ولا يفاجئنا سماع دون كيخوته يتغنى بالأزمنة الماضية. إن رؤيا الماضي هي التي تدفعنا لاقتحام المستقبل؛ فمن أخشاب الذكريات نركّب آمالنا. والماضي وحده هو الجميل، فالموت يجمل كل شيء. أتظنون أن الجدول حين يصل إلى البحر، ويواجه الهاوية التي ستبتلعه، لا يحلم بالينبوع الخفي الذي انبثق منه، ولا يريد، لو استطاع، أن يكبح مجراه؟ أن يفضل الذهاب ليضيع في أحشاء الأرض الأم؟

ليس خطاب دون كيخوته هو ما يجب علينا كشف مضامينه. فكلمات الفارس لا تفيد ولا نفع فيها إلا حين تكون تعليقاً على أفعاله وأصداء لها. ففي الكلام، كان يتكلم وفق قراءته ومعرفة القرن السعيد الذي أظله. أما في الأفعال، فكان يفعل وفق إيحاء قلبه والمعرفة الأبدية. وهكذا فإنه في هذا الخطاب، ليس الخطاب بحد ذاته، وهو خطاب ضئيل الحصيلة، هو ما يجب علينا تقديره، وإنما واقع أنه يوجهه إلى رعاة ماعز جهلة لا يمكن لهم أن يفهموه، وفي ذلك تكمن بطولة هذه المغامرة.

وإنها لمغامرة بالفعل، ومن أكثر المغامرات بطولة. لأن كل كلام هو حظ، وفي معظم الأحيان من أشد أنواع الفعل مشقة، والمغامرة البطولية تكمن في توجيه سر الكلمة إلى من لن يستطيعوا فهمها بالمعنى المادي. ولا بد من إيمان روحي راسخ

twitter @baghdad_library

من أجل التكلم هكذا إلى ذوي الأذهان البليدة، وثقتنا بأنهم دون أن يفهمونا سيفهموننا، وأن البذرة ستتوغل في دهاليز روحهم دون أن يشعروا بذلك.

وتكلم أنت يا من تقدّر مثلي حياة دون كيخوته، ويملأ قلبك الإيمان بها. تكلم حتى لو لم يفهموك، لأنهم سيفهمونك في النهاية. وسوف تكفي مجرد رؤيتهم أنك تكلمهم دون أن تطلب منهم شيئاً أو لأنهم أعطوك قبل ذلك شيئاً من تلقاء أنفسهم. تكلم إلى رعاة الماعز مثلما تتكلم إلى ربك، من أعماق قلبك وباللغة التي تحدث بها نفسك على انفراد وبصمت. وكلما كانوا يعيشون في استغراق أكبر بحياة الجسد، تكون أذهانهم نقية أكثر من غشاوة الضباب، وستجد كلماتك في تلك الأذهان صدى أفضل مما تجده في أذهان المجازين على طريقة شمشوم كاراسكو. لم تكن بلاغة دون كيخوته هي التي أنارت عقول المعّازين، وإنما رؤيتهم له مسربلاً بدروعه، والرمح إلى جانبه، وثمار البلوط في يده، يجلس على المذود، ويطلق في الهواء الذي يتنفسونه جميعهم كلمات رنانة بصوت عامر بالحب والأمل.

لن يعدم من يرى أنه كان على دون كيخوته أن يتكيّف مع الجمهور الذي يستمع إليه، فيتحدث إلى المعّازين في مسألة تربية الماعز، وبطريقة تُخرجهم من شرطهم الأدنى كرعاة ماعز. هذا ما كان يمكن أن يفعله سانتشو لو أنه أوتي المعرفة والقدرة على ذلك؛ أما الفارس فلا. فدون كيخوته يعرف جيداً أنه لا وجود إلا لقضية واحدة، وهي القضية نفسها للجميع، وأن ما يخَلِّص الفقير من فقره، يخَلِّص الغني أيضاً من غناه. ولتسقط العلاجات المعدّة للمناسبات. أما من يذهبون ويجيئون ويجهدون أنفسهم بإحضار وأخذ علاجات محددة لأمراض هؤلاء أو أولئك، يكفي أن نواجههم بما يقوله الغاوتشي مارتين فيرّو:

من الأمراض التي نعانيها
يكثر حديث أهالي القرى،
ولكنهم يفعلون كما طيور التيرو

حين تخفي أعشاشها،
فهي تطلق الصراخ في جانب
بينما بيوضها في جانب آخر.

فعندما يتحدثون إليكم، أيها الرعاة الساذجون، عن مسألة تربية الماعز، فإنهم يطلقون الصراخ لإبعادكم عن المكان الذي يخبئون فيه بيوضهم.

أضف إلى ذلك، هل ينبغي التكلم فقط عن الثمرة التي سيجنيها مستمعونا في مستقبل قريب مما نقوله؟ لقد تناول بالبحث هذه المسألة المعلم الروحي الأب ألونسو رودريغث في الفصل السابع عشر من المبحث الأول في القسم الثالث من كتابه «*ممارسة الكمال*»، حيث يقول لنا: «لا تعتمد جدارتنا، ولا إتقان عملنا، على استفادة الآخر أو عدم استفادته منه؛ وإنما يمكن لعملنا أن يضيف، قبل ذلك، شيئاً آخر يكون عزاء لنا، أو بكلمة أفضل، يكون عزاء لغمنا، ذلك أن جدارتنا ومكافأتنا وجائزتنا لا تعتمد على تحول الآخرين واستخلاصهم فائدة كبيرة من عملنا، وإنما يمكننا القول، بطريقة ما، إننا نستحق الجدارة حين لا يكون هناك شيء من هذا أكثر مما حين تكون النتائج ظاهرة للعيان».

وخطاب دون كيخوته هذا للرعاة، هل كان أقل بطولة وأكثر انعدام جدوى من ذاك الخطاب الذي ألقاه فرانثيسكو بيثارّو على الهنود في بيت الهندية كابيّانا على مقربة من سانتا كروث ليشرح لهم أسس الديانة المسيحية، وعظمة ملك قشتالة؟ لقد أحرز خطابه شيئاً من النجاح، ذلك أن الهنود، من أجل إرضائه، رفعوا الراية الإسبانية عالياً ثلاث مرات. لم يكن منطق بيثارّو غير مجد بالكامل، مثلما لم تكن حجج دون كيخوته كذلك.

لقد دعا ثربانتس الماكر، وبحق، الخطاب بالـ«المنطق غير المجدي»، ليضيف أن رعاة الماعز استمعوا إليه «مبهورين ومذهولين». وحقيقة القصة تفرض نفسها هنا، فإذا كان دون كيخوته قد بهرهم وأذهلهم بمنطقه، فهذا يعني أن خطابه لم يكن عديم الجدوى. والدليل على ذلك هو في تكريمهم له بتسليته وإمتاعه بأغنية

twitter @baghdad_library

غرامية. ولأن الروح تنتج الروح، مثلما ينتج الحرف الحرف، واللحم اللحم، فإن خطاب دون كيخوته أيضاً قد أنتج غناء على أنغام الرباب الماعزية. وإذا كان الشعب لم يفهمها، فإنه يشعر، مع ذلك، بحكة لتفهمها. وحين يسمعها، ينطلق بالغناء.

وبينما دون كيخوته، بوحي من ثمار البلوط، يهدي إلى المعَّازين تلك الخطبة الحماسية، ما الذي فعله سانتشو؟ «ظل سانتشو صامتاً، يأكل ثمار البلوط، ويكثر من التردد على زق آخر معلق على شجرة فلين ليظل النبيذ فيه بارداً». ويقول مخاطباً نفسه: «ليتهم يعطونني إياها كلها!».

أما ما فكر فيه سانتشو بشأن خطاب سيده، فلا أدريه، ولكني أعرف ما الذي يفكر بشأنه سانتشوات أيامنا هذه. فهؤلاء يبحثون قبل كل شيء عما يسمونه الحلول الملموسة، وحين يصغون إلى ما يقوله أحدهم، فإنهم يريدون سماع ما يقدمه من علاج لأمراض الوطن أو أية علل أخرى. فقد عودوا آذانهم على سماع الثرثارين الذين يصعدون فوق عربة في ساحة السوق، ليبيعوا قوارير أية عقاقير، وما يكاد يتكلم إليهم أحد، إلا ويتوقع أن يُخرج العقار المعلب. وبينما هو يتكلم إليهم، يظلون صامتين ومنهمكين في أكل ثمار البلوط، ثم يتساءلون بعد ذلك: حسن، ما هو المقصود بالملموس؟ فكل ما له علاقة بالعصر الذهبي يدخل من إحدى أذنيهم ليخرج من الأخرى. فما يبحثون عنه هو إكسير لعلاج وجع الأسنان أو داء المفاصل، أو لإزالة البقع عن الثياب؛ يبحثون عن الشراب المجدد للحيوية، أو البلسم الكاثوليكي، أو العقار المحوّل المضاد للإكليروس، أو اللزقة الجمركية، أو القطرة السائلة. ويسمون ذلك كله الحلول الملموسة. يقدّرون أن الكلام لم يصنع إلا من أجل طلب شيء أو عرضه، وما من طريقة لجعلهم يشعرون بما في موسيقى الروح الداخلية من كشف، لأن الموسيقى الخارجية التي تُبهج أسماعهم الجسدية، هي التي لا يتوقفون عن فهمها وتقديرها، بل هي الهدية الوحيدة التي يسمحون بها. وإذا ما جرى التحدث إليهم، فإما أن يكون ذلك لمداعبة أسماعهم بمقاطع إيقاعية على وقع طبل، وإما لتعليمهم وصفة استخدام منزلي أو سياسي.

حلول ملموسة! آه أيها السانتشيون العمليون، المولودون والمترعرعون في أمكنة لا تُسمع فيها سوى ثرثرات غرف الجلوس المشمسة والمواعظ الدينية، ولكن الأصعب من ذلك هو الحديث إلى المجازين. من الأفضل أن يكون المستمعون رعاة معزى مهيئين ومعتادين على سماع صوت الحقول والبراري. أما الآخرون فسوف يخرجون لكم بأنهم لم يفهموكم، أو أنهم يفهمون بصورة معوجة ما تقولونه لهم، لأنهم لا يتلقون كلماتكم بصمت داخلي ولا باهتمام بِكر، ومهما أرهفتم شروحكم فإنهم لن يرهفوا فهمهم.

إنه لأمر كثير التواتر، حيثما يتجه أحدنا في بلدنا إسبانيا ناثراً حقائق القلب، أن يعترضوا طريقه قائلين إنهم لا يفهمونه أو يفهمونه خلافاً لما يقوله. وهم محقون في ذلك، لأن الناس يذهبون ليسمعوا في هذا أو ذاك أو غيره، شيئاً قيل لهم من قبل، وليس لسماع ما يقال لهم الآن. البعض منهم اكليريكيون، والآخرون ضد الإكليروس، هؤلاء اتحاديون أو مركزيون، وأولئك اتحاديون أو إقليميون، من هم هنا تقليديون، ومن هم هناك تقدميون، وجميعهم يريدون أن تخاطبهم بإحدى لغاتهم. إنهم يصارعون بعضهم بعضاً، لكنهم يتصارعون كما يضطر إلى فعل ذلك المصارعون الأرضيون: على الأرضية نفسها، وفي المستوى نفسه، ومواجهة. وإذا ما صحت بهم من مستوى آخر، أعلى أو أدنى من المستوى الذي يشغلونه، فإنك ستصرفهم عن مصارعاتهم ولن يفهموا ما الذي ترمي إليه. فلسان حالهم يقول: إذا كنا نتصارع، فأهلاً وسهلاً بمن يأتي إلينا ليشجعنا بالصراخ: «عليكم بهم! إلى الأمام!» أو لينبهنا إلى خطر بالصراخ: «احذروا! تراجعوا!». ولكن من ذا الذي يصرخ بنا من بين الغيوم أو من باطن الأرض طالباً منا أن نرفع بصرنا عالياً أو أن نصوبه إلى الأرض؟ ألا يرى أن الأعداء سيتمكنون من ذبحنا في أثناء ذلك؟ فعندما يدور الصراع لا يعود بالإمكان النظر إلى السماء أو اختراق باطن الأرض بالبصر. إنهم يقولون: لا يرون أنكم تعرضون عليهم سلاماً، وكل فئة تروي لكم الأمر بصورة مناقضة. ولا يبقى لكم سوى الذهاب للتحدث إلى السذج، والتحدث إليهم حتى دون

twitter @baghdad_library

محاولة النزول إلى مستواهم. التحدث إليهم بالنبرة الأكثر علواً، واثقين من أنهم دون أن يفهموكم سيفهموكم.

سانتشو وحده، سانتشو الجسدي، كان أكثر استعداداً للنوم منه لسماع الأغاني، دون أن يدرك فضيلة المواساة في الأغاني.

الفصلان الثاني والثالث عشر
[في ما رواه أحد الرعاة لمن كانوا مع دون كيخوته وتتمة قصة الراعية مارثيلا، وحوادث أخرى]

وكان أن روى بيدرو المعّاز لدون كيخوته قصة كريسوستومو ومارثيلا، بعد ذلك التكلف الذي صحح به الفارس المتعلم بعض مفردات الراعي. وقد كان دون كيخوته، وعلينا عدم إنكار ذلك، سفيهاً حين أتخذ دور المثقف.

وذهب الفارس ليرى كيف سيدفنون كريسوستومو الذي مات حباً بمارثيلا، وأثناء ذهابه التقى بفيفَلدو وتبادل الحديث معه حول الفروسية الجوالة، المهنة التي إن لم تكن بمثل ضيق وقسوة أخوية الرهبان الكرتوزيين، إلا أنها تدانيها في حاجة العالم إليها، حيث يمكن للمثل الأعلى صعب المنال وحده أن يعلّم هؤلاء كيف يضعون هدفهم أبعد مما تبلغه جهودهم. وهكذا فإن سباق الخيل الذي لا يفيد إلا في تربية خيول للسباق، يحافظ على سلالات الخيول بالحيلولة دون استخدامها في الجر وإدارة النواعير والأعمال الخسيسة التي تصيب الحيوان الكريم بالهزال. وفي المفاضلة بين المهنتين؛ مهنة التوجه إلى السماء في طلب الخير للأرض، ومهنة إنجاز ما طُلب، بحمل رمح لإقامة مملكة الرب التي يُطلب مجيئها بالصلوات، لا نجد مجالاً لمقام أول ومقام ثانٍ. فيضيف دون كيخوته:

«فنحن إذاً وزراء الله على الأرض والسواعد التي يمارس بواسطتها عدالته»

ألم يكن جذر مآثرك ونكباتك، أيها الفارس التعيس، ومعها الخطيئة النبيلة

التي من أجل تنقيتها أوصلتك حبيبتك دولثنيا إلى المجد، كامناً في اعتقادك هذا بأنك من وزراء الرب على الأرض والساعد الذي تُمارس به العدالة؟ لقد كانت تلك هي خطيئتك الأصلية، وخطيئة شعبك: الخطيئة الجماعية التي شاركتَ في لطختها وشؤمها. فشعبك أيضاً، أيها الفارس المتكبر، ظن أنه وزير الرب على الأرض، وساعده الذي يمارس به عدالته، فدفع غالياً جداً ثمن غطرسته ومازال يدفع الثمن. لقد ظن أنه مختار من الرب فأوقعه ذلك في الغطرسة.

ولكن، ألم يكن على حق؟ ألسنا جميعنا وزراء الرب على الأرض والسواعد التي يمارس بها العدالة؟ ألا يكون اقتناعنا بهذه الحقيقة هو العلاج الحقيقي لتطهير أعمالنا وجعلها نبيلة؟ وبدلاً من البحث عن عمل أشياء أخرى غير التي تعملها، أقنع نفسك، وأنت تناضل ضد عاداتك، بأنك في كل ما تفعله، سواء أكان صالحاً أو طالحاً في رأيك، تكون وزيراً للرب على الأرض، وذراعاً يمارس بها عدالته عليها، فيحدث عندئذ أن ينتهي الأمر بأعمالك كلها إلى أن تكون صالحة. قدّر أنها آتية من الرب ولسوف تؤلهها. هنالك تعيس يحمله ما ندعوه بلغة البشر الانحراف الطبيعي أو خبث الجبلة إلى أن يكون سوطاً لآخر، فإذا ما أدرك ذلك التعيس أن الرب هو من وضع في يده سوط القصاص ذاك الذي نسميه خبث الجبلة، فسوف يمنحه ذلك ثماراً من الطيبة.

لا تتمسكوا بوجهة النظر القانونية البائسة بالحكم على فعل إنساني بنتائجه الخارجية والضرر الآني الذي يحل بمن تعرض له؛ بل توصلوا إلى المعنى الحميم وأدركوا كم عمق الشعور والتفكير والمحبة المتضمن في حقيقة أن ألماً نتكبده بنية طاهرة خير من منفعة نتلقاها بنية خبيثة.

إنهم يشتمونك يا شعبي، لأنهم يقولون إنك ذهبت لفرض ديانتك بحدّ السيف، والمحزن أن الأمر لم يكن كذلك بالكامل، وإنما أنت ذهبت أيضاً، وبصورة أولية أكثر بكثير، لتنتزع الذهب ممن جمعوه، ذهبت لتسرق. لو أنك ذهبت فقط لفرض ديانتك... إنني أثور ضد من يجيء، شاهراً سيفاً بيمناه وكتاباً، راغباً في إنقاذ روحي بالرغم مني، لكنه في النهاية يعنى بي وأنا في نظره

twitter @baghdad_library

إنسان ؛ ولكن ذاك الذي لا يأتي إلا لينتزع ممتلكاتي بخداعي بزينات وتوافه رخيصة، فلستُ في نظره إلا زبوناً، أو مرتاد حانة، أو مناوباً. واليوم يجري تفحص ذلك وطلب مجتمع لا يمكن فيه لمجرد أن يُحدث ضرراً، وننتهي لأنه لا أحد يتصرف بسوء، وإن لم يكن هناك من يشعر بأنه على ما يرام كذلك. يا له من شرط حياة رهيب! ويا له من غم تحت خُضرة هادئة! ويا لها من بحيرة مياه مسمومة! لا، لا، وألف لا! فليمنحنا الرب أولاً عالماً يشعر فيه الجميع بأنهم على ما يرام، حتى ولو كان الجميع يعملون بخبث؛ عالماً يتبادل فيه البشر الضرب بعمى المحبة، ونتألم فيه جميعنا بصمت بسبب الشر الذي نجد أنفسنا منجرفين فيه لإنزاله بالآخرين. كن كريماً وانقض على أخيك؛ أعطه من روحك وإن يكن ضرباً. هنالك ما هو أشد حميمية من هذا الذي نسميه أخلاقاً، وليس هو إلا الاجتهاد الذي يفلت من الشرطة؛ هنالك ما هو أعمق من الوصايا العشر، وهو لوح الشريعة. لوح، والشريعة!: هنالك روح حب.

ستقولون لي إنه لا متسع لشعور طيب دون عمل طيب، وإن الأعمال الطيبة تنبثق، كما من ينبوعها، من المشاعر الطيبة، ومنها فقط. ولكني سأرد عليكم، مع بولس دي تارسو، بأنني لا أفعل الخير الذي أريد، وإنما أفعل الشر الذي لا أريد، وسأضيف قائلاً لكم إن الملاك الهاجع فينا يستيقظ عادة عندما تسحبه البهيمة التي فينا، وحين يستيقظ يبكي عبوديته ونكبته. كم من المشاعر الطيبة تنبثق من أعمال خبيثة أوصلتنا إليها البهيمية.

وواصل دون كيخوته تداول خواطره مع فيفالدو حول تسليم الفرسان الجوّالة أمرهم إلى حبيباتهم قبل الله، وبعد أن يقدم الأسباب التي كان قد قرأها، يصل إلى إنه لا يمكن للمرء أن يكون فارساً جوّالا بغير سيدة تلهمه «لأنه من سماتهم وطبيعتهم أن يكونوا عاشقين، مثلما من طبيعة السماء أن يكون فيها نجوم، ومن المؤكد أنه لم تُر قصة فيها فارس جوال بلا غراميات. وإن وجد في حالة نادرة من هو بلا غراميات، فلن يُعد فارساً شرعياً وإنما هو سيكون نغلاً لم يدخل حصن تلك الفروسية من بابها، وإنما متسلقاً جدرانها كقاطع الطريق واللص».

انظر هنا كيف أنه من حب المرأة تنبثق كل البطولات. من حب المرأة انبثقت أخصب وأنبل المُثل العليا، من حب المرأة انبثقت أعظم المدارس الفلسفية. وفي حب المرأة يكمن الشغف بالخلود، ففيه تتغلب غريزة حب البقاء وتسود على غريزة حفظ النوع، مانحة الأفضلية بذلك لما هو جوهري على ما هو محض تكلف. الشغف بالخلود يدفعنا إلى حب المرأة، وهكذا جمع دون كيخوته في شخص دولثنيا بين المرأة والمجد، ولأنه لا يستطيع من خلالها بلوغ الخلود عبر إنجاب أبناء من لحم، فقد بحث عن الخلود من خلالها عبر مآثر روحية. لقد كان عاشقاً، ولكنه ممن يعشقون بعفة واعتدال، مثلما قال هو نفسه في مناسبة أخرى. فهل أخلّ بعفته واعتداله بالحب أخيراً؟ لا، لأنه أنجب من دولثنيا أبناء روحيين دائمين. ولو أنه متزوج لما كان باستطاعته أن يكون بمثل ما هو عليه من جنون، لأن كان يمكن للأبناء الذين من لحم أن يبعدوه عن مآثره ومغامراته.

لم يُثقل عليه أمر العناية بامرأة تقيد جناحي غيره من الأبطال، لأنه كما يقول الرسول (1- 7- 33) «أما المتزوج فيهتم بما في الدنيا، وكيف يُرضي امرأته فيتوزع».

وحتى في أشد الأنظمة الروحية نقاء، حيث لا وجود لأي ظل من الخبث، من عادة الرجل البحث عن سند له في المرأة، مثلما يستند فرانثيسكو دي اسيس إلى كلارا؛ أما دون كيخوته فبحث عن سند له في سيدة من بنات أفكاره.

وكم تُثقل المرأة! فإغناثيو دي لويولا لم يشأ قطّ أن يكون في فرقته الدينية نساء يأتمرن بأمرها (ريبادينيرا، الكتاب الثالث، الفصل الرابع عشر). وحين حاولت دونيا إيزابيل دي روسل تشكيل جماعة نساء تحت أمرة فرقته، توصل لويولا إلى حمل البابا بولس الثالث على إعفائها من هذه المهمة في رسالة رسولية بتاريخ 20 أيار عام 1547 «فهذه الفرقة الصغيرة ـ قال إغناثيو ـ لا يناسبها أن تضم وظيفة خاصة لسيدات ينذرن الطاعة». وليست المسألة في أنه كان يزدري المرأة، ذلك أنه كان قد كرَّمها في ما هو أشد انحطاطاً ودناءة فيها. وإذا كان دون كيخوته قد كُرِّس فارساً بأن قلدته السيف وثبتت مهمازه فتاتان

twitter @baghdad_library

من بنات الهوى، فإن إغناثيو دي لويولا كان يرافق، هو شخصياً، وسط مدينة روما «نساء عموميات ساقطات» ليضعهن «في دير سانتا ماريا أو في بيت سيدة نزيهة ومحترمة، حيث يتدربن في أجواء من الفضيلة التامة». (انظر ريبادينيرا، الكتاب الثالث، الفصل التاسع).

كان دون كيخوته عاشقاً، ولكنه من العاشقين الوقورين المتعففين، وليس لأنه يجب أن تكون للفرسان الجوالة سيدة يسلمون إليها حبهم ـ كما كان يقول، مع أننا سنرى أن واحدة أخرى ظلت في أعماقه ـ من أجل اكتمال الطقوس. وربما لن يعدم شاب طائش يرى في ذلك مسوغاً للاستهانة بدون كيخوته، لأن هناك منهم من يختزل قيمة الرجل كلها بما يقوم به من مغامرات غرامية؛ أي تلك التي تسمى غراماً في مرحلة عمرية معينة من الحياة. ولست أذكر من هو الذي قال، ولكنه قول صائب أياً يكن قائله، إن من يكثرون من الحب، يكون الحب ـ وحب النساء هو المقصود ـ شأناً ثانوياً في حياتهم، ولكنه أساسي فيمن يحبون قليلاً. هنالك من لا يحكمون على حرية روحٍ إلا حسب إحساسها في مسألة الحب؛ وثمة فتيات يرين أن قيمة الشاعر كلها تُختزل في كيفية شعوره بالحب.

ما الذي سيقوله الوقور المتعفف دون كيخوته لو أنه عاد إلى الدنيا ورأى وابل مثيرات الشهوة الجسدية التي يحاولون أن يحرفوا الحب بها؟ ما الذي سيقوله عن كل هذه الصور لنساء ساقطات في أوضاع مثيرة؟ من المؤكد أنه سينقض عليها، مدفوعاً بحبه لدولثنيا، حبه النبيل والطاهر، ويطيح بها وبكل تلك الدكاكين التي تُعرض لنا فيها هذه الموبقات، مثلما انقض على مخازي مسرح دمى المعلم بيدرو. فهي تبعدنا عن حب دولثنيا، عن حب المجد. ولأنها إغراءات بديمومتنا، فإنها تبعدنا عن الخلود. وهل من سبيل إلا بالتخلي عن خلود الجسد إن كنا نبغي خلود الروح.

لقد أحب دون كيخوته دولثنيا حباً ناجزاً وكاملاً، حباً لا يسعى وراء متعة أنانية وخاصة، فأسلم نفسه إليها دون أن يسعى إلى أن تستسلم هي إليه. وقد انطلق في الدنيا لتحقيق مجد وأكاليل غار ليحملها ويقدمها بعد ذلك عند قدمي

حبيبته. لقد انهمك دون خوان تيتوريو في السعي لدفع حبيبته إلى الاستسلام له لامتلاكها وإشباع شهوته منها، لا شيء سوى الاستمتاع بها وإشاعة ذلك على الملأ. أما دون كيخوته فلا. فدون كيخوته لم يذهب مغازلاً إلى التوبوسو كي يُغرم بها، وإنما انطلق في العالم ليستولي عليه من أجلها. وهذا الذي يسمونه حباً، هل هو عادة أكثر من أنانية بائسة مشتركة يبحث فيها كل من العاشقين عن تلبية رغباته الخاصة؟ أوليس فعل اجتماعهما الأعلى هو أيضاً أعلى انفصال بينهما؟ لقد أحب دون كيخوته دولثنيا حباً ناجزاً، دون المطالبة بأن تبادله الحب؛ قدم نفسه كاملاً لها.

أحب دون كيخوته المجد مجسداً في امرأة. وبادله المجد بالمثل. «أطلق دون كيخوته زفرة عظيمة وقال: لا أستطيع أن أؤكد ما إذا كانت عدوتي الحلوة تريد أو تخشى أن يعلم الناس أني خادمها»، ثم كل ما يلي ذلك. أجل، يا عزيزي دون كيخوته، أجل؛ فعدوتك الحلوة، دولثنيا، تنقل من مكان إلى آخر، ومن عصر لعصر، مجد جنون حبك. فنسبها، وسلالاتها، وعراقتها «ليست من سلالة كورتيوس أو كايوس أو شبيون الرومانية القديمة، ولا من سلالة كولونا أو أورسيني الرومانية الحديثة» ولا من أي عائلة من العائلات المشهورة في مختلف البلدان التي ذكرها دون كيخوته لفيفالدو. «وإنما هي من آل توبوسو دي لامانشا، وهي أسرة إن تكن حديثة العهد، فإنه يمكن لها أن تكون بداية كريمة لأشهر الأسر في القرون المقبلة». وبهذا عرّفنا النبيل العبقري أن جذور المجد تكمن في المكان نفسه والعصر نفسه الذي يعيش المرء فيه. ولا يظل باقياً لعصور مديدة وفي اتساعات فسيحة إلا المجد الذي يتجاوز مكانه وزمانه الخاصين لأنه ملأهما بسالة وجبناً. فالكوني يصارع الكوزموبوليتي، وكلما كان المرء ابن بلاده وعصره أكثر، يكون ابن البلدان والعصور كلها. ودولثنيا هي ابنة قرية توبوسو.

والآن، يا صاحبي دون كيخوته، خذني معك على انفراد، لأنني أريد أن نتحدث حديث القلب للقلب، وما لا يجرؤ كثيرون على البوح به لأنفسهم بالذات. هل صحيح أن حبك للمجد هو الذي حملك إلى أن تجسد ألدونثا

twitter @baghdad_library

لورينثو، وقد همت بها حباً ذات يوم، في صورة دولثنيا، أم أن حبك المشؤوم للفتاة الفلاحة ذات المظهر المقبول، ذلك الحب الذي «لم تدر هي به، ولم تعلم بأمره قطّ» هو الذي حوّلك إلى حب للخلود؟ اسمع يا صديقي النبيل الطيب، أنا أعرف كيف يستولي الخجل على قلوب الأبطال، ويبدو واضحاً كم كنت تتأجج رغبة في ألدونثا لورينثو دون أن تجرؤ قط على دعوتها لغراميات. فأنت لم تستطع كسر الحياء الذي كان يختم على شفتيك بخاتم نحاسي.

أنت نفسك صرحت بهذا لسانتشو، متخذاً منه نجياً، عندما اعتكفت للتوبة وتعذيب النفس في جبال سييرا مورينا (الفصل 25) وقد قلت له: «لقد كانت غرامياتي وغرامياتها أفلاطونية على الدوام، لم تتجاوز أبداً النظرة الشريفة. وحتى هذه النظرات كانت في أوقات متباعدة جداً، ويمكن لي أن أقسم بصدق إنني منذ اثني عشر عاماً وأنا أحبها أكثر من نور هاتين العينين اللتين ستأكلهما الأرض، لم أرها سوى أربع مرات، وربما لم ترني هي في تلك المرات الأربع ولم تلحظ أني كنت أنظر إليها، وذلك بسبب الحياء والاحتشام اللذين رباها عليهما أبوها لورنثو كورتشويلو وأمها ألدونثا نوغالس». أربع مرات فقط وخلال اثني عشر عاماً! وأي نار ينبغي أنها كانت تنشرها كي تظل تدفئ قلبك طيلة اثني عشر عاماً برؤيتها أربع مرات في نظرات خاطفة! اثنا عشر عاماً يا صديقي دون كيخوته، وأنت الآن تناهز الخمسين. لقد أحببتَ إذاً حين كنت تدنو من الأربعين. وما الذي يعرفه الشباب عن اللهب الذي يتأجج في أي مراحل النضوج؟ وخجلك، وخجلك الذي لا يمكن تجاوزه، خجل النبيل المتقدم في السن!.

نظرات من أعمق أعماق النفس، وتأوهات مخنوقة لم تلحظها هي قطّ، وتردد خفقات قلبك أسير سحرها في كل واحدة من تلك المرات الأربع التي نعمت فيها برؤيتها. وهذا الحب المكبوح، هذا الحب المكسور في سياقه، لم تجد في نفسك الحماسة ولا الجرأة لتقويمه وإعادته إلى مساره الطبيعي، ولعل هذا الحب المسكين هو الذي صاغ روحك وكان ينبوع جنونك البطولي. أليس كذلك أيها الفارس الطيب؟ وربما أنك أنت نفسك لم تنتبه إلى ذلك.

تغلغل في أعماق نفسك وتمعن في ذاتك وتعمق. هنالك غراميات لا يمكن كسر الكأس التي تضمها، فتجدها تندلق نحو الداخل. وهناك منها ما لا يمكن الاعتراف به، فيضغطها القدر المهيب ويحصرها في العش الذي انبثقت فيه. وإفراط تلك الغراميات نفسه هو ما يخثرها ويحتجزها؛ وقدريتها الرهيبة هي التي تسمو بها وتُعَظمها. وبينما هي سجينة هناك، خجلة ومتوارية عن نفسها، ساعية لتدمير ذاتها، تجاهد لأن تموت، لأنها لا تستطيع أن تزدهر في وضح النهار وعلى مرأى من الجميع، ولأنها أقل ازدهاراً، فإنها تتحول إلى شغف بالمجد والخلود والبطولة.

أخبرني على انفراد يا صديقي دون كيخوته؛ قل لي: ألم تكن جسارتك المندفعة التي حملتك إلى تحقيق مآثرك هي التعبير عن لهفة الحب الذي لم تجرؤ على البوح به لألدونثا لورينثو؟ وإذا كنت شجاعاً جداً في مواجهة كل شيء، أليس ذلك لأنك كنت جباناً أمام محط أشواقك؟ من الأعماق الحميمة للجسد يحاصرك تلهفك إلى الخلود، إلى ترك بذرتك في الأرض؛ فحياةُ حياتِك، كما هي حياةُ حياةِ الناس أجمعين، كانت تخليداً للحياة. ولأنك لم تتوصل إلى التغلب على نفسك في تقديم حياتك بفقدانها في الحب، فقد تلهفتَ إلى تخليدها في ذاكرة الإنسان. انظر أيها الفارس، كيف أن التلهف إلى الخلود ليس إلا زهرة التلهف إلى النجابة.

ألم يكن، يا ترى، ما حملك إلى ملء أوقات فراغك في قراءة كتب الفروسية هو عدم قدرتك على كسر خجلك المتنامي وملء أوقات الفراغ تلك في حب ومداعبة تلك الفتاة الفلاحة التي من التوبوسو؟ ألم تكن تبحث في تلك القراءات الضارية عن تهدئة، وتغذية في آن واحد كذلك، للهيب النار التي تستنفدك؟ فالغراميات التعيسة وحدها هي الخصبة بثمار الروح؛ وعندما يُغلق مسار الحب الطبيعي ويُوقف تياره فقط، تراه يندفع كنافورة نحو السماء: العقم الآني وحده يمنح الخصب الأبدي. وقد كان غرامك، يا صديقي دون كيخوته، تعيساً بسبب خجلك البطولي الذي لا يمكن تجاوزه. ربما كنتَ تخشى أن تدنس حبك باعترافك به لتلك التي أشعلته فيك؛ ربما كنت تخشى أن تدنسه أولاً وبعد ذلك تبدده

twitter @baghdad_library

وتفقده إذا ما وصلت به إلى اكتماله العادي المألوف. لقد ارتعشتَ خوفاً من أن تقتل بين ذراعيك طهارة ألدونثا التي رباها أبواها على منتهى العفة والعزلة.

وأخبرني، هل علمت ألدونثا لورينثو بمغامراتك ومآثرك؟ من المؤكد لو أنها علمت بشيء منها لأفادت منه كتسلية ولهو وثرثرة في مجالس وسهرات ليالي الرياح الشتائية. ويا لروعة سماع ألدونثا لورينثو وهي في سنوات شتائها، في كنف ضوء المنزل، محاطة بأحفادها، أو في سهرة صديقاتها المتقدمات في السن، تروي مغامرات وجولات ذلك المسكين ألونسو كيخانو الطيب الذي خرج حاملاً حربته ليقوّم اعوجاجاتٍ مستحضراً في ذهنه سيدة تدعى دولثنيا دل توبوسو! أتراها ستتذكر حينئذ نظراتك المتخفية أيها الفارس البطولي؟ ألن تقول يا ترى، بينها وبين نفسها وبصمت، في أعمق أعماقها: «أنا من تسببتُ في جنونه»؟

لا حاجة بك لأن تقول لي ذلك يا صديقي دون كيخوته، لأني أعرف كيف يجب أن تكون التضحية أمام مذبح دون أن يدري الإله المنتصب فوقه أنه لا يشعر أي شيء بشأن تلك التضحية. إنني أصدقك دون أن تحلف لي، أصدقك دون تردد، أجل؛ أصدقك بأن هنالك مثيلات لألدونثا لورينثو يدفعن أثناء مرورهن في الدنيا رجالاً من أمثال ألونسو كيخانو إلى اجتراح بطولات لم يُعرف لها مثيل، ويمتن بعد ذلك بطمأنينة وراحة ضمير دون أن يعرفن الأمومة التي وفرتها لهن تلك البطولات.

عظيمة هي العاطفة التي تتجاوز كل شيء، وتكسر القوانين، وتقلب التعاليم، ويندفع تيارها الجارف كأنه السيل، ولكنها تكون أعظم عندما تخشى التلوث بالوحل الذي تجرفه في تيارها المندفع، فتتكثف وتندس في ذاتها، كما لو أنها تريد ابتلاع نفسها، وتنفجر باتجاه الداخل محولة القلب إلى بحر فسيح. ألم يحدث لك هذا؟

وبعد ذلك، اقترب مني أكثر يا صديقي دون كيخوته، واهمس في مسمع القلب؛ وبعد ذلك، عندما أشاد **المجد** بك، ألم تتنهد في أعماقك على حب سنوات نضوجك ذاك الذي لم تعترف به؟ ألم تكن تفضل أن تقدم **المجد** كله

مقابل نظرة، وليس أكثر من نظرة حب من محبوبتك ألدونثا لورينثو؟ لو أنها، أيها النبيل المسكين، علمت بحبك لها، وأشفقت عليك يوماً وفتحت لك ذراعيها، وفتحت فمها قليلاً، واستدعتك إليها بعينيها، لو أنها استسلمت لك متغلبة على إحجامك الشديد قائلة لك: «لقد خمنتُ ما أنت فيه، تعال إليّ وانْهِ معاناتك»، فهل كنت ستبحث عن خلود الاسم والشهرة؟ بل أكثر من ذلك، أما كان السحر سيتبدد عنك بعدها؟ وأنا أظن الآن بالذات، بينما تشدك دولثنياكَ إلى صدرها، وتحمل ذكراك من عصر إلى عصر، أعتقدُ أنه مازال يلفك حتى الآن نوع من كآبة الحزن عندما تفكر في أنك لم تعد قادراً على أن تتلقى العناق بصدرك ولا أن تتلقى بشفتيك قبلة ألدونثا، تلك القبلة التي ماتت دون أن تولد، وذلك العناق الذي ذهب إلى الأبد ودون أن يكون قد وصل، وتلك الذكرى لأمل سري تماماً، على انفراد، ولمداعبات صامتة.

كم من مساكين البشر الفانين الخالدين الذين تزهر ذكراهم في ذاكرة الناس، لا يتورعون عن تقديم خلود الاسم والشهرة ذاك لقاء قبلة من الفم، لا شيء أكثر من قبلة حلموا بها طوال حياتهم الفانية! والعودة إلى حياة الظهور الأرضية، ليجدوا أنفسهم مجدداً في اللحظة المهيبة التي إذا ذهبت لا تعود، وكسر حاجز الخوف المخجل، حاجز الاحترام المتلبد، أو كسر القانون ثم الذوبان إلى الأبد بين ذراعي المحبوبة المشتهاة!...

بينما دون كيخوته يتحدث إلى فيفالدو عن دولثنيا دل توبوسو، دخل سانتشو، سانتشو الطيب، بإيمانه العظيم الرائع. مثل سيمون بيدرو الذي أصر على نصب خيمته في أعالي التابور لقضاء الوقت هناك براحة ودون عناء، وبالرغم من أنه أنكر المعلم، إلا أنه كان أشد المؤمنين به حمية وأكثرهم محبة له، وهكذا كان سانتشو بالنسبة إلى دون كيخوته. فبينما جميع من كانوا يستمعون إلى حديث فيفالدو والفارس «وحتى الرعاة والمعّازون أنفسهم عرفوا مدى فقدان صاحبنا دون كيخوته لرشده، وكان سانتشو بانثا وحده يفكر ـ كما يقول لنا ثربانتس ـ في أن كل ما قاله سيده هو الحق كل الحق، وذلك لأنه كان يعرف من هو، وقد عرفه منذ ولادته». آه

twitter @baghdad_library

يا سانتشو الطيب، يا سانتشو البطولي، يا سانتشو الكيخوتيّ! إيمانك سينقذك. فبينما كان تجار طليطلة الجبناء يطلبون من دون كيخوته كي يؤمنوا ـ مثلما فعل اليهود بطلبهم إشارات من يسوع ـ صورة لتلك المرأة ولو كانت «بحجم حبة القمح»، كان سانتشو البطولي يؤمن بأن كل ما يقوله سيده هو الحق، لأنه يعرف من هو دون كيخوته، ولأنه يعرفه منذ ولادته. والناس المستخفون لا يريدون أن يروا، يا سانتشو البطولي، عظمة إيمانك، وصلابة حماستك، وتمادوا في ازدرائك والافتراء عليك وجعلك مثالاً لما لم تكن عليه قطّ. إنهم لا يريدون أن يعرفوا أن سذاجتك لم تكن أقل جنوناً وبطولة مما كان عليه جنون سيدك، لأنك آمنت به. وأقصى ما يتوصلون إليه هو اتهامك بالسذاجة لأنك تؤمن بهذه الأشياء. لكنك لست كذلك، وليس إيمانك السامي عمى أبله، وهو ما يثبته شكك بعض الشيء «في تصديق ذلك الكلام عن الفاتنة دولثنيا دل توبوسو لأنك لم تسمع قطّ بذلك الاسم، وتلك الأميرة مع أنك تقيم قريباً جداً من قرية توبوسو». والإيمان أمر يُحرز شبراً فشبراً، وضربة إثر ضربة. وأنت يا سانتشو ستتوصل إلى الإيمان بسيدتك دولثنيا دل توبوسو، وهي ستأخذ بيدك وتقودك عبر ميادين الخلود.

الفصل الخامس عشر

[وفيه تُروى المغامرة الأليمة التي خاضها دون كيخوته عند لقائه ببعض الينغواسيّين الأشرار]

مع انتهاء حادثة مارثيلا، ظل دون كيخوته وحيداً مع سانتشو على دروب العالم. ولأنه قرر البحث عن الراعية مارثيلا وتقديم نفسه إليها فقد توغل في الغابة التي كانت قد دخلتها. وبعد ساعتين من البحث وصل إلى مرج هادئ، حيث تناول السيد وحامل أسلحته الطعام واستراحا.

وببقاء الحصان روثينانته طليقاً، ذهب لمغازلة أفراس غاليسية تعود لجماعة

من بغّالي قرية يانغواس، فاستقبلته تلك الأفراس بالرفس والعض، وأكمل البغّالون بالانهيال عليه ضرباً بهراويهم. وحين رأى دون كيخوته ذلك، وتبين له أنهم ليسوا فرساناً، «بل من رعاع الناس والوضعاء» ـ ويبدو أن وقوفه راجلاً قد أشفاه من عمى جنونه ـ طلب المساعدة من سانشو الذي بيّن له أنهما غير قادرين على الانتقام من أكثر من عشرين بغّالاً، بينما هما اثنان فقط، وربما واحد ونصف.

«أنا بمئة ـ هكذا أجابه دون كيخوته ـ ودون أن يُطيل الكلام، تناول سيفه وانقضّ على الينغواسيين، وفعل سانتشو مثله مقتدياً بسيده». ولا ندري أيهما الجدير بتقدير أعظم، أهي البطولة الكيخوتية المدفوعة بالإيمان «أنا بمئة» أم البطولة السانشوبانثية المدفوعة بالإيمان بأن سيده يساوي مئة. إن إيمان سانشو بدون كيخوته أعظم من إيمان سيده بنفسه. «أنا بمئة»، ودون أن يُطيل في الكلام تناول سيفه وانقض على ساقه الينغواسيين. إذا كنت مؤمناً بأنك تساوي مئة، فلماذا الأقوال؟ لأن الإيمان الحقيقي لا يحتاج إلى التعليل حتى بين المرء ونفسه.

وحين رأى الينغواسيون أنهم كثيرون ضد شخصين فقط، انهالوا عليهما بهراويهم حتى طرحوهما أرضاً، وهكذا انتهت المغامرة.

لقد جاء المسلمون.
وحطمونا بالهراوى.
فالرب يساعد الأشرار
حين يكونون أكثر عدداً من الأخيار.

عندئذ طلب سانتشو من سيده بلسم فيرابراس، وفي تلك اللحظات نطق دون كيخوته بتلك الكلمات العميقة بأنه هو من يتحمل مسؤولية النكبة وذلك التهشيم، لأنه شهر السيف ضد رجال غير مكرسين فرساناً مثله، وحث سانتشو أن يتولى بنفسه إقرار العدالة في مثل تلك الحالات. مع رجال لم يُكرّسوا فرساناً، مع من لم يضئ النور عقولهم مثلك، وإنما يتلقون انعكاس النور، مع

twitter @baghdad_library

هؤلاء لا تدخل أبداً في جدال أيها القارئ. قل كلمتك وواصل طريقك تاركاً إياهم يقضمونها حتى العظم.

وكان سانتشو أكثر عمقاً من سيده ومولاه حين قال إنه، هو نفسه، رجل مسالم، وديع وهادئ، ويعرف كيف يتحمل كل أنواع الإهانات، وقال: «لأن لي امرأة وأبناء عليّ إعالتهم وتربيتهم». يا لك من عاقل وفطن يا سانتشو! ولو أنك تعرف كم هنالك من رجال، بالرغم من أن لهم زوجات وأبناء تجب إعالتهم وتربيتهم، يأتون إلينا بشكليات التشريف والوقار ومظاهرها، وهو ترف مباح للأثرياء وحدهم، أولئك الذين لديهم من يعيل نساءهم وأبناءهم إن تركوهم أرامل ويتامى، لأن المداخيل لن تتقلص أو تنقص بذلك. وهذا هو كما يقال، يا صديقي سانتشو، خطأ شعبك، وأنا في هذا الشأن لا أعلق، خطأه في أنه لم يشأ أن يفهم أن التشريف يدوم مادامت الجيوب ممتلئة. وفي هذا الخطأ السامي والنبيل كان ومازال سيدك الذي أراد في تلك اللحظات، هناك، وهو محطم العظام على الأرض، أن يُخرجك منه، ويبين لك أنك تحتاج إلى الشجاعة من أجل أن تغضب وتدافع عن نفسك، لأنك قد تجد نفسك في يوم لا يخطر على بال سيداً لإحدى الجزر.

إنهم الآن يعرضون عليك مراكش، ويقدمون لك المسوغات التي قدمها إليك سيدك. وبين تلك ما هو من ذهب، مثل تلك المسألة عن انتقال الثروة. لا تُلتفت إذاً، يا صديقي سانتشو، إلى ذاك الذي يقال عن شعوب قوية وشعوب محتضرة، لأن العالم يدور كثيراً، وما يجعلك غير مناسب لطريقة الظفر بالحظوة اليوم، ربما يمكن له بالذات أن يجعلك في المستقبل مناسباً جداً لأسلوب الفوز المستقبلي. أنت صبور، والفوز في نهاية المطاف للصبر. صبرك أثمن من كل ما قاله لك سيدك عن أنكما قد خرجتما من العراك مع الينغواسيين وقد شبعتما ضرباً ولكن لم تُصبكما الإهانة «لأن الأسلحة التي كان يحملها أولئك الرجال وهشمونا بها لم تكن إلا أوتادهم».

يقولون إن فيليبه الثاني، حين علم بنبأ هزيمة أسطوله **الأرمادا التي لا تُهزم**،

قد قال: أنا لم أبعث الأسطول ليحارب تلك العناصر الطبيعية. وعندما دمروا لنا أسطولاً آخر مرة بقذائف المدفعية[1]، قيل لك أيضاً يا صديقي سانتشو إن ما هزمنا ليس الشجاعة، وإنما العلم والثراء. ولكنك تسخر من هذه الحكايات، تسمع، وتلتزم الصمت، وتراقب. واصل المراقبة، ففي الترقب تكمن قوتك على الدوام. أنت لم يحزنك التفكير في ما إذا كان الضرب بالأوتاد مهيناً أو غير مهين، وإنما أحزنك الإحساس بالألم، وأنت على صواب في هذا، لأن ألم الضرب يزول، لكن ألم الإهانة لا يزول، ومن يجعل من الآلام أمراً عابراً فقد قهرها بنظرته هذه إليها. ومثلما قال لك سيدك «ما من ذكرى إلا ويمحوها الزمان، وما من ألم إلا ويستهلكه الموت»، وهذا هو مصدر القوة، لأنه مصدر الصبر والعزاء.

بعد هذا الحديث وغيره، أركب سانتشو سيده دون كيخوته على حماره، وجددا المسير حتى وصلا إلى فندق.

الفصل السادس عشر
[وفيه ما حدث للنبيل العبقري في النزل الذي تخيله قصراً]

عاد دون كيخوته للقاء بنساء قَدّمن إليه خدمة، وكن نساء مشفقات وحانيات، فبين زوجة صاحب النزل وابنتها والخادمة ماريتورنس، قمن بتهيئة فراش شديد السوء له، نام عليه بعد أن مسحنه من رأسه حتى قدميه بالمراهم.

---

[1] عندما دمر الإنكليز الأسطول الاسباني (الأرمادا التي لا تقهر)، عام 1588، كان التبرير الذي ساقه الملك وسياسيو ذلك العصر هو هبوب العاصفة الهوجاء التي بعثرت سفن الأسطول الإسباني الذي كان هدفه احتلال الجزر البريطانية، مما سهّل انتصار الانكليز. وعندما دمرت الولايات المتحدة الأسطول الإسباني في البحر الكاريبي عام 1889، كان التبرير أن الأمريكيين استخدموا مدافع جديدة لا قبل للاسبان بها. ألا يذكرنا هذا بما ساقه بعض القادة العرب من تبريرات لهزيمتهم في حزيران 1967؟

twitter @baghdad_library

وقد شكر لهن ذلك دون كيخوته مسمياً صاحبة النزل بالسيدة الحسناء، والنزل بالقصر، فاستغربت النسوة ذلك وبدا لهن أنه رجل مختلف عمن عرفنه من الرجال، ولم تنقصهن مسوغات تبرر ما ذهبن إليه.

وعندئذ، بينما راح دون كيخوته ينتظر مجيء ابنة سيد القصر التي أُغرمت به فجأة، حدث أن جاءت ماريتورنس لتشبع نهم جسد البَغَّال الجسدي، فالتقت بالفارس الروحي الذي وجه إليها خطاب اعتذار عبقرياً، أوضح فيه، قبل كل شيء، أنه مهشم جداً ومحطم إلى حدّ لو أن مشيئته أرادت إشباع رغبتها، فإن ذلك سيكون مستحيلاً، ثم إن هناك العهد الذي قطعه على نفسه لمنقطعة النظير دولثنيا دل توبوسو، ولولا هذان المانعان، عدم قدرته على إرضائها وعهده لأخرى، لما كان لفارس سليم العقل أن يُفوّت على نفسه مثل تلك الفرصة السعيدة.

إنها فضيلة راقية وعفة جديرة، وما سوى ذلك حماقة. وقد لاقت هذه الفضيلة، كما هو طبيعي، جزاءها المستحق، وتمثل في اللكمات والركلات التي وجهها إلى دون كيخوته البغّالُ الفظ الذي جعله السبق يتأجج شرراً. وقد هرع صاحب النزل ليرى سبب الضجة، وحدثت عاصفة الكلمات التي يرويها لنا ثربانتس.

الفصل السابع عشر

[حيث تتوالى الأعمال العديدة التي قام بها دون كيخوته الشجاع وتابعه الطيب سانتشو بانثا في النُّزل الذي ظنه، لسوء حظه، قصراً]

أمور سحر يجب ألا يُنظر إليها بغيظ ولا استياء، «لأنها كائنات غير مرئية، فمن العبث التفكير في الانتقام منها مهما حاولنا ذلك». وكيف توصلت، أيها الفارس الرائع، إلى أعماق الحكمة التي تتلخص في اعتبار أمور هذا العالم خفية وشبحية، وهكذا، بفضل هذا الاعتبار، ينبغي لنا ألا نغضب منها.

لأنه، هل كانت إلا «يد ملتصقة بذراع مارد رهيب» تلك التي امتدت في

لحظة غير مناسبة، وأنت مستغرق في مناجاتك، ووجهت لكمة إلى فكك؟ إنها أمور من عالم آخر، وهي تذكر بشيء مماثل جرى ذات ليلة لإغناثيو دي لويولا وهو نائم «وأراد الشيطان أن يخنقه في عام 1541 ـ مثلما يروي لنا في الفصل التاسع من الكتاب الخامس من سيرة حياته ـ فأحس كما لو أن يد رجل تضغط على حنجرته وتمنعه من الصراخ ومن ذكر اسم يسوع المقدس»، وتلك الحادثة الأخرى التي رواها الأخ خوان باولو للأب ريبادينيرا الذي يرويها لنا في الفصل نفسه بأنه «بينما هو نائم ذات ليلة كعادته إلى جانب حجرة لويولا، أفاق بغتة على ضجة كأنها ضربات سوط ولكمات توجه إلى الأب، وسمع الأبَ نفسه كمن يئن ويتأوه. فهب بعد ذلك وتوجه إليه فوجده جالساً في فراشه، ملتفاً بدثاره، فقال له: ما هذا الذي أراه وأسمعه يا أبتاه؟ وحين أخبره، قال له الأب: هيا، اذهب إلى النوم».

أمور من عالم آخر، ومن أجل علاج آثارها يكفي استخدام بلسم فيرابراس. ولكنّ مفعوله لا يعمل بصورة عجيبة إلا مع الفرسان، وهو ما بدا واضحاً في ما حدث لسانتشو.

وبعد قليل حدث ما اقنع دون كيخوته بأنه في نُزل وليس في قصر، فكلمة واحدة من صاحب النزل، نعود معها لنرى مرة أخرى بوضوح كم هو متعقل في جنونه. ومع ذلك كله، رفض بكل فروسية أن يدفع تكاليف المبيت، مما كلف سانتشو أن يُلَفَّ بملاءة ويطوح به في الفضاء. وعندما انتهى ذلك قدّمت إليه ماريتورنس المشفقة نبيذاً يشربه. فليكافئها الله على جميلها، فقد كانت الكرم والسخاء مجسدين. لقد أحبت كثيراً، وإن يكن على طريقتها، كالآخرين جميعاً، ولهذا ستُغتفر تقلباتها مع البغّالين، لأنها تفعل ذلك بطيبة قلب خالصة.

صدق أن الفتاة الأستورية المحسنة تسعى إلى منح الملذات لا تلقيها، وإذا كان من عادتها أن تستسلم، مثلما يحدث لغير قليل من الماريتورنسات، فإنما تفعل كيلا ترى الرجال يُستنفدون في الغم والأحزان. وكانت تريد تطهير البغالين،

twitter @baghdad_library

من نزواتهم الخرقاء التي تُخنزر مخيلتهم، وجعلهم نظيفي الذهن للعمل. «كانت تتظاهر بأنها نبيلة جداً» ـ يقول ثربانتس ـ ولأنها نبيلة أصابت في الذهاب للتقلب مع البغَّال «وإرضاء رغبته في كل ما يطلب» ليس أن تتخذه. فهي،

أريد أن أعطي
أو أن أُعطى لأعطي نفسي، بالطبيعة

بالرغم من أنها لم تقرأ كامونس، الذي أخذنا من عمله الشعري *لوسياداس* هذا الحكم الفلسفي (IX- 76). ومن خلال هذا الكرم البسيط غير الساعي إلى الرذيلة مثلما هو متصنع للبراءة، توصلت تلك الفتاة الأستورية إلى الخلود. لقد كانت تعيش فيما وراء البراءة والخبث الذي يولد من ضياعها.

صدّق أن هنالك مقاطع قليلة أكثر احتشاماً وعفة. فماريتورنس ليست فتاة ممن يدفعهن الانصراف عن العمل أو أخطاء آخرين إلى المتاجرة بأجسادهن، وليست بالفاسدة التي تسحر الرجال وتشعل فيهم الشهوات لتُبعدهم عن طريقهم، وتشغلهم عن أعمالهم؛ إنها محض خادمة بيت بسيطة، تعمل وتخدم، وتخفف من وطأة المشقات عن المسافرين، وتنزع أثقالاً عن كاهلهم ليتمكنوا من مواصلة طريقهم بمزيد من الخفة. إنها لا تؤجج شهوات، ولكنها تطفئ شهوات أججتها أخريات، أقل كرماً منها، أو أججهن فائض الحياة الجسدية. وصدّق أنه، إذا كان هذا خطيئة، فإن في تأجيج الشهوات المتعمد، بنية تأجيجها، مثلما يفعل التغنج، دون إطفائها، تكون الخطيئة أعظم من خطيئة إطفاء شهوة أججتها أخرى. لم تكن ماريتورنس تخطئ بدافع التبطل أو الطمع، ولا بدافع الشبق؛ وهذا يعني أنها تكاد لا تكون خاطئة. فهي لا تحاول العيش بلا عمل، ولا تحاول غواية الرجال. هنالك خلفية من الطهر في دنسها الفج.

لقد كانت طيبة مع سانتشو الذي خرج من النزل سعيداً جداً لأنه لم يدفع شيئاً.

الفصل الثامن عشر [والتاسع عشر والعشرون]
[حيث تُروى الأحاديث التي تبادلها سانتشو بانثا وسيده دون كيخوته، ومغامرات أخرى جديرة بأن تُروى]

ورجع دون كيخوته إلى ينبوع كل قوة، وذلك باعتباره أن من يَلّفون غيرهم بملاءة ويضربونهم هم «أشباح وأناس من عالم آخر». فلا تغضب مما يمكن أن يحدث لك في هذا العالم الظاهر؛ وانتظر الجوهري أو دافع عنه في عمق جنونك. فهذا هو الإيمان العميق والحقيقي. وهو إيمان قد ضعف لدى سانتشو حين سمع من لفوه بالملاءة يدعون بعضهم بعضاً بأسماء، فاعتبرهم بشراً من لحم وعظم، وكان ذلك كافياً لأن يطلب من سيده أن يعود إلى البيت لأنهم صاروا في موسم الحصاد.

وسارع سيده إلى تعزيز إيمانه، إلى أن يعارض هو ما رآه بعينيه وما أحس به في أضلاعه. ولكن دون كيخوته حدثه عن أماديس فاطمأن حامل السلاح. وقد أحسنتَ صنعاً يا سانتشو، فقد أقنعت نفسك بأنهم عندما يشتموننا أو يسخرون منا أو يضعوننا في ملاءة ويطوحون بنا في الفضاء، لا يكون من يفعلون ذلك سوى أشباح، فإن حقدنا يتلاشى ونشفى في النهاية. وتذكر كذلك أن أعداءك سوف يموتون.

والتقيا عندئذ بمغامرة قطيعيّ الأغنام اللذين رأى فيهما دون كيخوته جيشين عظيمين، ووصفهما بمنتهى الدقة كمن يحمل في داخله عالماً حقيقياً. ولكن سانتشو الطيب الغارق في عالم آخر، عالم الظاهر، عالم المطوحين به في الفضاء الذين من لحم وعظم، لم ير شيئاً، «ربما» بفعل السحر. يا لك من رائع يا سانتشو، ويا لغزارة الإيمان الذي ينطوي عليه قولك «ربما»! فبقول ربما يبدأ الإيمان الذي يُنقذ؛ فمن يشك بما يراه، ولو مقدار نتفة صغيرة، ينتهي به الأمر إلى أن يؤمن بما لا يراه ولم يره قطّ. أنت لم تسمع يا سانشو سوى ثغاء النعاج والخراف، ولكن سيدك أحسن صنعاً بالقول لك: «الخوف الذي استولى عليك هو الذي يجعلك، يا سانتشو، لا ترى ولا تسمع بصورة سوية».

twitter @baghdad_library

الخوف، أجل، ولا شيء سوى الخوف من الموت ومن الحياة هو ما يجعلنا لا نرى ولا نسمع بصورة سوية؛ هكذا هي الحال، لا نرى ولا نسمع نحو الداخل في العالم الجوهري للإيمان. الخوف يغطي لنا الحقيقة، والخوف نفسه، عندما يتكثف في قلق، يكشفها لنا.

أمر دون كيخوته سانتشو بالانسحاب جانباً، لأن من لا يرى إلا بعيني الجسد يكون ضرره في المغامرات أكثر من فائدته، ودون أن يكترث لأصوات الحس الأرضي اندفع منقضاً على جيش ألفانفارون دي ترابوبانا. وهناك راح يمزق بحربته الخراف، مثلما مزق بيثارّو وجنده في حظيرة كخاماركا من هم في خدمة الإنكا أتاوالبا[1] الذين لم يحاولوا حتى الدفاع عن أنفسهم. غير أن رعاة ترابوبانا لم يكونوا كذلك، بل انهالوا على دون كيخوته بوابل من حجارة مقاليعهم أسقطته عن حصانه.

وبهذا عاد الفارس لملامسة الأرض بكامل جسده كي يستعيد، مثل انتيو، قواه من ملامستها. وبينما هو على الأرض جاءه صوت الحس السليم من فم سانتشو، ليؤنبه، لأنها أغنام، ولكنه عرف كيف يعارض بإيمانه أفعال سحر الخبيث الذي يلاحقه. وواسى سانشو الذي ضعف إيمانه بكلمات إنجيلية.

ثم جاءتهما بعد ذلك مغامرة الجسد الميت التي تتلخص مزيتها في أن الرؤية الشبحية بدأت بجعل شعر رأس دون كيخوته ينتصب رعباً لكنه عرف كيف يتغلب على خوفه من الأشباح لأنه لا يؤمن بها، وانقض على أولئك التعساء الذين ولوا الأدبار لأنهم اعتبروا دون كيخوته شيطاناً من شياطين الجحيم. فما هو شبحي بما هو شبحي يُهزم؛ وبالتخويف يواجه من يخيفون. ويمكن للخوف نفسه عند نقطة معينة، ما لم يقتل صاحبه، وبعد تجاوزه الكرب، أن يتحول إلى شجاعة.

وكان في خضم هذه المغامرة الشبحية أن أطلق سانتشو على دون كيخوته لقب «الفارس الحزين الطلعة».

---

[1] أتاوالبا: زعيم الإنكا الذي اعتقله الفاتح بيثارو، طلب فدية هائلة للإفراج عنه، وبعد حصوله على الفدية أعدمه في مدينة كاخاماركا.

وتوغلا بعد ذلك في وادٍ حيث جرت مغامرة مطارق الطواحين الخشبية والتي أراد دون كيخوته خوضها ليموت ويكون جديراً بأن تطلق عليه سيدته دولثنيا لقب **المجد**. أما سانتشو الذي وضع إيمانه المزعزع في فمه كلمات مؤثرة ليُبعد سيده عن مسعاه، ولأن الكلمات لم تكن كافية، فقد سارع إلى حيلة ربط قائمتي روثينانته الأماميتين. وحدث كل ما يرويه لنا ثربانتس، إلى أن طلع الصباح ورأيا سبب ذلك الضجيج المرعب، وسخر سانتشو من سيده الذي وجه إليه بسبب ذلك ضربتين، وأرفقهما بالكلمات عميقة المغزى «لأنك تمزح لا أمزح أنا».

«تعال إلى هنا أيها السيد الهازل؛ أيبدو لك أنه لو كانت هذه المطارقُ مغامرةً خطيرة، أما كنتُ أبديتُ الشجاعة المناسبة لأخوضها وأنجزها؟ وهل تراني ملزم، وأنا من أنا، فارس جوال، بأن أعرف الأصوات وأميزها، وأعرف أيها صوت مطارق وأيها ليس كذلك؟

الأمور واضحة تمام الوضوح. فمن أجل تقويم الاعوجاجات، وإعادة بعث الفروسية وإقرار الخير على الأرض، لا حاجة به لأن يميز الأصوات، ومعرفة أيها صوت مطارق وأيها ليس كذلك. فمثل هذا التمييز ليس من اختصاص البطولة، ولا يمكن لكل المعارف التي تُلقن أن تضيف فلساً واحداً إلى مجمل الخير الموجود في العالم. يكفي الفارس أن يصغي ويستجيب لقلبه ويميز أصواته.

يجب التبشير بهذه العقيدة الكيخوتية الآن، حيث لا تني السانتشوبانثية تردد لنا أن الجوهري هو تعلّم الأصوات وتمييزها، ومعرفة أيها صوت المطارق وأيها ليس كذلك، دون الأخذ في الاعتبار أنه في أثناء الليل وتواصل الخوف، لم يستطع سانتشو نفسه أن يميزها، مع أنه كان يسمعها وليس هنالك من حاجة لأن يراها. فسانتشو يحتاج، كي يطمئن ويجرؤ على السخرية، إلى أن يرى المسبب بصدور تلك الأصوات، رؤيتها؛ وسانتشو الذي لا يجرؤ ليلاً على الابتعاد عن سيده خوفاً من الضجة المرعبة التي لا يميزها بسبب خوفه، يأتي ليسخر من سيده حين يرى الأداة التي تُحدث الصوت. وهكذا فإن

twitter @baghdad_library

السانتشوبانثية التي صاروا يسمونها وضيعة حيناً، وطبيعية حيناً آخر، وتجريبية في حين ثالث، صارت، بعد انقضاء الخوف، تسخر من المثالية الكيخوتية.

ولماذا يجب على دون كيخوته، وهو الفارس، أن يعرف الأصوات؟ فنجده يضيف: «وفضلاً عن ذلك، ألا يمكن، وهذه هي الحقيقة، ألا أكون قد رأيتها ولا سمعتها في حياتي، مثلما رأيتها أنت كفلاح وضيع ولد وترعرع في جوارها؟ وإلا فاجعل أنت هذه المطارق الخشبية الست تتحول إلى ستة مردة، وادفعها إليّ واحد فواحداً، أو جميعهم معاً، وعندما لا أقلبهم جميعاً رأساً على عقب، يمكن لك أن تسخر مني ما شاءت لك السخرية». يا للحجج الساطعة! ففي بسالة النوايا وليس في دقة المعرفة يكمن البطل.

والحقيقة هي أنه من المناسب أن يكون سانتشو برفقة دون كيخوته، وألا يبتعد عنه. فسانتشو الذي هو فلاح وضيع، ولد وترعرع بين المطارق، ولكنه حين يسود الظلام ولا يرى تلك المطارق، بينما هو يسمع صوتها المرعب، يرتجف من الخوف كرعديد، ويلتصق بدون كيخوته، ويمنعه من الذهاب ويقيّد قائمتي حصانه روثينانته، بحيث لا يتمكن الفارس من التحرك وربما ينجو بذلك من موت يبدو محتماً بين المطارق؛ ولكن عندما يطلع النهار أخيراً، لماذا نجده يسخر ممن حماه في كربه وأتاح له الوصول إلى ضوء النهار، لأنه لولاه ربما كان قد مات خوفاً، أو كان الخوف ألقى به إلى المطارق لولا شجاعة سيده؟ وإذا كانت إيحاءات القلب، والإيمان بالخلود قد أخرجانا من كروب ليلة التطّير والرعب من المجهول، فلماذا نسخر، حين يشع نور الخبرة، من تلك الإيحاءات وذلك الإيمان؟ وبخاصة إذا كنا سنحتاج إليهما مجدداً. فبما أن الليل يعقب النهار، فسوف يأتي ليل جديد بعد هذا النهار الجديد، وهكذا نواصل العيش بين ضياء وظلام، ونسير إلى نهاية ليست ظلاماً ولا ضياء، وإنما هي حالة يلتقيان فيها ويختلطان، حالة ينصهر فيها القلب والرأس، ويتشكل فيها دون كيخوته وسانتشو واحداً.

اليوم صار سانتشو يميز الأصوات ويعرف أيها صوت المطارق وأيها ليس

كذلك، على أن يكون الوقت نهاراً وتُرى المطارق التي تُحدث الأصوات؛ ولكنه في الليل يرتجف خوفاً ولا يتجرأ قطّ على مواجهة ستة مردة، سواء أكانوا واحداً فواحد أم جميعهم معاً، واليوم يتجرأ دون كيخوته على مواجهة المردة ولا يرتجف في الليل أو في النهار، ولكنه لا يميز الأصوات، وأيها صوت مطارق وأيها غير ذلك، غير أن نهاراً سيأتي يندمجان في واحد، أو بعبارة أدق، يصير سانتشو كيخوتياً قبل أن يتحول دون كيخوته إلى سانتشويّ، فلا يشعر بذلك الخوف ويميز الأصوات سواء في الليل أو النهار، ويجرؤ على المطارق الخشبية والمردة. ولكن طريق الوصول إلى ذلك سيكون خبيثاً إن اعتمد السخرية من الفارس، والاعتقاد بأن كل شيء يكمن في تمييز الأصوات. لا، فليس العلّم وحده، مهما كان عالياً وعميقاً، هو ما يفتدي الحياة.

الفصل الحادي والعشرون

[وفيه ذكر المغامرة السامية وغنيمة خوذة مَمبرينو، وأمور أخرى جرت لفارسنا الذي لا يُقهر]

بعد ذلك استولى دون كيخوته على خوذة ممبرينو، واستبدل سانتشو، كغنيمة نصر، برذعة حماره ببرذعة حمار الحلاق، وهي أفضل من جهاز حماره. و«تناولا الغداء من بقايا الغنيمة التي ظفرا بها من فوق الدابة». وبعد ذلك «بدأا المسير حيث تريد لهما مشيئة روثينانته الذي انقادت له إرادة سيده، وكذلك إرادة الحمار». وفي الطريق شكا سانتشو من ضآلة المكاسب في تلك المغامرات. وفي أثناء حديثه أظهر أنه قد نفذ إلى جذر بطولة سيده حين طلب منه الخروج من المغامرات، «حيث تُستنفد وتنتهي أشدها إعجازاً، دون أن يراها أو يعلم بأمرها أحد، وهكذا تظل مطموسة بصمت أبدي على الرغم من نوايا سعادتك»، ثم تابع سانتشو قوله بأنهما لو وضعا نفسيهما في خدمة أحد الأباطرة

twitter @baghdad_library

لما عدما من «يدون كتابة مآثر» دون كيخوته «لتخليد ذكره». وأضاف، وقد أصابه مس من جنون سيده: «أما عن أعمالي فلن أقول شيئاً، لأنها لا تخرج عن حدود أعمال التابعين. بالرغم من أني أستطيع أن أقول إنه لو كان عُرف الفروسية يسمح بتدوين أعمال التابعين، فلا أظن أن أعمالي سوف تبقى بين السطور»

ما هذا يا سانتشو؟ أأنت تفكر أيضاً في أن تُخلّف لك اسماً وسمعة خالدين؟ أأنت مغرم أيضاً، دون أن تدري، بدولثنيا؟ أنت لم تكن لك ألدونثا لورينثو تؤجج فيك حب الخلود؛ أنت لم تكن لك غراميات من التي يُعترف بها أو لا يمكن الاعتراف بها؛ فأنت حين بلغت العمر المناسب، ورأيتَ أنه ليس من اللائق أن يظل الرجل وحيداً، تناولت من يد الكاهن خوانا غوتيرث لتكون رفيقة أعمالك وأم أبنائك. ولكنك تمضي مع دون كيخوته تاركاً في سبيله الزوجة والأبناء، وتمضي آخذاً بالتحول إلى كيخوتي.

وفي تلك المحادثة، عندما شرح دون كيخوته كيف يمكن التوصل إلى الزواج من ابنة ملك، وقال: «لم يبق الآن إلا أن نبحث عن ملك مسيحي أو وثني في حالة حرب وله ابنة جميلة؛ ولكن مازال لدينا متسع من الوقت للتفكير في هذا الأمر إذ لا بد أولاً، كما قلت لك، من اكتساب شهرة واسعة في أمكنة أخرى قبل التقدّم إلى البلاط»، وهنا يتبدى أنه لا يسعى إلى الشهرة كهدف، وإنما كوسيلة، بالرغم من أنه يجب التأكيد على أن دون كيخوته لم يتخل عن دولثنيا لأجل ابنة أي ملك، مهما كان جمالها، ومهما بلغت قوة وثروة أبيها. وواصل النبيل الكلام مبدياً الشكوك في موافقة الملك على اتخاذه صهراً له، بالنظر إلى أنه لا يتحدر من سلالة ملوك أو «على الأقل ابن عم لابن عم من الدرجة الثانية لإمبراطور»، ويبدي الخشية من أن يؤدي مثل هذا النقص إلى فقدان ما استحقته ذراعه بجدارة «صحيح أنني ابن نبيل ريفي معروف ـ أضاف ـ، له أملاك وعقارات ويتقاضى دخلاً قدره خمسمئة سويلدو، ويمكن للعلامة الذي سيكتب تاريخ حياتي أن يحقق بطريقة ما في سلالتي ونسبي، بحيث يجد أنني

حفيدٌ خامس أو سادس لملك». وواصل على الفور شرحه لسانتشو بأن هنالك نوعين من نجابة الأنساب في العالم: أولئك الذين كانوا ولم يعودوا كذلك، ومن هم الآن ولم يكونوا من قبل.

وهذا يتطابق مع ما قاله ذلك الكابتن الذي يتحدث عنه الدكتور هوارتي في الفصل السادس عشر من كتابه *امتحان العباقرة* حيث يقول: «سيدي، أعرفُ جيداً أن سيادتك فارس جيد جداً، وأن آباءك كانوا كذلك أيضاً، ولكنني أنا وذراعي الأيمن الذي أعترف به الآن أباً لي، أفضل منك ومن سلالتك كلها». وهذه حجة تبناها دون كيخوته ذات مرة، حين صرح أنه ابن أعماله.

وهكذا فإن إنسانيتي تبدأ بي، ويجب على كل واحد منا، بدل التفكير في أنه يتحدر من أجداده ومن مستنقع ربما تجمعت فيه أمواه كثيرة ومتنوعة، أن يكون أصل أحفاده وينبوع الجداول والأنهار التي يجب أن تنبثق منه للمستقبل. فلننظر إلى أننا آباء مستقبلنا وليس أبناء ماضينا، وأننا على أي حال العقد التي تجتمع فيها كل قوى ما كان لتُشع على ما سيكون، أما بشأن نجابة النسب، فجميعنا أحفاد ملوك مخلوعين عن عروشهم.

الفصل الثاني والعشرون

[حول الحرية التي منحها دون كيخوته لتعساء كثيرين يساقون، رغم أنفهم، إلى حيث لا يريدون]

وكانا يتبادلان هذا الحديث وغيره، حين عرضت لدون كيخوته إحدى أعظم مغامراته، إن لم تكن أعظمها على الإطلاق، ألا وهي تحريره المحكوم عليهم بالخدمة سخرة بالتجذيف في السفن. كانوا سجناء يمضون «مرغمين وليس بمحض إرادتهم»، وكان هذا كافياً لدون كيخوته.

استفسر عن جرائمهم، ومن كل ما قيل له استنتج بوضوح أنهم، وإن كانوا

twitter @baghdad_library

يعاقبونهم على ذنوبهم، فإن الآلام التي سيلاقونها لا تروقهم كثيراً، ويذهبون إليها باستياء، ورغم إرادتهم، وربما بصورة جائرة. ولهذا قرر أن يُغيثهم باعتبارهم ضعفاء ومضطهدين من الكبار، لأنه «من القسوة استعباد من جعلهم الرب والطبيعة أحراراً ـ ثم أردف دون كيخوته قائلاً ـ نعم أيها السادة الحراس! لم يرتكب هؤلاء المساكين بحقكم أية إساءة. فليمض كلّ امرئ بخطيئته؛ وفي السماء إله لا يهمل عقاب الخبيث، ولا مكافأة الطيب، وليس من الخير أن يكون الرجال الشرفاء جلادين للناس الآخرين، وليس لهم أي منفعة في ذلك». وهكذا طلب بلطف أن يُطلق سراحهم. لم يشأ الحراس عمل ذلك بالحسنى، فانقض عليهم دون كيخوته، وتمكن من تحريرهم بمساعده سانتشو والمساجين أنفسهم.

لابد من التوقف للتمعن في الروحية الباسلة والمحبة للعدل التي أبداها نبيلنا في هذه المغامرة. وصديقي آنخل غانيفيت، الكيخوتيّ الكبير ـ وقولنا هذا يعني أنه مختلف جداً، بل مناقض، لما جرت العادة على تسميته بالثربانتسية ـ صديقي عاثر الحظ غانيفيت، في مؤلفه ***المثالية الإسبانية***، اهتم بهذا الأمر، ويقول فيه:

«أعمق فهم تغلغل في روح أمتنا، وثربانتس [...][1] في كتابه الخالد، فرّق بالمطلق بين العدالة الإسبانية والعدالة العامية التي في القوانين والمحاكم. فجسّد الأولى في دون كيخوته وجسد الثانية في سانتشو بانثا. فالأحكام القضائية المخففة والفطنة والمتوازنة المتضمنة في «***الكيخوته***» هي تلك التي أملاها سانتشو خلال حكمه لجزيرته؛ أما أحكام دون كيخوته فتبدو في الظاهر غير معقولة، وهي لهذا السبب بالذات مهمة في العدالة. بقليل من الزيادة حيناً، وقليل من النقصان في حين آخر. وكانت مغامراته كلها موجهة للحفاظ على العدالة المثالية في العالم، وعندما يلتقي بالمساجين الذين يساقون للتجذيف في السفن ويرى أن هنالك مجرمين فعليين، يسارع إلى إطلاق سراحهم. والمسوغات التي يقدمها

---

[1] العبارة التي حذفها أونامونو في اقتباسه تقول: وثربانتس الذي أدرك بحيويةٍ خروجنا هذا على القياس.

دون كيخوتـه لتحريـر المحكـوم علـيهم بالتجـذيف في الـسفن هـي ملخـص للمسوغات التي تغذي تمرد الروح الإسبانية ضد العدالـة الإيجابيـة. أجـل، يجب النضال من أجل أن تسود العدالة في العالم، ولكن لا وجود لحق قطعـي صـارم لعقاب مذنب بينما يفلت مذنبون آخرون من العقاب من خلال ثغرات القانون؛ وهكذا فإن الإفلات العام من العقاب يتفق، في نهاية المطاف، مع تطلعات نبيلـة وكريمة، وإن كان يتعارض مع الحياة العادية للمجتمعـات، أمـا معاقبـة الـبعض وإعفـاء آخـرين مـن العقـاب فلـيس سـوى اسـتهزاء بمبـادئ العدالـة وبالمـشاعر الإنسانية في آن واحد». إلى هنا وينتهي قول غانيفيت.

من المحزن أن روحاً مبدعة مثل روح مواطننا الغرناطي هذا تعتقد، في توافـق مع الحس العام، أن ثربانتس قد جسّد شيئاً معيناً في دون كيخوتـه، ولم تتوصـل إلى الإيمان، الإيمان المنقذ، بأن قصة النبيل العبقري كانت ـ كما هي في الواقع ـ قصة واقعية وحقيقية، وهي خالدة فوق ذلك، لأنهـا مازالـت تتحقـق باستمرار في كل واحد من المؤمنين بها. ليست المسألة في أن ثربانتس أراد أن يجسد العدالـة الإسبانية في شخـصية دون كيخوتـه، وإنمـا وجـدها علـى هـذا النحـو في حيـاة الفارس ولم يجد بـداً مـن روايتهـا مثلمـا جـرت، بـل إنـه لم يـصل بهـا إلى كامـل المدى الذي بلغته. فهو لم ير حتى ذلـك التـضاد الحمـيم الـذي يـبرز مـن واقـع أن دون كيخوته هو من عاقب تجار طليطلـة، والباسـكي وآخـرين كـثيرين غـيرهـم، وهو نفسه من ينكر على آخرين الحق بالعقاب.

ويظل غانيفيت عند عتبات الكيخوتية عندما يفترض أن العدالة الـتي طبقهـا دون كيخوته على المحكوم عليهم بالتجذيف تستند إلى أنه « لا وجود لحق قطعي صارم لعقاب مذنب بينما يفلت مذنبون آخـرون مـن العقـاب مـن خـلال ثغـرات القانون»، وإن إفلات الجميع من العقاب هو أفضل من قانون الخداع الانتقـائي. ومن الممكن، بالفعل، التأكيد أن دون كيخوته قد تصرف بدافع من هذا المسوغ لإطلاق سراح المحكوم عليهم بالتجذيف في السفن بالاستناد إلى ما قاله الفـارس نفـسه في خطبتـه الحماسـية لتـصحيح اعوجـاج رعـاة المـاعز، وعنـد حديثـه عـن

twitter @baghdad_library

العصر الذهبي، حيث قال: «ولم يكن قانون الأهواء قد استقر في ذهن القاضي، لأنه لم يكن هنالك ما يُحاكم عليه ولا من يخضع لمحاكمة». ولكن على الرغم من أن دون كيخوته بالذات يخدع نفسه معتقداً أن ذلك هو المسوغ الذي قدمه لإخلاء سبيل أولئك التعساء، والصحيح أن تلك المأثرة كانت متجذرة في أعماق قلبه. ويجب ألا يفاجئكم هذا، أيها القراء، ولا ينبغي لكم أن تقعوا في سذاجة اعتباره تناقضاً ظاهرياً، لأن من يقوم بالمأثرة ليس أفضل من يعرف الأسباب التي دفعته للقيام بها، فمن المعهود أن الأسباب التي نقدمها من أجل تسويغ وتعليل سلوكنا إنما هي مسوغات تالية للحدث، أو أنها، من أجل التحدث بالرومانس، تأتي في المرتبة الثانية، وهي طريقة نبحث عنها لنفسر لأنفسنا وللآخرين أسباب تصرفاتنا، بينما يظل السبب الحقيقي مجهولاً عادة. لستُ أنكر أن دون كيخوته كان يظن، مثله مثل غانيفيت، وربما مثل ثربانتس، أنه أخلى سبيل المساجين لإحساسه بهول قانون الأهواء الذي بدا له جائراً أن يعاقب البعض بينما يفلت آخرون من خلال ثغرات القانون، ولكني أنكر أن يكون قد حررهم في الواقع، هناك في أعماق نفسه، بسبب مثل هذا الاعتبار. وإذا كان الأمر كذلك، فبأي سبب وبأي حق يعاقِب هو، دون كيخوته، مثلما عاقب من عاقبهم، مع معرفته بأن كثيرين آخرين سيفلتون من صرامة ذراعه؟ ولماذا يعاقِب دون كيخوته ما دام لا وجود لعقاب إنساني عادل بالمطلق؟

صحيح أن دون كيخوته كان يعاقِب، ولكنه كان يعاقِب مثلما يعاقِب الرب والطبيعة، بصورة فورية، كنتيجة طبيعية للخطيئة المرتكبة. هكذا عاقب البغّالين الذين أرادوا لمس أسلحته حين كان يسهر على حراستها، فرفع الرمح بكلتا يديه وهوى به على رؤوسهم وأسقطهم ليعود إلى المشي ذهاباً وإياباً بالهدوء الذي كان عليه من قبل، ودون أن يوليهم أي اهتمام. وهكذا هدد خوان هالدودو الثري، لكنه أخلى سبيله حين تعهد له بأن يدفع ما يطلبه منه اندريس. وهكذا انقضّ على تجار طليطلة لمجرد أنه سمع أحدهم يجدف ضد دولثنيا. وهكذا هزم سانتشو دي أثبيتيا، وأطلق سراحه تحت وعد السيدات له بأنه سيذهب ليمثل

أمـام دولثنيـا. وهكـذا انقـض علـى الينغواسـيّين حـين رأى كيـف يـسيئون إلى روثينانته. لقد كانت عدالته سريعة وتنفيذية ؛ فإصدار الحكم وتنفيذه كانا في نظـره الـشيء نفـسه ؛ وبتوصـله إلى تقـويم الاعوجـاج ، لا يعمـد إلى التنكيـل بالمذنب. ولم يحاول استعباد أحد قط.

ستكون الحـال جيـدة لـو أنهـم كلمـا أمسكوا واحـداً مـن سـجناء التجـذيف أولئك عـاقبوه ببضـع ضـربات بالعـصا ، ولكـن... أيجري اقتيـادهم للتجـذيف في الـسفن؟ « مـن القـسوة ــ قـال الفـارس ــ استعباد مـن جعلـهم الـرب والطبيعـة أحراراً» ، ثم أضاف بعد ذلك « فليمض كلّ امرئ بخطيئته ؛ وفي الـسماء إلـه لا يهمل عقاب الخبيث ، ولا مكافـأة الطيـب ، ولـيس مـن الخير أن يكـون الرجـال الشرفاء جلادين للناس الآخرين ، وليس لهم أي منفعة في ذلك ».

والحـراس الـذين يقتـادون المحكـوم علـيهم بالتجـذيف كـانوا يفعلـون ذلـك ببرود ، بحكم الوظيفة ، وتنفيذاً لأوامر من لم يعرفوا ربما أولئك المذنبين ، وكانوا يقتـادونهم إلى المعتقـل. أما العقـاب ، عنـدما يكـون رداً مباشـراً علـى الخطيئـة ، وانعكاساً فورياً للإهانة المتلقاة ، يتحول إلى تطبيق لعدالة مجردة ، ويـصير بغيـضاً لكـل قلـب طيـب الـولادة. الكتابـات المقدسـة تحدثنا عـن غـضب الـرب ، وعـن عقوباته الفورية والرهيبة التي تنزل صاعقة على من يخالفون أمره ، ولكن الأسر الدائم ، والعقاب الذي بـلا نهايـة والمستند إلى حجـج دينيـة بـاردة عـن لا نهائيـة الخطيئة والحاجة إلى عقـاب لا ينتهـي ، هـو مبدأ يمقـت المسيحية الكيخوتيـة. مـن الجيد أن يُتبع الذنب بنتيجته الطبيعية ، بضربة غضب الـرب أو غـضب الطبيعـة ، ولكـن العدالـة الأخيرة والنهائيـة هـي الغفـران. والـرب والطبيعـة ودون كيخوتـه يعاقبون ليغفـروا. أمـا العقـاب الـذي لا يليـه غفـران ، ولا يقـوم بمـنح الغفـران في النهاية ، ليس قصاصاً ، وإنما هو حقد بغيض.

وقد يقال : إن كان الغفران سيُمنح ، فلماذا القصاص؟ ولماذا الـسؤال؟ كي لا يكون العفو مجانياً ويفقد بذلك ميزته ؛ كي تكون هناك قيمة لاكتسابه بـإدراك أنه اشتُري بمعاناة العقاب ؛ كي يصير المجرم في وضع يتلقى معه ، بصورة مثمرة ،

twitter @baghdad_library

نعمة الغفران، بعد أن يكون القصاص والندم قد أزالا ما يحول دون ذلك. ففي القصاص راحة للمذنب وليس لمن أصابه الذنب بأذى، بل قد يمقت الجاني أن يأتيه الغفران مجاناً، ويبدو له ذلك كما لو أنه أشد طريقة جوهرية في الانتقام، وكأنه خلاصة الازدراء. الغفران المجاني هو عفو يُلقى كصدقة. فنحن نكون شاكرين أكثر للمعانقة، إذا كانت ودودة، وأتت بعد الصفعة التي تلقيناها رداً على استفزاز ارتكبناه.

عندما يشعر شخص بأنه أُهين، يجد نفسه مدفوعاً للانتقام؛ ولكنه بعد أن ينتقم، وإذا كان كريم الأصل ونبيلاً، فإنه يعفو. من هذا الشعور بالانتقام نشأ ما يسمى عدالة، وبعقلنة العدالة، الابتعاد الكبير بها عن السمو النبيل، تحوّلت إلى الخسة. والصفعة التي يوجهها المُهان إلى من أهانه هي أكثر إنسانية، ولأنها أكثر إنسانية فهي أكثر نُبلاً، وأكثر نقاء من تطبيق أية مادة من القانون الجزائي.

الغفران هو غاية العدالة، وفي عبورنا إلى الحياة الأخرى، وفي جزع الاحتضار، ونحن على انفراد مع ربنا، يكتمل سر الغفران للبشر جميعاً. فعذاب العيش وما يتبعه من آلام، هو كفارة عن كل ما اقتُرف من سيئات طوال الحياة. وفي غمّ لحظات الموت المحتوم تُدفع كفارة الذنوب كلها. والرب الذي خلق الإنسان حراً، لا يمكن أن يحكم عليه بالأسر الأبدي.

«فليمض كلّ امرئ بخطيئته؛ وفي السماء إله لا يهمل عقاب الخبيث، ولا مكافأة الطيب». هنا يحيل دون كيخوته القصاص إلى الرب، دون أن يخبرنا كيف يرى ما ستكون عليه طريقة الرب في القصاص، ولكنني لا أستطع أن أصدق، مهما كان تزمته في الإيمان، أنه يعني عقوبات بلا نهاية، وهو لم يؤمن بها. أجل، يجب إحالة القصاص إلى الرب، ولكن لا أن نجعل منه وزيراً لعدالتنا، مثلما هي العادة في أحيان كثيرة، في حين يجب علينا نحن أن نكون وزراء عدالته، كما اعتدنا أن نفعل. من هو الإنسان الفاني الذي يتجرأ على النطق بحكم باسم الرب، ويترك للرب أمر تنفيذه؟ من الذي يجعل بهذه الحال من الله وزيراً له؟ فمن يظن أنه يقول: «أدينك باسم الرب»، إنما يريد أن يقول في

الحقيقة: «الرب يدينك باسمي». فتمعن جيداً في أن أولئك الذين يدعون أنهم وزراء الرب الخاصين إنما يريدون في العمق أن يتوزر الرب لهم. ودون كيخوته كان يعتقد أنه وزير للرب على الأرض وذراع ينفذ بها الرب عدالته، ولكنه مثلنا جميعاً، ترك للرب الحكم على من هو الصالح ومن هو الخبيث، وتقدير بأي عقاب يجب الغفران لهذا الأخير.

إيماني بدون كيخوته يشير لي إلى أن هذا هو شعوره الحميم، وإذا كان ثربانتس لم يكشف لنا ذلك فلأنه لم يكن مؤهلاً للتغلغل فيه. ولا ينبغي لكونه إنجيلياً أن يدفعنا إلى افتراض أنه كان الأكثر قدرة على النفوذ إلى روح دون كيخوته. ويكفينا اليوم أنه حفظ لنا قصة حياته ومآثره.

«ليس من الخير أن يكون الرجال الشرفاء جلادين للناس الآخرين، وليس لهم أي منفعة في ذلك». ودون كيخوته، كما الشعب الذي هو زهرته، ينظر بعين السخط إلى الجلادين وكل وزير ومنفذ للعدالة. من المقدّس والحسن أن يقرّ المرء العدالة بيده، لأنه يمنحها غريزة طبيعية، أما أن يكون جلاداً لغيره من البشر كي يكسب بذلك خبزه في خدمة العدالة المقيتة المجردة، فليس بالأمر الحسن. لأن عدالة غير شخصية ومجردة، إنما تعاقب بصورة غير شخصية ومجردة.

إنني أراكم هنا، أيها القراء الورعين، ترفعون أيديكم إلى رؤوسكم، وأسمعكم تهتفون: يا للفظاعة! ثم تتحدثون بعد ذلك عن النظام الاجتماعي والأمن وسخافات أخرى من هذا القبيل. وأنا أقول لكم إنه لو أُطلق سراح جميع المحكوم عليهم بالتجذيف في السفن فلن يؤدي ذلك إلى جعل العالم أشد اضطراباً، ولو أن جميع الناس آمنوا إيماناً راسخاً بخلاصهم الأخير، حيث سننال جميعنا الغفران ونعمة الرب الذي خلقنا أحراراً، فإننا سنكون جميعنا أفضل حالاً.

أعرف جيداً أنكم ستردون على هذا كله بالمثل نفسه الذي قدمه المحكومون، وبكيفية مكافأتهم دون كيخوته على الحرية التي أعادها إليهم. فما إن رآهم طلقاء حتى دعاهم إليه، وقال لهم: «من شيم كرام الناس العرفان بالجميل، وإحدى أعظم الخطايا التي تغضب الرب هي الجحود». وأمرهم أن يذهبوا

twitter @baghdad_library

حاملين سلاسل قيودهم ليمثلوا أمام السيدة دولثنيا دل توبوسو. فملأ أولئك التعساء الخوف من أن تقبض عليهم **الأخوة المقدسة** مجدداً، وأجابوا بلسان خينيس دي باسامونته إنهم لا يستطيعون تنفيذ ما يطلبه منهم دون كيخوته، وطلبوا منه أن يتقبل منهم بعض صلوات «الإيمان» و«سلام عليكِ يا مريم». فغضب الفارس سريع الغضب، وزجر باسامونته وأنبه. عندئذ غمز هذا الأخير بعينه لرفاقه «فابتعدوا جانباً وبدؤوا يمطرون دون كيخوته بوابل من الحجارة... فأصابته وسقط على الأرض». ولما سقط أرضاً، انقض عليه أحدهم ونزعوا عنه ثيابه واستولوا على معطف سانتشو.

وهذا الذي حدث يجب أن يعلمنا أن نحرر المحكومين بالتجذيف في السفن لأنهم لن يشكرونا على ذلك بالتحديد، وإذا كنا لا ننتظر شكرهم بصورة مسبقة، فإن مأثرتنا تخلو من أي قيمة. وإذا كنا لا نفعل الخير إلا من أجل الشكر الذي سنتلقاه، فماذا يفيدنا ذلك في الخلود؟ يجب فعل الخير، ليس بالرغم من أننا لن نتلقى الثواب عليه في هذا العالم وحسب، وإنما لأننا لن نتلقى الثواب بالتحديد. فالقيمة اللامتناهية لأعمال الخير تكمن في أنه ليس لها مكافأة مناسبة في الحياة، لأن كل محسن هو أكبر من حياته نفسها وهو يفيض عنها. فالحياة خيرٌ بائس جداً بالمقارنة مع أعمال الخير التي يمكن إنجازها فيها.

ولكن يأتي هنا مقطع شديد الحزن بقدر ما هو جميل، إذ يتبدى لنا ضعف الفارس الجسدي مما يثبت لنا أنه مثلنا من لحم وعظم، وخاضع للبؤس الإنساني.

الفصل الثالث والعشرون

[وفيه ما حدث لدون كيخوته المشهور في سييرًا مورينا، وكان من أغرب المغامرات التي تُروى في هذه القصة الحقيقية]

وحين رأى دون كيخوته أنه في وضع سيئ، قال لحامل أسلحته: «أي

سانتشو! لطالما سمعتُ من يقول: الإحسان إلى السفهاء أشبه بسكب ماء في البحر. ولو صدَّقتُ ما قلتَه لي لكنتُ تجنبتُ هذه المحنة. ولكن ما حدث قد حدث، وما علينا سوى الصبر واستخلاص العبر للمضي قدماً». فبينما الفارس المسكين ملقى على الأرض، شعر بضعف في إيمانه. ولكن رؤية سانتشو يهرع لمساعدته، سانتشو البطل، ممتلئاً بإيمانه الكيخوتيّ، ويرد على سيده: «استخلاصك العبر سيكون بمقدار احتمال كوني تركياً». وكم كنت مصيباً يا سانتشو البطولي، يا سانتشو الكيخوتيّ، بأن سيدك لن يستطيع الاتعاظ من تجربته في عمل الخير وتحقيق العدالة الحقيقية!

ألأنهم رجموا دون كيخوته بالحجارة وسرقوا ثيابه، علينا أن نظن أن أولئك المحكومين لم يكونوا شاكرين له، وأن الحرية لم تحسِّن نفوسهم؟ عندما سرقوا ثيابه إنما فعلوا ذلك لأنهم بحاجة إليها، وهذا لا يستبعد الشكر، لأن الشكر شيء والمهنة شيء آخر. ومهنة معظمهم هي مهنة اللصوص. أضف إلى ذلك، من يدري إن لم يكونوا يريدون أخذ قطعة من ثيابه كتذكار؟ وماذا عن رجمه بالحجارة؟ أجل، على سبيل الشكر أيضاً. وقد كان الأمر أسوأ لو أنهم أداروا له ظهورهم.

وبانتهاء مغامرة المحكوم عليهم بالتجذيف، وانصياع دون كيخوته لتوسلات سانتشو الذي كان يطلب منه الابتعاد عن غضب **الأخوة المقدسة**، ولكن ليس خوفاً منها، توغلا في جبال سييرا مورينا، فأمضيا الليل «بين صخرتين كبيرتين ووسط الكثير من أشجار البلوط». وحدث في تلك الليلة أن سرق السجين التعيس خينيس دي باسامونته حمارَ سانتشو. ثم عثرا بعد قليل على حقيبة كاردنيو وكومة عملات الاسكودو الذهبية التي جعلت سانشو يهتف: «فلتتبارك السماء كلها التي هيأت لنا مغامرة فيها منفعة».

آه يا سانتشو المتقلِّب، لقد عاد الجسد لهزيمتك من جديد فأطلقت تسمية مغامرة على عثورك على حفنة من العملة الذهبية! إنك من بلاد اليانصيب. لقد أهداها إليك سيدك الذي لم يخرج بحثاً عن مثل مغامرات اللقى المالية هذه. واهتم أكثر بالحسرات الغرامية التي تضمها الحقيبة، وحين رأى شخصاً متوحداً

twitter @baghdad_library

يقفز من صخرة إلى صخرة، قرر البحث عنه وأمر سانتشو أن يقطع عليه الطريق. وعندئذ أجابه سانتشو بتلك الكلمات بالغة النبل: «لا يمكنني فعل ذلك، لأني إذا ابتعدتُ عن سيادتك، فسيكون معي الخوف الذي سينقضّ عليّ بألف نوع من الأهوال والأشباح».

وكيف لا يا صديقي سانتشو، كيف لا؟ يمكن لسيدك أن يكون، إذا شئتَ، مجنوناً تماماً، ولكنك لم تعرف، ولا تعرف، ولن تعرف العيش من دونه. ستتذمر من جنونه، ومن لفك بالملاءات والتطويح بك في الفضاء الذي أدخلك فيه، ولكنه إذا ابتعد عنك، سيستبد بك الخوف حين ترى نفسك وحيداً. فأنت من دون سيدك تكون وحيداً كأنك من دون ذاتك. لقد راقتك حماية دون كيخوته، وتوصلت إلى الإيمان به. وإذا فارقك التمسك بإيمانك، فمن ذا الذي سيحررك من الخوف؟ وهل الخوف يا ترى سوى فقدان للإيمان؟ وألا يستعاد هذا الإيمان بقوة الخوف؟ والإيمان، يا صديقي سانتشو، هو انتماء، ليس انتماء إلى فكرة، وإنما انتماء إلى شيء حي، إلى إنسان واقعي أو مثالي، إنه ملكة إعجاب وثقة. وأنت يا سانتشو الوفي تثق بمجنون وبجنونه، وإذا ظللتَ وحيداً بتعقلك السابق، فمن سيحررك من الخوف الذي سيتملكك حين ترى نفسك وحيداً مع ذلك التعقل، بعد أن استسغت الجنون الكيخوتيّ؟ ولهذا تطلب من سيدك ومولاك ألا يبتعد عنك.

وأنت يا دون كيخوته، أيها الشهم والقوي، سترد عليه بالقول: «سيكون لك ذلك، وأنا سعيد جداً لأنك تريد أن تنعم بشجاعتي التي لن تتخلى عنك ولو تخلت روحك عن جسدك». آمن إذاً يا سانتشو، آمن، حتى لو تخلت عنك شجاعةُ دون كيخوته. لقد أكمل الإيمانُ فيك معجزته. فشجاعة دون كيخوته هي شجاعتك، وأنت لم تعد تحيا في ذاتك، وإنما هو سيدك الذي يحيا فيك. إنك كيخوتيّ.

حينئذ عثر دون كيخوته على كاردينيو، وما أن رأى المجنون الآخر، مجنون الحب، حتى «ضمه لوقت طويل بين ذراعيه وكأنه يعرفه منذ زمن بعيد». وقد

كـان كـذلك في الواقـع. فقـد تبـادلا التحيَّـة وأعـرب دون كيخوتـه عـن نيتـه في خدمتـه، وإذا هـو لم يجد علاجـاً لآلامـه، فسيـساعده بمشاركته البكـاء لمحنتـه، «والتخفيف منها بأفضل ما أستطيع». وعنـدما تبكـي، يـا أيهـا الفـارس الطيـب، وتنوح لتعاسة كـاردينيو، ألا تبكي وتنـوح تعاستك؟ وعنـدما تبكـي مـن ازدراء لوسثندا لكاردينيو، ألا تبكـي ذلـك الإحجـام الـذي حـال دون أن تفـتح شـغاف قلبك لألدونثا لورنثو؟

ومع ذلك، هنالك خبثاء يظنون أن كل ذلك لم يكن إلا لجعـل كـاردينيو يروي قصته، لأن دون كيخوته كان شديد الفضول ومحباً لمعرفة حيوات الآخرين.

الفصلان الرابع والخامس والعشرون

[حيث تُتواصل مغامرة جبال سييرا مورينا وتناول الأمور الغريبة التي وقعت لفارس المنتشا الشجاع ومحاكاته للطقوس التكفيرية التي قام بها بيلتينبروس]

هنا يعمد ثربانتس، غير الواثق كثيراً من افتراضية قصة بطله، إلى أن يُدخل فيها قصة كاردينيو. ولكنه روى لنـا مـع ذلـك مقاطعـة دون كيخوتـه لكـاردينيو، وكيف تصدى للدفاع عن الملكة مداسيما حين ذكرها كاردينيو بالسوء. وقـد أراد بذلك أن يعلمنا ألا نتهاون إذا ما أهانه أولئك الـذين يـصرون عـلى التعامـل معـه على أنه كائن ذهني بلا جوهر واقعي. وليس مـن العقـل أن يكـون أمثـال أولئـك ممـن لا يتمتعـون بكامـل القـوى العقليـة، لا بـد لأحـدنا مـن أن ينقلـب إذاً «ضـد العقلاء وضد المجانين»، كما قال دون كيخوته في تلك المناسبة، في سبيل الحقيقة الجذرية. مثلما انقلب في سبيلها نبيلنا. وهو الذي إذا كان قد أخطأ فإنما بتبجحه، ذلك أنه كان لا يزال يؤكد آنذاك أنه يعرف أنظمـة الفروسية «أفـضل مـن جميـع الفرسان الذين يمتهنون الفروسية في العالم».

twitter @baghdad_library

وحين توغل بعد ذلك في عزلات سييرا مورينا، رجع دون كيخوته إلى موضوعه الحقيقي، فقال لسانتشو إن ما حمله إلى تلك المناطق رغبته في «القيام بمغامرة تخلد اسمي وتذيع شهرتي في كل ما هو مكتشف من الأرض». ومن أجل الوصول إلى ذلك قرر محاكاة مثله الأعلى، الفارس أماديس دي غاولا. فهو يعرف أن الكمال يُبلغ عن طريق محاكاة رجال وليس بمحاولة وضع نظريات موضع التطبيق. ومن أجل محاكاته في العزلة والتكفير وقهر النفس الذي قام به على «الصخرة الجرداء»، وحوَّل اسمه إلى بيلتينبروس (جميل الظلمات)، قرر دون كيخوته أن يقوم في سييرا مورينا باصطناع «اليأس والحمق والغضب»، في مغامرة أسهل من «قصم ظهور المردة، وقطع رؤوس الأفاعي، وتشتيت شمل الجيوش، وتحطيم الأساطيل، وإفساد أعمال السحر».

وبما أن المجنون البطولي كان عاقلاً، فإنه لم يشأ محاكاة دون رولان في اقتلاع أشجار، وتعكير مياه ينابيع صافية، وقتل رعاة، وإبادة قطعان، وإحراق أكواخ، وهدم بيوت، وجرجرة أفراس و«مئة ألف حماقة جديرة بخلود الذكر والتدوين»، وارتضى بما هو أساسي فقط، مكتفياً بمحاكاة أماديس، «الذي لم يرتكب حماقات مؤذية، بل اكتفى بالدموع والمشاعر، وحصل بهذا على شهرة وسمعة»، وإذا لم يكن للجنون الضار من حاجة، فقد كان جنون الجنون.

وعندما استفسر منه سانتشو عن السبب الذي يدفعه إلى الجنون دون أن تكون دولثنيا قد قصّرت معه، أجابه بذلك الحكم عميق المغزى الذي يقول: «هذه هي النقطة المهمة، وهذه هي رهافة ما يعنيني. لأن جنون فارس لسبب جلي، ليس فيه طرافة أو فضل. ولكن التميز يكمن في فقدان الرشد دون مناسبة وجعل سيدتي تدرك أنني إذا كنت أفعل ذلك وأنا جاف، فماذا عساي فاعلاً وأنا مبتل؟». أجل يا صديقي دون كيخوته، التميز هو في الجنون دون ما سبب، في تمرد سخي ضد المنطق، هذا المستبد القاسي على الروح. إن معظم من يُنظر إليهم في وطنك هذا على أنهم مجانين، إنما أصابهم الجنون لأسباب ومناسبات وفي حالة البلل، وهم ليسوا مجانين وإنما حمقى مبطنين بالشيء نفسه، إن لم

نقل إنهم أوغاد من النمط الراقي. أما الجنون، الجنون الحقيقي، فمازلنا نفتقر إليه بشدة، لعله يشفينا من وباء الحس السليم هذا الذي يجعل كل واحد مخنوقاً به.

ومخنوق لديك سانتشو، لأن الشك خامره بك، أيها الفارس البطل، حين حدثته مجدداً عن خوذة مَمبرينو وكان على وشك الظن أن وعودك كلها محض تلفيقات لأن عينيه اللحميتين جعلتاه يرى الخوذة كما لو أنها صحن حلاق. ولكنك أحسنت الرد عليه: «هذا الذي يبدو لك صحن حلاق يبدو لي أنا خوذة مَمبرينو، وقد يبدو لشخص آخر شيئاً غير ذلك». هذه هي الحقيقة الخالصة: العالم هو كما يبدو لكل واحد منا، والحكمة تستند إلى أن نجعله وفق مشيئتنا بالجنون دون مناسبة وبامتلائنا بإيمان باللامعقول. لقد ظن سانشو الجسدي، حين رأى دون كيخوته يبدأ التكفير بتعذيب نفسه، أنه يفعل ذلك هزلاً وليس جدّاً، ولكن سيده قوض شكوكه. لا يا صديقي سانتشو، لا. فالجنون الحقيقي يمضي حقيقياً على الدوامً. والعاقلون هم الذين يمضون هازئين.

ويا له من جنون! وكان أن صرح دون كيخوته عندئذ لسانتشو بأن دولثنيا دل توبوسو هي ألدونثا لورنثو، ابنه لورنثو كورتشويلو وألدونثا نوغاليس. فيقدم لنا سانتشو صفاتها الأرضية: «إنها بنت صلبة، قوية وناضجة، صدرها أشعر»، تُلقي العمود «كأقوى شاب في القرية». وذات يوم صعدت إلى «برج كنيسة القرية تنادي شباناً كانوا يعملون في حقل والدها، ومع أنهم كانوا على مسافة أكثر من نصف فرسخ، فقد سمعوها وكأنهم عند قاعدة البرج». والآن يُسمع صوتها، وقد تحولت إلى دولثنيا، وينتشر اسمها يا سانشو الساخر. «فيها الكثير من الغواني» تابع وصفه لها «وتمزح مع الجميع، تضحك وتسخر من كل شيء...» أجل، فالمجد يسخر من كل الأثيرين لديه.

توقف سانتشو عن الحديث في محاكمة دولثنيا، أو ألدونثا بكلمة أدق، وفق نظرته الجلفة، وروى له سيده قصة الأرملة الحسناء الحرة والثرية التي أحبت فتى ضخم البدن وأبله. ولهذا أحبته... أجل، فمن يريد اعتصار مثالية من العالم

twitter @baghdad_library

الذي لا وجود لشيء حقير ولا فج فيه، فإنه يمكن لألدونثا لورنثو أن تجسد دولثنيا على أحسن وجه.

ولكن هنالك شيء أشد حميمية هنا. فألونسو كيخانو الطيب الذي خبأ في أعمق أركان قلبه، خلال اثني عشر عاماً، ذلك الحب الذي ربما دعاه إلى الاستغراق في قراءة كتب الفروسية، وقاده أيضاً إلى أن يجعل من نفسه دون كيخوته. وألونسو كيخانو، الكسير الآن، وبفعل جنون الفروسية، يعترف لسانتشو بحبه. لسانتشو؟ إنه يدنس حبه بمجرد البوح به. ولكن التابع الخبيث لا ينتبه لما أُطلع عليه وللثقة التي عومل بها، ويتكلم عن ألدونثا كما لو أنه يتكلم عن أي بنت من أهل البيت. فيغتم دون كيخوته وهو يرى مدى رعونة سانتشو في فهم غرامياته، وكيف أنه لا يدري أن أي عاشق حقيقي يرى أن حبه هو الحب الوحيد الذي لم يُعرف مثله على الأرض، فيروي له عندئذ قصة الأرملة والأبله، لينتهي إلى «ولهذا أنا أحب دولثنيا دل توبوسو، كما لو أنها أعظم أميرة على الأرض». يا لك من فارس مسكين، كيف اضطررتَ إلى أن تصمت وتدفن في أعمق أعماقك الحب الكبير الذي كواكَ في خريف سنوات عمرك، وحال خجلك دون البوح به؛ فهمتَ حباً بابنة لورينثو كورتشويلو وألدونثا نوغاليس، لا لشيء آخر سوى ذكرها في الدروب تحت اسم دولثنيا! قل، أما كنت مستعداً لأن تقدم المجد في سبيلها، المجد الذي من أجلها خرجتَ بحثاً عنه؟

وبانتهاء الحديث كتب دون كيخوته الرسالة إلى دولثنيا، مع أن ألدونثا نوغاليس لا تعرف القراءة، ووثيقة التنازل عن الحمير الثلاثة إلى سانتشو. آه يا سانتشو، يا سانتشو، إنك تحمل أعظم مهمة، رسالة حب إلى دولثنيا، أوتحتاج بعدها لحمل وثيقة تنازل عن ثلاثة حمير!

تلا ذلك تبادل حديث آخر، وفيه قال دون كيخوته «والله إنك تبدو يا سانتشو لست أعقل مني». هذا صحيح، فقد أصبتَهُ بعدواك أيها الفارس النبيل.

وحين أراد سانتشو الانصراف، تجرد سيده بأقصى سرعة من سرواله، «وظل عارياً إلا من قميص، ثم بادر من فوره إلى القفز قفزتين في الهواء،

والشقلبة ورأسه إلى أسفل وقدماه إلى أعلى، فكشف بذلك عن أشياء لم يشأ سانتشو أن يراها ثانية، فأدار عنان روثينانته، ومضى راضياً مطمئناً إلى أنه يستطيع أن يقسم بأن سيده قد أصابه الجنون».

الفصل السادس والعشرون

[وفيه تتواصل الأعمال الغرامية المرهفة التي قام بها العاشق دون كيخوته في سييرا مورينا]

ظل دون كيخوته يرتل الصلوات مستخدماً مسبحة صنع حباتها من أشجار الفلين، ويتمشى في مرج صغير، يكتب ويحفر أشعاراً على لحاء الأشجار أو على الرمل الناعم، ويتنهد وينادي جنيات وآلهة الحقول والغابات وحوريات تلك الأنحاء.

يا للمغامرة المهيبة! مغامرة تأمل أكثر مما هي مغامرة فعل! هناك أناس، يا عزيزي دون كيخوته، عميان عن قيمة مغامرات التنهدات والتقافز في الهواء تلك. ومن يقوم بها فقط، أو من يستطيع القيام بها، هو وحده القادر على بلوغ ذروة الأعمال العظيمة. ويا لتعاسة من يكون عاقلاً في توحده مع نفسه ويهتم بأن يراه الآخرون.

عقاب تكفير دون كيخوته هذا في جبال سييرا مورينا يذكرنا بذلك التكفير الآخر الذي فرضه على نفسه إغناثيو دي لويولا في كهف مانريسا، وخاصة حين ورد إلى ذهنه في كهف مانريسا وفي دير القديس دومينغو، مثلما يروي لنا الأب ريبادينيرا في الكتاب الأول، الفصل الرابع من كتابه «أن يحاكي مثال قديس طلب حاجة من الرب وقرر الامتناع عن تناول الطعام إلى أن ينالها. وفي محاكاته له ـ يضيف ـ قرر هو أيضاً عدم الأكل والشرب إلى أن يبلغ سلامه الروحي المنشود، ما لم يعرّضه ذلك لخطر الموت».

twitter @baghdad_library

وفي نهاية سيرة حياة القديس سيمون استيليا، يضيف المؤلف التقي: «هذه الحياة لتقديرها والإعجاب بها لا لمحاكاتها وتقليدها»، وتقول لنا القديسة تيريسا دي خيسوس في الفقرة الثالثة من الفصل الثالث عشر من سيرتها "*حياة*" إن الشيطان «يقول لنا، أو يجعلنا نفهم أن شؤون القديسين هي لمجرد الإعجاب بها، وليس لكي نفعل مثلها نحن الخطأة»، وهو ما تقوله هي أيضاً، إنما «علينا النظر أي من تلك الأعمال يجب أن نبتعد عنه وأيها نحاكيه». وهكذا يمكن الاعتقاد أن تكفير دون كيخوته في سييرا مورينا هو إعجاب أكثر منه محاكاة. ولكنني أقول لكم إنه من الينبوع نفسه انبثق أيضاً التقافز في الهواء، ذلك أنه لا يمكن فصل أحد الأمرين عن الآخر. فذلك الجنون أجج حبه لدولثنيا، وكان هذا الحب هو بوصلته ونابضه الدافع في أعماله.

الجميل هو ما يكون زائداً عن الحاجة، ما تكون غاية في ذاته: إنه زهرة الحياة. وتلك القفزات في الهواء باهرة الجمال، لأنه لا هدف لها سوى فعلها. وإن كان لها من هدف آخر، فهو هدف التثقيف الذاتي. واسمع مني كلمة:

ذهب حصّادان لحصاد حقل. وكان أحدهما متلهفاً إلى حصد الكثير، فبدأ العمل دون أن يهتم بشحذ منجله، وبعد قليل فُلَّ حدّ المنجل وتثلم وأصبح يلوي الأعشاب دون أن يقطعها. أما الحصَّاد الثاني فكان يرغب في أن يحصد جيداً، فأمضى الصباح بطوله في شحذ أداته، وعند المساء لم يكن أي منهما قد استحق أجر يوم عمله. وهكذا فإن هنالك من يهتم بالعمل وحده دون أن يشحذ أداته وجرأته ويصقلهما، ومن يقضي الحياة في الشحذ والصقل والاستعداد للعيش، فيأتيه الموت. ولهذا ينبغي الحصاد وشحذ المنجل، حب العمل والاستعداد للعمل. فبلا حياة داخلية لا وجود لحياة خارجية.

وذلك التقافز في الهواء ذاته بلا زيادة ولا نقصان، وتلك الصلوات، وذلك النقش على لحاء الأشجار، والزفرات والدعوات، إنما هي تمارين روحية للهجوم على طواحين الهواء، وطعن الخراف بالرمح، وقهر الباسكي، وتحرير السجناء المحكومين بالتجذيف، والتعرض لرجمهم له بالحجارة. وهناك في تلك

العزلة، وبذلك التقافز، يشفي نفسه من سخرية الناس، بسخريته بنفسه، ويخفف من وطأه حبه. هناك يغذي جنونه البطولي بجنون جاف.

وفي أثناء ذلك كان سانشو يمضي في الطريق إلى توبوسو، وحين وصل إلى النزل الذي طوحوا به في الفضاء فيه التقى بكاهن قريته وحلاقها، وما كادا يريانه حتى سألاه عن دون كيخوته وأين هو، لكن سانتشو، مدفوعاً بغريزة صائبة، حاول إخفاء ذلك عنهما. يا لعظمة فهمك، أيها التابع الوفي، بأن أكبر أعداء البطل هم ذووه وأقرباؤه، من يحبونه بعاطفة صلة الرحم! إنهم لا يحبونه لذاته ولا لأعماله، وإنما يحبونه لأنفسهم. لا يحبونه لأعماله التي هي روحه ومسوغ وجوده؛ لا يحبونه في الخلود، وإنما في الزمان. يروي مرقس الإنجيلي، في الإصحاح الثالث من إنجيله، أنه عندما اختار يسوع حوارييه كان محاطاً بأناس كثيرين، حتى لم يقدروا ولا على أكل خبز (الآية 20) ولما سمعه أقرباؤه، οίπαβ' αΰτού، أفراد أسرته، أي أمه وإخوته، خرجوا ليمسكوا به قائلين: «إنه مختل»، وهذا يعني أنه مجنون (الآية 21)، وحين قالوا للمعلم «ها هي أمك وإخوتك ينتظرونك خارجاً يطلبونك» أجابهم قائلاً: «من أمي وإخوتي؟ هؤلاء هم أمي وإخوتي ـ نظر إلى المحيطين به ـ لأن من يصنع مشيئة الرب هو أخي وأختي وأمي» (الآيات 31 حتى 35). لم يكن البطل، القديس، الفادي مجنوناً في نظر أحد أكثر مما هو في نظر أهله، أبويه وإخوته.

كان الكاهن والحلاق يتصرفان، في سعيهما لحمل دون كيخوته إلى بيته، استجابة لرغبة قلب قيّمة المنزل وابنة أخت النبيل اللتين كانتا تحسبانه مختلاً. ولكن أبناء إخوة دون كيخوته هم من يتأججون في فروسيته النبيلة، إنهم أقرباؤه بالروح. وينتهي الأمر بالبطل إلى أن يصبح بلا أصدقاء، لأنه مضطر إلى أن يكون متوحداً.

لقد أحسن سانتشو صنعاً إذاً حين أراد أن يخفي عن الكاهن والحلاق مكان وجود سيده، ولكن الحيلة لم تفده، فبسبب كونه وحيداً، بلا حماية سيده، انقضا عليه بالتخويف وجعلا لسانه ينفلت. فأخبرهما بكل شيء، مثيراً بذلك

twitter @baghdad_library

دهشة الجارين اللذين «أعجبا مجدداً بتقدير مدى حدة جنون دون كيخوته، إذ أنه استحوذ أيضاً على عقل ذلك الرجل المسكين». حدة؟ إنها أكثر من حدة: إنها العدوى بالبطولة. وليس من الممكن ولا الواجب أن يسمى رجلاً مسكيناً من حقق غنى روحياً بمجرد دخوله في خدمة هذا الفارس.

«ولم يشأءا أن يتعبا نفسيهما في انتزاعه من الخطأ الذي هو فيه ـ يضيف المؤرخ ـ، فقد بدا لهما أن ذلك لا يُحدث أي ضرر في وعيه، ومن الأفضل تركه على حاله، وسيكون من الممتع لهما أن يستمعا إلى حماقاته». فتأمل كيف ينظر هذان الكاهن والحلاق الدنيويان إلى شؤون سانتشو. يتركانه يهيم في ما يريان انه خطأ، والمتمثل في إيمانه بالبطولة، ليستمتعا بسماع ما يسميانه حماقات. وافعل بعد ذلك لا شيء مما ينطوي على بطولة، أو قل لا شيء مما يتضمن الفهم أو الجديد من أجل تقديم المتعة لأولئك الذين يرون في ذلك كله عبقريات محضة.

أظن أنه سيقرأ تعليقاتي هذه عدد غير قليل من كهنة وحلاقي المنتشا، أو ممن هم جديرون بأن يكونوا كذلك، بل إنني أصل إلى الشك في أن معظم من سيقرؤونه سيكونون أقرب إلى ذينك الكاهن والحلاق أكثر من قربهم إلى أي شيء آخر، ويعتقدون أنه من الأفضل تركي في ما يعتبرونه أخطائي ليستمتعوا بحماقاتي. سيقولون، وكأني أسمعهم، إنني أبحث وأعيد البحث عن مفارقات بارعة كي أُظهر نفسي كباحث أصيل، ولكني أكتفي بالقول لهم إنهم إذا كانوا لا يرون ولا يشعرون بكل ما أضعه من عاطفة، وتأجج حماسة، وقلق عميق، ولهفة حارقة في تعليقاتي هذه على حياة سيدي دون كيخوته وتابعه سانتشو ووضعته في أعمال أخرى من مؤلفاتي، إذ كانوا لا يرون ذلك ولا يشعرون به، فإني أشعر بالشفقة عليهم بكل ما في قلبي من قوة، واعتبرهم عبيداً تعساء للحس العام وأرواحاً ظاهرية تمضي في الظلام مرتلة، في كورال، أغنيات كالاينوس القديمة. وأسلم نفسي إلى سيدتنا دولثنيا التي ستهتم في نهاية المطاف بهم وبي.

وعندما ينتهون من ترتيل ذلك سيبتسمون أيضاً مهمهمين: تناقضات

ظاهرية! تناقضات ظاهرية جديدة! وتناقضات ظاهرية على الدوام! ولكن تعالي إلى هنا يا أرواحاً فلينية، يا رجالاً قساة الرؤوس، تعالوا وقولوا لي، ما الذي تفهمونه من قولكم تناقضات ظاهرية وما الذي تعنونه بذلك؟ يخامرني الشك في أن تناقضاً آخر يظل في أعماقكم يا تعساء الحس العام الروتينيين. ما لا تريدونه هو عدم تحريك بئر أرواحكم، ولا أن يحركوها لكم. ما ترفضونه هو التوغل في أعماق الروح. إنكم تبحثون عن الطمأنينة العقيمة لمن يستريح في مؤسسات خارجية، في مستودعات عقائد دوغمائية؛ إنكم تستمتعون بحماقات سانتشو. وتطلقون تسمية مفارقة ظاهرية على ما يدغدغ نفوسكم. إنكم ضائعون، ضائعون بلا خلاص. الكسل الروحي هو ضياعكم.

الفصل السابع والعشرون

[وفيه كيف أفلح الكاهن والحلاق في خطتهما، وأمور أخرى جديرة بأن تُروى في هذه القصة العظيمة]

وبالعودة إلى قصتنا أريد أن أذكّركم بأمر، لأنكم من تقرؤونني تعرفونه من قبل، ألا وهو ما خطط له الكاهن والحلاق لإخراج دون كيخوته من ذلك التكفير وقهر النفس الذي اعتبره الكاهن والحلاق عديم الجدوى، فتزيا الكاهن بملابس سيدة متجولة، لاسيما أن الكهنة معتادون على ارتداء ثياب تشبه ثياب السيدات ويغطون رؤوسهم بأي شيء، وتنكر الحلاق بزي تابع السيدة ليذهبا على تلك الحال «إلى حيث دون كيخوته ليتظاهر الكاهن بأنه سيدة مستضعفة تطلب العون» وكل ما سوى ذلك مما يُروى لنا في هذا الشأن، من أجل إخراج دون كيخوته من جبال سييرا مورينا واقتياده إلى بيته. وهكذا تنكر الكاهن كسيدة، وركب بغلته مثلما تركب النساء، ومعه الحلاق الذي اتخذ من ذيل ثور لحية له، وذهبا لخداع الفارس. وسرعان ما انتبه الكاهن إلى امتهان تنكره كامرأة

twitter @baghdad_library

لمقامه وشخصيته، فتبادلا الأدوار. فكانت لحية ذيل الثور مناسبة له أكثر من ملابس السيدة. وخدعا سانتشو، سانتشو الساذج والوفيّ، كيلا يبيع سيده بإعطائه حلاقاً على أنه سيدة متجولة.

الفصل التاسع والعشرون
[وفيه المغامرة الجديدة البهيجة التي حدثت للكاهن والحلاق في جبال سييرا مورينا]

لكن ذلك كله لم يكن ضرورياً، لأن حسن الطالع وفر لهما الحسناء دوروتيا ـ وتكاد جميع السيدات اللاتي يظهرن في هذه القصة أن يكن حسناوات باهرات الجمال ـ، التي تطوعت لأداء دور الآنسة المحتاجة للعون، أميرة ميكوميكونا، وقد تهيأت لذلك بحيوية أوقعت سانتشو غير الحذر في الشرك.

وفي أثناء ذلك كان دون كيخوته عارياً إلا من قميص، هزيلاً، أصفر اللون، يكاد يموت جوعاً ويطلق تنهدات الحسرة على سيدته دولثنيا. وبعد أن ارتدى ثيابه، التقى بالأميرة ميكوميكونا التي جثت راكعة أمامه. وعندما طلب منها دون كيخوته أن تنهض عن الأرض، رفضت النهوض إلا بعد أن يمنحها ما تطلبه منه. وقد وافق الفارس على منحها ما تريد بشرط ألا يكون في تحقيقه ما يضر أو يسيء إلى مليكه ووطنه وتلك التي بيدها مفتاح قلبه وحريته. وفي هذا الكلام تقديم وعد حذر ودون أي التزام. عندئذ طلبت منه الأميرة أن يذهب معها فوراً دون الدخول في أية مغامرة أخرى قبل ينتقم لها من خائن اغتصب مملكتها، فأكد لها دون كيخوته أنه في وسعها أن تزيح كل الهموم والكآبة جانباً، لأنها بعون الرب وبفضل ساعده سترى بنفسها مملكتها وقد أُعيدت إليها قريباً. فإذا كان الرب يحرك ساعد الفارس، فلا حاجة لمساعدة أخرى. وعندما

أرادت الأميرة أن تقبّل يديه، لم يوافق على ذلك، وكان «في كل مناسبة فارساً مهذباً ونبيلاً» وسارع إلى الذهاب معها.

وهنا لابد من الإعجاب بالكيفية التي اجتمع في دون كيخوته إيمانه بالرب وإيمانه بنفسه حين قال للأميرة ما قاله من أنها سترى مملكتها قد استُعيدت قريباً، وتربعها على عرش دولتها القديمة والكبيرة، على الرغم من ثقلاء الظل الذين أرادوا معارضة قوله. ذلك أنه ليس فيه إيمان بنفسه مثل إيمان خادم الرب، لأن هذا يرى الرب في ذاته، بل إيمان من هو ماض وراء الشهرة، مثل دون كيخوته، ويسعى قبل أي شيء إلى مملكة الرب وعدالته. أعطه كل ما عدا ذلك بصورة إضافية وعلى رأس ذلك كله الإيمان بنفسه الضروري للعمل.

حين واجه الأبوان لاينيز، وسالميرون صعوبات كبيرة من جانب أسياد فينيسيا من أجل تأسيس مدرسة بادوا، وبعد أن فقد الأب لاينيز كل أمل في إنجاز المشروع، كتب إلى إغناثيو دي لويولا «في أي وضع هو، ومن أجل أن يكلل ربنا العمل بالنجاح، طلب منه أن يقيم قداساً لنجاح ذلك المشروع، لأنه لا يجد وسيلة أخرى». فأقام الأب القداس كما طُلب منه، في يوم عيد ميلاد سيدتنا، وعند الانتهاء كتب إلى لاينيز: «فعلتُ ما طلبته مني، فتحمس ولا يحزنك أمر المشروع لأنكم تستطيعون إنجازه مثلما ترغبون. وهكذا كان» (ريبادينيرا، الكتاب الثالث، الفصل السادس).

ويأتي ما هو محزن في مغامرة دون كيخوته تلك، ففي أثناء ذلك «كان الحلاق لا يزال راكعاً يبذل جهداً كبيراً في مواراة ضحكه، وكيلا تسقط لحيته، لأن سقوطها ـ حسب رأي ثربانتس ـ قد يحول دون توصلهم جميعاً إلى تحقيق نواياهم الطيبة». فحتى هنا مغامراته كلها مما يوفره الحظ مصادفة للنبيل في الطرق والدروب، وكانت مغامرات طبيعية وعادية من الرب من أجل مجد الفارس؛ أما لآن فبدأت المغامرات التي أعدها له البشر، وأتى معها ما هو أشد قسوة في مسيرته. لدينا البطل وقد تحول، بالرغم من بطولته، إلى ألعوبة للبشر وسبباً للضحك؛ وهناك جماعة من الناس في حملة ضده. الحلاق يداري ضحكه كيلا

twitter @baghdad_library

يُعرف. إنه يعلم أن الضحك يفضحنا حين ينزع عنا قناع الجد، واللحية سهلة السقوط لأنها مستعارة، ويمكن لها أن تكشف أمرنا.

أقول إن الحزن في المسيرة الكيخوتية قد بدأ الآن. أما أجمل مغامراته وأشدها تألقاً قد انتهت الآن؛ وفي ما يلي سيكون معظمه معداً مسبقاً بتدبير من أناس خبثاء. كان العالم يجهل البطل حتى الآن، وكان البطل بدوره يحاول أن يصنعه على هواه. أما الآن فصار العالم يعرفه ويتقبله، ولكن ليسخر منه، ويجاري مزاجه، ويقولبه على هواه. لقد صرت يا صديقي دون كيخوته المسكين تسلية وأضحوكة لحلاقين، وكهنة، ومجازين، ودوقات، وعاطلين من كل نوع. لقد بدأت آلامك، وأشدها مرارة: آلام السخرية.

لكن مغامرتك، ولهذا السبب بالذات، تكتسب في العمق ما كانت تفتقده في المجازفة، لأن العالم يهرع إليها بطريقة أو بأخرى، وكيفما كانت. أردتَ أن تجعل من العالم عالمك، بتقويم الاعوجاجات، وإقرار العدالة فيه؛ وصار العالم الآن يتلقى عالمك كجزء منه، ولسوف تدخل الحياة العامة. إنها تنزع من نفسك شيئاً من الكيخوتية، ولكنها تغرس الكيخوتية في كل من يستهزئون بك. بالضحك تحملهم على أن يمضوا وراءك، يقدرونك ويحبونك، أنت من تجعل الأمر ينتهي بالمجاز شمشوم كاراسكو إلى أخذ سخرياته على محمل الجد، وأن يتحول من القتال لهواً إلى القتال في سبيل الشرف. دع الحلاق إذاً يداري ضحكته تحت لحيته المستعارة. «ها هو ذا الرجل»، هكذا قالوا ساخرين من سيدنا يسوع المسيح؛ و«ها هو ذا المجنون» سيقولون عنك يا سيدي دون كيخوته، وستكون المجنون، المجنون الوحيد.

وسانتشو، المسكين سانتشو، العارف إلى حدّ كبير بالمهزلة، ذلك أنه رأى الإعداد للمسرحية في خلفية المسرح وكواليسه، ولكنه يؤمن مع ذلك، إيماناً بطولياً، بمملكة ميكوميكونا، حتى إنه يحلم بأن يجلب معه زنوجاً ويبيعهم ليحقق الثراء. آه، يا للإيمان الراسخ! ولا يقولن أحد إن الطمع هو ما يوجهه. لا، بل على العكس، فإيمانه هو الذي يؤجج فيه الطمع.

وجرى عندئذ اللقاء بالكاهن الذي حيا جاره ألونسو كيخانو على أنه مواطنه الطيب دون كيخوته دي لامانشا، «زهرة الشهامة وقشدتها...، وخامس زبدة الفرسان الجوالة». وفي أثناء ذلك كان النبيل العبقري قد تعرف إليه، فحاول الترجل، لأن الكاهن كان رجلاً. أراد أن يبدي تواضعه للساخر منه، لأنه بالرغم من كل شيء كاهن أرواح قريته.

أدى حادث طارئ إلى سقوط لحية الحلاق، فسارع الكاهن إلى إلصاقها وهو يتمتم بتعويذة «فدهش دون كيخوته أيما دهشة، وتوسل إلى الكاهن أن يعلمه ذلك الدعاء، عندما يتهيأ له الوقت». آه يا فارسي المسكين، وكيف بدأت تفعل فيك فعلها أجهزة الخداع البصري المسرحي التي أحاطك الساخرون بها! لم تعد أنت من تخترع العجائب، بل صاروا يخترعونها لك.

ولم يكتف الكاهن بأداء دور الساخر، بل أراد أداء دور المؤنِّب أيضاً، فوجه تأنيباً شديداً للرجل الشجاع الذي أطلق سراح المحكومين بالتجذيف، متظاهراً بعدم معرفته. بينما الفارس «الذي كان لونه يتبدل مع كل كلمة يسمعها» ظل صامتاً، كمن هو غير عابئ، لأن من يتكلم هو كاهنه في نهاية المطاف، ومتلقي اعترافه.

الفصل الثلاثون

[وفيه ذكر فطنة دوروتيا الجميلة، وأمور أخرى شديدة الإمتاع والتسلية]

وكان دون كيخوته سيصمت عن ذلك كله لو أن سانتشو لم يشِ به ويقول إن سيده هو من حرر أولئك الأوغاد الكبار. لقد تكلم رجله، والذي هو في نظره عالمه كله. فقال عندئذ دون كيخوته: «أيها الغبي. ليس من شأن الفرسان الجوالة ولا من واجبهم أن يحققوا فيما إذا كان المكروبون المقيدون والمضطهدون

twitter @baghdad_library

الذين يلتقون بهم في الدروب قد وصلوا إلى تلك الحال بسبب أخطائهم أو فضائلهم. وإنما واجبهم أن يهرعوا لمساعدتهم كمحتاجين، واضعين نصب أعينهم آلامهم وليس جرائمهم». وفي بقية ما قاله وبخ من ينظرون بالسوء إلى ما فعله، مستثنياً كرامة الكاهن المجاز المقدسة. جواب رائع، وحجج وقورة تتوج ما عرضه حين حرر المحكوم عليهم بالتجذيف. وكان من الطبيعي أن يتحول الكاهن، مثل غيره من الكهنة الذين التقى بهم النبيل في مسيرته، إلى التفكير في الأمور الدنيوية والأرضية، لأن الدنيويين والأرضيين في نهاية المطاف هم من يدفعون له ليكون كاهناً، أما دون كيخوته فعليه أن يفكر في ما هو إلهي وسماوي. آه يا سيدي دون كيخوته.، ومتى سنتوصل إلى أن نرى في كل محكوم عليه بالتجذيف محتاجاً، قبل كل شيء وفوق كل شيء، ونركز نظرنا إلى عقوبة شره وليس إلى أي شيء آخر! حتى عند رؤيتنا أفظع الجرائم لا تكون الصرخة التي تصدر عنا للمجرم: مسكين يا أخي! ذلك أن المسيحية لم تتغلغل فينا إلى ما هو أعمق من قشرة الروح.

وواصلوا استهزائهم به، وبعد ذلك توجهت الأميرة ميكوميكونا إلى دون كيخوته بسلسلة حماقات حاكتها لتبرير نفسها. وكان الوضع المحزن في تصديق دون كيخوته وسانتشو لها، لأن البطولة سريعة التصديق دائماً. وهناك كان ضحك الساخرين. فقد جدد دون كيخوته وعوده للأميرة، ولكنه رفض فكرة الزواج منها، وهو الأمر الذي أثار استياء سانتشو، وقال تلك الأمور التي يضع فيها ميكوميكونا فوق دولثنيا. ولكن سيده «لم يستطع تمالك نفسه وهو يسمع ذلك التجديف باسم دولثنيا، فرفع رمحه دون أن يوجه كلمة إلى سانتشو، ودون أن ينطق بشيء ضربه ضربتين في بطنه طرحتاه أرضاً».

ذلك العقاب الصامت، وهو الأمر الجاد الوحيد وسط كل تلك السخريات الخرقاء، يرفع معنوياتنا. وقد كانت جدّية، وجدّية جداً، الأسباب التي سوغ بها دون كيخوته قصاصه، مبيناً أنه لولا الشجاعة التي تبثها فيه دولثنيا لما كان قادراً على قتل قملة، إذ لم تكن شجاعته، وإنما شجاعة دولثنيا، هي التي

تتخذ من ذراعه أداة لمآثرها، وتصل بتلك المآثر إلى نهايتها السعيدة. وهكذا فإننا حين نتنصر، إنما يكون **المجد** هو التي يتنصر من خلالنا. «فهي التي تقاتل فيَّ وتنتصر فيّ، وأنا أحيا وأتنفس فيها وبها أمتلك حياةً ووجوداً». يا للكلمات البطولية التي يجب علينا أن ننقشها في القلوب! إنها عبارات تعني في الكيخوتية مثل ما تعنيه في المسيحية تلك التي نطق بها بولس الرسول: «إنني مصلوب بالضبط مع يسوع، وأحيا. لست أنا من أحيا، بل يسوع يحيا فيَّ».

هكذا هو على الدوام كل عمل عظيم بين البشر، لأن العمل العظيم، كي يكون عظيماً حقاً، يجب أن يُنجز كتقدمة لرجل أو امرأة، ولامرأة أفضل منه لرجل. وهدف الإنسان هو الإنسانية، والإنسانية الشخصانية في فرد، وعندما يتخذ الطبيعة هدفاً فإنه يؤنسنها قبل ذلك. الرب هو المثل الأعلى للإنسانية، إنه الإنسان المصمم للانهاية والمخلد فيها. وهكذا يجب أن يكون. ولماذا تتحدثون عن خطأ مركزية الإنسان؟ ألا تقولون إن مركز كرة لانهائية هو في أجزائها، في كل مكان منها؟ والمركز بالنسبة لكل واحد منا هو فيه بالذات. ولكنه لا يستطيع العمل ما لم يُستقطب؛ لا يمكنه العيش ما لم ينزع عنه مركزيته. وإلى أين ينزع عنه مركزيته بالتمدد إلى آخر مثله؟ حب إنسان لإنسان، أعني حب رجل لامرأة، هو ما أنتج الروائع كلها.

«أنا أحيا وأتنفس فيها وبها أمتلك حياة ووجوداً». حين قلتَ هذا عن دولثنيا يا صديقي دون كيخوته، ألم يتذكر ألونسو كيخانو الطيب الكامن فيك ألدونثا لورنثو تلك التي ظل يتنهد من أجلها اثني عشر عاماً دون أن يجرؤ على الاعتراف لها بحبه الهائل؟ «أحيا وأتنفس فيها!» ففيها عاش وتنفس، وكانت له حياة ووجوداً، قرينك ألونسو كيخانو الطيب الذي تحمله في أعماقك، محشوراً في جنونك، عاش وتنفس فيها طيلة اثني عشر عاماً مديدة من التعقل القاسي المعذِّب. ومعها عجن أحلامه الحذرة. ومن صورتها العذبة التي لمحها أربع مرات فقط، شرب آماله، وإلا لما كان يمكن لها أن تطيب في الذكريات. وبها امتلك حياة ووجوداً، حياة خفية وصامتة، حياة كانت تنساب تحت روحه مثلما

twitter @baghdad_library

تنساب مياه نهر غواديانا تحت الأرض مسافة لا بأس بها، ولكنها تروي هناك، في تلك الأعماق، جذور مآثر مستقبلية في مسيرته. آه يا عزيزي ألونسو الطيب، أن تعيش وتتنفس في ألدونثا لورنثو دون أن تدرك هي ذلك أو تلحظه، وتمتلك الحياة والوجود في الصورة العذبة التي تغذي الروح!

ولكن سانتشو الإنسان لم يعترف بالهزيمة، بل أصر على وجوب زواج سيده من الأميرة، ويكون حراً بعد ذلك في اتخاذ دولثنيا محظية له. ما الذي قلته يا سانشو. ما الذي قلته؟ ألا تدري أنك باختراقك روح دون كيخوته توصلت إلى جرح أشد الأوتار حساسية في قلب ألونسو كيخانو! أضف إلى ذلك أن دولثنيا لا توافق على الاقتسام ولا على المشاركة، ومن يريدها كلها بكاملها، عليه أن يسلّم نفسه كلها وبالكامل إليها. كثيرون هم الذين يسعون إلى الزواج من **الثروة**، واتخاذ **المجد** محظية، ولكن ما يصيبهم هو أن الأولى تخمش غيرتهم والثانية تسخر منهم بسرقتهم.

واستمر السيد وتابعه في حديثهما، وانتهى الأمر بالسيد إلى الاعتذار من تابعه عن ضربه له، وعلم أن سانتشو لم ير دولثنيا بروية تتيح له التفرس «في حسنها وملاحظة ملامح جمالها واحداً واحداً ــ وأضاف: ــ ولكنها كحزمة مجتمعة تبدو لي جيدة». هذا هو التساهل الذي يقدمه السانتشوات عندما يُضربون، إنهم يكذبون لمصلحة دولثنيا التي لم يروها ولم يعرفوها. وبعد ذلك يقبّل سانتشو، بطلب من الأميرة، يد سيده دون كيخوته طالباً منه الصفح، فيمنحه النبيل الكريم الصفح ويباركه. فلتتبارك، يا صديقي سانتشو، ضربات العصا التي أتاحت لك نيل مباركة سيدك! ومن المؤكد أنك عندما تلقيت الصفح السخي، استحسنتَ القصاص الذي أهلك لنيله.

واستغرق السيد والتابع بعد ذلك في الحديث عن شؤونهما، وعندئذ استرد سانتشو حماره. فقد عثر عليه مع خينيس دي باسامونته المتنكر كغجري، وما إن رأى هذا الأخير دون كيخوته وحامل أسلحته حتى فرّ هارباً.

الفصل الحادي والثلاثون

[وفيه أخبار الحديث الشيق بين دون كيخوته وتابعه سانتشو بانثا، وأحداث أخرى]

وسرعان ما تحولت تلك الأحاديث الممتعة بين دون كيخوته وسانتشو إلى لقاء هذا بدولثنيا. وعندما قال إنه وجدها «تغربل قدحين من القمح في إحدى حظائر بيتها»، أجابه دون كيخوته: «خذ علماً إذاً بأن حبات القمح تلك قد تحولت إلى حبات لؤلؤ حين لمستها يداها». وعندما قال سانتشو إن ذلك القمح ضارب إلى الحمرة، أجاب دون كيخوته «وأنا أؤكد لك أنه بعد أن غربلته بيديها قد تحول، دون شك، إلى قمح يصنع منه خبز كانديال الجيد». وأضاف حامل الأسلحة أنها عند تلقيها الرسالة، طلبت منه المغربلة أن يضعها على أحد الأكياس لأنها لن تستطيع قراءتها قبل أن تفرغ من غربلة ذلك القمح»، وهو ما ردّ عليه دون كيخوته بالقولً: «إنها سيدة محتشمة. لابد أنها فعلت ذلك كي تقرأ الرسالة على مهل وتستمتع بها». وأضاف سانتشو أن لدولثنيا رائحة كرائحة الرجال، «ليس الأمر كذلك ـ ردّ عليه دون كيخوته ـ ولابد أنكَ كنت مزكوماً، أو أنك شممت رائحتك أنت نفسك، لأني أعرف جيداً رائحة تلك الوردة بين الأشواك، رائحة زنبقة الحقول تلك، والعنبر المذاب». ثم قال سانتشو إن دولثنيا «لا تعرف القراءة والكتابة، وقد مزقت الرسالة نتفاً صغيرة كيلا يطلّع أهلُ المنطقة على أسرارها»، واكتفت بما سمعته من حامل أسلحة الفارس حول تعذيب سيده لنفسه، وقالت له إنها تود أن تراه، وتطلب منه أن يتوجه فوراً إلى توبوسو. وعندما ردّ سانتشو على سيده بأن دولثنيا لم تعطه عند الوداع أية حلية، وإنما أعطته قطعة خبز وجبن من فوق سور الحظيرة، قال دون كيخوته: «إنها كريمة إلى أقصى حدود الكرم، وإذا كانت لم تقدم إليك حلية فلابد أن ذلك لأنه لم يكن في متناول يدها شيء تهديه إليك. ولكن المؤجّل قد يجيء خيراً من المُعَجَّل. سوف أراها، ويسوى كل شيء».

twitter @baghdad_library

أرجو من القارئ أن يعيد قراءة ذلك الحوار المدهش بكامله، ليفك من خلاله رموز جوهر الكيخوتية الحميم بشأن نظرية المعرفة. فعلى أكاذيب سانتشو التي تتظاهر بأنها أحداث تتوافق مع الحياة العامية والظاهرية، تأتي ردود حقائق إيمان دون كيخوته السامية، والمستندة إلى حياة أساسية وعميقة.

ليس الذكاء وإنما الإرادة هي التي تصنع لنا العالم، والحكمة الاسكولائية القديمة القائلة: *nihil volitum quin praecognitum*، ***لا شيء يُحَب دون أن يُعرف مسبقاً***، يجب تصويبها بالقول: *nihil cognitum quin praevolitum* ***لا شيء يُعْرِف دون أن يُحب مسبقاً***.

في هذا العالم الخائن
لا توجد حقيقة ولا كذب،
فكل شيء يعتمد على لون
الزجاج الذي يُنظر من خلاله.

مثلما قال شاعرنا كامبوآمور. وهذا يجب تصحيحه أيضاً بالقول إن كل شيء في هذا العالم حقيقة، وكذب كل شيء. كل شيء حقيقة بقدر ما ينمي رغبات كريمة، ويولد أعمالاً خصيبة. وكل شيء كذب مادام يخنق الحوافز النبيلة ويجهض مسوخاً عقيمة. ومن ثماره تعرفون الإنسان والأشياء. فكل معتقد يقود إلى أعمال حياة هو معتقد حقيقي، ويكون كذب ما يقود إلى أعمال موت. الحياة هي معيار الحقيقة، وليس التوافق المنطقي الذي هو حقيقي بالعقل وحده. وإذا كان إيماني يقودني إلى خلق حياة أو تعظيمها، فلماذا تريدون مزيداً من الأدلة على إيماني؟ إن كانت الرياضيات، فالرياضيات كذب. وإذا كنت تمشي محتضراً على وشك الموت عطشاً وتبدت لك رؤيا من تلك التي نسميها مياه واندفعت إليها وشربت واستعدت الحياة بإطفاء ظمأك، فإن تلك الرؤيا حقيقية، والماء حقيقي. حقيقي كل تحرك يحملنا على العمل بطريقة أو بأخرى ويجعل نتائج تغطي أهدافنا.

سيقول أحد أولئك المنكبين على ما يسمى فلسفة إن دون كيخوته قد أقر، في حديثه ذاك مع سانتشو، نظرية نسبية المعرفة التي صارت مشهورة. من الطبيعي أن كل شيء نسبي. ولكن أليست النظرية النسبية نفسها نسبية أيضاً؟ وبالتلاعب بالمفاهيم، أو ربما بالألفاظ، لست أدري، يصبح بالإمكان القول إن كل شيء مطلق، مطلق بذاته، ونسبي في العلاقة بسواه. وفي هذا، في التلاعب بالكلمات، يسقط كل منطق لا يستند إلى الإيمان ولا يبحث في الإرادة عن سنده الأخير. لقد كان منطق سانتشو مثل المنطق الاسكولائي، منطق لفظي محض؛ ينطلق من افتراض أننا جميعنا نريد قول الأشياء ذاتها عندما ننطق الكلمات نفسها، ودون كيخوته كان يعرف أنه من عادتنا قول أشياء متناقضة باستخدام الكلمات نفسها، وقول الشيء نفسه بكلمات متناقضة. وبفضل ذلك نستطيع تبادل الحديث والتفاهم. وإذا كان قريبي يفهم مما يقوله مثلما أفهمه أنا، فإن كلماته لن تُثري روحي ولن تُثري كلماتي روحه. وإذا كان قريبي هو أنا آخر، فلماذا أريده؟ فأناي تكفيني، بل وتزيد عما لدي من أنا.

إن حبات القمح تكون من النوع السيئ أو الجيد تبعاً لليدين اللتين تلمسانها، وتينك اليدين يا سيدي دون كيخوته لن تحطا على يديك. ما تعمق به الفارس هو التأكيد أنه إذا كانت دولثنيا تعبق، برأي السانتشوات، برائحة الرجال فإنما السبب في ذلك هو إصابتهم بالزكام وأن ما يشمونه هو رائحة أبدانهم بالذات. فأولئك الذين لا يشمون في العالم سوى رائحة المادة، إنما يشمون أنفسهم بالذات. ومن لا يرون سوى ظواهر عابرة، إنما هم ينظرون إلى أنفسهم ولا يرون في العمق. ليس تأمل دوران النجوم في القبة السماوية هو الطريقة التي نكتشفك بها يا إلهنا وسيدنا، يا من أهديت جنون دون كيخوته، بل بتأمل التلهف الغرامي في ركيزة قلوبنا.

وقطعتا الخبز والجبن اللتان أعطتك إياهما دولثنيا من فوق حاجز الحظيرة قد حولاك، يا صديقي سانتشو، إلى حلية أبدية. فبذلك الخبز وذلك الجبن تحيا وستحيا ما بقيت ذاكرة بشرية في بشرٍ، وحتى إلى ما هو أبعد من ذلك. في ذلك

twitter @baghdad_library

الخبز والجبن الذي كنت تظن أنك اختلقته كذباً، صرت تنعم بحقيقة خالدة. ففي سعيك إلى الكذب نطقت بالحقيقة.

وتابع السيد وحامل أسلحته تبادل الحديث، وفي أثناء ذلك عاد سانتشو إلى عناده بضرورة زواج دون كيخوته من الأميرة، ولأن سيده رفض ذلك، قال له: «يا لضعف عقل سيادتك!». فسانتشو يرى أن جنون سيده يتمثل فقط في تخليه عن الثروة في سبيل المجد؛ وهكذا هم السانتشوات جميعاً. إنهم يرون عاقلاً في المجنون الذي استطاع في جنونه أن يزدهر بأسباب الرفاه والحظ، ويرون مجنوناً في العاقل الذي يمنعه عقله من جني الثراء. كان سانتشو يريد أن يحب الرب ويخدمه «قدر استطاعته»؛ أما الحب الطاهر فلم يعرفه.

الفصل الثاني والثلاثون
[وفيه ما جرى في النزل لكوكبة دون كيخوته]

بعد هذا الحديث واللقاء بأندريس، خادم خوان هالدودو الثري الذي تحدثنا عنه، وصلوا إلى النزل، وبينما كان دون كيخوته نائماً تورط الكاهن في الحديث مع صاحب النزل وأسرته عن كتب الفروسية، وقال إن ما ترويه تلك الكتب عن مغامرات دون ثيرونخيليو وفيليكس مارتي مجرد أكاذيب، وإنها كتب حافلة بالسخف والأوهام، بينما قصة القبطان الكبير قصة حقيقية، ومثلها قصة دييغو غارثيا دي باريديس.

ولكن، تعال إلي أيها السيد المجاز، وقل لي: الآن، حالياً، في اللحظة التي تتكلم فيها سيادتك على هذا النحو، أين كان وأين هو على الأرض القبطان الكبير ودييغو غارثيا دي باريديس؟ فبعد أن يموت إنسان وينتقل، ربما، إلى ذاكرة أناس آخرين، بماذا يتميز عن كونه أكثر من إحدى هذه التخيلات الشعرية التي تمقتونها؟ ينبغي أن تكون سيادتك قد علمت من خلال دراستك أن

operari sequitur esse ***العمل تال للوجود***، وأنا أضيف أن ما يُعمل هو وحده الموجود، وأن الوجود هو العمل، وإذا كان دون كيخوته يعمل، برأي كل من تعرفونه، أعمال حياة، فإن دون كيخوته أكثر تاريخية وواقعية من رجال كثيرين، ما هم سوى أسماء تذكر في هذه الأخبار التي تعتبرها أنت يا سيدي المجاز حقيقية. ما يُعمل فقط هو الموجود. وهذا التحري عما إذا كان شخص ما قد وجد أم لم يوجد يصدر عن إصرارنا على إغماض العيون عن سر الزمن. فما كان ولم يعد كائناً، ليس سوى ما هو غير كائن، ولكنه سيكون ذات يوم. والماضي لم يعد موجوداً أكثر من المستقبل، ولا يؤثر أكثر منه على الحاضر. ماذا نقول عن مشاء يصر على إنكار ما بقي عليه أن يذرعه من الطريق ولا يجد حقيقياً وصحيحاً سوى الجزء الذي قطعه من الطريق وحسب؟ ومن يقول لكم إن هؤلاء الأشخاص الذين تنكرون وجودهم الحقيقي لن يظهروا إلى الوجود ذات يوم، وأنهم موجودون بالتالي في الخلود، وأن عدم وجود شيء مدرك في الخلود لا يعني أنه غير حقيقي وفعلي؟

لقد كان صاحب النزل محقاً، فقد صار كيخوتياً ـ وليس عبثاً استقباله الفارس تحت سقف بيته ـ لقد كان محقاً أيها السيد المجاز حين قال لك: «اصمت يا سيدي، لأن من يسمع هذا (ويعني مآثر دون ثيرونخيليو دي تراثيا) يجن من المتعة. ودع حبتي تين للقبطان الكبير وديغو غارسيا اللذين تتحدث عنهما». ففي الخلود تكون الأساطير والتخيلات حقيقية أكثر من التاريخ. وفي الخلاف بينك أيها السيد الكاهن العقلاني وبين صاحب النزل المفعم بالإيمان، يمثل هذا الأخير الطرف الأفضل. أجل، لقد توصلت أيها السيد المجاز إلى زعزعة إيمان سانتشو الذي كان يصغي إلى نزاعكما، ولكن إيماناً لم يكتسبه صاحبه وسط وسواس الشكوك ليس بالإيمان الخصيب لأعمال خالدة»

وقبل أن نواصل، من المناسب هنا أن نقول شيئاً، مع أنه أمر عرضي، وهو لا يستحق أكثر من ذلك، عن أولئك الأشخاص الفارغين المغرورين الذين

twitter @baghdad_library

يتجرؤون على التأكيد بأن دون كيخوته وسانتشو نفسيهما لم يوجدا قطّ، وأنهما ليسا سوى محض كائنين متخيلين.

وحججهم في ذلك، وهي حجج محاطة بالأبهة والتفخيم الفارغين، لا تستحق مجرد التفنيد: إنها حجج مضحكة وسخيفة، سماعها يبعث على الغثيان والاشمئزاز. ولكن وجود أشخاص بسطاء يصغون إليها، مأخوذين بإغراء المكانة الظاهرية لمن يصوغون تلك النظرية النتنة، يجعل من المناسب لفت انتباههم حول الأمر وألا يهتموا بما يجري تلقيه منذ زمن طويل، بموافقة أبرز العلماء وأشدهم وقاراً. ومن أجل مواساة الناس البسطاء وطيبي النوايا وتقديم الإثبات لهم، آمل أن يعينني الله في تأليف كتاب يبرهن بحجج راسخة وبالإستناد إلى مرجعيات أفضل وأكثر عدداً ـ وهو ما ينفع في هذا المقام ـ كيف أن دون كيخوته وسانتشو قد وجدا بصورة واقعية وحقيقية، وأنه حدث لهما كل ما يُروى لنا مثلما يُروى لنا. ولكن فضلاً عن أن المتعة والسلوى والمنفعة التي تُستخلص من هذه القصة هي أسباب أكثر من كافية لضمان حقيقتها، سوف أثبت إضافة إلى هذا أنه إذا ما أُنكرت واقعيتهما، فلا بد من إنكار أشياء كثيرة أخرى، وبهذا نعمل على تقويض النظام الذي يستند إليه مجتمعنا، هذا النظام الذي هو اليوم، مثلما هو معروف، المعيار الأسمى لحقيقة كل نظرية.

[الفصلان الثالث والثلاثون والرابع والثلاثون]

هذان الفصلان يتناولان حكاية «الفضولي السفيه» وهي حكاية ليس لها أي علاقة بسياق هذه القصة]

الفصل الخامس والثلاثون

[في المعركة الحامية والرهيبة التي خاضها دون كيخوته ضد زِقاق النبيذ الأحمر، ونهاية قصة الفضولي السفيه]

بعد مشادة الحوار بين الكاهن صاحب النزل، وبينما كان الكاهن مستغرقاً في قراءة رواية «الفضولي السفيه»، وقعت مغامرة طعن زقاق النبيذ المؤسفة التي خاضها دون كيخوته، في الأحلام، وهو نائم. كان على ثربانتس أن يخفي عنا هذه المغامرة، بالرغم من أن دون كيخوته كان يتدرب بها، في الحلم، من أجل خوض مآثره في اليقظة. ولحسن الحظ أن ما فُقد لم يكن سوى نبيذ، وإلا لكان فُقد هو نفسه بسبب الخطأ الذي ارتكبه.

ومن أجل الحكم بعدالة هذه المغامرة سيكون ضرورياً أن نعرف ما لا نعرفه، وهو أن دون كيخوته كان يحلم آنذاك. والحكم على المغامرة بطريقة أخرى سيكون حكماً كالذي كان يمكن أن يصدره أحد حكمائنا المزهوين بأنفسهم لو أنه سمع إغناثيو دي لويولا وهو في مستشفى لويس دي انتيثانا ببلدة ألكلا دي هيناريس، ذلك المستشفى «سيئ السمعة في تلك المناسبة لأن جناً وعفاريت تجوب أنحاءه في الليل»، حين صادفه ذات مرة «عند أول الليل» اهتزاز المكان بكامله، «فانتصب شعر رأسه، كما لو أنه يرى هيئة رهيبة ومرعبة»؛ ولكنه استعاد وعيه، وحين رأى أنه ليس هنالك ما يخشاه، جثا على ركبتيه وراح يصرخ بأعلى صوته بحماسة، وكمن يتحدى الشياطين، بدأ يقول ـ حسب ما يرويه لنا الأب ريبادينيرا في الفصل التاسع من الكتاب الخامس في كتابه حياة ـ: «إذا كان الرب قد منحكِ، أيتها الأرواح الجهنمية، سلطة تسلط عليّ، فإنني هنا، فنفذي بي مشيئته، وأنا لن أقاوم أو أعارض أي شيء يأتيني عن هذا الطريق. ولكن إذا كان الرب لم يمنحك أية سلطة، فما هي جدوى هذا الرعب الذي تسببينه لي أيتها الأرواح الشريرة التعيسة؟ لماذا تُرعبين دون طائل الأطفال والرجال الهيابين بغيلانك وتخويفك غير المجدي؟ إنني أفهمك جيداً،

twitter @baghdad_library

فأنت لا تستطيعين إلحاق الأذى بنا فعلياً، ولهذا تريدين إخافتنا بالتخيلات». ثم يضيف الأب المؤرخ الطيب أنه «بهذا العمل الشجاع لم يتغلب على خوف تلك اللحظة وحسب، وإنما ظل فيما بعد جريئاً جداً في مواجهة الضغوط الشيطانية والمخاوف الإبليسية».

وعندما روى المؤرخ الدقيق قصة الزقاق، كشف لنا عن تفصيل خفي، وهو أن ساقيّ دون كيخوته «ليستا نظيفين بأي حال». كان بإمكانه أن يصمت عن ذلك. ولكنه أظهر لنا بذلك أن الفارس ينتمي، في نهاية المطاف، إلى سلالته، وهي سلالة لم تُدرج النظافة قطّ ضمن واجبات الفروسية. وقد كان الأمر على تلك الحال إلى حدّ لو أنه قيل لنا إن فارساً إسبانياً كان نظيفاً، فسوف يظهر بعد ذلك أنه لا يبالغ في فضيلة النظافة. وهكذا، بالرغم من أن ريبادينيرا يقول لنا في الفصل الثامن عشر من الكتاب الرابع من ***حياة الطوباوي إغناثيو دي لويولا*** «مع أنه كان يحب الفقر، إلا أن قلة النظافة لم تكن تروقه قطّ»، وفي الفصل السابع من الكتاب الخامس من مؤلفه نفسه يروي لنا أنه «فرض على راهب مستجد عقوبة تكفير صارمة لأنه يغسل يديه أحياناً بالصابون، لأن ذلك أمراً مثيراً للفضول جداً في راهب مستجد». ومن الصحيح تماماً أنه من الصفات التي تميز كل من لديه كفاءة الانتماء إلى الفن العسكري الذي يتعاطاه دون كيخوته ولويولا، كما يشير الدكتور هوارتي في الفصل السادس عشر من كتابه «**امتحان**» الذي ذكرناه سابقاً، تتمثل الصفة الثالثة في «إهمال الزينة الشخصية. فجميعهم تقريباً متسخون، لا يهتمون بهندامهم، سراويلهم متهدلة، مليئة بالتجاعيد، وعباءاتهم مهلهلة، يفضلون الملابس القديمة، وعدم تبديل الثياب»، ويقدم تبريراً لذلك بالقول إن: «عظمة التفكير وسعة المخيلة يدفعان إلى السخرية من كل أشياء الدنيا، لأنهم لا يرون قيمة وجوهراً في أي منها»، ثم يضيف «والتأملات الإلهية وحدها هي التي تبعث فيهم البهجة والرضا، وعليها يركزون العناية والاهتمام، ويهملون ما عدا ذلك».

صحيح أنه في عصر دون كيخوته ولويولا والدكتور هوارتي لم يكن قد

اختُرِع بعد هذا الشيء الذين يسمى الجراثيم والتعقيم والمطهرات، ولم يكن الناس يمضون مسحورين بفكرة أن القضاء على تلك الكائنات الدقيقة يعني قضاءنا، أو شبه قضائنا على الموت، وأن السعادة تعتمد على النظافة، لأنه كان يمكن لذلك أن يبدو ضرباً من الخرافة لا يقل ضرراً ولا يقل إضحاكاً عن الاعتقاد والتفكير في أن احتضان المرء للقذارة يُكسبه ملكوت السماء. إن الإنسان القذر هو على الدوام شيء أكثر من خنزير نظيف، وإن كان من الأفضل أن ينظف الإنسان نفسه.

ونعود إلى المغامرة، وعلينا أن نلاحظ كيف أن سانتشو، سانتشو الطيب، كان يصدّق مسألة قطع رأس المارد، وأن النبيذ المسفوح كان دماً، «وكان الجميع يضحكون». الجميع يضحكون، وزوجة صاحب الخان تتذمر لفقدان زقاق نبيذها، وتساعدها ماريتورنيس، بينما «ابنتها صامتة، تبتسم بين حين وآخر». يا للملمح الشعري! فالابنة المولعة بكتب الفروسية تبتسم. يا للندى العذب على آلام الضحك التي يعاني منها دون كيخوته! ففي لحظات الضحك تلك، كانت ابتسامة ابنة صاحب الخان نفحة رحمة.

الفصل السادس والثلاثون

[وفيه أحداث غريبة أخرى وقعت في النزل]

وبعد ذلك تشابكت الأحداث في النزل بمجيء زمرة كومبارس جديدة وبخيبة أمل سانتشو حين تبين له أن الأميرة ميكوميكونا هي دوروتيا، زوجة فرناندو، مما أقنعه بأن رأس المارد لم يكن سوى زق نبيذ.

آه، يا سانتشو المسكين، بكم من الشجاعة ناضلت في سبيل إيمانك، وكيف رحت تكتسبه وسط العثرات واليأس، وأنت تخسر موقعاً منه اليوم لتستعيده غداً! لقد كان مسارك مسار صراع داخلي بين حسك العام الفج، المدفوع

twitter @baghdad_library

بالطمع، وبين تطلعك النبيل إلى المثل الأعلى الذي أثارته فيك دولثنيا وسيدك. قلة هم من يرون مقدار ما كانت عليه نضالية مسيرتك كتابع، وقلة هم من يرون المطهر الذي عشتَ فيه، وقلة هم من يرون كيف رحتَ تصعد إلى تلك الدرجة من الإيمان السامي البسيط الذي ستبديه عند موت سيدك. من سحر إلى سحر وصلتَ إلى الإيمان المُخَلّص.

الفصل الثامن والثلاثون
[وفيه الخطبة الغريبة التي ألقاها دون كيخوته حول الأسلحة والآداب]

بحادثة اللقاء الطيب في النزل ازداد الساخرون من دون كيخوته الذين وجه إليهم خطبته عن الآداب والأسلحة. وبما أنه لم يتوجه بها إلى رعاة ماعز فإننا سنتجاوزها.

[الفصول التاسع والثلاثون، والأربعون، والحادي والأربعون والثاني والأربعون

هذه الفصول مليئة بقصة الأسير وقصة كيف عثر المندوب على أخيه.

الفصل الثالث والأربعون
[وفيه تُروى قصة الشاب البغَّال الشيقة وأحداث غريبة أخرى وقعت في النزل]

[فلنترك جانباً مسألة الشاب البغَّال، فهي لا تهمنا.]

وبالتئام جمع أولئك الناس كلهم، تولى دون كيخوته حراسة القصر. ولأن الشيطان لا يكل، فقد أوعز لابنة صاحب النزل، فتاة الابتسامة، ولماريتورنيس، أن تسخرا من دون كيخوته مكافأة له على حراسته.

وبينما دون كيخوته يقوم بحراسته وحيداً، ويتذكر بصوت عالٍ سيدته دولثنيا، بدأت ابنة صاحب النزل «تناديه بصوت هامس وتقول له: سيدي، اقترب إلى هنا يا صاحب السيادة إذا سمحت» فلان قلب الفارس الضعيف واستجاب لها، وبدل أن يصم أذنيه عن نداء الآنسة المرحة، اندفع في الشرح لها أنه في وضع من المحال عليه معه أن يستجيب لرغباتها، دون أن ينتبه المغموم إلى أن الجدال مع الغواية، والنظر إليها على أنها منازلة، هو طريق للوقوع مهزوماً على يدها. وهكذا حدث أن طلبت منه أن يمد إحدى يديه، بالقول له إنهما يدان جميلتان. واستسلم النبيل المهموم للكلمات الرقيقة، ومد لها يده التي لم تلمس امرأة أخرى قطّ، لا لتقبّلها، وإنما لتُعجب بقوة ساعد تلك اليد.

الإعجاب؟ ألا ترى أيها الفارس الساذج اللعبة الخطرة التي تزج نفسك فيها وأنت تقدم يدك لتعجب بها بعض النساء؟ أتراك لا تعلم أن إعجاب امرأة برجل ليس إلا شكلاً لشيء أكثر حميمية من الإعجاب نفسه؟ لا إعجاب إلا بما يُحب، وليس في حالة المرأة سوى شكل واحد من الإعجاب بالرجل. إنه ليس إعجاباً بأهدافك، ولا الإعجاب بعمل أو مأثرة من مآثرك، ولا الإعجاب بأفكارك، وإنما هو إعجاب بيدك. آه، لو أنك استطعت أن تجعل ألدونثا لورنثو تُعجب بها؛ ولو أنها ضمتها بين يديها لتتبين من خلال «بنية أعصابها، وتماسك عضلاتها، واتساع وضخامة أوردتها» كيف هي قوة القلب التي تغذي بالدم تلك اليد!

لقد ارتكبت، أيها الفارس الطيب، استخفافاً لا يغتفر بمد يدك لتُعجب بها سيدتان طلبتاها للسخرية منك. فدفعت الثمن غالياً. لقد دفع الثمن غالياً، لأنه ظل مقيد اليد برسن حمار. أما ماريتورنس وابنة صاحب النزل فقد «هربتا وهما تختنقان من الضحك. وتركتاه مربوط اليد من المحال عليه أن يخلص نفسه». فلتثق بعد هذا بالنساء المرحات اللعوبات!

twitter @baghdad_library

ظن دون كيخوته أن في ذلك سحراً، وأنه ليس سوى عقاب له على لينه وزهوه بنفسه. فليس للبطل أن يمد يديه هكذا من دون تروٍ ليُعجب بهما أول واحد أو واحدة يطلب ذلك، وإنما عليه أن يحميها جيداً من النظرات الفضولية والمستخفة. فما الذي يهم الآخرين من الأيدي التي تُنجز بها الأشياء؟ وقبيحة تلك العادة بالدخول إلى منزل محارب كريم وتفحص أسلحته. والتقصي عن أسلوب عمله وحياته، وتفحص يديه. فإذا كنت تكتب، يجب ألا يعرف أحد كيف تكتب، أو في أي ساعة، أو بأي طريقة تكتب.

وبينما دون كيخوته «يلعن عدم تحوّطه وغفلته» لأنه لم يكن متيقظاً جداً لمواجهة أعمال السحر، «عندئذ لعن سوء حظه» و«ومدى الحاجة لوجوده في الدنيا» و«تذكر مجدداً حبيبته دولثنيا ونادى سانتشو بانثا» والحكيمين ليرغانديو وألكيفي، وصديقته الطيبة أورغاندا، و«طلع عليه الصباح وهو في يأس واضطراب، يخور مثل ثور». وبالرغم من أنه كان على تلك الحال، فقد وبخ أربعة رجال جاؤوا على خيول، وقرعوا باب النزل عند الفجر، مبيناً بذلك صلابته الجامحة.

الفصل الرابع والأربعون
[وفيه تتوالى أحداث النزل الغريبة]

وبعد أن حلّت ماريتورنس وثاقه، لخوفها مما قد يحدث، «امتطى دون كيخوته حصانه روثينانته، وحمل ترسه، وأمسك رمحه» وتحدى كل من يقول إنه كان مسحوراً بحق عادل. أحسنت القول يا نبيلي الطيب!

حاول دائماً أن تنال
ما هو نبيل وجليل،

ولكن إن أنت لم تصبه
فدافع عنه ولا تصلحه.

كما يقول الكونت لوثانو متوجهاً إلى بيرانثولس في كتاب ***فتوة السيد***.

مضى راكبو الخيول إلى شأنهم، و«رأى دون كيخوته أن أياً من القادمين الأربعة لم يعبأ به، ولم يردوا على طلبه، فاستشاط غيظاً وسخطاً...» أجل، يا عزيزي دون كيخوته المسكين، أجل، إننا نتقبل أن يضحك الآخرون منا أكثر من تقبلنا إهمالهم لنا وعدم اهتمامهم بنا. إنني أتفهم غيظك وسخطك. فوسط كورال الساخرين ذاك، كان الأسوأ في نظرك أنهم لم يُظهروا، ولو ساخرين، أي اهتمام بتحدياتك لهم للمبارزة وبشجاعتك.

بعد قليل من ذلك اشتبك صاحب النزل باللكمات مع اثنين من النزلاء حاولا الهرب دون أن يدفعا أجرة المبيت، وهرعت زوجته وابنته إلى دون كيخوته، وهو أقل الجميع انشغالاً، كي يساعد الزوج والأب، فأجاب الابنة: «ببطء وبرود شديدين: آنستي الجميلة، لا أستطيع الاستجابة لطلبك الآن، لأنه ممنوع عليّ الانشغال بأية مغامرة قبل أن أنجز تلك المغامرة التي أعطيتُ كلمتي بشأنها». وأضاف طالباً منها أن تسرع إلى أبيها وتطلب منه أن يوقف المعركة ريثما يحصل هو على إذن من الأميرة ميكوميكونا. وقد حصل عليه، ومع ذلك لم يمد دون كيخوته يده إلى سيفه حين رأى أن الخصمين من أتباع الفرسان. وقد أحسن صنعاً.

ماذا إذاً، ألا نلجأ إلى الفارس إلا حسب أهوائنا، فنسخر منه ونقيّده من يده، ونريد منه بعد ذلك أن يخدمنا ويسارع لنجدتنا في لحظات ضيقنا بتلك اليد نفسها التي امتهناها من قبل؟ لا بأس من الاستهزاء بالمجنون، ولكننا بعد ذلك، عندما نحتاج إليه، نسرع لطلب العون منه. يا لتعاسة البطل الذي يضع بطولته في خدمة من يلتقي به، ثم يزدريه مع ذلك! إذا كان قريبك يشتبك باللكمات مع أوغاد مثله، فدعه وشأنه، ولاسيما إذ كانوا يحاولون الهرب دون أن يدفعوا،

twitter @baghdad_library

لأن تدخلك سيكون ضاراً. فليس عندما يظن هو أنه يجب أن يتلقى مساعدة، وإنما عندما أعتقد أنا أنه يجب مساعدته. لا تقدم لأحد ما يطلبه منك، وإنما ما ترى أنه بحاجة إليه، وتحمل بعد ذلك جحوده.

وبعد قليل من ذلك دخل إلى النزل الحلاق صاحب خوذة مَمبرينو واشتبك مع سانتشو وقال إنه لص حين رأى برذعة حماره على متن حمار هذا الأخير، وقد دافع سانتشو عن نفسه بشجاعة أبهجت سيده الذي «نوى في أعماقه أن يكرّسه فارساً». وأتى الحلاق على ذكر صحن الحلاقة فتدخل عندئذ دون كيخوته وأمر أن يؤتى بالصحن المزعوم، وأقسم إنها خوذة ووضع الأمر لتقدير الحاضرين هناك. يا للإيمان السامي الذي أكد بصوت عالٍ، وهو يرفعها بيده أمام الجميع، إنها خوذة!

الفصل الخامس والأربعون

[وفيه جرى تقصي الشكوك بشأن خوذة مَمبرينو والبرذعة، ومغامرات أخرى حقيقية]

«ما رأيكم، يا سادة ـ قال الحلاق ـ في ما يؤكده هذان الرجلان المحترمان، إذ مازالا يصران على أن هذا الوعاء ليس صحن حلاق، وإنما هو خوذة؟ فقال دون كيخوته: ومن يقول عكس ذلك سأجعله يعرف أنه يكذب، إذا كان فارساً، وأنه يكذب ألف مرة، إذا كان تابعاً لفارس».

هكذا، هكذا يا سيدي دون كيخوته، أجل هكذا، بالشجاعة السافرة في التأكيد بصوت عال وأمام الملأ، والدفاع بالحياة نفسها عن التأكيد هو ما يخلق الحقائق الكاملة. فالأشياء تكون أكثر حقيقية كلما كان الإيمان بها أكبر، وليس الذكاء، وإنما الإرادة هي التي تفرضها.

وقد رأى ذلك بوضوح الحلاقُ المسكين الذي كان يملك صحن الحلاقة

عندما لم يكن قد صار خوذة بعد. وعندما قال دون كيخوته: «أقسم بنظام الفروسية الذي أنتمي إليه أن هذه الخوذة هي نفسها التي انتزعتها منه، دون أن أضيف إليها أو أُنقص منها شيئاً»، كان سانتشو هو أول من أضاف في دعم خجول لسيده: «لا مجال للشك في هذا، لأنه منذ استولى عليها سيدي حتى الآن لم يستخدمها إلا في معركة واحدة، حينما حرر عاثري الحظ المقيّدين بالأغلال، ولولا هذا الصحن ـ الخوذة، لما انقضى الأمر على خير حينذاك، لأنه تلقى وابلاً من الأحجار في تلك المغامرة». [الفصل الرابع عشر]

الصحن ـ الخوذة؟ الصحن ـ الخوذة يا سانتشو؟ لن نجرح شعورك إذا اعتقدنا إن تسميتك «الصحن ـ الخوذة» تلك هي واحدة من مراوغاتك الماكرة، لا لن نجرح شعورك! إنها مسيرة إيمانك. لم يكن بمقدورك أن تتجاوز ما تشير به عليك عيناك اللتان تظهران لك أن الإناء موضع الخلاف هو صحن حلاق، بينما إيمانك بسيدك يشير إليك أنها خوذة ويُظهرها كذلك، فلم تجد بداً من التمسك بتسمية الصحن ـ الخوذة. وأنتم السانتشيون كثيرون في مثل هذا الأمر، لقد اخترعتم مسألة أن الوسط هو الفضيلة، لا يا صديقي سانتشو، لا وجود لصحن ـ خوذة ينفع. فإما أن يكون صحناً أو يكون خوذة، حسب حاجة من يستعمله، أو أنه، بعبارة أدق، صحن حلاق أو خوذة في آن واحد لأنها تصلح للاستخدامين. ودون انتزاع أو إضافة شيء إليها يمكن أن تكون، ويجب أن تكون، خوذة وصحن حلاقة، إنه بكامله صحن حلاق، وبكاملها خوذة؛ ولكن ما لا يمكن، ولا يجب، أن تكونه مهما انتُزع منها أو أضيف إليها «الصحن ـ الخوذة».

ووجد الحلاق صاحب الصحن أن الحلاق الآخر السيد نيكولاس، ودون فرناندو زوج دوروتيا، والكاهن، وكاردينيو، والمندوب، وسط دهشة الحاضرين الآخرين، قد جادلوه مؤكدين أنها خوذة. وأراد أحد الرماة الأربعة الحاضرين أن يرى في ذلك مزحة ثقيلة، فاستياء واعتبر من يؤكدون العكس سكارى، فوجه إليه دون كيخوته تكذيباً وانقض عليه فنشب نزاع حامي

twitter @baghdad_library

الوطيس، وراح بعضهم يضرب البعض، وكان دون كيخوته من أوقف النزاع وفرض السلام بإطلاقه الصرخات وتذكره فتنة حقل اغرامانتيه. ماذا؟ أتستغربون نشوب اضطراب عام بسبب الخلاف حول كون الإناء صحن حلاق أو خوذة؟ لقد نشبت في العالم نزاعات أشد اختلاطاً وأعظم هولاً بسبب صحون حلاقة أخرى، ودون أن تكون مَمبرينو. بسبب كون الخبز خبزاً، والخمر خمراً، وأشياء أخرى مماثلة. حول فرسان الإيمان تجتمع خراف بشرية تؤكد، من أجل رفع معنوياتهم أو لأية أسباب أخرى، أن صحن الحلاق هو خوذة، مثلما يقول أولئك، ويتحولون إلى استخدام الأيدي لتأكيد ذلك، والأدهى أن معظم من يتشاجرون يؤكدون أنها خوذة، بينما هم يرون في دخيلة أنفسهم أنه صحن حلاق. لقد انتقلت بطولة دون كيخوته إلى الساخرين منه، فصاروا كيخوتيين على الرغم منهم، وهكذا كان دون فرناندو يرفس بقدميه أحد الرماة لأنه تجرأ على التأكيد بأن الصحن ليس خوذة وإنما صحن حلاق. يا لبطولتك يا دون فرناندو.

انظر إذاً كيف أن الساخرين من دون كيخوته صاروا محط سخريته، فقد تحولوا إلى كيخوتيين بالرغم منه، وتدخلوا في الجدال وتصارعوا بالأيدي دفاعاً عن إيمان الفارس حتى ولو كانوا لا يشاطرونه ذلك الإيمان. إنني واثق، بالرغم من أن ثربانتس لا يروي لنا ذلك، أقول إنني واثق من أن أنصار الفارس، أعني الكيخوتيين أو الخوذيين، قد بدؤوا، بعد الانتهاء من توجيه الضربات وتلقيها، بالتشكك في أن يكون الإناء صحن حلاق، وأخذوا يؤمنون بأنه خوذة مَمبرينو، لأنهم أكدوا ذلك الإيمان بأضلاعهم. ولا بد لنا هنا من التأكيد مرة أخرى أن الشهداء هم الذين يصنعون الإيمان، أكثر مما يصنع الإيمان الشهداء.

لقد تبدى لنا دون كيخوته في مغامرات قليلة أعظم مما بدا في هذه المغامرة التي يفرض فيها إيمانه على من يسخرون منه ويحملهم على الدفاع عن ذلك الإيمان بالقبضات والركلات والمعاناة في سبيله.

وما هو السبب في ذلك؟ لا سبب آخر سوى شجاعته في التأكيد أمام الجميع

أن ذلك الصحن الذي يراه بعينيه، مثلما يراه الآخرون، هو خوذة ممبرينو لأنه يؤدي لديه مهمة الخوذة.

لم تنقصه البطولة السافرة في التأكيد، وهو يضرب بقدمه الأرض بقوة، وينظر بعينيه إلى السماء، معتقداً أنه يبحر عبر الأديان الكونية والعلوم الوهمية، مثلما يقول إيسا دي كيروز في نهاية مؤلفه «رفات القديسين».

إن أعظم جرأة هي تلك التي تواجه، ليس أذى الجسد ولا شح الثروة ولا إهانة الشرف، وإنما نظر الناس إلى المرء على أنه مجنون أو أحمق.

هذه الجرأة هي التي نحتاج إليها في إسبانيا، وافتقادها هو الذي يُبقي أرواحنا مشلولة. فبسبب فقدانها لسنا أقوياء، ولا أغنياء، ولا مثقفين. بسبب فقدانها لا توجد قنوات ريّ، ولا مستنقعات، ولا محاصيل وفيرة. بسبب فقدانها لا يهطل مزيد من المطر على حقولنا الجافة، المشققة من الجفاف، أو يهطل المطر بغزارة فيجرف التربة، ويجرف في بعض الأحيان البيوت.

أيبدو لكم ذلك تناقضاً؟ امضوا عبر هذه الأرياف واقترحوا على فلاح تحسين الزراعة أو إدخال زراعة جديدة أو أساليب زراعية مستجدة، وسيقول لكم: «هذا لا ينفع هنا». فتسألونه: «هل جربته؟» فيكتفي بأن يكرر لكم: «هذا لا ينفع هنا.» وهو لا يدري إن كان ينفع أم لا ينفع، لأنه لم يجربه، ولن يجربه أبداً. سيجربه حين يكون متأكداً مسبقاً من النجاح، لكنه حيال احتمال الفشل وما يليه من سخرية جيرانه الذين ربما ينظرون إليه كمجنون أو حالم، أو أبله. حيال هذا الوضع يُحجم ويمتنع عن التجريب. ثم يُفَاجَأ بعد بانتصار، انتصار من يواجهون المخاطر، من لا يقنعون بالقول الشائع «حيث تكون افعل ما تراهم يفعلون» أو «إلى أين أنت ذاهب يا بيثنتي؟، إلى حيث الناس ذاهبون»، من ينفضون عن أنفسهم غريزة القطيع.

كان هنالك في أقليم سلمنكا رجل فريد، ترعرع في ظروف فقر مدقع، ثم جمع بضعة ملايين فيما بعد. ولم يجد فلاحو القطيع أولئك تفسيراً لمثل تلك الثروة غير افتراضهم أنه قد سرق في فتوته، لأن هؤلاء التعساء ذوي الحس العام

twitter @baghdad_library

المتبلد والمفتقرين تماماً للشجاعة الأخلاقية، لا يؤمنون إلا بالسرقة واليانصيب. ولكن جاء من روى لي ذات يوم مأثرة ذلك المزارع الكيخوتية، المدعو الموسكو. وكانت المسألة في أنه أحضر من شواطئ الكانتبري بيوض أسماك الفرّيدي وألقى بها في بركة بمزرعته. وحين سمعتُ ذلك وجدت تفسيراً للأمر برمته. فمن يمتلك الجرأة على مواجهة السخرية التي سيجلبها له الإتيان ببيوض سمك ليلقي بها في بركة في قشتالة، من يفعل هذا يستحق الثروة.

أتقولون إنكم ترون في ذلك عملاً غير معقول؟ ومن ذا الذي يعرف ما هو غير المعقول؟ وحتى لو كان كذلك! فإن من يجرب اللامعقول هو وحده القادر على اجتراح المستحيل. لا وجود إلا لطريقة واحدة لإصابة المسمار مرة واحدة، وذلك بالضرب مئة مرة على نعل الفرس. وقبل هذا كله، لا وجود إلا لطريقة واحدة للانتصار حقاً: مواجهة السخرية. ولأن هؤلاء الناس لا يمتلكون الشجاعة لمواجهتها فإن زراعتهم تعاني الركود الذي تقبع فيه.

أجل، إن داءنا كله يتمثل في الجبن الأخلاقي، وانعدام المبادرة في تأكيد كل منا حقيقته، إيمانه، والدفاع عنه. فالكذب يلف ويقيّد أرواح تلك الفئة من الخراف المخدرة، البلهاء بسبب انسداد الوعي.

إنهم يعلنون عن وجود مبادئ غير قابلة للجدل. وعند محاولة طرحها للنقاش لن ينعدم من يأخذ بإطلاق الصراخ حتى عنان السماء. لقد طلبتُ قبل وقت غير بعيد بالمطالبة بمخالفة بعض بنود قانون التعليم العام، فاندفعت جماعة من المتبلدين بالصراخ إن ذلك غير مناسب ووقح، وغير ذلك من الكلمات البذيئة. غير مناسب! إنني ضجر من سماع القول غير مناسب عن أشياء مناسبة جداً، وعن كل ما يوقف هضم المتخمين، ويُغضب الحمقى. ما الذي يخشونه؟ أيخشون أن تتعقد الأمور وتندلع الحرب الأهلية من جديد؟ هذا أفضل الأفضل! فهذا ما نحتاج إليه.

أجل، هذا ما نحتاج إليه: حرب أهلية. فمن الضروري التأكيد أن صحون الحلاقة يجب أن تكون، وهي بالفعل، خُوذ محاربين، وأن ينشب حول ذلك

شجار مثل ذاك الذي جرى في النزل. حرب أهلية جديدة، بهذه الأسلحة أو تلك. ألا تسمعون أولئك التعساء ذوي القلوب المجعدة الجافة الذين يقولون ويكررون القول إن هذه المنازعات أو تلك لا تؤدي إلى أي شيء عملي؟ ما الذي يفهمه هؤلاء البؤساء بالشيء العملي؟ ألا تسمعون من يرددون بأن هنالك مناقشات يجب تجنبها؟

لن يعدم وجود رعديدين يرددون لنا دوماً لازمةَ وجوبِ ترك المسائل الدينية جانباً، وأنه علينا أولاً أن نتحول إلى أقوياء وأغنياء. ولا يرى هؤلاء البلهاء أننا ما لم نحل قضيتنا الخاصة فلن نكون أقوياء ولا أغنياء. وأعود لأكرر: لن تكون لوطننا زراعة ولا صناعة أو تجارة، ولن تكون هنا طرق تؤدي إلى حيث ينبغي الذهاب ما لم نكتشف مسيحيتنا، ما لم نكتشف الكيخوتية. لن تكون لنا حياة خارجية قوية ورائعة ومجيدة ما لم نشعل في قلب شعبنا نيران القلق الأبدي. لا يمكن أن نكون أغنياء ونحن نعيش على الكذب، وما دام الكذب هو خبزنا كفاف يوم أرواحنا.

ألا تسمعون ذلك الحمار الوقور الذي يفتح فمه ويقول؟: «هذا لا يمكن قوله هنا». ألا تسمعون كلاماً عن السلام، عن سلام مميت أكثر من الموت نفسه، كلام كل التعساء الذين يعيشون سجناء الكذب؟ ألا يعني لكم شيئاً ذلك البند الرهيب، نقطة عار شعبنا التي تظهر في أنظمة كافة جمعيات اللهو في إسبانيا وتنص على: «تحظر المناقشات السياسية والدينية»؟

سلام! سلام! سلام! أجل، فليكن سلام، ولكن على قاعدة انتصار الصدق، على قاعدة هزيمة الكذب. سلام، ولكن ليس سلام قسر، ليس اتفاقاً بائساً كالذي يتفاوض عليه الساسة، وإنما سلام تفاهم. أجل، سلام، ولكن بعد أن يعترف الرماة لدون كيخوته بحقه في تأكيد أن الصحن خوذة؛ بل أكثر من ذلك: بعد أن يعترف الرماة ويؤكدون أن الصحن الذي بين يدي دون كيخوته خوذة. وهؤلاء التعساء الذين يصرخون: «سلام! سلام!» يتجرؤون على أن تنطق شفاههم اسم المسيح. وينسون أن المسيح قد قال إنه لم يأت

twitter @baghdad_library

ليجلب سلاماً بل حرباً، وأن أهل كل بيت سينقسمون فيه، الآباء ضد الأبناء، والإخوة ضد الإخوة. ومن أجله هو، من أجله المسيح، ومن أجل إقرار مملكته، مملكة يسوع الاجتماعية ـ وهي مخالفة تماماً لما يسميه اليسوعيون مملكة يسوع المسيح الاجتماعية ـ، مملكة الصدق والحقيقة والحب والسلام الحقيقيين. ومن أجل إقرار مملكة يسوع يجب أن تكون هناك حرب.

نسل حيَّات هم أولئك الذين يطلبون سلاماً! يطلبونه ليتمكنوا من العض واللدغ والتسميم على هواهم. عنهم قال **المعلم** إنهم «يعرضون عصائبهم، ويعظمون أهداب ثيابهم» (متى، الإصحاح الثالث والعشرون/5). أتدرون ما هو هذا؟ كانت العصائب علباً صغيرة تضم مقاطع من الكتابة المقدسة ويحملها اليهود على الرأس أو الذراع الأيسر في مناسبات معينة. كانت أشبه بالتعاويذ التي تعلق في أعناق الأطفال لحمايتهم مما لا أدريه من الشرور، وتتمثل بأكياس صغيرة تطرزها بلطف وتزينها بالخرز بعض الراهبات قتلاً للضجر، وداخل تلك الأكياس الصغيرة توضع قصاصات ورق صغيرة طُبعت عليها مقاطع من الإنجيل يجب ألا يقرأها أبداً الطفل الذي يحمل التعويذة في عنقه، وتكون تلك المقاطع باللغة اللاتينية زيادة في الوضوح. هكذا هي العصائب، وكان الفريسيون يضعون في أهداب أثوابهم أيضاً مقاطع من الكتابة المقدسة. وهذه شبيهة بما يحمله اليوم كثيرون على ياقات معاطفهم أو سُتراتهم: قلباً مرسوماً على قرص من طين جاف وصلب. وأصحاب هذه العوذات، ذوو العصائب الحديثة، هم وأضاربهم من يتجرؤون على الكلام عن السلام وعما هو مناسب وما هو ملائم. لا، هم أنفسهم علمونا المعادلة: لا متسع للمساكنة المقيتة بين أبناء النور وأبناء الظلمات. إنهم هم، خدم الكذب الجبناء، أبناء الظلمات، ونحن الأوفياء لدون كيخوته، نحن أبناء النور.

وبالعودة إلى القصة نرى أن الجميع قد هدؤوا، ولكن أحد الرماة بدأ يتفحص دون كيخوته لأنه يحمل أمراً بالقبض عليه لإطلاقه سراح المحكوم عليهم بالتجذيف في السفن، فأمسك به من عنقه وطلب مساعدة الأخوة

المقدسة، ولكن الفارس انقض عليه ولولا قليل لخنقه. ففصلوا بينهما، غير أن الرماة طالبوا بطريدتهم «ذلك اللص وقاطع الطرق والدروب».

«وضحك دون كيخوته من هذه التهم». ضحك، وأحسن صنعاً إذ ضحك، هو، من يضحك الآخرون منه؛ ضحك ضحكة بطولية وفروسية، ليست ساخرة، وردّ بهدوء كبير على إطلاقهم وصف قطع الطريق على «مساعدة البؤساء، وإغاثة الملهوفين، وإعانة المحتاجين». وهناك، بكبرياء ونبل، استذكر خيلائه كأحد الفرسان الجوالة الذين «قانونهم سيفهم، وعُرفهم عزيمتهم، وقرارهم إرادتهم».

أحسنت يا سيدي دون كيخوته، أحسنت! فالقانون لم يوضع لك ولا لنا نحن المؤمنين بك. فقراراتنا هي إراداتنا. لقد أحسنت القول؛ إن لك عزيمة تُمكّنك أنت وحدك من أن توجه أربعمئة ضربة عصا لأربعمئة رام يقفون في طريقك، أو أنك تحاول ذلك على الأقل، وفي المحاولة تكمن الشجاعة.

الفصل السادس والأربعون

[وفيه مغامرة الرماة البارزة والشراسة العظيمة لفارسنا الطيب دون كيخوته]

وهكذا لم يجد الرماة مفراً من الرضوخ بحجة أن دون كيخوته مجنون. وكان على الحلاق تقبل أن صحن الحلاقة هو خوذة بفضل ثمانية ريالات قدمها إليه الكاهن خفية، ولو أنه بدأ بذلك منذ البدء لتم تجنب العراك، لأنه ما من حلاق معادٍ للكيخوتية إلا ويصرح، مقابل ثمانية ريالات، بأن كل ما وجد وما سيوجد من صحون الحلاقة ما هي خُوذ محاربين، حتى ولو كانت أضلاعه قد تضعضعت لإصراره قبل ذلك على العكس. ويا لمعرفة الكاهن الجيدة بالطريقة التي يجبر بها الحلاقين، وهم أقرب ما يكون إلى الفحامين، على الإعتراف

twitter @baghdad_library

بإيمان! ولست أدري كيف لم يصبح إيمان الحلاق مضرب الأمثال كإيمان الفحام. إنه يستحق ذلك.

وبعد أن حمل دون كيخوته الساخرين منه على الشجار بشأن إيمان لا يتقاسمونه، ثم هدّأ بعد ذلك كل شيء، حتى حاولوا حبسه في قفص، وقد فعلوا ذلك بالخديعة، بالتنكر. فبالتنكر وحده يستطيع الساخرون وضع الفارس في قفص. لقد حبسوه في القفص، وسمّروا أخشابه بإحكام، وحملوه على الأكتاف وسط كلمات سخرية أطلقها المعلم نيكولاس لإيهام دون كيخوته بأنه مسحور، وهو ما صدقه. ثم وضعوا القفص فوق عربة تجرها ثيران.

الفصل السابع والأربعون
[وفيه الطريقة الغريبة التي سُحر بها دون كيخوته دي لامانشا وحوادث أخرى مشهورة]

مسجون في قفص خشبي تحمله عربة تجرها ثيران! لقد قرأ دون كيخوته قصص فرسان جوالة كثيرة وخطرة، ولكنه لم ير ولم يسمع قط أنهم ينقلون الفرسان بهذه الطريقة، وإنما يُحملون في الهواء «بخفة غريبة، ملتفين بغيمة رمادية وقاتمة أو في عربة من نار». ولكن الفروسية وأعمال السحر في عصره تتخذ سبيلاً مختلفاً عن السبيل الذي اتبعه الأقدمون، وهذا ما يحدث كي تكتمل آلام السخرية من فارسنا.

العالم يجبر الفرسان على المضي محبوسين في قفص وعلى وقع خطوات ثور. ومع ذلك يتظاهر بالبكاء حين يراهم يمضون على ذلك النحو، مثلما تظاهرت زوجة صاحب النزل وابنتها وماريتورنس. وانطلقت العربة في طريقها، يحيط بها الرماة، وسانتشو يقود روثينانته من عنانه. «كان دون كيخوته جالساً في القفص، يداه موثقتان، وساقاه ممدودتان، وهو يلتصق بالحواجز، بكثير من

الصمت وكثير من الصبر كما لو أنه ليس رجلاً من لحم...» ولم يكن كذلك طبعاً، بل كان رجلاً من روح. فلنقدّر دون كيخوته مرة أخرى في هذه المغامرة، في صمته وفي صبره.

ولم تقف آلام دون كيخوته عند هذا الحد، وإنما التقى، وهو ماضٍ على تلك الحال، بأسقف قانوني هو رجل يفيض بالحس السليم العام. ومنذ بداية تبادل الحديث معه، أخبره دون كيخوته بمن يكون، وكشف له بسذاجة رصيد بطولاته بالقول إنه فارس جوال، ولكن ليس ممن لم تخلدهم الشهرة، بل من أولئك الذين ستُنقش «أسماؤهم في معبد الخلود لتكون مثلاً وقدوة للقرون المقبلة».

آه يا فارسي البطل، فعلى الرغم من أنك محبوس في قفص تجره الثيران، مازلت تعتقد، وتحسن الاعتقاد، أن اسمك سيوضع للقرون المقبلة في معبد الخلود! دُهش الأسقف القانوني حين سمع كلام دون كيخوته، وازدادت دهشته حين صادق الكاهن على ما قاله دون كيخوته. وعندما تدخل سانتشو مبدياً رأيه الخبيث، ومشككاً في أن يكون سيده مسحوراً، إذ أنه يأكل ويشرب ويتكلم ويقضي حاجاته، فواجه الكاهن مباشرة بأنه حاسد لسيده.

لقد أصبت أيها التابع الأمين، لقد أصبت؛ فالحسد والحسد وحده هو الذي سجن سيدك في القفص. الحسد المتنكر بهيئة الشفقة، حسد الرجال العقلاء الذين لا يتحملون جنوناً بطولياً، الحسد الذي جعل من الحس العام السليم طاغية مسوياً. وقد كان الأسقف القانوني والكاهن عبدين له، هذا طبيعي!، وقد راحا يتبادلان الحديث على انفراد، فأورد الأول ما لا حصر له من حالات الابتذال والمبالغة الجوفاء في الأدب.

وكم كانت عميقة القشتالية تلك المحادثة بين الأسقف القانوني والكاهن! ففي اتصال وتعامل تلك الأرواح الفلينية، وبدلاً من تُستهلك وتتآكل طبقة الفلين التي تغطيها، تراها تأخذ بالنمو، مثلما هي حال الثآليل التي تزيد الملامسة من نموها بدل تصغيرها. ويا للسعادة التي شعرا بها حين وجد كل منهما

twitter @baghdad_library

الآخر بتلك العقلانية! ومن الواضح أن هذه الفئة لا تصل إلى الخلود الإنساني، أو الإلهي بتعبير أصح، إلا عندما تتمزق، بفضل الجنون، القشرة التي تسجن روحها، أو عندما ترطب البساطة الريفية تلك الروح. إن في هذا تعقلاً فجاً، والروحانية المسيحية المزعومة التي يقولون إنهم يعتنقونها ليست في العمق سوى أشد أشكال المادية التي يمكن تصورها فجاجة. فهم لا يكتفون بالشعور بالرب، بل يريدون إثبات وجوده بصورة رياضية، وحتى إنهم يريدون ابتلاعه.

الفصل الثامن والأربعون
[وفيه يتابع الأسقف القانوني موضوع كتب الفروسية وأموراً أخرى جديرة بعبقريته]

وبينما الأسقف القانوني والكاهن يخوضان في شؤون عادية، جاء سانتشو إلى سيده وكشف له عن وجود كاهن القرية وحلاقها، فأجابه دون كيخوته أنه يمكن أن يبدو له أنهما هما نفسيهما، ولكن هذا يعني وجوب الاعتقاد أنهما هما حقاً، بل إنه شأن من شؤون السحر لإدخال حامل الأسلحة المسكين في متاهة تخيلات. وهكذا فليس الكهنة في الحقيقة وليس الحلاقون هم ما يبدون لنا، وإنما هيئات مسحورة لإدخالنا في متاهة التخيلات. وأضاف الفارس: «أرى نفسي سجين قفص، وأعرف أن أي قوة بشرية، ما لم تكن خارقة للطبيعية، ليست كافية لحبسي في قفص. فماذا تريدني أن أقول أو أن أفكر غير أن الطريقة التي سُحرت بها تتجاوز كل ما قرأتُ عنه؟».

آه أيها الإيمان الراسخ والرائع! لا وجود، بالفعل، لقوة بشرية قادرة على استعباد رجل آخر وحبسه حقاً في قفص، لأنه وهو محمل بالأصفاد والقيود والسلاسل سيكون حراً على الدوام، وإذا ما رُئي شخص بلا حراك فإنه يكون مسحوراً. تتحدثون عن الحرية وتبحثون عن الخارجية منها. تطلبون حرية التفكير

بدل ممارسة التفكير. أرغب بلهفة في الطيران، ولو كنت محبوساً في قفص على خطى ثور، وستولّد رغبتك هذه لك أجنحة، وسيتسع القفص ليتحول إلى عالم تطير في قبته السماوية. وكن واثقاً من أن كل عائق يعترضك سيكون عمل سحر، لأنه ما من إنسان قادر على حبس إنسان في قفص.

لكن سانتشو لا يتراجع عن هدفه؛ ولكي يُثبت لسيده أنه ليس مسحوراً، كما يظن، سأله إذا كان قد أحس بالحاجة لعمل ما لا يمكن الاعتذار عنه، فقال دون كيخوته: «لقد فهمتُ ما تقصد يا سانتشو! لقد أحسست بذلك عدة مرات، وأنا أحس به الآن. أخرجني من هذا المأزق، فلستُ في وضع نظيف تماماً».

الفصل التاسع والأربعون

[وفيه الحديث الحصيف بين سانتشو بانثا وسيده دون كيخوته]

وعندئذ صاح سانتشو ظافراً: «لقد أمسكت بك»، يريد أن يُثبت له بذلك أنه ليس مسحوراً في الحقيقة. فردّ عليه الفارس: «ما تقوله صحيح يا سانتشو. ولكني قلت لك إن هناك أنواعاً كثيرة من السحر».

طبعاً، إنها كثيرة بقدر كثرة الأشخاص. وأن يكون المرء عبداً لجسده، في هذا القفص الضيق والبائس، ويمضي، فضلاً عن ذلك، محمولاً على خطى ثور مثلما يمضي نبيلنا مسحوراً، إضافة إلى كونه عبداً لجسده، فلن يُستنتج إلا أن حياة هذا العالم السفلي كلها ليست سوى سحر خالص. هكذا يفكر السانتشيون الماديون الذين يستنتجون أنه لا وجود إلا لما هو ظاهري، وما يُرى ويُلمس ويُشم؛ وأنه لابد لنا جميعاً، الأبطال وغير الأبطال، من قضاء الحاجة صغيرة وكبيرة. الحاجة لقضاء ما لا يمكن الاعتذار عنه هي حجة آخيل الفلسفة السانتشوبانثية، مهما كانت الهيئة التي تتنكر بها. ولكن دون كيخوته أحسن

twitter @baghdad_library

القول: «أنا على علم ويقين بأنني مسحور، وهذا يكفي لطمأنينة ضميري». يا للجواب الرائع الذي يضع راحة الضمير فوق خداع الحواس! يا للجواب الرائع الذي يعارض قضاء حاجات نظافة البدن بالحاجة إلى طمأنينة الضمير! نادراً ما قُدمت صيغة للإيمان أشد رسوخاً من هذه. فما يكفي لطمأنينة الضمير هو الحقيقة ولا شيء سواها. فالحقيقة ليست علاقة منطقية بين العالم الظاهري والعقل... الظاهري أيضاً، وإنما هي تغلغل حميم للعالم الجوهري في الوعي... الجوهري أيضاً.

أخرجوا دون كيخوته من القفص ليقضي الحاجة التي لا يمكن الاعتذار عنها، وبعد أن صار بدنه نظيفاً، مرَّ بمحنة أخرى أشد قسوة، إذ كان عليه أن يستمع إلى رصانة الأسقف القانوني الفارغة، والذي حاول أن يُثبت له أنه غير مسحور، وأنه لم يكن من وجود للفروسية الجوالة في العالم قطّ. وقد أحسن دون كيخوته الرد بأنه إذا لم تكن قصص آماديس وفيرابراس صحيحة فلن تكون أكثر صحة منها قصص هكتور والأكفاء الاثنى عشر ورولان والسيد. وهكذا هي الحال، مثلما قلتُ من قبل، فهل هنالك، في أيامنا هذه، واقعية في قصة السيد أكبر مما في قصة آماديس أو دون كيخوته نفسه؟ ولكن الأسقف القانوني، وهو رجل صلب الرأس ومتبلد حيال الحس العام، تصدى بحجج ساذجة، مثل معظم المحاججين القانونيين، بأنه ما من شك في أن السيد قد وجد حقاً، وليس أقل منه صحة وجود برناردو دل كاربيو، ولكن هنالك شك في أنهم حققوا المآثر التي تروى عنهم. وقد كان القانوني، كما يبدو، واحداً من أولئك الرجال المساكين الذين يجيدون الانتقاد أو الغربلة وينهمكون في التوضيح التفصيلي، وقصاصات ورق في أيديهم، إذا ما كان هذا الأمر قد حدث مثلما يُروى، دون أن ينتبهوا إلى أن ما مضى لم يعد له وجود، وأن الموجود حقاً هو الأثر الذي يُحدثه، وأنه يمكن لواحدة من تلك المسماة أساطير، عندما تحرك البشر للعمل، وتؤجج قلوبهم، أو تبعث العزاء في حياتهم، أن تكون واقعية أكثر ألف مرة من أي محضر تحقيق يتعفن في محفوظات الأرشيف.

الفصل الخمسون

[وفيه المناقشات الرزينة بين دون كيخوته والأسقف القانوني، وأحداث أخرى]

أليست صحيحة كتب الفروسية؟ «اقرأها وسترى المتعة التي تزودك بها قراءتها» ـ ردّ دون كيخوته ظافراً. فلينجنِ الرب! الأسقف القانوني لا يدرك قوة هذه الحجة التي لا تُدحض، بينما هناك أمور كثيرة أخرى يعتبرها أكثر حقيقية من كل شيء، بل أكثر حقيقية من تلك التي تدرك بالحواس، ومن الأشياء التي تُستخلص حقيقتها من السلوى والفائدة اللتين نتلقاهما منها والكافيين لطمأنينة الضمير! أن لا يدرك أسقف قانوني في الكنيسة الكاثوليكية الرسولية الرومانية المقدسة كيف أن السلوى، لكونها سلوى، يجب أن تكون حقيقة، وأنه ليس علينا البحث عن السلوى في الحقيقة المنطقية! آه، وإذا طُبق ذلك على كتب الفروسية السماوية أو ما وراء القبر لأفحمت الحجة الأسقف! ما الذي كان يمكن له أن يقول آنئذ؟ وماذا لو أن الحجج التي راح يوجهها ضد جنون الفروسية قد ارتدت موجهة ضد جنون الصليب؟ لقد تسلح دون كيخوته بالحجة الشائعة المقبولة من الناس. فلماذا لا تكون لها قيمة حين تصدر من فمه؟ وقد أضاف: «أما عن نفسي فأستطيع القول إنني منذ أصبحت فارساً جوالاً صرت شجاعاً، رزيناً، متسامحاً، حسن الخلق، كريماً، مهذباً، جريئاً، رقيقاً، صبوراً، ومتجملاً للمشقات...» مسوغ جليل! مسوغ جليل لا يمكن للأسقف القانوني رفضه، لأنه يعرف جيداً أنه لو وجد البشر المتواضعون، الوديعون، المحسنون، والمستعدون للمعاناة حتى الموت لزالت حقيقة الأساطير التي تجعلهم بتلك الصفات. وإذا هي لم تجعلهم كذلك فستكون الأساطير كاذبة وغير حقيقية.

ولكن، رباه! يا للأساقفة القانونيين الذين يصادفهم أحدنا في دروب هذه الحياة! فهذا الذي صادفه دون كيخوته وكان يمثل رجاحة العقل الخالصة، ألم يكن بإمكانه أن يكشف ولو نتفة صغيرة من جنونه؟ إنه أمر مثير للريبة؛ فدماغه

twitter @baghdad_library

قد نخرت دخيلته. لأن هؤلاء الرجال شديدو التعقل، يفكرون برؤوسهم فقط حين يجب عليهم أن يفكروا بالجسد كله والروح كلها.

لم يتوصل الأسقف القانوني إلى إقناع دون كيخوته، وما كان بالإمكان إقناعه. لماذا؟ للسبب نفسه الذي ذكرته تيريسا دي خيسوس في كتابها (حياة، الفصل السادس عشر، 5) عند حديثها عن أن المبشرين لا يتوصلون إلى حمل الخاطئين على التخلي عن رذائلهم العامة، «لأن لدى المبشرين الكثير من العقل» و «من دونه ليس لديهم نار حب الرب العظيمة مثلما كان الرسل وبهذا يكون دفء هذا اللهب قليلاً». وهكذا حرك دون كيخوته الساخرين منه ليؤكدوا ويدافعوا، على حساب أضلاعهم، عن أن صحن الحلاقة ليس إلا خوذة. والأسقف القانوني راجح العقل لم يتوصل إلى إقناع دون كيخوته بأنه لم يوجد في العالم فرسان جوالة، لأن دون كيخوته، بنار حب دولثنيا العظيم التي اشتعلت وتأججت سراً بفعل النظرات الأربع المختلسة إلى ألدونثا، واستمر اشتعالها طوال اثني عشر عاماً من التفكير، كان خلالها بلا عقل، وكان لهب تلك النار يدفئ كل من يقترب منه من ذوي الإيمان الصالح. ولا حاجة إلا لرؤية سانتشو الذي أحس بفضل ذلك اللهب أنه كان يعيش حياة تجمد شديد من البرد قبل أن يتعرف إلى سيده.

الفصلان الحادي والثاني والخمسون

[وفيه ما رواه المعّاز لجميع من اقتادوا دون كيخوته، والنزاع بين دون كيخوته والمعّاز، ومغامرة التوابين الغريبة التي وصل بها إلى نهاية سعيدة بعرق جبينه]

وجرت بعد ذلك واقعة الراعي ومغامرة التوابين، وبعد أيام قليلة أدخلوا

الفارس حبيس القفص إلى قريته عند ظهر يوم أحد، من أجل مزيد من السخرية والمزاح. وعاد سانتشو مفعماً بالإيمان بالفروسية، مثلما أثبت لزوجته بالقول: «من الأمور السارة أن ينتظر المرء الأحداث وهو يجتاز جبالاً، ويجوب غابات، ويطأ صخوراً، ويزور قلاعاً، ويحل في فنادق كما يشاء، دون أن يدفع شيئاً، وليذهب كل فلس إلى الشيطان.

وهكذا انتهت رحلة النبيل العبقري الثانية، والجزء الأول من تاريخ حياته.

twitter @baghdad_library

القسم الثاني

الفصل الأول
[وفيه ما كان من تصرف الكاهن والحلاق مع دون كيخوته في مرضه]

حين أمضى دون كيخوته نحو شهر وهو هادئ في بيته يتغذى بأشياء مقوية للقلب والمخ، ظن أهله أنه قد شفي من فروسيته البطولية. فذهبوا ليتلمسوا أمره ويختبروه، ودار عندئذ بينه وبين الكاهن والحلاق الحديث الذي حفظه لنا ثربانتس، وعبارة «لن أموت إلا فارساً جوالاً» التي قالها دون كيخوته لابنة أخته. ثم تبع ذلك قصة مجنون اشبيليا التي رواها الحلاق، وما قاله النبيل في رده الكئيب: «آه يا سيدي الحلاق، يا سيدي الحلاق، يا لعمى من لا يرى من خلال غربال» وكل ما يلي ذلك.

في أحد الأوقات، وكنتُ أعاني اضطراباً روحياً، تلقيت رسالة من صديق يلمح لي فيها، بعد ألف مديح للتخفيف من وقع الخبر السيئ، أنه يعتبرني مجنوناً، لأنني مؤرق ببعض الهموم التي لم تقض مضجعه قطّ. وعندما قرأتها قلت في نفسي: رباه، كيف يخلط الناس بين الجنون والحمق، فصديقي هذا، حين اعتقد أني مجنون، قدّر أنني أعمى إلى حدّ لا أرى معه من خلال غربال، أيظنني غبياً بحيث لا أفهمه! ولكني عزيت نفسي بسرعة من صداقة صديقي. *ألا ترى أن هذا الصديق شديد المجاملة يعتبرك مجنوناً حين يغدق عليك المديح؟*

الفصل الثاني

[وفيه تناول لمشادة سانتشو بانثا الكبيرة مع ابنة أخت دون كيخوته وقيّمة منزله، وأحداث طريفة أخرى]

بينما دون كيخوته والكاهن والحلاق يتبادلون هذا الحديث، نشبت في فناء البيت مشادة أكثر من عادية بين سانتشو من جهة، وقيّمة المنزل وابنة الأخت من الجهة الأخرى، لأن هاتين لا تريدان السماح له بالدخول، وقد راحتا تؤنبانه لأنه هو من يتلاعب بسيده ويُخرجه ويجوب به تلك الآفاق، وسانتشو يرد عليهما بأنه هو المخدوع الذي أُخرج من بيته ويجرى التلاعب به بالخداع.

ويمكن لنا أن نلفت الانتباه هنا إلى أن قيمة المنزل وابنة الأخت لم تكونا بعيدتين عن الحقيقة، لأن كليهما معاً، أي دون كيخوته و سانتشو، كانا يحاولان الخروج ويتلاعبان ويحمل أحدهما الآخر على أن يجوب آفاق العالم تلك. فقد يحدث أحياناً لمن يظن أنه الموجِّهُ أن يكون، إلى حدّ كبير، هو الموجَّه، وإيمان البطل يتغذى مما يمكنه أن يبعثه من الإيمان في نفوس أتباعه. لقد كان سانتشو الإنسانية كلها في نظر دون كيخوته، وكان سانتشو، الواهن والمتأجج أحياناً في إيمانه، يغذي إيمان سيده ومولاه. فنحن نحتاج عادة إلى أن يؤمنوا بنا كي نؤمن بأنفسنا، ولو لم يكن في ذلك هرطقة شنيعة، وحتى جحوداً سافراً، لأكدتُ أن الرب يتغذى من إيماننا به نحن أبناء البشر. وهذه فكرة، متنكرة بالآلهة الوثنيين، عبَّر عنها بعمق وفخامة الشاعر غونغورا في بيتي الشعر الماسيين ـ بفعل الصلابة والبريق البهي ـ القائلين:

أوثان صنعها من الجذوع فنُ النحت،
ومن الأوثان صنعَ التضرعُ آلهة.

من حجر الفيروز نفسه نُحت الفارس وتابعه، كما افترض الكاهن، وأعظم ما في الحياة التي أمضياها معا وأشده مواساة هو عدم التمكن من تصور أحدهما

twitter @baghdad_library

دون الآخر، وأنهما أبعد ما يكون عن كونهما قطبين متعارضين، مثلما يسيء البعض الافتراض بأنهما كانا ولا يزالان، كما أنهما ليسا نصفي برتقالة، وإنما هما الكائن نفسه مرئياً من جانبين. لقد كان سانتشو يحافظ على حيوية سانتشوبانثية دون كيخوته، بينما يحافظ هذا على حيوية كيخوتية سانتشو بانثا مُظهراً إلى سطح الروح كيخوتية الداخلية. وعلى الرغم من أن سانتشو يقول: «سانتشو ولدت وسانتشو أريد أن أموت»، فإن الصحيح هو أن في سانتشو الكثير من دون كيخوته.

ولهذا، حين التقيا على انفرد، قال النبيل لتابعه «لقد خرجنا معاً، وذهبنا معاً، وتجولنا معاً، وواجهنا القدر نفسه والحظ نفسه معاً»، ثم عبارة الأخرى «أنا رأسك، وأنت جزء مني...، ولهذا السبب فإن أي أذى يصيبني أو أصيبه، سيؤلمك، وسيؤلمني أنا أي أذى يصيبك»، إنها كلمات معبرة بقوة أظهر بها الفارس مدى عمق شعوره بالتوحد مع حامل أسلحته.

الفصلان الثالث والرابع

[وفيه حديث مضحك جرى بين دون كيخوته وسانتشو والمجاز شمشوم كارّاسكو، حيث يوضح سانتشو شكوك وتساؤلات المجاز كارّاسكو، وأحداث أخرى جديرة بأن تُعرف وتُروى]

واصلا الحديث حول ما يقال عنهما في العالم، وهو أمر أثار اهتماماً جذرياً لدى دون كيخوته، وأحضر سانتشو بعد ذلك المجاز شمشوم كارّاسكو، وهو مجاز من مدينة سلمنكا خطاياي هذه، وشخصية نمطية تدخل هذه المنصة. فهذا المجاز من سلمنكا هو أبرز شخصية تمثيلية بعد بطلينا، يؤدى دوراً مهماً في تاريخهما. أنه لب الحس العام السليم ورمزه، وصديق السخرية والمرح، وطليعة من يأتون بسيرة حياة

النبيل العصري ويأخذونها، ويتركها أحدهم ليأخذها آخر. وقد ظل لتناول الطعام مع دون كيخوته، وليسخر منه في أثناء ذلك ويشرّف مائدته.

وحين سمع دون كيخوته الساذج ـ وقد كان الأبطال ساذجين على الدوام ـ الحديث عن أن تاريخ مآثره آخذ بالانتشار، التهب بالظمأ إلى الشهرة، وقال إن «الأمر الذي ينبغي أن يمنح الرضا للرجل الفاضل واللامع هو أن يرى أنه يعيش بسمعة حميدة تتداولها ألسن الناس، وتُطبع وتنشر في كتب»، وهكذا قرر العودة للخروج مجدداً وصرح للمجاز برغبته هذه، وسقط في سذاجة طلب النصح منه حول «المكان الذي يبدأ فيه مهمته».

الفصل الخامس

[وفيه الحديث الحصيف والممتع بين سانتشو بانثا وزوجته تيريسا بانثا وأحداث جديرة بالذكرى الطيبة]

يُستنتج من هذه المحادثة بوضوح كيف رسَّخ دون كيخوته في تابعه نفحة الطموح وموقفه «سانتشو ولدت، وسانتشو أريد أن أموت» أي أريدُ أن أموت وأنا دون سانتشو، سيد وجد كونتات ومركيزات.

الفصل السادس

[وفيه ما جرى لدون كيخوته مع ابنة أخته وقيّمة منزله، وهو من أهم فصول هذا التاريخ كله]

وهو جد مهم! إذ بينما كان سانشو يتشاجر مع امرأته، كان دون كيخوته يخوض شجاراً مع ابنة أخته وقيّمة منزله، هاتين العِقبتين المنزليتين اللتين تعرقلان بطولته.

twitter @baghdad_library

وكان على الفارس الطيب أن يسمع صبية غريرة مثل ابنة أخته التي تكاد لا تجيد تحريك عيدان حياكة التخاريم، تتجرأ على إنكار أنه كان هناك فرسان جوالة في هذا العالم. إنه لأمر حزين أن يسمع هنا في بيته، ومن فم صبية غريرة، تردد كالكورال كلام العامة الساذج.

ولنفكر في أن تلك الصبية الغريرة انطونيا كيخانا هي من تسيطر على الرجال في إسبانيا! أجل، تلك الصبية الوقحة، دجاجة القن الصغيرة تلك، قصيرة الأجنحة والثرثارة، من تطفئ أي بطولة وليدة، هي من تقول للسيد خالها: «وبالرغم من كل هذا، إنك في عمى عظيم، وجنون معروف، تتظاهر بأنك شجاع وأنت عجوز، وبأنك قوي وأنت مريض، وأنك تُقوّم اعوجاجات وأنت مثقل بتقدم السن، وتظن فوق هذا كله أنك فارس مع أنك لست كذلك، وصحيح أنه يمكن للنبلاء أن يكونوا فرساناً، ولكن ليس الفقراء منهم». حتى إن فارس الإيمان الباسل تأثر بالنزاهة المتواضعة لتلك الغريرة البائسة، ولان جانبه وهو يجيبها: «أنتِ على صواب فيما قلتِه يا ابنة أختي».

وإذا كنت أنت نفسك، يا سيدي الباسل دون كيخوته، قد سمحت لنفسك بالاقتناع بأقوال تلك الهريرة المنزلية، ولو بالكلام فقط وبصورة عابرة، فما الكثير في أن يستسلم لحكمتها كطاهية من يبحثون عنها من أجل استمرار سلالتهم من خلالها؟ فهي، شديدة السذاجة، لا تدرك أنه يمكن لعجوز أن يكون شجاعاً، ولمريض أن يمتلك القوة، وأن يُقوّم الاعوجاجات من أثقلت عليه السنون. وهي لا يمكنها، فوق هذا كله، أن تفهم أنه بإمكان فقير أن يصبح فارساً. وبالرغم من أنها ساذجة ومنزلية ومحدودة القلب والعقل، وإذا كانت قد تجرأت عليك، وأنت خالها، ألن تتجرأ على من سيطلبون يدها كخطيبة، أو يمتلكونها كأزواج؟ لقد علموها أن الزواج قد تأسس «للزواج، ومنح النعمة للمتزوجين، وإنجاب أبناء للسماء»، وهي تفهم الأمر وتمارسه على هذا النحو، بأن تُبعد زوجها عن أن تغزونا تلك السماء نفسها التي من أجلها يجب إنجاب أبناء.

هنالك حس سليم، وإلى جانبه إحساس عام أيضاً. وإلى جانب سوقية

العقل تباغتنا سوقية القلب. وهذه السوقية، يا أنطونيا كيخانا، يا قارئتي، أنتِ حارستها والساهرة عليها. إنك تغذينها في قلبك الصغير بينما أنت تراقبين زبد غليان قِدر خالك، أو تحركين عيدان الحياكة. هل يهرول زوجك وراء المجد؟ وما هو المجد؟ وبماذا يؤكل هذا؟ فالغار جيد لمنح نكهة للبطاطا المسلوقة؛ وهو تابل ممتاز للمطبخ المنزلي. ويمكنك أن تأخذي منه كفايتك من الكنيسة في يوم أحد الشعانين. وأنت تشعرين، فضلاً عن ذلك، بغيرة غاضبة من دولثنيا.

لست أدري إذا كانت ستقع تحت نظر العينين الجميلتين لأي فتاة تدعى أنطونيا كيخانا تعليقاتي هذه على حياة السيد؛ بل إنني أشك في ذلك، لأن بنات أخوات دون كيخوته لا تروقهن قراءة أمور تضطرهن إلى تركيز انتباههن وإعمال الفكر في ما يقرأن. إنهن يكتفين بقراءة روايات صغيرة ذات حوار قصير أو حبكة تُخمد الهمة لما فيها من رهبة، أو كتيبات ورعة محشوة بتفاصيل محلاة وأدعية تافهة. كما أنني أفترض، فضلاً عن ذلك، أن مرشديكن الروحيين سيحصنونكن ضد ضلالات قلمي الخطرة إذا لم ينفعكن ابتذالكن كدرع واق. وأنا شبه متأكد من أنكن لن تُقلّبن بأيديكن الكسولة، المخلوقة لتحريك عيدان الحياكة، هذه الصفحات المحزمة؛ ولكنها إذا وقعت مصادفة تحت أنظاركن، فإني أقول لكنَّ إنني لا أنتظر أن تبرز بينكن دولثنيا جديدة تدفع بدون كيخوته جديد إلى إحراز الشهرة، ولا تيريسا دي خيسوس، السيدة الجوالة في سبيل الحب الذي بقدر ما هو عميق الإنسانية يخرج من كل ما هو إنساني. ولن تشعلن حباً كالذي أشعلته ألدونثا لورنثو، بلا انتباه منها، في قلب ألونسو الطيب، ولن تشعلنه في قلوبكن كحب تيريسا دي خيسوس الذي جعله ملاك ساروفيم يخترق قلبها بسهم.

وهي أيضاً، تيريسا، مثل ألونسو كيخانو الذي أمضى اثني عشر عاماً في حب ألدونثا، ظلت على علاقة بمن بدا لها أنها ستنتهي معه على ما يرام عن طريق الزواج، وقد قال لها كاهن اعترفها إن ذلك غير مضاد للرب («*حياة*» الفصل الثاني)، ولكنها أدركت المكافأة التي يمنحها الرب لمن يتخلون عن كل

twitter @baghdad_library

شيء من أجله، وأن الرجل لا يروي الظمأ إلى حب لامتناه، وحملتها كتب الفروسية تلك، وكانت مولعة بها، عبر ميدان الحب، إلى الحب الجوهري، فتلهفت إلى المجد الأبدي والاستغراق في يسوع، المثل الأعلى للرجل. وخاضت في جنون بطولي بلغ بها الأمر أن قالت لكاهن اعترافها: «أتوسل إلى غبطتك أن نصبح جميعنا مجانين حباً بذاك الذي أستُدعي من أجلنا». (*حياة* الفصل السادس عشر). ولكن أنتِ يا عزيزتي أنطوانيا كيخانا، ماذا عنك أنت؟ أنتِ لن يصيبك أي جنون إنساني أو إلهي، قد يكون لديك القليل من الدماغ، ولكنه مهما كان قليلاً فإنه يملأ رأسك الصغير كله، لأنه أصغر منه، ولا يبقى لديك مكان لما يفيض عن القلب.

لديك حس جيد جداً يا أنطونيا الرزينة، فأنت تجيدين عَدّ حبات الحمص وترقيع سراويل زوجك، وتعرفين العناية بقِدر طعام خالك، وتحريك عيدان الحياكة، ولتغذية سمو روحك لديك مهماتك كرقيبة على هذا الكورال أو ذاك، وواجب أن ترتلي، في ساعة محددة من النهار، هذه الكلمات الدهنية أو تلك التي يعطونك إياها مكتوبة. تيريسا لم توجه إليك قولها: «لا تُعر اهتماماً للفهم، لأنه متعِب» (*حياة* الفصل الخامس عشر)، لأن طحناً قليلاً يوفره لك فهمك الذي يديره مرشدك الروحي، والذي تقلص وتجهم منذ اكتشفوا وجوده فيكِ. ونفسكِ، روحك الصغيرة، التي ربما كانت حالمة في زمن سابق، قصوا جناحيها وجعلوها تضمر بصورة رهيبة بالكوابح، وحشروها في مهد منذ صرخة الخوف الأولى، حشروها في المهد على وقع الترنيمة القديمة:

نم يا صغيري، نم،
فالبعبع آت،
ليأخذ من الأطفال
من ينامون قليلاً.

لقد حشروها في مهد على الوقع الأخن للأغنية التي ستترنمين بها أنت

نفسك، يا أنطونيا المسكينة، لتنويم أبنائك عندما تصبحين أما. واسمعي يا أنطونيا، ولا تعيري أي اهتمام لمن يريدون لك أن تكوني دجاجة قن، لا تهتمي بهم وتأملي في أغنية النواح النادبة التي تنومين بها أبناءك. تأملي في قول إن البعبع آت ليأخذ الأطفال الذين ينامون قليلاً. تأملي يا عزيزتي أنطونيا في أن كثرة النوم هي التي تنقذنا من براثن البعبع. انظري يا أنطونيا العزيزة كيف أن البعبع يأتي ويأخذ ويبتلع النائمين وليس المستيقظين.

والآن، إذا كنتُ قد استطعتُ أن أشغلكِ للحظات عن أعمالك ومهامك، عما يسمونه مهام جنسك، فاغفري ذلك لي أو لا تغفريه. وأنا من لن أغفر لنفسي أبداً أنني لم أقل لكِ إننا نريدك حقاً، نريدك امرأة قوية، نحن من نكلمك بجفاء وقسوة، لا أولئك الذين يقيّدونك كصنم على مذبح معبد ويتركونك هناك سجينة الرائحة الخانقة لبخور المغازلات السهلة، ولا أولئك الذين ينوّمون روحك على وقع ترنيمات شفقة متكلفة.

وأنت يا سيدي دون كيخوته، أمر محزن أنك حين تلوذ ببيتك، بحب منزلك، كحصن صخري يبقيك بعيداً عن سهام العالم السامة، ولا يجعلك تسمع أصوات من يتكلمون لمجرد ألا يصمتوا، أمر محزن أن منزلك، وبدلاً من أن يكون اتساعاً وفضاء لروحك، يتحول إلى نسخة عن الخارج. ما كان لألدونثا أن تقول لك، بكل تأكيد، ما يمكن لها أن تقوله لك.

الفصل السابع

[وفيه ما جرى بين دون كيخوته وتابعه، وحوادث أخرى مشهورة جداً]

وفضلاً عن ألم سماعه هذه الأشياء في بيته بالذات، أضيف إليها رؤيته لتذبذب إيمان سانتشو، إذ جاء يطلب منه مرتباً ثابتاً، وهو أمر غير معهود لدى

twitter @baghdad_library

الفرسان الجوالة الذين اعتاد أتباعهم على خدمتهم لقاء هبات. وإيمان سانتشو الذي مازال في نمو متواصل، لم يوفر له آملاً بعد، وقد جاء يطلب مرتباً محدداً. لم يكن قادراً على فهم عمق الحكم الذي نطق به سيده، والمتمثل في «الآمل الطيب أفضل من الامتلاك الخبيث». وهل ترانا نفهم هذا القول بكل أبعاده أنا وأنت يا قارئي؟ ألا نتمسك مثل السانتشويين الطيبين بـ: «عصفور باليد خير من عشرة على الشجرة»؟ ألا ننسى اليوم ودوماً أن الآمل يُوَلِّد ما يقتله الامتلاك؟ ما علينا أن نجمعه لساعتنا الأخيرة هو ثروة الآمال التي بها، أكثر مما بالذكريات، يدخل أحدنا في الخلود. ولتكون حياتنا يوم سبت مقدس دائم.

ولسبب محق غضب دون كيخوته عند رؤيته سانتشو، مدفوعاً بالجسد، يطالبه بمرتب ثابت، كما لو أن هناك أعظم من مرافقته له وخدمته في مسيرته المجيدة، وقرر رفضه عندئذ كتابع له. وحيال ذلك الرفض تأجج إيمان سانتشو المسكين، «أظلمت السماء في عينيه وسقطت أجنحة قلبه، لأنه كان يظن أن سيده لن يرحل من دونه، وأنه لن يستبدله بكل ثروات الدنيا»

وقطع هذا الحديث المجاز كاراسكو الذي حضر لتهنئة دون كيخوته وليقدم نفسه كتابع له... يا للعرض الكافر! وحين سمعه سانتشو تملكه الأسى، وامتلأت عيناه بالدموع، واستسلم لسيده.

ولكن، هل كنت تظن أيها المسكين سانتشو أن الحياة ستكون حياة من دون سيدك؟ لا، فأنت لم تعد ملكاً لنفسك: إنك له. لأنك أنت أيضاً تمضي، وإن كنت لا تدري ذلك ولا تصدقه، مغرماً بدولثنيا دل توبوسو.

ولن يعدم من يلوم دون كيخوته لانتزاعه سانتشو مجدداً من هدوء حياته وطمأنينة عمله، وجعله يترك زوجة وأبناء ليجري وراء مغامرات خادعة؛ ولن تعدم قلوب هيابة تشعر بذلك. ولكننا نحن نقدر أن سانتشو، وبعد أن تذوق لذة حياته الجديدة، لم يشأ العودة إلى حياته الأخرى، وأنه على الرغم من تزعزع إيمانه وتراجعه، فقد أظلمت السماء في عينيه، وسقطت أجنحة قلبه حين خطرت له شبهة أن سيده ومولاه قد يذهب من دونه.

هناك أرواح رعديدة تؤكد أنه من الأفضل أن يكون المرء خنزيراً راضياً على أن تكون إنساناً تعيساً، وهنالك أيضاً أرواح يحزنها ما تسميه الجهل المقدَّس. ولكن من تذوق طعم الإنسانية يفضلها، حتى وهو في أعماق هوة التعاسة، على تخمة الخنزير. لابد إذاً من استثارة أرواح الآخرين، بتسعير ألبابهم، وإنجاز مهمة الشفقة بإيقاظ النائم عند اقتراب خطر أو عندما تظهر للنظر جمالية ما. لابد من إقلاق الأرواح وإيقاظ رغبات قوية فيها، حتى ولو كنا نعرف أنها لن تتوصل أبداً إلى تلك الرغبات. لابد من انتزاع سانتشو من بيته، والتطويح به بعيداً عن زوجته وأبنائه، ودفعه إلى الجري بحثاً عن مغامرات. لابد من جعله إنساناً. هنالك طمأنينة عميقة، حميمة ومحببة، وهذه الطمأنينة لا يمكن التوصل إليها إلا بأن ننفض عنا الطمأنينة الظاهرية في الحياة البيتية والقروية. فقلق الملاك ألذ ألف مرة من راحة البهيمة. وليس القلق وحده، بل الآلام أيضاً، وذلك «العذاب القاسي اللذيذ» الذي تحدثنا عنه تيريسا دي خيسوس في كتابها ***حياة*** (الفصل العشرون، 8).

وما هذا الذي يقال عن الجهل المقدَّس؟ الجهل ليس، ولن يكون، مقدَّساً. وما هذا الذي يقال عن حسد طمأنينة من لم يلمح السر السامي ولم ينظر إلى ما هو أبعد من الحياة والموت؟ أجل، أعرفُ الأغنية، أعرف «يا لكتاب التعليم المسيحي من وسادة جيدة! نم يا بني وآمن؛ فهكذا تكسب السماء في الفراش». سلالة جبانة، وجبانة بأشد أشكال الجبن كارثية، الجبن الأخلاقي الذي يرتجف ويرتعب في مواجهة الظلمات العليا.

انظر يا سانتشو، لو أن جميع هؤلاء الذين يحسدونك، بأفواههم على الأقل، على الطمأنينة التي كنت تنعم بها قبل أن يُخرجك سيدك من بيتك، صدقني لو أنهم يعرفون ما هو الصراع في سبيل الإيمان، لما أشادوا كل تلك الإشادة بالفحَّام. جسدي حي بفضل صراعه لحظة فلحظة ضد الموت، وروحي حية لأنها تصارع ضد الموت لحظة لحظة. وهكذا نمضي نحن إلى تبني تأكيد جديد على أنقاض تأكيد آخر لنا قوضه المنطق، فتأخذ بالتراكم أنقاضها جميعاً،

twitter @baghdad_library

وذات يوم سيقف أحفاد أحفادنا ظافرين فوق قمة تل التأكيدات المقوضة الهائل، ليعلنوا التأكيد الأخير، ويبدعوا بذلك خلود الإنسان.

وقد أحسن سانتشو بمقايضة أعماله وفقره وشح موارده، مقابل تجدده وتحوله كيخوتياً إلى جانب دون كيخوته. وقد تحول بذلك من سانتشو بانثا الجلف والمجهول الذي كان عليه إلى التابع الخالد للفارس الخالد دون كيخوته دي لامنتشا، وسيظل كذلك إلى الأبد. لقد استسلم إذاً لسيده بعينين ممتلئتين بالدموع.

وفي النتيجة، بعد أيام قليلة، تحت جنح الظلام، «دون أن يراهما أحد باستثناء المجاز الذي أراد أن يرافقهما مسافة نصف فرسخ، انطلقا في الطريق إلى توبوسو».

الفصل الثامن

[وفيه يُروى ما جرى لدون كيخوته وهو ذاهب لرؤية سيدته دولثينيا دل توبوسو]

وفي أثناء الطريق، تحدث دون كيخوته عن إيروستراتوس، وعن الرغبة في نيل الشهرة، جذر بطولته. ولم يتخلف دون كيخوته عن التوغل عندئذ في مهاوي حكمة ألونسو الطيب، ملاحظاً بطلان الشهرة «الحالية التي مهما طال بها الزمان، ستنتهي مع انتهاء هذا العالم الذي له نهايته المعلومة».

أنا المجد، العبقري السعيد
لبلاد الشمس المشرقة،
ستكون أعظم شاعر في العالم....

حين تقول إنه لا بد للعالم من أن ينتهي.

يقول «سيغرامور» في قصيدة أوجين دي كاسترو.

في هذه الخرجة الثالثة والأخيرة لدون كيخوته سنرى كيف يهوي في هاويات تعقله، حتى الغرق فيها، بموته النموذجي.

ولتأثر سانتشو بكلمات سيده، ورؤيته أن شهرة القديسين أوسع وأعظم من شهرة الأبطال، قال لدون كيخوتي ما قاله عن تحولهما إلى قديسين ليحصلا بسرعة أكبر على السمعة الطيبة التي يتطلعان إليها، وعرض عليه مثال القديس دييغو دي ألكالا والقديس بيدرو دي ألكانترا اللذين طُوبا قديسين في تلك الأيام.

«سترون أنني سأصير ذات يوم معبوداً من العالم بأسره»، هذا ما اعتاد قوله المسكين دي أسيس، وفق ما يرويه لنا الرفاق الثلاثة وتوماس دي ثيلانو، والمؤثرات نفسها التي دفعت البعض إلى البطولة دفعت آخرين إلى القداسة. فمثلما اندفع دون كيخوته في الدنيا وقد أججت نفسه قراءة كتب الفروسية، فإن تيريسا دي سيبيدا، ومنذ طفولتها، تأججت نفسها بقراءة سير حياة القديسين الذين بدا لها «أنهم يشترون بثمن بخس جداً طريقهم للتمتع بالرب»، اتفقت مع أخيها على الذهاب إلى بلاد المسلمين، ليطلبا حباً بالرب أن يقطعوا هناك رأسيهما. وحين رأيا استحالة ذلك، قررا التحول إلى ناسكين، فسعيا كيفما استطاعا إلى إقامة صومعة في بستان ملحق بالبيت (*حياة* 1- 2). وقد قلنا عن إغناثيو دي لويولا ما أخبرنا به في هذا الشأن أمين سره الأب بيدرو دي ريبادينيرا.

وما هو هذا كله إن لم يكن فروسية جوالة من النوع الإلهي أو الديني؟ وما الذي يسعى إليه، في نهاية المطاف، هؤلاء وأولئك، الأبطال والقديسون، سوى خلود الذكر؟ الأولون يسعون للبقاء في ذاكرة البشر، والآخرون في أحضان الرب. وماذا كان الحافز الأهم في حياة شعبنا الإسباني سوى التلهف لبقاء الذِّكر الذي لا يمكن اختزاله في شيء آخر غير ما يسمونه عبادة الموت؟ لا، ليس عبادة الموت، وإنما هو عبادة الخلود.

twitter @baghdad_library

وسانتشو نفسه الذي يبدو شديد التعلق بالحياة التي تمضي ولا تبقى، يصرح بأنه «أن يكون المرء راهباً صغيراً بائساً في أي طريقة رهبانية أفضل من أن يكون فارساً جوالاً باسلاً»، وهو ما ردّ عليه دون كيخوته بحكمة: «لا نستطيع جميعنا أن نكون رهباناً، وكثيرة هي الدروب التي يقتاد فيها الرب عباده إلى السماء». وإذا لم يكن بإمكاننا جميعاً أن نكون رهباناً، فلا يمكن أن تكون الرهبنة أسمى بذاتها من سواها، إذ لا مجال لأن لا تكون حالة الكمال المسيحي الأكبر متاحة بالتساوي في أي وضع، بل هي حصر، بقوة قانون طبيعي، على عدد محدود من الأشخاص، لأنه إذا تطلّع الجميع إليه انتهت السلالة. وقد أحسن دون كيخوته القول في ردّه على سانتشو بأنه إذا كان في السماء قديسون أكثر من الفرسان الجوالين فإنما ذلك لأن عدد رجال الدين أكبر من عدد الفرسان الجديرين بهذا الاسم. ونتساءل: وماذا حين يكون رجل الدين فارساً؟ هذا ما سيحدثنا عنه دون كيخوته.

الفصل التاسع
[وفيه يُروى ما سيُرى]

ومتى تكلم دون كيخوته على ذلك النحو عن المجد والخُيلاء الأخير وعن كيف ينتهي عند انتهاء العالم؟ لقد فعل ذلك وهو متوجه إلى توبوسو لرؤية دولثنيا، وكان يمضي في داخله ألونسو الطيب ليرى ألدونثا لورنثو التي تَنَهَد من أجلها طيلة اثني عشر عاماً. وبفضل الجنون تغلب النبيل الخجول على خجله الشديد، وانطلق وهو يلبس زي دون كيخوته ويتستر به، ليرى هدف تلهفه، ليشفى من جنونه برؤيتها وعناقها. إننا نقترب من اللحظة الحرجة في حياة الفارس.

وهكذا، بينما هما في ذلك الحديث، وصل السيد وتابعه إلى توبوسو، موطن منقطعة النظير دولثنيا.

وصلا وهناك قال دون كيخوته لتابعه: «بني سانتشو، قدني إلى قصر دولثنيا، فربما نجدها مستيقظة».

نلاحظ أن الفارس يتحول إلى العذوبة ويدعو سانتشو بانثا بني حين يطلب منه تلك الخدمة والمهمة المتميزة، ونلاحظ أيضاً كيف هم السانتشيون، البشرية الدنيا، الذين يقودون الأبطال إلى قصور المجد.

عندئذ تبدى حرج سانتشو المخادع وهو يبحث عن مخارج لغبائه، حتى إنه يصرح بأنه لم ير دولثنيا قط، بالطريقة نفسها التي قال بها سيده إنه لم يرها قطّ، وإنه وقع في حبها من خلال السماع. وبالسماع نحب المجد نحن المغرمون به، دون أن نكون قد رأيناه أو سمعناه. ولكن ألدونثا قابعة في الأعماق التي رُوئيت، ورُئيت جيداً، وإن يكن لأربع مرات فقط خلال اثني عشر عاماً. وأخيراً توصل سانتشو الماكر إلى جعل سيده الساذج يخرج من توبوسو وينتظر كامناً في حرش أن يعثر التابع المخادع على دولثنيا.

الفصل العاشر

[وفيه تُروى الطريقة البارعة التي سحر بها سانتشو السيدة دولثنيا، وأحداث أخرى مضحكة بقدر ما هي حقيقية]

وهنا تبدأ مناجاة سانتشو لنفسه عند جذع شجرة، وتصريحه بأن سيده مجنون يستحق التقييد، وأنه هو نفسه لا يتخلف عنه في ذلك، بل إنه أشد بلاهة منه لأنه يتبعه ويخدمه، وهنا قرر أن يخدعه بجعله يعتقد «أن أول فلاحة تمر من هنا هي السيدة دولثنيا. فإن لم يصدق سأقسم له على أنها كذلك». وبهذا نجد سانتشو الوفيّ مصمماً على أن يتلاعب بسيده وليكون بذلك واحداً آخر بين الساخرين منه. يا لحالة التأمل المحزنة! وعلينا أن نأخذ في الاعتبار أيضاً كيف اعتبر سانتشو سيده مجنوناً يستحق التقييد، ويمكن أن يُخدع، وأنه يرى الأشياء

twitter @baghdad_library

على أنها أشياء أخرى، ويحكم على الأبيض بأنه أسود، وعلى الأسود بأنه أبيض، وبهذا كله يسمح بأن يُخدع أو يسمح، بعبارة أدق، لأن ينساق للإيمان بدون كيخوته ويؤمن به دون أن يصدقه. فحين يرى في طواحين الهواء مردة، وفي قطعان الأغنام جيوشاً معادية، يؤمن بالجزيرة التي وُعد بها مراراً.

يا لسلطة الإيمان المهيبة، المنيعة على كل اندفاع للأوهام! ويا لسر الإيمان السانتشوبانثي الذي يؤمن دون أن يصدق، ويعيش ويفهم ويعلن أنه أسود، ويجعل من يختزنه يشعر ويعمل وينتظر أن يكون أبيض! ومن هذا كله علينا أن نستنتج أن سانتشو كان يحيا ويشعر ويعمل وينتظر مدفوعاً بسحر قوة غريبة توجهه وتحمله إلى عكس ما يراه ويفهمه، وأن حياته كلها كانت استسلاماً ذاتياً بطيئاً لقوة ذلك الإيمان الكيخوتي وصانع الكيخوتيين. وهكذا حين ظن أنه خدع سيده تبين أنه هو المخدوع، وكان الأداة لسحر دولثنيا فعلاً وحقاً.

لم يكن إيمان سانتشو بدون كيخوته إيماناً ميتاً، أي أنه لم يكن مخادعاً كضروب الإيمان تلك التي تستند إلى الجهل. لم يكن إيمان فحَّام، كما أنه ليس بأي حال إيمان حلاق، يستند إلى ثمانية ريالات. لقد كان، على العكس من ذلك، إيماناً حقيقياً وحياً، إيماناً يتغذى على الشك. لأن من يشكون هم وحدهم من يؤمنون حقاً. فالإيمان الحقيقي يتغذى على الشك؛ ومن الشكوك التي هي قوته، يتغذى ويتقحم ثانية بعد ثانية، مثلما تتغذى الحياة الحقيقية من الموت وتتجدد ثانية بعد ثانية لتكون خلقاً مستمراً. لأن حياةً لا موت فيها، ولا تدمير لعملية البناء المتواصل فيها، لن تكون سوى موت دائم، مجرد سكون صخرة. فمن لا يموتون لا يحيون، ولا يحيا من لا يموتون في كل لحظة لينبعثوا فوراً من جديد، ومن لا يتشككون لا يؤمنون. فبقاء الإيمان يتواصل بحل الشكوك وعودته لحل الشكوك الناشئة عن حل سابقاتها.

كان سانتشو يرى جنون سيده، ويرى أن طواحين الهواء هي طواحين وليست مردة، ويعرف جيداً أن الفلاحة الفظة التي سيلتقي بها عند مدخل توبوسو ليست دولثنيا دل توبوسو، وليست بأي حال ألدونثا لورنثو، ومع ذلك

كله كان يصدّق سيده، في أعماق روحه، ويؤمن به؛ ويؤمن بدولثنيا دل توبوسو، بل إن الأمر انتهى به إلى الإيمان بأنها مسحورة كما سترى. إيمانك هذا يا سانتشو هو الإيمان، وليس إيمان أولئك الذين يزعمون الإيمان بعقيدة وهم لا يفهمون حتى معناها المباشر، وربما دون أن يعرفوها. إيمانك هو الإيمان، وليس إيمان الفحام الذي يؤكد على حقيقية ما يقوله كتاب لم يقرأه لأنه لا يعرف القراءة ولا يعرف كذلك ما يقوله الكتاب. لقد كنت تفهم سيدك جيداً يا سانتشو، لأن كل أقواله لك كانت واضحة ومفهومة جداً، وكنتَ ترى مع ذلك أن عينيك تُظهران لكَ أشياء أخرى وكنت تشك أن سيدك يهذي لأنه مجنون وتشك فيما كنت تراه، وعلى الرغم من ذلك كنت مؤمناً به بدليل أنك تتبع خطاه. وبينما كان عقلك يقول لا، كان قلبك يقول لك نعم، وكانت إرادتك تحملك ضد معرفتك ولمصلحة إيمانك.

وفي هذا الصراع بين القلب والرأس، بين الشعور والذكاء، وبين قول ذاك نعم، بينما هذا يقول لا. في هذا القول بلا ونعم وليس في اتفاقهما يتلخص الإيمان الخصيب والمنقذ للسانشويين على الأقل. وهو منقذ حتى للكيخوتيين، لأننا سنرى دون كيخوته نفسه يتشكك. ولا يظل لدينا شك في أن دون كيخوته رأى بعيني جسده الطواحين على أنها طواحين والنزل على أنه نزل، وأنه هناك، في أعماق نفسه، كان يعترف بواقعية العالم الظاهر ـ وإن كان واقعاً ظاهرياً أيضاً ـ الذي يضع فيه عالم إيمانه الجوهري. ودليل جيد على ذلك في حديثه الرائع مع سانتشو عند عودة هذا إلى سييرا مورينا لإطلاعه على أمر زيارته لدولثنيا. ومن عادة المجنون أن يكون مهرجاً عميقاً، يأخذ المهزلة على محمل الجد، ولكنه لا يُخدع، وبينما هو يؤدي دور الإله أو الملك أو البهيمة، يعرف جيداً أنه ليس إلهاً ولا ملكاً ولا بهيمة. أوليس مجنوناً كل من يحمل العالم على محمل الجد؟ ألا يجب أن نكون جميعنا مجانين؟

ونصل الآن إلى اللحظة بالغة الحزن في مسيرة دون كيخوته: نصل إلى هزيمة ألونسو كيخانو الطيب فيه.

twitter @baghdad_library

لقد حدث إذاً عند عودة سانتشو إلى سيده أن خرجت ثلاث فلاحات من توبوسو يركبن ثلاثة حمير أو أتانات، فقدمهن لدون كيخوته على أنهن دولثنيا واثنتان من وصيفاتها، وأنها جاءت لرؤيته. «فليتقدس الرب! ما الذي تقوله يا صديقي سانتشو؟ ـ قال دون كيخوته ـ... إياك أن تخدعني، ولا تحاول أن تبهج أحزاني بسعادة زائفة». فأجابه سانتشو: «وما الذي أفيده من خداع سيادتك؟». وخرجا إلى الطريق، ولم ير فيه دون كيخوته سوى الفلاحات الثلاث، فأصر سانتشو على أنها دولثنيا ووصيفتاها، فلجأ السيد إلى حواسه، خلافاً لعادته، متبادلاً الأدوار ولو ظاهرياً.

خطوة تحول دولثنيا بفعل السحر هي خطوة كئيبة جداً. وقد أدى سانتشو مهزلته بإمساكه رسن أتان إحدى الفلاحات الثلاث، والركوع على ركبتيه وتوجيهه إليها تلك التحية التي حفظها لنا التاريخ. وفي أثناء ذلك كان دون كيخوته ينظر بعينين زائغتين ونظرة مشوشة إلى تلك التي يدعوها سانشو ملكة وسيدة، وانتظر هو، دون كيخوته، أن يرى فيها دولثنيا، وفي أعماقه كان ألونسو كيخانو يأمل أن يرى فيها ألدونثا لورنثو التي ظل يتنهد بصمت طيلة اثني عشر عاماً بعد تمتعه برؤيتها أربع مرات فقط. لقد جثا دون كيخوته ورواح «يتطلع بعينين زائغتين ونظرة مشوشة إلى تلك التي سمّاها سانتشو ملكة وسيدة»، دون أن يكتشف فيها «غير بنت قروية وغير مليحة، لأنها منتفخة الوجه، فطساء الأنف». فانظر أيها الفارس، إن تابعك سانتشو، هذا البشرية الذي يرافقك ويرشدك، يقدم لك المجد التي طالما تنهدت من أجلها، فلا ترى فيها سوى فتاة قروية وغير مليحة الوجه.

غير أن الخطوة أشد إيلاماً، لأنه إذا كان دون كيخوته لا يرى دولثنيا، فإن المسكين ألونسو كيخانو الطيب لا يرى ألدونثا أيضاً. اثنا عشر عاماً من المعاناة وحيداً، اثنا عشر عاماً لم يستطع خلالها من التغلب على خجله السامي، اثنا عشر عاماً من انتظار المستحيل، ولأنه مستحيل كان ينتظر بضراوة أكبر، ينتظرها هي، ألدونثا، حبيبته ألدونثا، أن تنتبه بمعجزة غير مسبوقة إلى حب ألونسو لها

وتذهب إليه. اثنا عشر عاماً من الحلم بالمستحيل محاولاً أن يُسكت الحب كلي القدرة ويكتمه بقراءة كتب الفروسية، والآن، بعد أن أصبح بفضل الله مجنوناً، وانكسر حاجز الخجل، يتحقق المستحيل ويمضي لتلقي المكافأة على جنونه، الآن... الآن هذا! كم هو الجنون مقدس، كم هو عذب، كم هو مُخَلِّص! لقد جن ألونسو كيخانو، بفضل الرب الذي يشفق على الطيبين، فكسر قشرة الخجل الرهيبة تلك التي كانت تقيد النبيل الريفي، وتجرأ على الكتابة إلى حبيبته ألدونثا، وإن كان تحت ستار دولثنيا. والآن، وكمكافأة، تأتي ألدونثا نفسها من توبوسو للقائه. لقد تحقق المستحيل بفضل جنونه. بعد انقضاء اثني عشر عاماً!

آه للحظة السامية بعد التنهد زمناً طويلاً! «فليتقدس الرب! ما الذي تقوله يا صديقي سانتشو؟». الآن، الآن سيفتدي جنونه، سيغسله بسيل دموع الفرح، الآن سينال المكافأة على أمله بالمستحيل! أواه، وكم من ظلمات الجنون ستنقشع أمام نظرة حب واحدة!

«لا تحاول أن تبهج أحزاني بسعادة زائفة». فلنفكر في هذا القول عن إبهاج أحزان دون كيخوته، أحزان اثني عشر عاماً، أحزان جنونه. ماذا إذاً، أتظنون أن ألونسو الطيب لم يكن مدركاً أنه مجنون، وأنه لم يكن يتقبل جنونه كعلاج وحيد لحبه، كهدية من الرحمة الإلهية؟ وحين تبين أن جنونه يثمر، اضطرب قلب النبيل، وأمر لسانتشو، هدية بشارة عن تلك الأخبار غير المتوقعة، أفضل ما سيغنمه في أول مغامرة يقوم بها، «وإذا لم يكفك هذا، أضف إليه الأمهار التي ستلدها هذا العام أفراسي الثلاث التي هي، كما تعلم، على وشك وضع الأمهار في مرعى قريتنا المشترك». يعرض عليه دون كيخوته أولاً من ثروة الفارس الجوال، غنائم المغامرة الأولى، مكافأة له على إخباره بمجيء دولثنيا، غير أن ألونسو كيخانو، وقد ملأت البهجة قلبه لأن ألدونثا آتية لرؤيته، يعرض عليه هذا النبيل شيئاً من ثروته، ليس غنائم مغامرة، وإنما أمهار أفراسه الثلاث. ألا ترون هنا كيف أن الحب يُبرز الجنون الكيخانويّ على سطح الجنون الكيخوتي؟

لقد أثمر جنونك أيها الفارس الطيب، فبفضله تأتي ألدونثا لتراك مستنتجة

twitter @baghdad_library

من فرط هذيانك مقدار ما يجب أن تكون عليه عظمة حبك. وعلى الفور جاءت الضربة الرهيبة، والضربة التي أغرقت المسكين ألونسو الطيب في جنونه حتى موته. الآن، الآن يتقرر مصير ألونسو. كان ينتظر ألدونثا، ولم يكن توقد آماله يسمح له بالشك، كما توضح ذلك عبادته الصامتة طيلة اثني عشر عاماً، وبينما هو جاث على ركبتيه «راح يتطلع بعينين زائغتين ونظرة مشوشة إلى تلك التي سمّاها سانتشو ملكةً وسيدة، ولما لم يكتشف فيها سوى بنت قروية وغير مليحة، لأنها منتفخة الوجه، فطساء الأنف، أصابه الذهول والعجب دون أن يجرؤ على فتح فمه». حتى الجنون لم ينفعك أيها الفارس الطيب! فحين صرت على وشك تقاضي الثمن، بعد اثني عشر عاماً، صفعك الواقع الفظ في وجهك. أليس الأمر هكذا في كل الغراميات يا ترى؟

ولكن لا تتضايق يا صديقي دون كيخوته، وواصل بجنونك المتوحد. لا تتضايق من عدم وصولك إلى التورط في السعادة؛ لا تتضايق من عدم نذر نفسك للسعادة؛ لا تتضايق لعدم تمكنك من ملء تلهفك طيلة اثني عشر عاماً لأحضان حبيبتك ألدونثا.

«وأنتِ يا أعظم كمال يمكن التطلع إليه، يا غاية اللطف الإنساني، أنتِ الدواء الوحيد لهذا القلب الحزين الذي يعبدك، ومادام ساحر خبيث يطاردني، ويغشي على عيني بغشاوة وغيوم، حتى حوّل جمالك منقطع النظير، في عيني وحدهما وليس عيون الآخرين، إلى فلاحة فقيرة، إذا لم يكن قد حوّل ملامحي إلى مسخ مخيف ليجعله كريهاً في نظرك، فلا تمتنعي عن النظر إليّ برقة وحب، لعلك ترين، في خضوعي وركوعي أمام جمالك المشوه، التذلل الذي تعبدك به روحي». ألا تشعرون برغبة في البكاء وأنتم تسمعون هذا التوسل النائح؟ ألا تسمعون كيف ترن في أعماقها، تحت بلاغة دون كيخوته الفروسية، حسرة ألونسو الطيب اللامتناهية، تلك الحسرة المؤثرة التي لم يصدر مثلها قط عن قلب رجل؟ ألا تسمعون فيها الصوت المشؤوم والأبدي لخيبة الأمل الإنسانية الأبدية؟ لأول مرة، لآخر مرة، للمرة الوحيدة يتحدث دون كيخوته عن

وجهه، عن وجه ألونسو الذي كان يلتهب بحمرة الخجل حين يفكر في ألدونثا... «التذلل الذي تعبدك به روحي...» تذلل اثني عشر عاماً، تذلل تغذى في ليال وحدة طويلة وآمال عبثية، تذللٌ مغذى بأشد أشكال الخوف والانطواء على الذات التي لم يُعرف لها مثيل. عظمة حبه حوّلته إلى متذلل، ولم يجرؤ قط على التوجه إليها كلمة واحدة.

واصلوا، يا قرائي، قراءة قصة ذلك اللقاء، واستخلصوا منه بأنفسكم ما فيه من عصارة. أما أنا فيحزنني كثيراً أن حرماني من التخيل يحول دون إعادة صياغتها، ولهذا سأنتقل إلى أمر آخر. اقرؤوا أنتم الجواب الفظ الذي ردّت به الفتاة على دون كيخوته، وكيف ألقت بها حمارتها على الأرض، وكيف هرع دون كيخوته لإنهاضها، وهو الأمر الذي أعفته منه حين اعتلت ظهر الأتان بوثبة واحدة وانبعثت منها رائحة ثوم نيئ أدارت رأسه وسممت روحه. ليس بالإمكان قراءة ذلك العذاب الذي عرفه ألونسو المسكين دون الإحساس بالغم.

الفصل الحادي عشر
[وفيه المغامرة الغريبة التي جرت للفارس الشجاع دون كيخوته مع عربة موكب الموت]

جدد السيد والتابع مسيرهما، وكان سانتشو الماكر يسخر من سذاجة سيده. وكان عندئذ أن التقيا بعربة الموت أو فرقة انجولو السيئ التي رأى فيها دون كيخوته المغموم والمحزون مما جرى له، ما هي عليه حقاً. وكان عندئذ أيضاً أن أجفل روثينانته، بسبب ضجة جلاجل المهرج، وألقى بفارسه أرضاً مع كل ما تلا ذلك. ولأن الفارس أراد أن يعاقب أولئك المهرجين، وانتظره هؤلاء مصطفين ومسلحين بالحجارة، أقنع سانتشو سيده، وهو رجل عاقل وواع في نهاية المطاف، بأنه لا ينبغي له التدخل مع مثل ذلك الجيش، لأنه لا وجود

twitter @baghdad_library

لفارس جوال واحد بين جميع من هم هناك، وإن بدا بعضهم بمظهر الملوك والأمراء والأباطرة. وهكذا تخلى دون كيخوته عما كان قد صمم عليه. وحين رأى أن سانتشو، بدوره، لا يريد الانتقام منهم، قال له: «مادام هذا هو عزمك يا سانتشو الطيب، يا سانتشو العاقل، يا سانتشو المتحفظ، يا سانتشو المسيحي، يا سانتشو الصريح، فلنترك هذه الأشباح ولننصرف بحثاً عن مغامرات أفضل».

تبدو مغامرة عربة الموت واحدة من أكثر مغامرات نبيلنا بطولية، إذ يثبت لنا فيها انتصاره على نفسه بتعقله. أكان يثقل على قلبه السحر الذي حلّ بسيدته! ما العالم إلا مسرحية، ومن الجنون الكبير الرغبة في القتال ضد أناس ليسوا ما يبدون عليه، وإنما هم مجرد مهرجين بائسين يمثلون أدوارهم ويكاد لا يوجد بينهم فارس جوال واحد. أمر مستجد مفاجئ على مسرح العالم رؤية دخول فارس حقيقي، فارس من أولئك الذين يقتلون ويقدمون بجد مشهد التحدي بينما الآخرون يفعلون ذلك لأداء دورهم لا أكثر. ذاك هو البطل. والبطل ينتظره المهرجون جميعهم مصطفين ومسلحين بالحجارة. دعوا إذاً المهرجين جانباً وتذكروا الحكم الذي نطق به سانتشو: «لم يحدث قط أن كانت صولجانات أباطرة التمثيل وتيجانهم من الذهب الخالص، وإنما هي من الورق أو الصفيح المذهب.» تذكروه، وضعوا في الاعتبار أن اعتقاد أولئك الذين يمثلون دور المعلمين على مسرح الدنيا، ويتقاضون أجرهم عليه، إنما هم اعتقاد من ورق وصفيح مذهب.

الفصل الثاني عشر
[وفيه المغامرة الغريبة التي خاضها الباسل دون كيخوته مع فارس المرايا الشجاع]

وبينما هما يتبادلان الحديث حول ما هي مسرحية العالم، ظل السيد والتابع تحت أشجار سامقة وارفة الظلال إلى أن قطع عليهما نومهما مجيء فارس المرايا.

وعندئذ دار حديث بين تابعي الفارسين من جهة، وبين الفارسين من جهة أخرى، وحين صرح سانشو أنه يمكن لطفل أن يجعل سيده يعتقد أن الوقت ليل حين يكون في منتصف النهار، وأنه يحب سذاجته تلك كحبه لشغاف قلبه، وأنه لن يفارقه مهما تعاظم ما يرتكبه من حماقات. وهنا يتضح لنا سبب الحب الذي يكنه سانتشو لسيده، ولكن ليس الإعجاب.

ما الذي تظنه إذاً يا سانتشو؟ فالبطل هو في أعماقه طفل على الدوام، قلبه قلب طفل دائماً. والبطل ليس سوى طفل كبير. وفارسك دون كيخوته لم يكن سوى طفل، كان طفلاً طيلة اثني عشر عاماً مديدة لم يتمكن خلالها من كسر الخجل الذي كان يقيده، وكان طفلاً حين استغرق في كتب الفروسية، وكان طفلاً حين انطلق بحثاً عن المغامرات. وعسى أن يُبقينا الرب أطفالاً على الدوام أيها الصديق سانتشو.

الفصلان الثالث عشر والرابع عشر
[وفيه تتواصل مغامرة فارس الغابة، والحديث الرصين الجديد واللطيف بين تابعي الفارسين]

بينما التابعان يتحدثان، كان الفارسان أيضاً يتبادلان الحديث معاً، ومن ذلك الحديث، ومن تأكيد فارس المرايا أنه انتصر على دون كيخوته، برز اتفاقهما على أن يتبارزا، بشرط أن ينصاع المهزوم لمشيئة الظافر. وهكذا جرت المبارزة مع طلوع النهار، فأسقط دون كيخوته فارس المرايا الذي لم يكن إلا المجاز شمشوم كاراسكو، جاء لإعادة النبيل إلى منزله، فعاد هو نفسه كسير الجناح.

وحين فتح دون كيخوته كوة الخوذة ورأى أن خصمه هو المجاز، عزا الأمر إلى السحر، لكن سانشو الذي كان قد تسلق شجرة ليشاهد المبارزة، طلب من

twitter @baghdad_library

سيده أن يغرس سيفه في فم من بدا له أنه المجاز شمشوم كاراسكو. آه يا سانتشو، كم تتوافق قسوتك الآن مع جبانتك السابقة!

وأخيراً استعاد المجاز وعيه، واعترف بتفوق دولثنيا دل توبوسو في الجمال على كاسيلدا دي باندالیا، وتعهد بأن يذهب ليمثل أمامها. «أعترفُ بكل شيء، وأحكم وأشعر بما تحكم به وتشعر به أنت» ـ هكذا كان ردّ الفارس المهزوم، الساخر الذي صار محط سخرية، المجاز المغلوب ـ. وهكذا، حتى لو ساءهم ذلك، يجب على المجازين أن يعترفوا بحقيقة ما يرى النبلاء أنه الحقيقة. وهكذا يتحول الساخرون إلى محط للسخرية، وهكذا ينبغي للحس السليم أن يتمرغ على الأرض أمام رمح البطولة. فما العمل إذاً سوى التظاهر بالجنون لإعادة المجانين الحقيقيين إلى التعقل؟

الفصل الخامس عشر

[وفيه يُوضح من هو فارس المرايا وتابعه]

في هذا الفصل من القصة يُروى لنا كيف أن فارس المرايا لم يكن سوى شمشوم كاراسكو المجاز من سلمنكا الذي وضع تلك الخطة بالاتفاق مع الكاهن والحلاق لإجبار دون كيخوته على التزام بيته.

وأقسم كاراسكو الخبيث على الانتقام من دون كيخوته وتحطيم أضلاعه بالهراوة، وهذا جنون أشد شططاً وحقيقية بألف مرة من جنون النبيل؛ فهو في نهاية المطاف جنون أهواء رجل عاقل، وهذا أسوأ أنواع الجنون كلها وأشدها ضرراً. فالمجنون «رغم أنفه سيظل كذلك إلى الأبد، أما المجنون الذي يتصنع الجنون فسيتوقف عن الجنون حينما يشاء»، قال المجاز.

ولكن تعال هنا أيها المجاز من جامعة سلمنكا، تعال وقل لي، ما هو الهذيان الأسوأ، أذاك الذي يخرج من الرأس أم الذي ينبثق من القلب، أهو داء التخيل

أم داء الرغبة؟ ومن يتصنع الجنون للمتعة أو بإرادته، هو المصاب بمرض أو انحراف في إرادته، وعلاج هذا أسوأ من علاج أمراض الفهم. ومن هم، مثل سيادتك، لديهم فهم مكتظ بالحكمة والدهاء، وقد أترعوه فوق ذلك بعبارات مدرسية مبتذلة في قاعات جامعة سلمنكا، اعتادوا أن يكونوا ذوي إرادة مجنونة سيئة الأهواء، من حقد وتكبر وحسد. وإلا ما هو السبب في ذهاب شمشوم كاراسكو للقتال ضد دون كيخوته.

«هل أنا عدوه؟ وهل فعلتُ شيئاً في حياتي يتسبب في نزاع معه؟ وهل أنا منافس له أم أنه احترف مهنة السلاح حسداً على ما نلته بسلاحي من الشهرة؟» ـ هذا ما كان يقوله دون كيخوته ـ. أجل، أيها الفارس الكريم، أجل، لقد كنت ومازلت عدواً له، مثلما هو كل نبيل وكريم عدو لكل مجاز خبيث وروتيني. لقد منحته فرصة الحقد عليك لأنك أحرزت بمآثرك الجنونية شهرة لم يبلغها هو قط بدراسته العاقلة وإجازته في سلمنكا، وقد كان منافسك ويكن لك الحسد. وبالرغم من أنه صرّح، وربما كان مؤمناً بما قاله، بأنه خرج إلى الميدان رغبة منه في إعادتك إلى التعقل، إلا أن ما دفعه في الحقيقة، وربما دون وعي منه، هو الرغبة في أن يربط اسمه باسمك، وأن تصير شهرته معك على كل لسان، وهو ما توصل إليه.

ألا يكون أنه يسعى إلى أن يصل إلى سمع تلك الأندلسية كاسيلدا التي أمضى معها ليالي السهر وراء الحواجز، هناك في شوارع سلمنكا، والتي حوّلتها مأثرته البطولية وجنونه إلى كاسيلدا دي بانداليا؟ ألم يكن قد سمع كاسيلدا تتحدث عنك بإعجاب، وأنها قرأت القسم الأول من تاريخك؟ كل شيء ممكن.

ولكنك انتصرت عليه، كي يرى أن الجنون الكريم يمنح جسارة وبهاء أكبر مما يمنحه التعقل الرعديد والماكر، وبخاصة كي يدرك مجاز سلمنكا الطيب أن quod natura non dat, Salmantica non praestat (ما لا تمنحه الطبيعة، لا تقدمه سلمنكا)، هي حقيقة قديمة على الرغم من شعار المدرسة القديمة المتعجرف الذي يقول: Omnium scientiarum princes, Salmantica docet (فنون الأمراء كلها، تُعَلِّمُها سلمنكا).

twitter @baghdad_library

الفصلان السادس عشر والسابع عشر
[وفيه ما وقع لدون كيخوته مع فارس فطن من المانشا، وحيث يُذكر عن أقصى نقطة بلغتها حماسة دون كيخوته، والنهاية السعيدة لمغامرة الأسود]

مع انتهاء هذه الواقعة، التقى دون كيخوته مع دون دييغو دي ميرندا شديد الرصانة، وبينما هما معاً التقيا بعربة الأسود. وحينئذ وقعت المغامرة العجيبة التي لم تُقَدَّر جيداً قطّ، حيث صاح دون كيخوته صيحته الخالدة: «أإليَّ أنا تُرسل أسود صغيرة؟ إليّ أنا في مثل هذا الوقت؟ والله لأجعلن هؤلاء السادة الذين أرسلوها يعرفون إن كنتُ رجلاً تخيفه الأسود!». فحاول دون دييغو دي ميرندا إقناعه بأن الأسود ليست آتية ضده، فازداد غضب دون كيخوتي لأنه يعرف إن كانت تلك الأسود قد جاءت ضده أم لا، وهدد مروض الأسود إذا هو لم يفتح القفص. فطلب المروض منه أن يسمح له بأن يحل البغال ويبتعد بها عن الخطر، و«أيها الرجل قليل الإيمان! ـ أجابه دون كيخوته ـ ترجل، وحل بغالك وافعل ما تشاء».

يا للمأثرة الرائعة! لم تُعرف مثل هذه الشجاعة قط لدى دون كيخوته، شجاعة خالصة، شجاعة لا سبب ولا هدف لها، شجاعة مركزة! ألا يكون ممكناً أنه بينما كان دون كيخوته يبدي شجاعته على ذلك النحو، كان من ورائه المسكين ألونسو الطيب، المثقل بخيبة الأمل التي عانى منها حين لم يلتق ألدونثا التي تنهد طويلاً من أجلها، يسعى إلى الموت بين براثن الأسد وفكيه مِيتة ليست مؤلمة بقدر الألم الذي يسببه له حبه التعيس؟

لم تُفد شيئاً التوسلات والحجج، غير أن دون كيخوته ترجل عن حصانه «خوفاً من أن يفزع روثينانته من رؤية الأسود...، وألقى برمحه جانباً، واخذ ترسه، واستل سيفه، وتقدم خطوات بقدم ثابتة وقلب شجاع، ووقف أمام العربة متوكلاً من أعماق قلبه على الله أولاً؛ ثم على سيدته دولثنيا». وقد

انتزعت هذه الجرأة الفريدة عبارات إعجاب وتقدير من مؤرخ هذا التاريخ نفسه. وعند فتح القفص «كانت أول حركة أبداها الأسد هي أن تمرغ في قفصه، ومدّ مخالبه وتمطى بكل جسمه، ثم فتح شدقه وتثاءب ببطء شديد، وبلسانه الذي بطول شبرين، مسح عينيه وغسل وجهه كله، ثم أخرج رأسه من القفص، وتلفت في كل الاتجاهات بعينين كالجمر، وبهيئة تبعث الخوف في الخوف نفسه. وكان دون كيخوته وحده ينظر إليه بانتباه، متمنياً أن يقفز من العربة ويأتي إليه، واثقاً من أنه سيمزق ذلك الأسد إرباً»، وفي أثناء ذلك، ربما كان المسكين ألونسو الطيب يأمل أن تنتهي معاناة قلبه البائس الجريح بين براثن الوحش، وأن تتلاشى معه صورة ألدونثا تلك التي ظل يتنهد من أجلها اثني عشر عاماً. «ولكن الأسد الكريم كان مؤدباً أكثر منه متعجرفاً، ولم يعر اهتماماً لتلك الجرأة الصبيانية، وبعد أن تطلع في كل الاتجاهات، كما قلنا، استدار وأبان مؤخرته لدون كيخوته، وعاد إلى التمدد في القفص برزانة ودون مبالاة».

آه يا سيدي حامد بن إينخيلي اللعين، أو أياً يكن من كتب هذه المأثرة، كم كان بائساً فهمك لها، ولا يبدو إلا أن الحاسد شمشوم كاراسكو كان يهمس في أذنك وأنت ترويها. لا، لم يكن الأمر على هذا النحو، وإن ما حدث هو أن الأسد ارتعب أو خجل على الأصح حين رأى شراسة فارسنا، ذلك أن الرب يتيح للوحوش أن تشعر أكثر من البشر بحضور قوة الإيمان الراسخة. أو... ألا يمكن أن الأسد كان يحلم في تلك اللحظة بلبؤته المستلقية، هناك على رمال الصحراء، تحت شجرة نخيل، ورأى ألدونثا لورنثو في قلب الفارس؟ ألا يكون حب الوحش هو الذي جعله يفهم حب الإنسان ويحترمه ويخجل أمامه؟

لا، لا يمكن للأسد ولا ينبغي له أن يسخر من دون كيخوته، لأنه ليس إنساناً، وإنما هو أسد، والضواري الطبيعة لا تسخر أبداً لأن إرادتها لم تشوه بأي خطيئة أصلية. والحيوانات جدية تماماً وصريحة تماماً، لا مجال لديها للمكر ولا للخبث. فالحيوانات لا تحمل إجازات من جامعة سلمنكا ولا من أي مكان آخر، لأنها تكتفي بما منحته لها الطبيعة.

twitter @baghdad_library

ما حدث للأسد، حبيس القفص آنذاك، مثلما كان دون كيخوته في أحد الأوقات، هو أنه أحس بالخجل حين رأى الفارس، وكون الأمر كذلك يؤكده لنا ما حدث في مناسبة أخرى، قبل قرون من ذلك، حين كان هناك أسد آخر أصابه الخجل أمام فارس صاحب مآثر آخر. السيد رويث دياث دي بيبار، كما تخبرنا أنشودته القديمة (قصيدة **السيد**، الأبيات 2278 حتى 2301). إذ تقول إنه بينما كان السيد في فالنسيا ومعه كل أتباعه وأصهاره أمراء كاريون، وكان السيد المتحول نائماً على مقعد، أفلت الأسد من الشباك وخرج زارعاً الرعب في البلاط. فاستيقظ الرجل السعيد الولادة، وحين رأى ما يحدث

أزاح السيد الغطاء، وهب واقفاً؛
رفع عباءته إلى الرقبة واقترب من الأسد؛
وحين رآه الأسد هكذا، أصابه الخجل؛
فأحنى أمام السيد الرأس أولاً ثم أدار وجهه.
فأمسك به السيد دون رودريغو من رقبته،
وحمله ببراعة، وأدخله في الشبكة.
(الأبيات 2296 ـ 2301)

هكذا أيضاً أمام دون كيخوته، السيد المتحول الجديد، أصاب الخجل الأسد، وربما يكون أحد أسدي شعارنا الحربي اليوم، وثانيهما هو ذاك الذي أصابه الخجل أمام السيد.

ومع ذلك أصرَّ دون كيخوته على استثارة الأسد، ولكن مروض الأسود أقنعه بأنه عليه عدم فعل ذلك، عندئذ تلفظ الفارس بتلك الكلمات عميقة المغزى: «يمكن للسحرة أن ينتزعوا مني حسن الطالع، ولكن انتزاع القدرة والشجاعة مستحيل». وما الذي يحتاجه المرء أكثر من ذلك؟

ولا يأتني الآن من يقول إنني ابتعدتُ عن نص المؤرخ شديد الدقة، لأنه لابد من الفهم جيداً أنه لا يمكن لأحدنا الابتعاد عنه دون أن يتعرض لمجازفة

بالغة وحتى لخطر في ضميره، ولكننا نتمتع بالمقابل بحرية تفسيره وتأويله مثلما نشاء ونهوى. وفي ما يتعلق بالأحداث، وبغض النظر عن أخطاء الناسخ الجلية ـ وجميعها قابلة للتصحيح ـ فلا سبيل سوى التقيّد بالسلطة المنزهة للنص الثربانتسي. وبهذا يجب علينا أن نؤمن ونعترف بأن الأسد أدار ظهره لدون كيخوته ثم عاد ليتمدد في القفص. ولكن أن يكون قد أقدم على ذلك تأدباً ورزانة ولأنه رأى تصرفات دون كيخوته صبيانية وتبجحاً، وأنه لم يفعل ذلك خجلاً من شجاعته، أو مجاملة لحبه التعيس، فذلك مجرد تفسير حر من المؤرخ، ولا قيمة له إلا كرأي شخصي ومحض إنساني من المؤرخ نفسه. ويحدث هنا مثلما جرى في تعليقه على الخطاب الموجه إلى المعّازين، ووصفه بأنه «منطق غير مجدٍ» وأنه ليس سوى تأويل بائس أُدخل على النص.

أُقَدّم هذه التقديرات المسبقة لأنني لا أريد، وعليّ أن أكرر ذلك مرة أخرى، أن يُخلط بيني وبين الفئة المؤذية والوبائية من الرجال المكللين بالشيب والمحشوين بعلوم تاريخية خاوية، ويتجرؤون على التأكيد أنه لم يكن ثمة وجود في العالم للمدعوين دون كيخوته وسانتشو، وتأكيدات فظيعة أخرى مشابهة، ليحملهم اندفاعهم المفرط إلى نيل شهرة بإلحاحهم على مستجدات وغرائب فريدة. وانظروا هنا كيف أن الحافز النبيل نفسه الذي حرك دون كيخوته لتحقيق مآثره ينال بها شيوع الاسم والشهرة، هو الذي يحرك آخرين لإنكار تلك المآثر. يا للإنسان من هوة متناقضات.

وبالعودة إلى قصتنا، علينا أن نضيف أنه بعد خجل الأسد، وبعد أن أوضح دون كيخوته لدون دييغو دي ميراندا جنونه الظاهري في تلك المأثرة، كشف مرة أخرى عن جذوره بإعلانه أنه يمضي بحثاً عن تلك المغامرات الخطرة «لا لهدف أخر سوى الظفر بالشهرة المجيدة والدائمة»، وشرح بأدلة شديدة الوعي كيف ينبغي للفارس أن يتهور ـ فقد اعترف بأن واقعة الأسد هي «منتهى التهور» ـ لأن «المتهور يمكنه أن يحصر نفسه في حدود الشجاعة الحقيقية على نحو أسهل من الجبان الرعديد الذي يبلغها... وأن يهلك المرء من أجل الكثير أفضل من هلاكه

twitter @baghdad_library

من أجل القليل». يا للحجج بالغة الصواب وشديدة الحكمة التي يبرر بها الفارس كل إفراط في الزهد أو البطولة.

من المناسب أيضاً أن نقف هنا لنقدّر كيف أن مغامرة الأسد هذه كانت مغامرة، من جهة دون كيخوته، امتثال ناجز وإيمان عميق. فعندما التقى الفارس في إحدى مصادفات الدروب بذلك الأسد، إنما حدث ذلك، دون أدنى شك، لأن الرب أرسله إليه؛ وقد جعله إيمانه القوي يقول إنه يعلم إذا كان أولئك السادة الأسود قد جاؤوا من أجله أم لا. وبمجرد رؤيته لها أدرك إرادة الرب في ذلك، وامتثل طائعاً وفق الطريقة الثالثة والأكثر كمالاً في الطاعة، بحسب إغناثيو دي لويولا ـ انظر الإعلان الرابع الذي أملاه في هذا الشأن، كما ذكره الأب ريبادينيرا في الفصل الرابع من الكتاب الخامس من كتابه **حياة** ــ وهو: «عندما أقوم بهذا العمل أو ذاك بإشارة من الأعلى، حتى لو لم يأمرني به». وهكذا فإن دون كيخوته حين رأى الأسد، أحس بإشارة الرب، فاندفع بلا حذر، لأنه كما قال لويولا نفسه ـ انظر الفصل السابق نفسه ـ: «الحذر غير مطلوب بكثرة ممن يمتثل وينفذ ما يؤمر به». وقد أراد الرب، بلا ريب، أن يختبر إيمان دون كيخوته وامتثاله كما اختير إيمان إبراهيم حين أمره بأن يصعد إلى جبل موريا ليضحي بابنه. (سفر التكوين، الإصحاح 22).

الفصول من الثامن عشر حتى الثالث والعشرين
[وفيها ما وقع لدون كيخوته في بيت فارس الرداء الأخضر، ومغامرة الراعي العاشق، وعرس كماتشو، وفي الفصلين الأخيرين تُروى مغامرة كهف مونتيسينوس في قلب المنتشا، والأشياء العجيبة التي روى دون كيخوته أنه رآها فيه]

وصلوا إلى بيت دون دييغو، وهناك تعرف دون كيخوته إلى ابنة المدعو دون

لورينثو، وحين سمعه ينكر أن يكون قد وُجد فرسان جوالة لم يحاول إخراجه من خطئه، وإنما قرر التضرع إلى السماء كي تُخرجه هي منه. آه يا فارسي المسكين، ويا للحال التي خلفك فيها ما أصاب دولثنيا من السحر!

وبعد ذلك وقعت أحداث عرس كماتشو، ولم يكن فيها ما يمكن روايته، ثم توجه دون كيخوته إلى كهف مونتيسينوس في قلب المنتشا.

وقبل أن يهبط إلى الكهف «وجه إلى السماء صلاة بصوت خفيض، سائلاً الله أن يكون في عونه ويمنحه حسن الطالع في هذه المغامرة الجديدة والخطرة، ثم قال بصوت عالٍ: آه يا سيدة أفعالي وعواطفي الحسناء منقطعة النظير دولثنيا دل توبوسو، إذا كان من الممكن أن تصل إلى مسمعك دعوات وتوسلات عاشقك السعيد، فإنني أستحلفك بحق جمالك الفريد أن تصغي إليها، لأني لا أسألك إلا أن لا تكوني ضنينة عليّ بعطفك وحمايتك لأنني بأشد الحاجة إليهما». فانظر كيف وهو على وشك الدخول في مهمة غير مسبوقة، يتضرع إلى الرب أولاً ثم إلى دولثنيا بعد ذلك؛ يتوجه إلى الرب بصوت خفيض وإلى دولثنيا بصوت عالٍ. مع الرب أولاً، أجل، ولكن على انفراد، لأننا لا نحتاج إلى الصراخ كي يسمعنا، فهو يسمع حتى لهاث صمتنا، أما مع دولثنيا فنحن بحاجة لرفع الصوت والتضرع إليها بملء رئاتنا وأفواهنا بين البشر.

وتابع دون كيخوته القول: «إنني أهمُّ بأن ألقي بنفسي، بأن أضيع وأغوص في الهاوية التي أمامي، لا لشيء إلا من أجل أن يعرف العالم أنك إذا منحتني العون فلن يكون هناك مستحيل لا أقتحمه وأحققه». أحبوا دولثنيا ولن يكون ثمة مستحيل يستعصي عليكم. ها هي ذي الهاوية: إنها في داخله هو.

«وما إن قال ذلك حتى اقترب من فوهة الهوة، وأدرك أنه من غير الممكن النزول أو فتح مكان للدخول إلا بقوة الذراع أو ضربات السيف، وهكذا أمسك بسيفه وراح يقوض تلك الأشواك التي تسد مدخل المغارة ويجتثها، وبسبب ما أثاره من ضجة وصخب خرجت من هناك أسراب كبيرة من الغربان، وكانت كثيرة ومندفعة بحيث قلبت دون كيخوته على الأرض؛ ولو

twitter @baghdad_library

كان متطيراً بمقدار ما هو مسيحي كاثوليكي لرأى في ذلك نذير شؤم ولاعتذر عن الولوج في مثل ذلك المكان». فلنتوقف ونتأمله.

إذا ما سعيت إلى الغوص والتعمق في هوة تقاليد شعبك من أجل التقصي ونبش أعماقها، والتنقيب والحفر حتى بلوغ قاعها، فسوف تنقض على وجهك أسراب الغربان الضخمة التي تعشش في فوهتها وتتخذ من دغلها مخبأ لها. سيكون عليك بادئ ذي بدء أن تزيح وتجتث الأشواك الكثيفة التي تغطي الكهف المسحور، أو سيكون عليك، بعبارة أدق، أن ترفع الأنقاض من مدخله المسدود بالأنقاض. فما يُطلق عليه التقليديون تسمية تقاليد ليس إلا أنقاضاً ونفايات منها. والغربان الضخمة التي تحرس فوهة تلك الهوة المسحورة، وتقيم فيها مخابئها، لم تغص قط في أعماق الهوة ولم تسبر أغوارها، ثم تتجرأ، مع ذلك، على النعيب قائلة إنها تسكن في داخلها. التقاليد التي يدعون إليها ليست تقاليد حقيقية. يقولون إنهم صوت الشعب، ولا شيء فيهم من ذلك. وبصخب نعيبهم جعلوا الشعب يؤمن بما لا يؤمن به. فمن الضروري الغوص في أعماق الهاوية لإخراج الروح الحية لمعتقدات الشعب.

وقبل أن ينزل المرء ويغوص في أعماق هاوية معتقدات الشعب وتقاليده الحقيقية، وليس معتقدات وتقاليد فحام الإيمان، عليه أن يزيل ويجتث الأشواك التي تغطي مدخلها. عندما تفعلون ذلك سيقال لكم إنكم تريدون سدّ الكهف وإغلاقه على ساكنيه؛ وسيسمونكم أبناء عاقين وعديمي الحنان وكل ما يخطر لهم من الأسماء. فصموا آذانكم عن مثل ذلك النعيب.

وهناك، في الكهف، استمتع دون كيخوته برؤى تفوق أعظم ما استمتع آخرون برؤيته من روائع، دون أن تكون بنا حاجة لأن نكرر هنا أن من يظهر له ملاك في المنام، إنما يكون قد حلم بأن ملاكاً ظهر له. وأدعو القارئ لأن يعيد، في الفصل الثالث والعشرين من القسم الثاني، قراءة قصة رؤى دون كيخوته المذهلة، وليحكم، مثلما ينبغي الحكم، من خلال ما يتلقى من بهجة ومتعة في القراءة، وليقل لي بعد ذلك إن تلك المتعة لا تقل جدارة عن متع أخرى، لا

تقل عنها إدهاشاً، يقال إن الرب قدمها لعبيده الحالمين في كهف النشوة الربانية العميق المسحور. ولا نفع إلا في تصديق دون كيخوته، باعتباره رجلاً غير قادر على الكذب، وقد أكد أن كل ما رواه قد رآه بأم عينه ولمسه بيديه، وهذا يكفي ويزيد. لقد أراد سانتشو إنكار حقيقة تلك الرؤى، ولاسيما حين سمع سيده يقول إنه رأى دولثنيا مسحورة بهيئة الفتاة الفلاحة التي كان قد أراه إياها، ولكن دون كيخوته ردّ عليه بحكمة: «إنني أعرفك يا سانتشو، ولهذا لا أقيم أي وزن لكلماتك». ويجب علينا نحن أيضاً ألا نقيم وزناً لكلام السانتشيين عندما يتعلق الأمر بالمصادقة على الرؤى.

الفصل الرابع والعشرون

[وفيه تروى ترهات كثيرة، تافهة بقدر ما هي ضرورية، من أجل فهم حقيقي لهذا التاريخ العظيم]

عند الوصول إلى هذه الرؤيا يظن المؤرخ أنه مجبر على التشكيك بصحتها مظهراً بذلك ضعف إيمانه، بل إنه يصل إلى افتراض أن دون كيخوته نفسه، في لحظات موته، تنصل منها وقال إنه «اختلقها لأنه رأى أنها تتناسب وتتفق جيداً مع المغامرات التي في تاريخه». آه أيها المؤرخ الرعديد، وما أقل إدراكك للرؤى.

مما لا شك فيه أنك لم تقرأ ***حياة الطوباوي الأب اغناثيو دي لويولا***، لمؤلفه الأب بيدرو دي ريبادينيرا، والذي نُشر قبل عشرين عاماً من نشرك تاريخ دون كيخوته، وإذا كنت قد قرأته فإنك لم تمعن النظر في ما يقوله في الفصل السابع من الكتاب الأول، حيث يروي لنا رؤى فارس يسوع الجوال وكيف «تمثلت له الطريقة التي خلق بها الرب العالم» و«رأى الإنسانية المقدسة لفادينا يسوع المسيح، وكذلك للسيدة العذراء كلية المجد أحياناً» ورؤى عجيبة أخرى، منها رؤيا الشيطان الذي ظهر له مرات عديدة «ليس فقط في مانريسا وفي الدروب،

twitter @baghdad_library

وإنما كذلك في باريس وفي روما ؛ ولكن هيئته وشكله... مخيف جداً وقبيح ، فلم يهتم به ، وبالعكاز الذي في يده أبعده عنه بسهولة».

أما من ينكرون تلك الرؤى ويقولون إنها مستحيلة ، فإننا نقول عنهم ما قاله شديد الورع الأب ريبادينيرا ، بأنهم «على العموم رجال لم يعرفوا ، ولم يفهموا ، ولم يسمعوا ما يعنيه روح ، ولا لذة ، ولا ثمرة روحية... ، ولا يفكرون في أن هنالك وسائل لهو ، ولذة ، وتسلية ، اللهم إلا التي يبحثون عنها ليلاً ونهاراً ، في البر والبحر ، بكثير من الحذر والسعي من أجل إشباع شهواتهم. وهكذا ، لا ينبغي الاهتمام بهم». يا للكلمات الحصيفة التي لا بد أن يكون دون كيخوته قد عرفها وقرأها ، ولهذا ردّ على سانتشو : «إنني أعرفك يا سانتشو ، ولهذا لا أقيم أي وزن لكلماتك» !

وبقدر كبير من الصواب يستحضر الأب ريبادينيرا هنا ما قاله بولس الرسول (الرسالة الأولى إلى أهل كورنثوس ، الإصحاح الثاني) من أن البشر الطبيعين ليسوا من يحكمون على شؤون ورؤى الروحيين ، ويواسينا الأب الطيب بأن هنالك أيضاً «مسيحيين وعقلاء ، ومتعمقين في تواريخ وسير حياة القديسين» الذين ، وإن كانوا يفهمون في شؤون الرؤى ، «فإنه لا بد من العناية الفائقة ، لأنه قد يكون ثمة خداع ، وهو ما يحدث في أحيان كثيرة» ، وليس هذا سبباً كافياً لامتناعنا عن الثقة بهم. من الملائم أن يقرأ القارئ كافة الأسباب التي يوردها الأب الورع مؤرخ قصة إغناثيو دي لويولا ليقنعنا بصحة رؤى هذا الأخير ، لأن من حقق مثله أعمالاً عظيمة ، يمكن له أن يرى ما رآه ، و«بما أننا وافقنا بالضرورة على ما هو كثير ، فإننا نوافق على ما هو قليل ، وندرك أن كافة الصواعق والبروق التي نراها في أعماله التي أنجزها ، إنما خرجت من تلك الأنوار والزيارات الإلهية». وبالفعل ، كيف ننكر أن يكون دون كيخوته قد رأى ما رآه في كهف مونتيسينوس ، وهو الفارس الذي لا يمكنه أن يكذب ، والذي هاجم الطواحين ، واليانغوسيين ، ونظر شزراً إلى الساخرين منه في دفاعه عن مسألة الخوذة ، وهزم فارس المرايا ، وأخجل الأسد؟ فمن حقق هذه المآثر

وغيرها من البطولات التي لا تقل عنها إدهاشاً، يمكن له أن يرى في كهف مونتيسينوس كل ما يخطر له أن يراه فيه. وإذا كان قد رآه، ويجب ألا يخامرنا أدنى شك في ذلك، ما الذي نقوله عن واقعية رؤاه؟ إذا كانت الحياة حلماً، فلماذا علينا أن نصر على إنكار أن تكون الأحلام حياة؟ وكل ما هو حياة يكون حقيقة. وما نسميه واقعاً، هل هو أكثر من وهم يحملنا إلى الفعل وإنتاج الأفعال؟ والمفعول العملي هو المعيار الوحيد لحقيقة أي رؤيا.

الفصل الخامس والعشرون

[وفيه مغامرة النهيق ومغامرة مُحرك الدمى اللطيفة وتكهنات القرد المتنبئ]

ومن هناك تابعا طريقهما، وكان دون كيخوته يتأجج رغبة في معرفة سبب حمل رجل يتقدمهما السلاح، ولأن الرجل رفض إطلاعه على ما يريد قبل أن يقدم العلف لدابته، فقد ساعده دون كيخوته على ذلك بغربلة الشعير وتنظيف المعلف، وهذا مثال رائع في التواضع لا يُذكر عادة بما يستحقه. وهذه دون شك واحدة من أعظم مغامرات فارسنا: مغامرة غربلة الشعير وتنظيف المعلف، لا لشيء، كما يبدو، سوى الاستماع بأسرع ما يمكن على قصة ممتعة، قصة العمدتين النهاقين.

ولأنه من غير الملائم لنا الاعتقاد أن دون كيخوته، لمجرد سماع تلك القصة، تنازل للقيام بأعمال لا تليق بمهنته كفارس جوال، مما يفرض علينا، بصورة إجبارية، أن نفترض أنه فعل ذلك لممارسة تواضعه، وممارسته ببساطة وبإيجاد ذريعة يجنب بها إظهار عجرفة المتواضع. لم يفعل ذلك تواضعاً، ولم يتباهَ بالتواضع، وإنما فعله ببساطة وتلقائية، كمن يؤدي أشد الأعمال العادية والطبيعية في العالم، دون أن يولي أية أهمية لما فعل بتينك اليدين اللتين هاجمتا

twitter @baghdad_library

طواحين هواء، وأطلقتا سراح محكومين بالتجذيف، وهزمتا الباسكي وفارس المرايا، وانتظرتا، دون أن ترتجفا، خروج الأسد؛ بتينك اليدين نفسيهما غربل الشعير ونظف المعلف، مبرراً ذلك بهذه الكلمات بالغة البساطة: «عن طيب خاطر، وأنا سأساعدك في كل شيء».

لقد فعل ذلك ببساطة أكبر حتى من بساطة إغناثيو دي لويولا بعد تسلمه منصب الرئيس العام للفرقة التي أنشأها عندما «دخل المطبخ وخدم فيه لأيام طويلة كطاهٍ ومارس أعمالاً منزلية حقيرة أخرى»، لأن إغناثيو فعل ذلك بنية التعليم، «وكي يحث الجميع على الاقتداء بمثاله في الرغبة بتواضع الحقيقي» ــ كما يقول الأب ريبادينيرا، الكتاب الثالث، الفصل الثاني ــ، ولم تكن لدى دون كيخوته حتى هذه النية في تعليم آخرين، وإنما قام ببساطة وعادية بغربلة الشعير وتنظف المعلف كما لو كان ذلك هو عمله، ومثلما ينشر البنفسج عطره ويغرد العندليب. «عن طيب خاطر، وأنا سأساعدك في كل شيء».

«سأساعدك في كل شيء» هذا ما يقوله دون كيخوته لكل رجل بسيط وخال من أية نوايا أخرى.

ربما يتبدى في هذه المغامرة أكثر مما في أية مغامرة أخرى كيف كانت روح ألونسو كيخانو الذي أهلته فضائله لنيل لقب الطيب، الروح التي كانت تقود روح دون كيخوته، وكيف أنه في طيبة الإنسان يكمن جذر بطولة الفارس. آه، يا سيدي دون كيخوته، وكم تبدو لي عظيماً وأنت تغربل الشعير وتنظف المعلف بلا أية مباهاة، وكما لو كان هذا هو عملك! كشخص طيب لم يتفوق عليك أحد، كطيب ببساطة. ولهذا لك مذبح في قلوب جميع الطيبين الذين لا يركزون فيه النظر إلى جنونك وإنما إلى طيبتك. وأنت نفسك يا سيدي، عندما أردت امتداح تابعك، وصفته سريعاً وقبل كل شيء بسانتشو الطيب، ثم أضفت برزانةٍ وصفه بالمسيحي والوفي. وهذا ما يجب أن يكون عليه المرء في هذه الدنيا، يا سيدي، طيباً ببساطة، طيباً وحسب، طيباً بلا نعوت وبلا لاهوتيات، وبلا أية ملحقات، أن يكون طيباً ولا أكثر من طيب. وإذا كان هذا الأمر النبيل

يختلط بالبلاهة، فقد وصلت أنت بطيبتك إلى الجنون بين كثير من العقلاء الساخرين، أي الأشرار. لأن الخبث الإنساني لا يعرف من شيء بقدر ما يعرف من السخرية، والشيطان هو الساخر الأكبر، وإمبراطور جميع الساخرين وأبوهم. وإذا كان يمكن للابتسامة أن تكون مقدسة ومحرِرة، وطيبة في نهاية المطاف، فإنها ليست ابتسامة السخرية، وإنما ابتسامة السعادة.

الفصل السادس والعشرون
[وفيه تتواصل مغامرة محرك الدمى وأمور أخرى جيدة حقاً]

وخلال وجود دون كيخوته في النزل، وبعد سماعه قصة العمدتين النهاقين، جاء المعلم بيدرو ومعه القرد المنجم ومسرح الدمى بقصة تحرير مِلسيندرا. وذهل دون كيخوته حين عرفه المعلم بيدرو بعد أن سمع ما همس له به القرد، واعتبر ذلك أمراً شيطانياً، ثم ذهب بعد قليل لمشاهدة مسرح الدمى وعرضه عن تحرير مِلسيندرا على يد زوجها دون غايفيروس.

وقد ظهر في العرض شارلمان ورولان، وقصر ثراغوثا، ومغاربة، ومارسليو دي سانسوينيا، ودون غايفيروس... وحين أخذ هذا زوجته مِلسيندرا وانطلقت في أثرهما كوكبة من الفرسان، هب دون كيخوته واقفاً، وهرع لمساعدة دون غايفيرو بعد أن ألقى على مطارديه خطبة على الأسلوب الهوميري، «وانهال بضربات سيفه على دمى المغاربة، يهشم بعضها، ويقطع رؤوس غيرها، يتلف هذه الدمية ويمزق تلك، قالباً المشهد رأساً على عقب، ولو لم يطأطئ المعلم بيدرو وينزوي لقطع رأسه هو الآخر بسهولة أكبر من قطع عجينة حلوى».

يا للمعركة الحماسية والمثالية! يا للعبرة المفيدة! ولم يُفد في شيء تنبيه المعلم لدون كيخوته أن ما يدمره ويحطمه ويقتله ليسوا مغاربة حقيقيين، وإنما هي دمى من العجين، لأن ذلك يؤدي إلى التخفيف من ضرباته. وقد أحسن صنعاً بذلك.

twitter @baghdad_library

فالمعلمون بيدروات ينصبون مسارح البهاليل وينتظرون أن تُحترم شخوصهم لمجرد القول إنهم دمى من العجين. وما يجب على الفارس الجوال تدميره وتقطيعه وإتلافه هو ما يتسبب، تحت عنوان الخيال، بضرر أكبر من الخطأ نفسه. لأن الخطأ الذي يُصدق محط احترام أكثر من الحقيقة التي لا تُصدق.

ـ أنظر أيها السيد، ولا تكن مضحكاً، ولا تدخل في مطاردة دمى مسرح العرائس، فجميعنا نعرف السر وأن هذه لعبة شخوص لا ينخدع بها أحد. ولاحظ أنه لا هدف هنا سوى إزجاء الوقت وفعل ما نفعله. فليس شارلمان هو شارلمان، ولا رولان هو رولان، ولا دون غايفيرو هو دون غايفيرو، وهنا لا يُخدع أحد، وإنما يستمتع الحضور ويبتهجون، على الرغم من أنهم يتظاهرون بتصديق الملهاة إلا أنهم لا يصدقونها في الحقيقة. انظر أيها السيد، لا تبدد طاقتك في القتال ضد دمى من العجين.

ـ بما أن الدمى من عجين، وجميعنا نعرف ذلك ـ أُجيب ـ يجب لهذا السبب أن تُقطع رؤوسها وتُخرب، لأنه ما من شيء أشد ضرراً من كذب يتساهل معه الجميع. جميعنا نعرف السر، سر معلن، جميعنا نعرف ويهمس بعضنا في آذان البعض أن دون غايفيرو ليس دون غايفيرو، وأنه لا وجود لتحرير مِلسيندرا، وما دام الأمر كذلك، لماذا الجزع والغضب من صعود أحدنا إلى قمة أعلى برج في البلدة ليصيح من هناك بملء صوته، كناطق باسم الصراحة، بما يقوله البعض همساً في مسمع الآخرين، فيقود بذلك الخداع ويقطع رأسه ويتلفه؟ يجب تطهير العالم من المهازل ومسارح الدمى.

وهرع المعلم بيدرو مضطرباً وهتف: «يا لحظي البائس أنا الخاطئ، لقد دُمر وضاع كل ما أملكه». لا تعش من هذا إذاً يا خينسيّو دي باسامونتي، هكذا يجب علينا أن نرد عليه. اعمل ولا تصنع مسارح دمى. وبالنتيجة، نقول مع دون كيخوته: «فلتحيى الفروسية الجوالة فوق كل ما هو حي اليوم في العالم.» فلتحيى الفروسية الجوالة ولتمت مسارح البهاليل.

فلتمت مسارح البهاليل! يجب القضاء على مسارح الدمى كلها، وعلى

الحكايات المتخيلة المتوافق عليها. ودون كيخوته الذي أخذ المسرحية على محمل الجد، لا يمكن أن يبدو مضحكاً إلا لأولئك الذين يرون في الجد هزلاً ويجعلون من الحياة مسرحاً. وفي نهاية المطاف، لماذا يجب ألا يدخل في التمثيل قطع رؤوس دمى العجين ويشكل جزءاً منه تمزيقها وتحطيمها؟ وإنه لأمر قاس أن يتذمر من يقدمون تلك المشاهد بأقصى ما في الدنيا من جدية، ويولون كل عنايتهم بألا تشوب شائبة قواعد الفن المسرحي، أقول إنه أمر قاس أن يتذمروا ممن يأخذ المسرحية على محمل الجد. ولأنكم لاحظتم، أيها القراء الطيبون، أنه لا وجود لما هو أشق من المطالبة بالحفاظ الصارم على طقوس وإتيكيت شؤون التمثيل المحضة، بينما يكون معلمو تلك الطقوس هم أقل من يحترم الجدية الحقيقية للحياة. فأحدهم يعرف بدقة متى ينبغي وضع ربطة عنق سوداء ومتى ينبغي أن تكون بيضاء، وإلى أي ساعة يجب ارتداء السترة الرسمية، ومنذ أي ساعة يجب لبس سترة الفراك، وأي أسلوب في التعامل يجب اعتماده، ولكنه لا يعرف أين يبحث عن ربه، ولا ما هو مصيره الأخير. ولن نتحدث عمن يريدون، في تمردهم على الأخلاق، أن يفرضوا علينا استبدادية علم الجمال واستبدال الضمير الأخلاقي بذلك اللغز الذي يسمونه الذوق السليم. وعندما تبدأ تلك النظريات بالاستقرار يكون على العمال أن يُعلنوا أنهم سيئو الذوق.

تتحدث تريسا دي خيسوس في الفصل السابع والثلاثين من كتابها *حياة* عن إنه «من غير المناسب إضاعة نقطة من نقاط الدنيا» كيلا يُترك «مجال غواية لمن يكون شرفهم في تلك النقطة» وعمن يقولون إنه «يجب أن تكون الأديرة دور تربية»، تقول إنها لا تفهم ذلك. وتضيف أنه ليس ثمة وقت حتى لتعلم تلك الأشياء، ذلك أنه «من أجل تثبيت الألقاب لا بد من وجود تعاليم يُقرأ فيها كيف يجب التصرف، وبأي طريقة يجب التكلم، ولماذا يُترك دور جانباً ويُتخذ دور آخر، ومن لا يقال له عظيم يلقب نفسه بالشهير». ولم تكن الراهبة المتحمسة تدري أين سينتهي ذلك، لأنها لم تكن قد بلغت الخمسين حين كتبت تقول: «خلال ما عشته رأيت الكثير من التحولات إلى حدّ لم أعد أعرف معه

twitter @baghdad_library

كيف أعيش». وتضيف لنفسها: «الحقيقة أنني رثيت لحال أناس روحانيين مرغمين على الوجود في الدنيا لغايات مقدسة، لأن الصليب الذي يحملونه رهيب. ولو استطاع الجميع التوافق وحولوا أنفسهم إلى جهلة، ورغبوا في أن يُعتبروا كذلك في هذه العلوم، فإنهم يرفعون عن كاهلهم الكثير من العناء». وبالتالي! يجب على الروحانيين أن يتوافقوا، بالفعل، ويتحولوا إلى جهلة في نقاط من الدنيا وأن يرغبوا في أن يُعتبروا كذلك. فعندما نحب الحقيقة أكثر من كل الأشياء، يكون علينا أن نتوافق من أجل تجاهل تعاليم ذلك الذوق السليم الذي يجري إخفاء الحقيقة به، ومن أجل أن ندوس الأساليب الحميدة ونتيح للآخرين أن يدعوننا سيئي الذوق وأن نرغب في أن يعتبروننا كذلك.

هنالك حفنة من البهلوانات يحملون في أفواههم العقيدة المحنطة الموروثة عن أسلافهم، كما يحملون شعار بيوتهم محفوراً على الخاتم أو على مقبض العكاز، ويحترمون تقاليد أسلافنا الموقرة تلك مثلما تُحترم أشياء قديمة أخرى: من أجل حسن الظهور وإشعار الآخرين بتميزنا. ويبدو حسن الوقع والمظهر ذاك الذي نسميه محافظاً. وتلك الفئة من المهرجين أعلنت سوء ذوق كل ما هو عاطفة واندفاع وحماسة، ورأت قبحاً في أي جرح وطعن للدمى وكل مسارح العرائس المقامة. وعندما يقول ويردد أولئك الحمقى الجامدين والفارغين البلاهة الكبرى بأن «التهذيب لا يحول دون الشجاعة»، فإننا نواجههم، ونصرخ في وجوههم وفي لحاهم، إذا كانت لهم لحى، أن التهذيب يحول دون الشجاعة، وأن الشجاعة الكيخوتية الحقيقية قادرة ومعتادة ويجب أن تقوم في أحيان كثيرة على جندلة أي نوع من التهذيب وأن تظهر، إذا اقتضى الأمر، بمظهر الفظاظة. وبخاصة مع أمثال المعلم بيدرو الذين يعيشون على عروض الدمى.

أترون ما هو أفظع من سماع قداس يقيمه كاهن ملحد، وأنه يقيمه ليقبض الأجر عند المذبح؟ الموت لكل تمثيل، لكل تخييل مبرم.

لدى مروري بمدينة ليون ذهبت لزيارة كاتدرائيتها القوطية الفخمة، ذلك المصباح الحجري الضخم، حيث يترنم في جنباته الكهنة القانونيون بصلواتهم

على أنغام الأرغن. وبينما أنا أتأمل أعمدتها الخيزرانية، ونوافذها العالية ذات الزخارف الزجاجية الملونة التي ينتشر النور عند دخوله منها ويتوزع بألوان متعددة، وتفرعات الدعائم التي تحمل القبة، فكرت على النحو التالي: كم من الرغبات الصامتة، كم من التمنيات المكنونة، كم من الأفكار الخفية لم تتلقاها هذه العمارة الصوانية، مع صلوات مهموسة أو ذهنية فقط، مع تضرعات، مع لعنات، مع مغازلات حب تُهمس في أذن المحبوبة، مع شكاوى، مع مصالحات! وكم من أسرار جرى البوح بها أمام كوة الاعتراف! وماذا لو أن كل تلك الرغبات، والتمنيات، والأفكار، والصلوات، والهمسات، والتضرعات، واللعنات، والمغازلات، والشكاوى، والأسرار، ماذا لو أنها كلها تبدأ الغناء تحت روتينية تراتيل الكورال الدينية؟ في صندوق قيثارة، في أحشائها، ترقد كل الأنغام التي أُخرجت منها وكل الأنغام التي مرت بجانبها ولمستها، عند مرورها، بأجنحتها الرنانة. وإذا حدث واستيقظت كل تلك الأنغام الخاصة بالقيثارة والغريبة، الهاجعة هناك، فإن صندوق القيثارة سينفجر باندفاع عاصفة النغمات الموسيقية. وهكذا أيضاً، لو أستيقظ كل ما هو هاجع في أحضان الكاتدرائية، هذه القيثارة الحجرية، واندفع كله منشداً، فسوف تنهار الكاتدرائية متداعية تحت قوة اندفاع الحب الهائل. الأصوات المتحررة ستنطلق باحثة عن السماء. وستنهار الكاتدرائية الحجرية مهزومة ومثقلة بعنف جهدها بالذات، حين تشرع في الإنشاد، ولكن من بين أنقاضها التي ستواصل الإنشاد، ستنبثق كاتدرائية للروح، أكثر تهوية، وأشد إضاءة، وفي الوقت نفسه أعظم رسوخاً، كاتدرائية هائلة ترفع نحو السماء أعمدة مشاعر تتفرع تحت قبة الرب، وترسخ في الأرض ثقلها الميت كقنطرة ودعامة أفكار. ولن يكون ذلك كوميديا دينية. آه، من ذا الذي يمكنه جعل كاتدرائياتنا تنشد كل التراتيل، وكل الكلمات، وكل الأفكار والمشاعر التي ضمتها في أحضانها! من ذا الذي يستطيع أن يُهيج لنا أحشاء كهف مونتيسينو المسحور نفسه.

ولنعد إلى مسرح الدمى. فهناك مسرح للدمى في عاصمة وطني، ووطن

twitter @baghdad_library

دون كيخوته، يُمثل فيه تحرير مِلسيندرا أو إصلاح إسبانيا أو الثورة من أعلى، وتتحرك هناك، في البرلمان، الدمى التي من عجائن وفق ما يشدها المعلم بيدرو بالخيوط. ولا ينقصنا إلا أن يدخل إليه فارس جوال مجنون، ودون أن يولي اهتماماً للصراخ، يأخذ بتحطيم وقطع رؤوس كل ما يُحرك هناك، ويدمر ويبدد ممتلكات المعلم بيدرو.

ولأن هذا الأخير عاد إلى الهجوم، فقد اقتنع دون كيخوته المسكين الذي يحمل في داخله ألونسو الطيب، بأن كل ما حدث هو من أمور السحر، وعرض دفع ثمن ما خربه. وقد دفع الثمن بسخاء. مع أننا إذا نظرنا جيداً فإنه من العدل أن يعوض قدر الإمكان الضرر الذي يصيب من يعيش على الكذب كي يتعلم العيش على الحقيقة. لأنه يقال: إذا أنت انتزعت من الممثلين التمثيل الذي تعلموا العيش عليه وحده، فكيف سيعيشون؟ وصحيح كذلك أن الرب لا يريد موت الخاطئ، وإنما أن يتحول عن الخطأ ويعيش، وكي يستطيع التحول لا بد له من أن يعيش، وكي يعيش لا بد له مما يقتات عليه.

آه يا دون كيخوته الطيب، ويا لعظمة فعلك بعد أن دمرت الكذب وقطعت رأسه بأن تدفع قيمته، وأن تقدم أربعة ريالات ونصف ريال مقابل مارسيليو ملك ثراغوثا، وخمسة ريالات وربع ثمناً لشارلمان، ومثل ذلك ثمناً لآخرين، حتى بلغ المجموع اثنين وأربعين ريالاً وثلاثة أرباع! إن كان لا يكلف أكثر من ذلك تحطيم مسرح الدمى البرلماني وغيره!

الفصل السابع والعشرون

[وفيه يُعرف من هو المعلم بيدرو وقرده، وما تعرض له دون كيخوته في مغامرة النهيق التي لم تجر كما أراد لها]

بعد هذا الذي جرى مع المعلم بيدرو، وقد صرنا نعرف كم هو ماكر، وجد

دون كيخوته نفسه بين أناس مسلحين من قرية النهاقين فحاول إقناعهم بعدم الاقتتال بسبب ذلك الأمر الصبياني، وأكد سانتشو على كلام سيده، ثم خطر له الخاطر السيئ بأن ينهق، وما تبع ذلك من رجمهما بوابل من الحجارة وانطلاق دون كيخوته مبتعداً على حصانه، «متوسلاً إلى الله بكل قلبه أن يخلصه من ذلك الخطر».

وهنا، عند رواية واقعة هذه المرة الأولى التي يفر فيها الباسل قاهر الباسكي وفارس المرايا والأسد، والذي واجه مرات عديدة جيوشاً من الرجال، يقول المؤرخ «عندما يهرب الشجاع، يكون قد اكتشف غشاً، ومن عادة الرجال الحكماء توفير النفس لفرصة أفضل». وكيف يمكن لدون كيخوته أن يواجه قرية تتباهى بالنهيق؟ الطريقة التي يعبر بها جماعياً شعب ما هي نمط من النهيق، وان كان كل فرد من مكونيه يستخدم لغة مركبة من أجل احتياجاته الفردية. فمن المعروف أنه كثيراً ما يحدث عند اجتماع بشر عقلانيين أو حتى شبه عقلانيين، فإنهم يشكلون شعباً حماراً.

قبل إملاء أنظمة لحكم الشعب، يجب أن نسمع رأيه ـ هكذا يقال ـ أي يجب استشارته. وهذا كما لو أن البيطار بدل أن يتفحص الحمار ويجسه ويتحسسه ليكتشف مكان الوجع وما يعاني منه وما يحتاج إليه من علاج، يعمد إلى استشارته وسؤاله وينتظر منه أن ينهق كي يصف له الدواء، مدعياً لنفسه بذلك دور ترجمان النهيق. لا، ليس هنالك من شك في أنه لا يمكن التوصل إلى إقناع الشعب النهاق، ولا بد من الهروب منه بحكمة وألا يكون المرء فارساً متهوراً. ويجب ألا نولي اهتماماً للسانتشيين الأنانيين الذين يتذمرون لأننا لم ندافع عنهم عندما خطرت لهم الفكرة السيئة بالنهيق أمام ناهقين.

وعاد سانتشو مجدداً بعد هذه الحادثة لفتح قضية الأجر، فأراد دون كيخوته أن يصفي ذلك الحساب ويصرفه، وقال حينئذ تلك الكلمات القاسية «حمار أنت، وحمار ستظل، وحمار ستكون عندما تصل إلى نهاية حياتك»، وحين سمع التابع المسكين هذا الكلام انفجر في البكاء، واعترف بأنه لا ينقصه سوى

twitter @baghdad_library

الذيل كي يكون حماراً كاملاً. فسامحه الفارس العظيم مطالباً إياه أن يحاول توسيع قلبه. وقد كانت هذه واحدة من أبرز الفوائد التي دان ويدين بها سانتشو لدون كيخوته، إذ أقنعه بأنه لا ينقصه كي يكون حماراً سوى الذيل. والذيل لن ينبت له ولن ينمو مادام في خدمة دون كيخوته.

الفصل التاسع والعشرون
[وفيه مغامرة المركب المسحور]

وفي هذه الأثناء وصلا إلى ضفة نهر ايبرو، ووجدا هناك «مركباً صغيراً بلا مجاذيف وبلا أية معدات أخرى». وطبعاً! فمركب بلا مجاذيف أو أية معدات، مربوط عند الضفة، يعني مغامرة قريبة. فحيث تجد شيئاً ينتظر، فلا شك في أنه ينتظرك أنت بالذات. وإذا كان قارباً، فاركب فيه، وحلّ رباطه وليحملك على بركة الله.

وهذا ما فعله دون كيخوته، ولم يكد يبتعد مترين عن الضفة حتى انفجر سانتشو في البكاء، لأنه لا بد له، مثل أي شخص من أبناء المانشا، أن يكون ممن يعانون من رهاب الماء. وقد كان يعاني من رهاب الماء إلى حد أنه عندما أراد تلمس نفسه لمعرفة إن كانا قد اجتازا خط الاستواء الذي يموت القمل باجتيازه، لم يعثر على شيء من القمل، وإنما على أشياء منه. وقد اصطدم القارب بناعورة ماء وتحطم ملقياً بدون كيخوته وسانتشو في الماء.

إنه أحد الأمثلة النموذجية لمغامرات الإطاعة، بل إنه أعظم من مغامرة الأسد. وهو يُذَكّر بما قاله إنيغو دي لويولا حين كان قائداً لفرقة يسوع، وكرره «مرات عديدة» بأنه «إذا ما أمره البابا بالذهاب إلى مرفأ أوسيتا والصعود إلى أول مركب يجده هناك، حتى لو كان بلا صار وبلا دفة، وبلا شراع، وبلا مجاديف، وبلا كل ما هو ضروري للإبحار ولإصلاحه، وأن يعبر فيه البحر، فسوف يفعل

ذلك ويطيع الأمر، ليس بسلام وحسب، وإنما بسعادة وغبطة» (ريبادينيرا، الكتاب الخامس، الفصل الرابع).

ولماذا وضع الله ذلك المركب الخرب إلا لكي يطيعه دون كيخوته ويبحر فيه بحثاً عن مغامرة مجهولة؟ ليس هنالك من يعلم ما هو المناسب له أكثر ولا ما هي المأثرة* المحجوزة له.

إن مأثرتك، مأثرتك الحقيقية، هي التي ستمنح حياتك قيمة، وربما لا تكون تلك التي تذهب أنت للبحث عنها، وإنما التي تأتي هي للبحث عنك، وآه ممن يذهبون للبحث عن السعادة بينما هي تقرع أبواب بيوتهم! ولسبب ما قيل إن أعظم الأعمال هي التي تنشأ تلقائياً عن الظروف.

الفصل الثلاثون

[وفيه ما جرى لدون كيخوته مع صيادة حسناء]

تبدأ الآن مغامرات دون كيخوته الحزينة في منزل الدوق. الآن هو الوقت الذي التقى فيه بالصيادة الحسناء، بالدوقة التي أخذته إلى منزلها للتسلي به والسخرية من بطولته. الآن يبدأ شغف الفارس بسلطة الساخرين منه. وهنا يغوص تاريخ نبيلنا العبقري في هاوية بؤس مؤسفة. وهنا يأتي الرد على شهامته واحتشامه بنذالة وغباء ذينك الوجيهين اللذين يظنان، دون شك، أن الأبطال قد ولدوا لتسليتهم، وليكونوا لعبة ووسيلة لهو لهم. يا لتعاستك يا من تمضي إلى معبد الشهرة، وتجري خلف خلود المجد، لاحظ أنه إذا كان كبار الأرض يستضيفونك ويدللونك ويقدمون لك الهدايا، فإنما يفعلون ذلك كي تزين منازلهم أو ليتسلوا بك كدمية

* شعرت للحظة بالرغبة في إضافة «ولا الناعورة»، لتصبح العبارة «ولا ما هي المأثرة ولا الناعورة»، ولكني سرعان ما تغلبتُ على هذا الرغبة. فأنا أكره الحذلقة اللفظية والتلاعب بالكلمات اللذين يكشفا أضأل العبقريات وأشدها جدارة بالازدراء.

twitter @baghdad_library

وألعوبة! فحضورك ليس إلا زينة لموائدهم، وتظهر فيها كما تظهر فاكهة نادرة أو نموذج أخير لطائر يوشك على الانقراض. وكلما بدا أنهم يحترمونك أكثر إنما هم يتمادون في السخرية منك. لاحظ أنه لا وجود، في العمق، لعجرفة كعجرفة أولئك الذين لا يستطيعون الاستناد إلى مزايا خاصة بهم، وإنما إلى مصادفة مولدهم، وإلى الهيمنة التي يتمتعون بها. لا تكن ألعوبة للكبار. اذرع التاريخ وانظر إلى ما انتهى إليه الأبطال الذين ارتضوا أن يكونوا زينة للصالونات.

الفصل الحادي والثلاثون
[وفيه أمور كثيرة عظيمة]

استقبلوا دون كيخوته في منزل الدوق والدوقة بمراسم أبهة ساخرة، وألبسوه على الطريقة الفروسية وقادوه إلى المائدة.

وكان أن التقى هناك، على المائدة، بـ «رجل دين وقور، من أولئك الذين يحكمون بيوت الأمراء الذين لم يولدوا أمراء، وليس بمقدورهم أن يعرفوا كيف ينبغي أن يكون الأمراء، والذين يريدون أن تقاس عظمة العظماء بدناءة نفوسهم». وقد وجه رجل الدين إلى دون كيخوته ـ مسمياً إياه «دون مغفل» ـ، توبيخاً قاسياً، ونصحه بالعودة إلى بيته لتربية أبنائه، إذا كان له أبناء، والاهتمام بأملاكه، والتخلي عن التجوال هائماً على وجهه في العالم ومُضحكاً كل من يعرفونه ومن لا يعرفونه.

آه، كيف يستمر ويتواصل ولا ينتهي في بلادنا إسبانيا بقاء جنس هؤلاء الكهنة الوقورين والعقلانيين الذين يريدون لعظمة العظماء أن تقاس بدناءة نفوسهم! «دون مغفل! دون مغفل!» وكيف رأيتَ معاملتك، يا مجنوني السامي، من قبل ذلك الوقور، عنوان ورمز البلاهة الإنسانية الحقيقية! لا بد أن رجل الدين الوقور ذاك لم يقرأ الأناجيل، ولا بد أنه لا يعرف تلك الموعظة التي ألقاها يسوع فوق الجبل وقال فيها: «كل من قال لأخيه رقا يكون مُدان من

المجمع، وكل من قال له يا أحمق يحكم عليه بنار جهنم» (متى 5، 22). إنه محكوم بنار جهنم إذاً لأنه دعا دون كيخوته بالمغفل.

هاأنتذا الآن يا سيدي تجلس في مواجهة التجسيد للحس السليم. ولا يخامرنا أي شك في أنه لو رجع سيدنا يسوع المسيح إلى هذه الدنيا في أزمنة دون كيخوته، أو في يومنا هذا، فإن رجل الدين الوقور ذاك سيكون، وسيكون خلفاؤه اليوم، بين الفريسيين الذين اعتبروا المسيح مجنوناً أو محرضاً خطراً، ولبحثوا له عن ميتة جديدة مشينة.

الفصل الثاني والثلاثون

[وفيه ردّ دون كيخوته على مؤنبه، وحوادث أخرى خطيرة ولطيفة]

ولكن إذا كان تأنيب رجل الدين قاسياً، فقد كان رد دون كيخوته عليه بديعاً، مثلما هو وارد في هذا الفصل. وما علينا إلا إعادة قراءته. ما علينا إلا أن نقرأ الدرس السامي الذي وُجه إلى من «لم يروا عالماً سوى ما يبعد ما لا يزيد عن عشرين أو ثلاثين فرسخاً من موقعهم» ويتدخلون بعناد على تقديم قوانين للفروسية والحكم على الفرسان الجوالة.

«وكانت نواياي موجهة على الدوام إلى غايات صالحة، تتمثل في فعل الخير للجميع، وعدم إلحاق الأذى بأحد. فإن كان من يدين بهذا، وإذا كان من يفعل هذا ويسعى إليه يستحق أن يدعى مجنوناً، فإنني أترك الأمر لسعادتكما يا سيدي الدوق والدوقة»، هذا ما هتف به دون كيخوته. ولكنه كان أمام أحد أولئك الرجال ذوي الإرادة الخسيسة والقلوب الضيقة الذين ابتكروا مسألة وجود أفكار حميدة وأفكار خبيثة، ويصرون على أنهم من يعرفون الصواب والخطأ، ويعرفون أن شروراً كبيرة تترصد العالم لأن الناس يصدقون رؤى كهف مونتيسينوس وليس رؤى أخرى أقل رؤيوية منها. أولئك المجانين، أو بعبارة

twitter @baghdad_library

أفضل، صغار القلوب، وليس الرؤوس، لا يفعلون شيئاً سوى ملاحقة من يعتبرونهم مجانين الرؤوس، ويعاندون في جعلنا نصدّق أن الفرسان الجوالة يخربون العالم، الفرسان الذين يوجهون نواياهم إلى أهداف طيبة، أياً كانت معتقداتهم، وليس رجال الدين الوقورون الذين يقيسون عظمة العظماء بصغر نفوسهم. وبما أن أدمغتهم المتحجرة والمحمدية عاجزة عن توليد أي نوع من التخيل فإنهم يكتفون، كقاعدة ثابتة لسلوكهم، بالرجوع إلى التخيلات المتحجرة والمحروسة التي تلقوها في مستودعات، ولأنهم لا يعرفون كيف يشقون درباً واضحاً في كثافة الغابة فإنهم يثبتون عيونهم على نجم القطب، ويصرون على أن نمضي جميعنا في عربتهم المخلعة على دروب العبودية العامة الوعرة. هؤلاء الناس لا يأتون شيئاً سوى انتقاد من يعملون شيئاً حقاً. وعندما تلم نائبة بشخص فإنه يهرع إلى الفرسان الجوالة، وليس إليهم، ولا إلى «النديم الكسول الذي يبحث قبل كل شيء عن أخبار ليرويها وليس عن القيام بأعمال ومآثر ليرويها ويكتبها آخرون» كما سيقول في ما بعد دون كيخوته نفسه، عندما جاءه تريفالدين، نذير دوينيا دولوريدا.

لقد أحسن دون كيخوته القول: «لو أن السادة، والعظماء، والكرام، وعريقي النسب، هم من اعتبروني مجنوناً، لرأيتُ ذلك إهانة لا تمحى. ولكن أن يقول عني ذلك طلبة متحذلقون لم يسلكوا دروب الفروسية قطّ، فهذا أمر لا أحفل به». إنها مسوغات تليق بـ «السيد»، حين تجرأ ذلك الراهب، وفق ما جاء في الأنشودة الشهيرة، المتبجح على التحدث إليه، بدلاً من الملك ألفونسو، في محبس دير سان بيدرو دي كاردينيا:

من أدخلك أنت ـ قال "السيد" ـ
إلى المجلس الحربي
أيها الراهب الموقر، وأنت الآن،
ترتدي مسوحك هذه؟

اصعد إلى المنصة
وتضرع إلى الرب أن ينتصر المحاربون،
فما كان ليوشع أن ينتصر لو لم يتضرع موسى من أجله.
احمل مسوحك إلى الكورال، وأنا سأحمل الراية إلى الحدود.

فمسوحك تبدو ملطخة بالزيت وليس بالدماء.

وهو توبيخ دفع الملك لأن يهتف:

لديك أمور، أيها "السيد"، تجعل الأحجار تتكلم،
فبأي عمل صبياني تحول الكنيسة إلى ميدان معركة.

وعندما لا يتمكن رجال الدين الوقورون من التغلب على الفرسان الجوالة، يلتفتون إلى حملة أسلحتهم. ولكن سانتشو يحسن الردّ أيضاً: «أنا من يقال عنه "رافق الأخيار تصبح واحداً منهم"... وأنا استند إلى سيد طيب، وأمضي برفقته منذ شهور، وينبغي لي أن أصير مثله، إذا شاء الرب ذلك». وسيشاء الرب ذلك يا سانشو الطيب، يا سانتشو الحصيف، يا سانتشو المسيحي، يا سانتشو المخلص، سيشاء الرب. لقد قلت أنت ذلك: «رافق الأخيار»! لأن سيدك كان طيباً، وهو طيب، وسيكون طيباً قبل كل شيء وفوق كل شيء، وهو بقوة طيبته الخالصة مجنون، وجنونه جعله جديراً بالمجد في العالم ما دام العالم موجوداً، والمجد في الخلود أيضاً. آه يا دون كيخوته، يا قديسي كيخوتي! أجل، نحن العقلاء نُطَوِّب جنونك، ورجال الدين الوقورون ضيقو النفوس يسمحون لأنفسهم بتأنيب ما لا يستطيعون إصلاحه. «وانصرف دون أن يقول المزيد ودون أن يأكل». هذا ما قاله المؤرخ مشيراً إلى رجل الدين الوقور. انصرف!... انصرف!... آه، ليتنا نستطيع أن نقول ذلك دائماً!...

ولنتذكر هنا، أيها القارئ، أن هذا التأنيب من رجل الدين الوقور لدون كيخوته به شبه بتأنيب الكاهن المعاون في دير سان إستيبان للرهبان الدومنيكانيين

twitter @baghdad_library

بسلمنكا، مدينة سلمنكا هذه التي أكتبُ فيها الآن، والتي تخرَّج منها المجاز شمشوم كاراسكو، أقول تأنيبه الذي قوم إينيغو دي لويولا وفق ما يرويه لنا مؤرخه في الفصل السابع من الكتاب الأول من مؤلفه *حياة*. فعندما دعوه لزيارة ذلك الدير، إذ كانت لدى الكهنة رغبة كبيرة في الاستماع إليه وتبادل الحديث معه. وبعد تناول الطعام أخذوه إلى كنيسة صغيرة، وتوجه الكاهن المعاون إلى إغناثيو يسأله عن الدراسات التي تربى عليها، وأي الآداب تعاطاها، فقال: «أنتم مجرد بلهاء، ورجال بلا معرفة، مثلما اعترفتم بأنفسكم، فكيف يمكن لكم التحدث بثقة عن الفضائل والرذائل؟» وبعد ذلك احتجزوا إغناثيو ورفاقه، واقتادوهم من هناك إلى السجن. ولم يعد إغناثيو من جهته، «طيلة أكثر من ثلاثين عاماً إلى أن يدعو أحداً بالأبله أو الغبي، ولم ينطق بأي كلمة أخرى يمكن أن تكون مهينة»، بحسب ما يرويه لنا كاتب سيرته في الفصل السادس، الكتاب الخامس، من مؤلفه *حياة*.

كيف يتجرأ إغناثيو، دون رخصة، ودون شهادة، ودون تفويض من محكمة عادية، أن يتحدث عن الفضيلة والرذيلة؟ ودون كيخوته، من الذي منحه رخصة انضمام إلى الفروسية الجوالة، أو بأي حق يتدخل في تقويم الاعوجاجات وتصويب التعسف، حتى لو لم يفعل ذلك رجال الدين القانونيون الذين يتقاضون مرتباتهم من أجل عمل ذلك؟ فلا المعاون في دير سان إستيبان في سلمنكا، ولا رجل الدين الوقور الذي يتحكم بمنزل الدوقين سيتقبلان أن يخرج أحد من المهنة التي خصهما بها المجتمع. وأي نظام يمكن أن يوجد بالفعل إذا لم يكتفِ كل شخص ويتكيف مع ما يطلب منه ولا يمضي إلى ما هو أبعد منه؟ صحيح أنه لن يكون هناك تقدم في هذه الحال، ولكن التقدم هو مصدر وجذر الكثير من الشرور. ولقد أحسن القائل قوله: أيها الحذّاء، اهتم بأحذيتك! وقد كان من الأفضل لإغناثيو أن يواصل الطريق الذي خصصه له أبواه، أو لو أنه لم يتدخل على الأقل في الوعظ قبل أن يتخرج من دراسة اللاهوت. وكان على دون كيخوته أن يتزوج من ألدونثا لورينثو كي يربي أبناءه ويهتم بأملاكه. وقد كان

رجلا الدين الوقوران، [الذي في منزل الدوق وكاهن دير سان استيبان في سلمنكا] سابقين لذاك الذي كتب في كتاب التعاليم الدينية: «لا تسألوني أنا عن هذا، فأنا جاهل، ولدى الكنيسة الأم المقدسة أحبارها الذين يعرفون كيف يجيبونكم».

«نحن طيبون ــ كما قال المعاون في دير سلمنكا ــ ولدينا العالم مليئاً بالأخطاء، وفي كل يوم تظهر هرطقات جديدة ومعتقدات ضارة؛ وأنت لا تريد إخبارنا بما تدعو إليه...» ونحن ضائعون فعلاً إذا ما قام كل شخص بالعمل على هواه، فهذا يقوّم اعوجاجات وذاك يعظ، الأول يهاجم طواحين الهواء بالحراب والآخر يؤسس فرقاً دينية. إلى السبيل المعلوم جميعاً، إلى السبيل المعلوم! ففي السبيل المعلوم وحده يوجد نظام! والرائع أن هذه هي اليوم عقيدة من يقولون إنهم أبناء ذاك الذي وجه إليه التأنيب في دير سان استيبان وورثة روحه.

وبعد الانتهاء من تناول الطعام في منزل الدوق، تواصلت السخرية، ولم تكن مريرة كرصانة رجل الدين الوقور، وكان المحزن أن الوصيفات، وبغض النظر عن سيديهما الدوق والدوقة، قد تمادين في إضافة سخريات منهن إلى تلك التي يدبرها الدوقان. «لا هو ولا أنا كنا نعرف ألاعيب السخرية» ـ هذا ما قاله دون كيخوته مشيراً بذلك إلى سانتشو ــ وما قاله صحيح، إذ لم يُر قطّ مجنون أكثر جدية من دون كيخوته. وحين يكون الجنون مترفقاً مع الرصانة، فإنه يعلو ويسمو ألف ذراع فوق التعقل اللاهي والساخر.

الفصل الثالث الثلاثون

[وفيه المحادثة الممتعة بين الدوقة ووصيفاتها وسانتشو بانثا، وهي محادثة جديرة بأن تُقرأ وتُدون]

ووسط السخرية والمرح، اعترف سانتشو للدوقة بأنه يعتبر دون كيخوته مجنوناً كاملاً، ولابد أن يكون هو نفسه، بلا أدنى شك، أشد جنوناً وغباء من

twitter @baghdad_library

سيده، لأنه يتبعه على الرغم من ذلك كله، ويخدمه، ويتقبل وعوده الفارغة.

ولكن تعال إلى هنا يا سانتشو المسكين، تعال وقل لنا: هل تظنه كذلك حقاً؟ وحتى لو كنتَ تعتقد ذلك، ألا تشعر أنه من الأفضل لشهرتك وصحتك الأبدية أن تتبع مجنوناً كريماً على أن تتبع عاقلاً خسيساً؟ ألم تقل منذ قليل لرجل الدين الوقور، والعاقل حتى التفجر تعقلاً، إنه يجب مرافقة الطيبين مهما بلغ جنونهم، وإنك ستكون مثله، مثل سيدك، إن شاء الرب؟ آه، إنك تتحول إلى دوارة ريح تتقلب مع اتجاه الرياح كلها وترقص على أي لحن يُعزف! ولكننا نعرف جيداً ظنك بأنك تؤمن بشيء بينما أنت تؤمن بشيء آخر، ثم أنت تؤمن بآخر. وأنك حين تتصور أنك تشعر بهذه الطريقة، فإنك تشعر في دخيلة نفسك بطريقة أخرى مختلفة جداً. لقد أحسنت القول: «هذا هو قدري وشقائي، ولا يمكنني إلا متابعته. فنحن من القرية نفسها، وقد أكلت من خبزه، وأنا أحبه، وهو رجل لا ينكر الجميل، فقد وأهدى إليَّ مهارة. وفوق هذا كله أنا رجل وفيّ...» أجل، ووفاؤك يا سانتشو الطيب، يا سانتشو المسيحي، سينقذك. لقد كنت، ومازلت تتحول كيخوتياً وكدليل على ذلك السرعة التي جعلتك بها الدوقة تشك في أنك اختلقت مسألة انسحار دولثنيا، وانتهى بك الأمر إلى الاعتراف بأنه لا يمكن ولا يجب توقع أن يتيح لك ذكائك الخسيس اختلاق مثل تلك الخدعة الحاذقة خلال لحظات. أجل يا سانتشو، أجل؛ فعندما نظن أننا الساخرين، نكون عادة وفي أحيان كثيرة محط السخرية. وعندما يخيل إلينا أننا نقوم بأمر على سبيل المزاح، يتدخل القوي الأعلى الذي يستخدمنا لأهدافه الخفية التي لا يسبر غورها، ويجعلنا نفعل ذلك بجد بدل الهزل. وعندما نظن أننا نمضي في طريق، نُحمل على المضي في طريق آخر، وهكذا لا سبيل لنا سوى تسليم قيادنا لنوايا القلب الطيبة وأن يجعلها الرب مثمرة، لأننا إذا زرعنا البذرة، بعد أن نكون قد حرثنا الأرض التي ستتلقاها، فإن السماء هي التي تتكفل بريها وتهويتها وتوفير الضوء لها.

ويجب عليّ هنا، قبل المضي قدماً، أن أعترض على خبث المؤرخ الذي يقول في آخر هذا الفصل الثالث والثلاثين الذي أتولى شرحه والتعليق عليه، إن

سخريات الدوق وزوجته من الفارس كانت «فائقة البراعة والفطنة، حتى إنها تعتبر أفضل المغامرة التي يتضمنها هذا التاريخ». لا، لا، وألف لا! فتلك السخريات لم تكن بارعة ولا فطنة، وإنما هي فائقة الخراقة، وإذا كانت قد أفادت في الكشف بوضوح عن روح نبيلنا عميقة الغور وأنارت هوة طيبة جنونه، فإنما يعود ذلك إلى أن عظمة دون كيخوته وبطولته كانتا كبيرتين إلى حد تتحول معه أشد السخريات خسة وخراقة إلى حقائق جدية.

الفصل الرابع والثلاثون

[وفيه يُروى خبر كيف يمكن رفع السحر عن المنقطعة النظير دولثنيا دل توبوسو، وهي إحدى أشهر مغامرات هذا الكتاب]

ومن تلك السخريات التي يعتبرها المؤرخ بارعة وفطنة، وهي أبعد ما تكون عن ذلك، هناك دعابة طريقة فك السحر عن دولثنيا، بأن يجلد سانتشو ثلاثة آلاف وثلاثمئة جلدة.

على ردفيه الباسلين
وهما عاريان في الهواء، وبحيث
يتألم، ويتمرمر، ويغضب.

وأن يكون هو من يجلد نفسه بإرادته، ودون أن تحسب تلك التي يريد دون كيخوته أن يجلده إياها قسراً. رفض سانتشو أن يجلد نفسه. فأصروا، وأنكروا عليه منحه حكم الجزيرة المزعومة إذا هو لم يعدهم بجلد نفسه، وأخيراً، رضخ لتأثير الحجج والطمع، ووعد بأن يفعل ذلك. وعندئذ «تعلق دون كيخوته برقبة سانتشو، وقبله ألف قبلة على جبينه وخديه»، مكافأة أكثر من زائدة على رضوخه.

ولماذا لا تجلد نفسك أيها الصديق سانتشو حباً بدولثنيا ما دمتَ مديناً لها

twitter @baghdad_library

بخلود شهرتك؟ من الأفضل أن تجلد نفسك من أجل دولثنيا وليس من أجل ما اعتدت أن تجلد نفسك في سبيله عادة؛ فدولثنيا خير من حُكم أية جزيرة. وإذا ما وضعتَ دولثنيا نصب عينيك على الدوام، سواء وأنت تجلد نفسك، أم أثناء انجازك أي عمل، فإن عملك سيكون مباركاً دائماً. عندما تعمل اسكافياً، ركز تفكيرك على أنك ستفعل ذلك خيراً من أي إسكافي آخر، وتطلع إلى مجد ألا تصاب أقدام أي من زبائنك بالثآليل.

هنالك طريقة هي الأسمى في العمل، ألا وهي تحويل العمل إلى صلاة؛ بإنجاز نشر خشب، أو بناء جدار، أو خياطة حذاء، أو تفصيل سروال، أو إصلاح ساعة على شرف مجد الرب، ولكن هنالك طريقة أخرى، وإن كانت أقل سمواً، ألا أنها أكثر إنسانية وأشد نجاعة، وهي في أن تفعل ذلك في سبيل دولثنيا، في سبيل المجد. كم من السانتشيين المساكين يصبهم اليأس ويرتدّون تحت نير العمل الشاق، ولكنهم يشعرون بالتخفف منه وبالامتلاء سعادة في عملهم، إذا ما وضعوا نصب أعينهم وهم يعملون، أي وهم يجلدون أنفسهم، أنهم يرفعون السحر عن دولثنيا، وأنهم سيحظون بالسمعة والشهرة من عملهم! اجتهد يا سانتشو كي تكون في قريتك الأول في مهنتك، وكل مشقة عملك وغمه سيتبدد أمام ذلك الهدف العميق. فعزة النفس تزيد من كرامة الصانع.

يروي سفر التكوين أن الرب لم يحكم على الإنسان بالعمل ـ إذ أنه يقول إنه وضعه في جنة عدن ليعنى بها ويعمل فيها (الإصحاح الثاني، 15) ـ ولكنه أدانه بعد ارتكاب آدم الخطيئة، وحكم عليه بمشقة العمل، بأن يكون هذا العمل متعباً ومزعجاً، وأن يأكل بالتعب من الأرض التي لن تُنبت له سوى الشوك والعوسج، وأن يأكل الخبز معجوناً بعرق جبينيه (الإصحاح الثالث، 17 ـ 19). وحب المجد، واللهفة إلى رفع السحر عن دولثنيا يحوّل الشوك إلى ورود، والعوسج الواخز إلى بتلات أزهار. وكيف تريد يا سانتشو أن يعيش آدم في جنة عدن بلا عمل؟ أي جنة يمكن أن تكون تلك التي لا يُعمل فيها؟ لا، لا يمكن أن تكون جنة حقيقية ما لم يكن فيها عمل ما.

أنا أعلم أن هناك سانتشيين ينشدون هذه الأغنية:

في كل مرة
يخيل إلي أنني سأموت
أفرش عباءتي على الأرض
ولا أمل من النوم.

أنا أعلم أن كثيراً من السانتشيين يتخيلون المجد الأبدي كعدم عملٍ أبدي، كحقل سماوي يتمددون فيه باسترخاء لتأمل تلألؤ شمس لا علة لوجودها، ولكن المكافأة الأسمى بالنسبة إليهم يجب أن تكون اللاشيء، نوم لا ينتهي بلا أحلام وبلا استيقاظ. لقد ولدوا متعبين ومثقلين يحملون على كواهلهم أعمال وآلام أجدادهم وأجداد أجدادهم؛ أتراهم يستريحون فوق أحفادهم وأحفاد أحفادهم، بالنوم في أعماق هؤلاء! وينتظرون على هذا النحو أن يوقظهم الرب إلى العمل الإلهي.

تأكد يا سانتشو أننا إذا قُدمت إلينا في نهاية المطاف، كما وُعدوك أنت، رؤيا طوباوية من الرب، فإن هذه الرؤيا ينبغي أن تكون عملاً، سعياً متواصل بلا انقطاع لبلوغ الحقيقة السامية واللانهائية، وغوصاً وغطساً متزايداً في مهاوي الحياة الأبدية التي بلا قرار. البعض يمضون في هذا الغوص المجيد أسرع من آخرين، ويبلغون أعماقاً أبعد، ومتعة أعظم من أولئك، ولكنهم جميعاً يمضون في الغوص أعمق فأعمق بلا انقطاع وبلا نهاية. وإذا كنا جميعنا نمضي إلى اللانهاية، وإذا كنا جميعنا نمضي «محولين أنفسنا إلى لانهائيين»، فإن الفرق بيننا سيتمثل في مضي بعضنا أسرع ومضي آخرين أبطأ، وفي نمو هؤلاء أكثر من أولئك، ولكننا جميعنا نتقدم وننمو دائماً ونقترب من النهاية التي لا تُطال، والتي لن يصلها أحد أبداً. ويكون عزاء كل واحد وسعادته في معرفة أنه سيصل ذات مرة حيث وصل آخر غيره، ولا يبلغ أحد منهم محطة أخيرة. ومن الأفضل ألا يبلغها أحد، لأن من يرى الرب في السكون يموت، حسب ما جاء في الكتاب المقدس، من يبلغ الحقيقة السامية بالكامل يتلاشى فيها ولا يعود له وجود.

twitter @baghdad_library

امنح سانتشو أيها الرب عملاً، وامنحنا نحن أبناء الفناء البائسين عملاً على الدوام. وفر لنا جَلداً، وأن يكلفنا إدراكك مشقة، وألا تستكين **فيك** روحنا، كيلا تُغرقنا وتذيبنا **في أحضانك**. امنحنا فردوسك، أيها الرب، ولكن كي نعنى به ونعمل فيه، لا لننام فيه. امنحنا إياه كي نستغل الأبدية ونذرع شبراً فشبراً وبصورة أبدية مهاوي أحضانك اللامتناهية التي لا يمكن بلوغ قرارها.

الفصول: الأربعون، والحادي والثاني والثالث والأربعون.
[وفيه مجيء كلافيلينيو وأمور أخرى]

تأتي بعد ذلك في تاريخنا قصة دوينيا دولوريدا التي تبدو للمؤرخ كأنها من لألئ، كما يعلن في بداية الفصل الأربعين، بينما تبدو لي أنا أشد الحبكات غلظة وخراقة. وكل قيمة هذه السخرية الفجة تتمثل في كونها تهيئة لقصة الحصان كلافيلينيو الذي سيكون على دون كيخوته وتابعه سانتشو أن يذهبا على متنه في الفضاء إلى مملكة كندايا معصوبا الأعين.

تمنع سانتشو عن ركوب كلافيلينيو، لأنه ليس ساحراً «كي يستمتع بالمضي في الفضاء»، ومن غير المناسب أن يقول سكان جزيرته إن حاكمهم «يتجول مع الرياح في الفضاءات»، ولكن الدوق قال له: «صديقي سانتشو، الجزيرة التي وعدتك بها ليست متحركة ولا متهربة... وأنت تعرف أنني أعرف أنه لا وجود لأي نوع هذه الوظائف المهمة إلا ويشرى بضرب من الرشوة، بعضها كبير، وبعضها صغير، وما أطلبه أنا منك من أجل أن تحكم الجزيرة، أن تذهب مع سيدك دون كيخوته وتنجز هذه المغامرة العظيمة»، وأتبع ذلك بمسوغات أخرى. فردّ سانتشو على ذلك: «لا تزد على هذا يا سيدي، أنا تابع مسكين ولا أملك الردّ على كل هذا التلطف. فليركب إذاً سيدي، واعصبوا لي عيني، وسأتكل على الله، وأخبروني إذا كان باستطاعتي حين أحلق هناك في الأعالي أن أفوض

أمري إلى ربنا أو أن استنجد بالملائكة ليشفعوا لي». عندئذ صرح دون كيخوته أنه لم ير سانتشو بمثل هذا الخوف منذ مغامرة المطارق الخشبية الشهيرة. وعلى الرغم من ذلك اعتلى التابع صهوة كلافيلينيو وراء سيده، وطلب منهم، والدموع تملأ عينيه، أن يصلوا من أجله. وبعد ذلك، عند انطلاقهما في الفضاءات المتخيلة، راح يلتصق ويتشبث به يملؤه خوف غزال.

وبقية المغامرة مسألة محزنة جداً إذا حكمنا عليها بأحكامنا الدنيوية، ولكن كم هم الذين يمتطون كلافيلينيو دون أن يتحركوا من المكان الذي امتطوه فيه، ثم يجتازوا منطقة الهواء، ومنطقة النار! إنها محزنة جداً المغامرة التي يريد الوصول إلى نهايتها، بعد رؤية دون كيخوته وسانتشو لم يصبهما أي أذى باستثناء سقطة وبعض الحروق الطفيفة، حين تخلص التابع من خوفه، وصار يختلق أكاذيب، وحين اقترب منه دون كيخوته، بعد أن سمعه، وقال له هذه الكلمات الحبلى: «سانتشو، إن كنت تريد أن أصدق ما رأيتَه في الفضاء، فأنا أريد منك أن تصدق ما رأيتُه أنا في كهف مونتيسينوس. ولن أقول لك أكثر من هذا».

تأمل في هذه الصيغة المفهومة تماماً بقدر ما هي فسيحة التسامح: إن كنت تريد أن أصدقك، صدقني أنت. فعلى الثقة المتبادلة يقوم مجتمع بني البشر. ورؤيا الآخر حقيقية في نظره مثلما هي رؤياك في نظرك. طالما هي رؤيا حقيقية، مع ذلك، وليست خداعاً وتلفيقاً.

وهنا الاختلاف بين دون كيخوته وسانتشو، ذلك أن دون كيخوته قد رأى حقاً ما قال إنه رآه في كهف مونتيسيوس ـ على الرغم من تلميحات ثربانتيس الماكرة المخالفة ـ ولم ير سانشو ما قال إنه رآه في الأجواء السماوية هو يمتطي صهوة كلافيلينيو، وإنما اختلقه كاذباً، من أجل محاكاة سيده أو التخفيف من خوفه. ليس متاحاً لنا جميعنا التمتع برؤى، وأقل من ذلك الإيمان بها، وتحويلها من خلال الإيمان بها إلى حقائق.

خذوا حذركم من السانتشوات الذين يبدون مدافعين وداعمين للأوهام

twitter @baghdad_library

والرؤى، لأنهم لا يدافعون في الواقع إلا عن الكذب والتمثيل. وعندما يقال لكم إن مخادعاً انتهى إلى الإيمان بالخدع التي يحيكها، ردّوا بحزم أن لا. فالفن لا يمكن ولا يجب أن يكون قواداً للكذب؛ الفن هو الحقيقة العليا، الحقيقة التي تنمو في قوة الإيمان. ولا يمكن لأي مخادع أن يكون شاعراً. فالشعر خالد وخصب، مثل الرؤيا؛ والكذب عاقر مثل بغلة، ويدوم أقل من ثلوج آذار.

ونحن نعجب بالكرم السامي الذي يبديه دون كيخوته المتأكد من أنه رأى ما قال إنه رآه في كهف مونتيسيوس، ومتأكد أكثر من أن سانتشو لم ير ما يقول إنه رآه في الأجواء السماوية، وقد اكتفى مع ذلك بأن قال له: «إن كنت تريد أن أصدق ما رأيته في الفضاء، فأنا أريد منك أن تصدق ما رأيته أنا في كهف مونتيسينوس». إنها طريقة مسيحية جداً للخروج من المأزق وسدّ الطريق على المخادعين الذين يحكمون على الآخرين وفق نزواتهم، ويعتبرون الرؤى الكيخوتية خدعاً. ومع ذلك هناك اليوم حاجز معصوم للتمييز بين الكذب والرؤيا.

لقد نزل دون كيخوته إلى كهف مونتيسينوس وغاص فيه ممتلئاً بالشجاعة والجرأة، ولم يولِ اهتماماً لسانتشو الذي حاول ثنيه عن النزول، وقد رد على تحذيراته: «اربط واصمت». لم يصغ إلى الدليل ونزل ممتلئاً بالشجاعة، بينما ركب سانتشو صهوة كلافيلينيو وهو يرتعد خوفاً وبعينين مغرورقتين بالدموع، ودون كثير من إرادته. وهكذا مثلما الشجاعة هي أم الرؤى، فإن الجبن هو أبو الخداع. ومن يُقدم على عمل وهو ممتلئ بالشجاعة، وواثق من الفوز أو غير عابئ بالهزيمة، فإنه يتوصل إلى رؤية رؤى، ولكنه لا يحيك أكاذيب، ومن يخشى من نهاية معاكسة، من لا يعرف مواجهة الإخفاق برصانة، من يسعى في محاولته إلى عاطفة حب الذات البائسة، ويرتجف حيال عدم خروجه ببغيته، هذا هو من يحيك الأكاذيب لتغطية الهزيمة، ولا يعرف رؤية الرؤى.

وهكذا في وطننا ووطن دون كيخوته وسانتشو، حيث الجبانة الأخلاقية هي التي تتحكم بالأرواح، ويتراجع الرجال حيال احتمال الإخفاق ويرتعشون

خوفاً من الظهور كمضحكين، ويتشدقون بأن الأكاذيب مؤسفة ويتضاءلون إلى حدّ تصبح الرؤى معه محزنة. فيغرق الكاذبون أصحابَ الرؤى. ولن نعرف رؤية رؤى مقوية وقلبية ولن نستمتع بها ما لم نتعلم مواجه السخف ومجابهة الأغبياء وضئيلي القلوب الذين يعتبروننا مجانين وذوي نزوات ومتعجرفين، وأن ندرك أن بقاءنا وحيدين لا يعني هزيمتنا، مثلما يقول الأغبياء، وأن لا نمضي على الدوام ونحن نُجري الحسابات مسبقاً لما يُسمى الفوز. لم يفكر دون كيخوته، حين دخل إلى الكهف، في كيفية خروجه منه ولا حتى في ما إذا كان سيخرج منه، ولهذا رأى هناك في الداخل رؤى. أما سانتشو، بما أنه امتطى صهوة كلافيلينيو مرغماً وبعينين معصوبتين، فإنه لم يكن يفكر إلا في كيفية الخروج من تلك المغامرة التي وجد نفسه محشوراً فيها بحكم وظيفته كتابع للفارس، وما إن رأى نفسه سليماً وطليقاً حتى اندفع في سرد الخدع والأكاذيب.

هنالك في هذا الشأن اختلاف آخر بين دون كيخوته وسانتشو، ذلك أن دون كيخوته توغل في الكهف بنفسه وأمام نفسه، دون أن يجبره أحد على ذلك أو يأمره بعمله، وكان يمكن له أن يوفر على نفسه مشقة تلك المأثرة التي اضطر من أجلها إلى التحول عن طريقه، أما سانتشو فركب صهوة كلافيلينيو لأن الدوق فرض عليه ذلك كشرط لمنحه حكم الجزيرة. ودون كيخوته نزل وغاص وتوغل في الكهف لكي يعلم العالم بأسره أنه ما دامت حبيبته دولثنيا تفضله فليس هنالك من مستحيل لا يقتحمه ويحققه، بينما امتطى سانتشو صهوة كلافيلينيو حباً بحكم الجزيرة. ومن سمو ونزاهة هدف الفارس ولدت شجاعته، ومن شجاعته تولدت رؤاه التي نعم بها، ومن نفعية وبؤس هدف التابع ولد خوفه، ومن خوفه تولدت الخدع التي حاكها. لم يكن دون كيخوته يسعى إلى حكم أي جزيرة، وإنما إظهار القوة الروحية التي تمده بها دولثنيا وجعل الناس يعترفون بعظمتها. ولم يكن سانتشو يسعى إلى أي مجد، وإنما إلى حكم جزيرة. لهذا رأى دون كيخوته الرؤى بشجاعة، واختلق سانتشو الأضاليل بجبانة.

المصلحة، من أي نوع كانت، حتى لو تقنعت بقناع حب المجد، أو البحث

twitter @baghdad_library

عن الثروة، أو المكانة، أو التشريف، أو التميز الدنيوي، أو التصفيق الآني، أو المناصب، أو رفعة الأبهة، مما يمنحنا إياه الغير لقاء خدمات حقيقية أو وهمية، أو مقايضة وعود وتملقات، هذا كله يولّد جبناً أخلاقياً، والجبن الأخلاقي يولّد أكاذيب. وانعدام المصلحة ما عدا البحث عن دولثنيا، ومعرفة الانتظار إلى أن يعترف بنا الناس أخيراً كخدم مخلصين ومفضلين لها، يبث فينا الشجاعة، والشجاعة تمنحنا رؤى. فلنتسلح إذاً برؤى كيخوتية ولنبدد بها الخدع السانتشوية.

الفصل الرابع والأربعون
[وفيه كيفية تولي سانتشو الحكم، ووحدة دون كيخوته وبؤسه]

ثم ذهب سانتشو لتولي حكم جزيرته، بعد أن تلقى نصائح سيده، «ولم يكد سانتشو يرحل، حتى أحس دون كيخوته بالوحدة»؛ ملمح بالغ الحزن حفظه لنا التاريخ. وكيف لا يشعر بالوحدة، إذا كان سانتشو هو السلالة البشرية في نظره ومن خلال رأس سانتشو يحب البشرية بأسرها؟ وكيف لا وقد كان سانتشو نجيه والشخص الوحيد الذي سمع منه خبر الاثني عشر عاماً التي أحب خلالها ألدونثا لورنثو أكثر من حبه لنور عينيه اللتين سيأكلهما التراب يوماً؟ ألم يكن بينهما وحدهما فقط سر حياته الخفي؟

من دون سانتشو لا يكون دون كيخوته هو دون كيخوته، والسيد يحتاج إلى التابع أكثر من حاجة التابع إلى السيد. كم هي محزنة وحدة البطل! لأن العامة والروتينيون والسانتشيون يستطيعون العيش من دون فرسان جوالة، ولكن كيف يمكن للفارس الجوال أن يعيش من دون شعب؟ والمحزن أنه بحاجة إليه، ومع ذلك عليه أن يعيش وحيداً، آه أيتها الوحدة، آه أيتها الوحدة المحزنة.

وانزوى دون كيخوته في غرفته، ولم يقبل أن تقوم الوصيفات على

خدمته، «وعلى ضوء شمعتين، خلع ملابسه، وحين خلع حذاءه، يا للمحنة غير اللائقة بمثل هذا الشخص! وأفلتت منه، ليس زفرات ولا شيء آخر يشير إلى سوء نظافة جواربه، بل وجد أربعاً وعشرين ثقباً في أحد جوربيه جعلته أشبه بشبكة. ـ ويضيف التاريخ ـ فتضايق السيد الطيب، وكان على استعداد لأن يدفع أوقية من الفضة ثمناً لرقعة من الحرير الأخضر». وفور ذلك يُحاضر المؤرخ عن الفقر، ومما يقوله: «لماذا تريد أن تضرب النبلاء وعريقي الأصل أكثر من غيرهم من الناس؟».

فلنشكر مؤرخ دون كيخوته الدقيق الذي حفظ لنا هذا الحدث الحميم عن تفتق دزينتين من القُطَب في جورب الفارس، وضيقه من ذلك. إنه لأمر عميق الكآبة. وظل البطل معتكفاً وحده في مخدعه، بعيداً عن الناس، وبينما كان هؤلاء يحسبونه مشغول الذهن بمهماته الآتية أو يتأجج بلهفة متجددة إلى المجد الدائم، كان «السيد الطيب» ـ ويا لحسن وقع تسميته بـ «السيد الطيب» في هذه المناسبة! ـ كان متضايقاً من انفلات قطب في جوربه.

آه أيها الفقر، أيها الفقر! ـ أقول أنا أيضاً ـ، كيف تملأ وحدة الفرسان الجوالة وسائر الناس! ولأن البطل لا يعترف بفقره فإنه يتكدر، وسبب ما يعانيه من غم وكآبة وحزن هو أن جواربه قد تفتقت وليس لديه بديلاً لها. ترونه حزيناً، ترونه مغموماً، فتظنون أن اليأس قد سيطر عليه أو أن حماسة الفروسية قد تضآلت لديه، مع أن كل ما هنالك أنه يفكر في كثرة الأحذية التي يتلفها أبناؤه الصغار. آه أيها الفقر، متى نتأبط ذراعك بهامات مرفوعة وقلوب مطمئنة! أفظع أعداء البطولة هو الخجل من الظهور فقيراً. وفقيراً كان دون كيخوته، وحين رأى جواربه محلولة القطب أحس بالضيق. لقد هاجم طواحين، وانقض على يانغويسيين، وهزم الباسكي وكاراسكو، وانتظر الأسد بثبات ودون خوف، ليصل بعد ذلك إلى الضيق والغم لاضطراره المثول أمام الدوق وزوجته بجورب ممزق كاشفاً عن فقره. أيمكن أن يؤدي دوراً في العالم وهو فقير!

وماذا لو عرفنا نحن الفقراء الدنيويون الراحة التي يمنحها نذر أنفسنا للفقر

twitter @baghdad_library

وعدم الخجل منه؟ ففي محاكاة لمؤسسين آخرين، نذر إينيغو دي لويولا نفسه للفقر في الفرقة الدينية التي أسسها، وكم كان ذلك ملائماً لأبنائه، كما يبين لنا الأب ألونسو رودريغث في الفصل الثالث من البحث الثالث في القسم الثالث من مؤلفه «*ممارسة الكمال*»، حيث يقول لنا إنه إذا تخلى عن بعض الخدم في الدنيا، فإنه يجد في الفرقة الدينية كثيرين يخدمونه، وأنه «إذا ذهبت إلى قشتالة، أو البرتغال، أو فرنسا، أو إيطاليا، أو ألمانيا، أو بلاد الهند، وإلى أي مكان من الدنيا ستجد أنهم قد أقاموا لك المنزل مع كثير من خدم المكان» بحيث، إذا ما تخليت عن ثروات الدنيا، «ستكون أكثر سيادة على أشياء الدنيا وثرواتها من الأغنياء أنفسهم. فلا يكونون هم أسياد أملاكهم وثرواتهم، وإنما أنت»، وهذا ما يدركه بالفعل كثيرون من اليسوعيين. ويضيف الأب الصالح بكثير من الحكمة أنه «بينما الغني يتقلب في الليل لأن أملاكه وثروته تؤرق أحلامه، كم يكون رجل الدين مطمئناً، لا يهمه إن كان ثمن الأشياء غالياً أو رخيصاً، وإذا كانت السنة جيدة أو سيئة الموسم، لأن كل شيء متوفر لديه!».

وقد فعل دون كيخوته المسكين شيئاً من هذا أيضاً على سبيل نذر نفسه للفقر في بداية مسيرته، وخرج من بيته بلا مال، وكان يرفض الدفع معتقداً إنه معفى من ذلك بانتمائه إلى الفروسية، ولكن صاحب النزل الذي كرسه فارساً أقنعه بأن يحمل معه مالاً وقمصاناً نظيفة، فأطاعه «ببيع شيء ورهن شيء آخر، وتبديد أشياءه كلها». ولأنه كسر بذلك نذر نفسه للفقر، فقد لاحقه الفقر وسبب له الغم، فتكدر حين تمزقت جواربه.

آه أيها الفقر! إننا نفضل قبل الاعتراف بك أن نظهر بمظهر الأوغاد، بمظهر قساة القلوب، والزائفين، والأصدقاء السيئين وحتى الخسيسين. نختلق خدعاً بائسة لرفض ما لا نستطيع منحه لأننا نفتقر إليه. فالفقر ليس شحاً في الموارد الضرورية للحياة، وإنما في الحالة المعنوية التي يولدها ذلك الشح. الفقر شيء حميم، وهنا تكمن قوته.

آه أيها الفقر المشؤوم، كم أجبرت من الشرفاء على ألف فعل خبيث من أجل الخروج منك.

كما تقول الأنشودة المشهورة وهي تشير إلى الخدعة التي توصل بها "السيد" إلى الحصول على المال من اليهود بإعطائهم صندوقاً مملوءاً بالرمل.

وانظر إلى هذا. إنه لا يخرج من البيت إلا محتمياً بظلال الليل الكثيفة، لأنه لا يكون بالإمكان حينئذ رؤية كيف يتلألأ ثوبه بمجرد اللمس. إنه يخجل من الظهور بمظهر الفقر أكثر من خجله من كونه فقيراً. وانظر إلى ذاك الآخر، أنه مراقب صارم، رجل متصلب وغير قابل للفساد، يكرر في كل يوم أنه لابد من الوعظ بالمثل والقدوة وبطهارة الحياة، ولكنه حين يبدأ بالغمغمة لا يسأل إلا كم يكسب هذا أو كم يملك ذاك، ولا يفعل شيئاً سوى التفكير بغلاء المعيشة.

آه أيها الفقر! أنت من صنعت الكبرياء العفنة لوطننا إسبانيا. أتراكم لا تعرفون كبرياء الفقر، وهي أحط وأشهر من فقر المتسول؟ إنه لأمر عجيب أن يكون الفقر، وهو أكثر ما يذلنا ويكدرنا، أحد أكثر الأمور استثارة لكبريائنا. حتى لو لم تكن إلا كبرياء متصنعة ووسيلة للتغطية على الفقر. إنه خجل مقنع بكبرياء نحتمي به، مثل خوف تلك الحيوانات الصغيرة المسالمة التي تداريه بمظهر الشراسة، فتأخذ بالتخويف ونفخ حلقها بينما هي تكاد تموت خوفاً في الواقع. وهذا مثل ما يحدث لأولئك الذين يتباهون بمذلتهم.

من الضروري أن تدققوا في الوقار وحتى الكبرياء التي يتسول بها الكثير من المتسولين. وسأروي لكم حالة محددة بهذا الشأن، إنها حالة متسول اعتاد أن يطلب من سيد صدقة كل يوم سبت، وذات مرة جاء يطلب الصدقة في غير يوم السبت، فأعطاه ذلك قطعة نقد من فئة خمسة فلوس، ولكنه ما لبث أن انتبه إلى أنه أعطاه الصدقة في يوم ليس سبتاً، فلفت نظر المتسول إلى ذلك، ورجاه ألا يخرج عن العادة المتبعة. وحين سمع المتسول ذلك أعاد إليه الصدقة قائلاً: «آه، تريد الآن أن تخرج لي بهذا؟ خذ قطعة نقدك وابحث لك عن فقير آخر».

twitter @baghdad_library

وكأنه يقول بذلك: إنني أجيء إليك بنعمة توفير الفرصة لك لممارسة فضيلة الإحسان ولتكسب مزايا في السماء، فتخرج إليّ بشروط وتحفظات؟ خذ، خذ صدقتك وابحث عمن يُحسن إليك بقبولها منك.

آه، أيها الفقر! يا أشد أشكال الفقر حزناً وبؤساً، فقر وجوب الظهور بجوارب تامة، ووجوب الحفاظ على بدلة الدور الذي نمثله في كوميديا الدنيا! محزنة حالة الممثل المسكين الذي لا يمكنه استبدال ثوبه وعليه أن يعنى بملابس التنكر التي يكسب بها قوته في مسرحه وينظفها ويحافظ عليها؛ محزنة حالة عدم امتلاك معطف بائس يقي من البرد في ليالي الشتاء القاسية والاضطرار إلى الاحتفاظ بالعباءة الفخمة الذي مثل بها دور الملك في المسرحية. والأشد حزناً ألا يتمكن المرء في تلك الليالي من التدثر حتى بالعباءة المسرحية.

دون كيخوته يتضايق ويخجل من اضطراره إلى الظهور فقيراً. لقد كان، في نهاية المطاف، ابناً لآدم. وآدم نفسه، كما يروي لنا سفر التكوين (الإصحاح الثالث، 7 حتى 10)، بعد أن ارتكب الخطيئة، عرف أنه عارٍ، أي أنه فقير، وحين ناداه الرب اختبأ، لأنه يخشى أن يُرى عارياً. والخوف من العري، من الفقر، كان على الدوام ومازال الحافز الأول لفعل البشر الفانين المساكين. لقد كانت رهيبة تلك الأزمنة المظلمة في العصور الوسطى، مع اقتراب نهاية الألفية الأولى، حين كان الخوف من الجحيم يدفع النفوس بقوة أكبر من اللهفة إلى المجد السماوي. ولكن، ألا ترون أن الخوف من الفقر في مجتمعنا وليس التعطش إلى الثروات هو ما يحمل معظم الناس إلى القيام بأشد أعمالهم جنوناً؟ فما يحركنا هو البخل أكثر من الطموح، وإذا ما تفحصنا من يُعتبرون أكثر طموحاً فسوف نجد بخيلاً في أعماقهم. وكل ضمانة تبدو لنا غير كافية لحمايتنا وحماية ذوينا من الفقر البغيض والمرهوب، فتجدنا نراكم الثروات لنسدّ أي ثقب يمكن أن يتسرب الفقر منه إلى بيوتنا. والجريمة اليوم، الجريمة الحقيقية، هي في كون أحدنا فقيراً. وفي مجتمعنا نجد تلك الفئة التي يقال إنها أكثر تقدماً وثقافة تتميز بكراهيتها للفقر وللفقراء. وليس هناك ما هو أشد إثارة للحزن من ممارسة الإحسان. قد يقال إننا

نحاول إزالة الفقراء وليس الفقر؛ إبادتهم كما لو أننا نبيد جائحة حيوانات مؤذية. وتجري محاولة القضاء على الفقر ليست حباً بالفقير، وإنما كيلا يذكّرنا وجوده بالمصطلح الرهيب.

وما الغرابة في السعي إلى السماء لا لسبب سوى الفرار من العوز؟ فاللهفة إلى الشهرة، والتعطش إلى المجد الذي كان يحرك دون كيخوته، أولم يكن سببه، في العمق، الخوف من أن يكتنفه الظلام، والاختفاء، وتلاشي وجوده؟ لأن الاغترار بالنفس، في العمق، هو الخوف من العدم الذي هو ألف مرة أشد رهبة من الجحيم نفسه. فالمرء في الجحيم يكون، في نهاية الأمر، موجوداً، يعيش، وليس ممكناً طالما هو موجود ـ وليقل دانتي ما يشاء ـ أن يفقد الأمل الذي هو جوهر الوجود نفسه. لأن الأمل هو زهرة جهد الماضي لصنع المستقبل، وهذا الجهد يشكل الكائن نفسه.

وتعال إلى هنا الآن يا عزيزي دون كيخوته، واستدع ألونسو الطيب، وقل لي: خجلك هذا من الفقر، ألم يدخل، ولو جزئياً على الأقل، في ذلك الخجل الكبير الذي منعك من التصريح بحبك لألدونثا لورنثو؟ أنت كنت تعرف القول الشائع «معك على الخبز والبصل»، وكان بإمكانك أن تقدم لها ما هو أكثر من الخبز والبصلِ «قِدراً فيه من لحم البقر أكثر من لحم الضأن، ولحم مخلل في معظم الليالي، والعدس ليوم الجمعة، وربما فرخ حمام إضافي أيام الآحاد». ولكن، هل كان هذا كافياً لها؟ وحتى لو كان كافياً، هل سيكون كافياً لمن سيولدون من ثمرات غرامكما؟... ولكنني أترك هذا جانباً، لأنني أعرف جيداً كم تتأثر وتخجل من هذا الحديث.

لن نستغرب إذاً أن يستلقي دون كيخوته «مفكراً مغموماً»، سواء لافتقاده سانتشو أو لكارثة جواربه التي لا تعوض، «والتي يود لو يستطيع رتقها ولو بحرير من لون آخر، وهذا أبلغ دليل على فقر النبيل وما يمكن أن يقدم عليه في أيام عسره». ويا له من ربط رائع أقره المؤرخ هنا بجمعه بين وحدة دون كيخوته وفقره! فقير ووحيد! يمكن للمرء أن يتحمل الفرق وهو مع رفقة أو يتحمل الوحدة وهو ثري، ولكن أن يكون فقيراً ووحيداً!

twitter @baghdad_library

وماذا تفيده، وهو فقير ووحيد، مغازلات ألتيسيدورا؟ لقد أحسن صنعاً بإغلاق النافذة حين سمعها.

الفصل السادس والأربعون

[وفيه حادثة الجلاجل والقطط المرعبة التي وقعت لدون كيخوته أثناء غراميات ألتيسيدروا المولهة]

ولكنه أشفق أخيراً على معاناة غرام الشابة الوقحة، وطلب أن يوضع عود في غرفته ليلاً «وسأعمل كل ما في وسعي لمواساة هذه الآنسة المحزونة» ـ قال ـ وفي الساعة الحادية عشرة ليلاً وجد دون كيخوته قيثارة في غرفته، فعدلها، وفتح النافذة، وسمع حركة أناس في الحديقة. وحيث أنه كان قد جاب بأصابعه أوتار القيثارة، ودوزنها بأحسن ما استطاع، فقد بصق ونظف صدره، ثم انطلق بصوت أبح، ولكنه مترنم، ينشد أغنية رومانس أوردها المؤرخ، وكان دون كيخوته نفسه «قد نظمها ذلك اليوم».

البطل الحقيقي شاعر، سواء أعرف ذلك أم لم يعرفه. وهل البطولة سوى شعر؟ وجذر الأولى هو نفسه جذر الثاني، وإذا كان البطل شاعراً في ميدان الفعل، فالشاعر بطل في ميدان الخيال. والفارس الجوال الذي يمارس مهنة السلاح يحتاج إلى جذور الشاعر، لأن فنه فن عسكري، وهو ما لم يكن يخامر الشك فيه الدكتور هوارتي، مثلما يقول لنا في الفصل السادس عشر من مؤلفه «**امتحان**»، وإنما هو «ينتمي إلى المخيلة، لأن كل ما على القائد الجيد أن يفعله هو قول متناغم، وصورة، وتواصل... ومن أجل هذا كله يكون الفهم ضرب من السفه، مثل الاستعانة بالأذنين للنظر». وكل هذا ليس سوى زيادة نافلة من الحياة، وجهد إذا ما تحقق وتم فإنه كمال يكتمل وينتهي، إنه عمل غايته هي العمل نفسه. فالنسغ يصل إلى نقطة يكون عليه فيها أن يرجع من حيث ذهب، وعند وصوله إلى هناك، إلى النقطة التي ليست طريقاً إلى مكان آخر، بل هي النهاية، يعود أدراجه وينصبّ في البرعم الذي يُكوّن الزهرة، والزهرة هي زهرة جمال.

دون كيخوته ينشد، دون كيخوته شاعر، وهو أمر كانت تخشاه الهرة الميتة ابنة أخته عندما أجرى الكاهن والحلاق الفحص على مكتبته، وحين أرادا العفو عن كتاب *ديانا* للكاتب خورخي دي مونتيمايور، أعربت عن مخاوفها من أن يصبح خالها شاعراً، وأضافت: «يقال إنه مرض عضال وقابل للعدوى». آه يا أنطونيا، أي كراهية تكنينها للشعر وأي حقد تضمرينه له! ولكن خالك شاعر، ولو أنه لم ينشد قط لما صار البطل الذي كانه. وهذا لا يعني أن كونه منشداً يجعله بطلاً، وإنما من كمال البطولة انبثق منه النشيد.

أنا لا أؤيد الحجج التي أوردها لنا الأب ريبادينيرا في الفصل الثاني والعشرين من الكتاب الثالث من مؤلفة *حياة القديس إغناثيو* ليسوغ عدم وجود جوقة كورال في فرقة يسوع. إذ يقول لنا «ليس وجود الكورال من جوهر الدين». وبالفعل، يمكن أن يكون هنالك عندليب أخرس، ولكنه يكون عندليباً مريضاً، ويضيف قائلاً، مع القديس توماس، إن من يتولون مهمة تعليم الشعب وتغذيته بخبز العقيدة «يجب ألا ينشغلوا بالغناء، لأن انشغالهم بالغناء يجعلهم يهملون الأهم». ولكن، هل هنالك عقيدة أشد حميمية وعمقاً من تلك التي تمارس إنشاداً؟ في النصائح التي تُعطى للإنسان، ليست الكلمات، وإنما موسيقاها هي ما يستفاد منها ويُبنى. فالروح موسيقى والكلمات هي الجسد، وكل عقيدة للقلب هي نشيد.

وبوجود ذلك التشابه الكبير بين دون كيخوته وإغناثيو دي لويولا، وأن هذا الأخير كان يسلو نفسه ويرفع حماسته ويجد الرب في الإنشاد الذي كان شديد الميل إليه، كما هو وارد في الفصل الخامس من الكتاب الخامس من سيرته «حياة»، فإنه من المثير للعجب حقاً ألا يؤلف كورالاً لفرقته الدينية، وألا يدفعنا هذا إلى أن نستنتج عدم كمال تلك الفرقة والعقم الشعري الذي يُثقل عليها. لم يستطع قطّ أي زيز أن يأوي براحة في تلك الخلية من الكهنوتيين العاديين. ولا يقولن أحد إننا لم نولد جميعنا من أجل الإنشاد، وليست المسألة هنا «من أجل» أحد بعينه، وإنما كل من ولد بروح، وليس بجسد فقط، وهو من أجل ذلك يغني، يغني لأنه ولد، وإذا لم يغنِ فلأنه لم يولد إلا بجسد وحسب. وإذا نحن

twitter @baghdad_library

أسسنا فرقة دولثنيا دل توبوسو، فعلينا ألا ننسى الكورال، وليكن الإنشاد فيه ازدهاراً لمؤثرات بطولية أشواق سامية.

وقد كان دون كيخوته ينشد عندما ألقوا عليه، في سخرية بالغة الفجاجة، زكيبة ممتلئة بالقطط. وحين دافع عن نفسه منها قفز قطٌّ منها إلى وجهه و«أنشب في أنفه مخالبه وأسنانه، وبسبب الألم راح دون كيخوته يطلق أعلى ما يستطيع من الصراخ»، وكان تخليصه منه مجهداً.

كم أنت مسكين يا سيدي! الأسود تخجل منك وتنقض القطط على أنفك. القطط التي تهرب، وليس الأسود الطليقة، هي ما يجب على البطل أن يتفاداه. «يمكن للرب أن يشن حرباً بالقمل والبعوض على جميع أباطرة وملوك العالم»، هذا ما يقوله الأب ألونسو رودريغث (*ممارسة الكمال*، الجزء الثالث، المبحث الأول، الفصل الخامس عشر). فلينجنا الرب من القمل والبعوض والقطط الهاربة، وليرسل لنا بدلاً منها أسوداً تُفتح لها الأقفاص!

ولكن، وعلى الرغم من هذا كله، وعلى الرغم من أن القمل والبعوض أعداء رهيبين، ينبغي عدم التوقف عن محاربتها، ومن أجل ذلك يرسلها الرب إلينا. وقد يكون أحدهم قد قال لدون كيخوته، لثنيه عن مطاردة القمل والبعوض البشري، إن النسر لا يصطاد ذباباً ـ أي *aquila no capit muscas* ـ، ولكنه يسيء القول. فالذباب، والسام منه بصورة خاصة، ممتاز لعملية الهضم لدى النسر، وخميرة فعالة لإنضاج أغذيته.

وصحيح بالفعل أن السمّ نفسه الذي يُحقن، بإبرة الحشرة في قنوات الدورة الدموية، يزعجنا ويؤذينا أو يسبب لنا دملاً، وقد يصل به الأمر إلى قتلنا، هذا السم نفسه إذا أُخذ عن طريق الفم فإنه قد لا يكون غير مؤذٍ وحسب، وإنما يمكن له أن يساعدنا في عملية هضم سريعة وكاملة. وبفضل الفائدة الهضمية لسم ذلك الذباب السام الذي يبتلعه النسر مع إبرته وكل شيء فيه عند اصطياده، يستطيع هذا النسر، بعد راحة معدته، أن ينظر إلى الشمس وجهاً لوجه.

وهل تراكم تظنون أنه يمكن وضع روح وحياة في عمل يُعمل حباً بدولثنيا

ومن أجل منحنا الشهرة، ليس في العصر الحالي فقط، وإنما في العصور المقبلة، ما لم يهمزنا إليه لإنجازه بؤس الضيعة الصغيرة أو المكان التافه الذي نأكل وننام ونعيش فيه؟ إن أفضل كتاب للتاريخ العالمي، والأكثر ديمومة واتساعاً، والذي يتضمن تاريخاً عالمياً حقاً، هو ذاك الذي يصيب في رواية الحياة كلها بعمق ما فيها من مخاصمات، ونمائم، والدسائس، واجتماعات تجري في بلدة كاراباخوسا دي لاسيرا، وهي قرية تضم ثلاثمئة نسمة، يقف العمدة وامرأته، والمعلم وزوجته، وأمين السر وخطيبته في جانب، ويقف في الجانب الآخر الكاهن وقيمة منزله، والخال روكي والخالة ميثوكا، وتدعم هذا الجانب وذاك جوقة من الجنسين. كيف كانت حرب طروادة التي ندين لها بـ*الإلياذة*؟

ولا بد أن يكون الذباب والقمل والبعوض راضياً، وهيا بنا لرؤية السبب: إذا ما قام شخص بدس الدسائس والتآمر وإثارة الشغب في هذه المدينة التي أكتب فيها، أي احتمال يمكن أن يبقى له لينتقل إلى العصور التالية، بطريقة أو بأخرى وتحت هذا الاسم أو ذاك، ما لم أنجح أنا، أو ينجح آخر يحب دولثنيا مثلي، في رسمه بملامح كونية وخالدة؟

لقد قيل وكُرر آلاف المرات إن أعظم الفن والأدب وأكثره ديمومة قد شُيِّد بمواد محدودة، والجميع يعرفون أن ما يُخسر في التوسع يُكسب في الكثافة. ولكن الكسب في الكثافة هو كسب في الديمومة. فالذرة خالدة، إذا وجدت الذرة. وما يخص كل واحد من البشر يخص الجميع. ما هو أشد فردية يكون أشد عمومية. وأنا من جانبي أفضل أن أكون ذرة خالدة على أن أكون لحظة عابرة من الكون.

ما هو فردي بالمطلق يكون كونياً بالمطلق، فحتى المنطق يطابق بين القضايا الشخصية والكونية. وبالتحرك يتم الوصول، في الإنسان، إلى المتعاقد الاجتماعي لدى جان جاك، وإلى ذي القائمتين العاري لدى أفلاطون، والإنسان العارف لدى لينيو، أو إلى الحيوان اللبون منتصب القامة لدى العلم الحديث، إلى الإنسان بالتعريف، وبما أنه ليس من هنا ولا من هناك، وليس من الحاضر، ولا من الماضي، ليس من أي مكان أو أي زمان، يتبين بالتالي أنه

twitter @baghdad_library

homo insipidus إنسان بلا نكهة. وهكذا، كلما كان العمل ملتصقاً بمكان وزمان محدودين، يكون أكثر عالمية وقِدماً، شريطة تزوده بروح خلود ولا نهاية، وفيها نفحة إلهية. وأكبر أكذوبة في التاريخ هي ما يسمى التاريخ العالمي.

انظر إلى دون كيخوته. فدون كيخوته لم يذهب إلى الفلاندر ولم يبحر إلى أميركا، ولم يحاول المشاركة في أي من الأعمال التاريخية الكبرى في عصره، وإنما سار على الدروب الترابية في موطنه «لامانشا» لنجدة الملهوفين الذين يصادفهم، ولتقويم ما يجده من اعوجاج هناك وفي زمنه. وكان قلبه يقول له إنه بإلحاق الهزيمة بطواحين الهواء في لامانشا فإن الهزيمة تلحق بطواحين الهواء الأخرى، وبمعاقبة خوان هالدودو الثري، يُعاقب كافة السادة الأثرياء القساة والبخلاء. إذ لا مجال للشك في أنه يوم يُهزم شرير هزيمة تامة، فإن الشر سيبدأ بالزوال من الأرض، وسوف يزول سريعاً منها.

لقد كان دون كيخوته، وهو ما قلناه من قبل، تلميذاً وفياً للمسيح، وقد جعل يسوع الناصري من حياته درساً أبدياً في حقول الجليل الصغيرة ودروبها. ولم يصعد إلى أي مدينة سوى أورشليم، كما أن دون كيخوته لم يذهب إلا إلى برشلونة التي هي أورشليم فارسنا.

ما من شيء أقل عالمية مما يسمى الكوزموبوليتي أو العالمي، مثلما خطر لهم الآن أن يقولوا: لا شيء أقل أبدية مما نحاول وضعه خارج الزمن. ففي أعماق الأشياء، وليس خارجها، يكمن ما هو خارجي ولانهائي. والأبدية هي جوهر اللحظة التي تمر، وليس مدى عرض وطول وارتفاع كل الاتساعات. الأبدية واللانهائية هما جوهر الزمان والمكان على التوالي، وأشكال هذين، مع فرضية أن الأبدية واللانهائية خالدتان، يكون أولهما (الزمان) هو كل لحظة من ديمومة، ويكون الثاني (المكان) هو كل نقطة من اتساع.

فلنصطد إذاً، ولنبتلع الذباب السام الذي يطن ويحوم حولنا شاهراً إبره، وستمنحنا دولثنيا سلطة تحويل عملية الصيد تلك إلى معركة ملحمية تُنشد مع ديمومة العصور في أجواء الأرض كلها.

الفصول السابع والتاسع والأربعون، والحادي والخمسون والخامس والخمسون

[وفيها النهاية المتعبة لحكومة سانتشو بانثا]

يترك المؤرخ هنا دون كيخوته، ويقفز في هذه الفصول بين أمور هذا وأمور تابعه، ليروي لنا كيف حكم سانتشو الجزيرة، وهو حكم لا يحسن التعليق عليه إلا بكلمات بولس الرسول في المقطع الثامن عشر من الفصل الثالث من رسالته الأولى إلى أهل كورنثوس، حيث يقول: «لا يخدعن أحد نفسه. إن كان أحدكم يظن أنه حكيم بينكم في هذا الدهر فليصر جاهلاً لكي يصير حكيماً حقاً».

وقد كان القهرمان محقاً بقوله لسانشو وهو يستمع إليه: «في كل يوم تُرى أشياء جديدة في الدنيا. السخريات تتحول إلى حقائق، ويجد الساخرون أنفسهم محط سخرية». وكيف لا؟

وسانتشو، الحاكم على سبيل السخرية، «أمر بأمور جيدة مازالت محفوظة حتى اليوم في ذلك المكان، وتسمى: قوانين الحاكم العظيم سانتشو بانثا.» ولسنا نعجب من ذلك، إذ أن معظم كبار المشرعين لا يتجاوزون سانتشو بانثا، وما لم يكونوا كذلك فإن تشريعهم سيء.

وجاءت أخيراً نهاية حكومة سانتشو، وفي هذه النهاية غاص بانثا في مهاوي بطولته. وبتركه حكم الجزيرة الذي طالما أطلق الزفرات من أجله، انتهى الأمر بسانتشو إلى معرفة نفسه، وكان بإمكانه أن يقول للساخرين منه ما قاله دون كيخوته لبيدرو ألونسو حين حمله هذا الأخير معه في خرجته الأولى، وهو ذلك القول: «أنا أعرف من أنا». وقد قلتُ إن البطل وحده يستطيع أن يقول «أنا أعرف من أنا»، وأضيفُ الآن أن كل من يستطيع أن يقول «أنا أعرف من أنا» هو بطل، مهما بدت لنا حياته متواضعة ومجهولة. وسانتشو حين ترك الجزيرة، عرف من هو.

وبعد أن هشموا عظامه في الهجوم الخادع المزعوم على الجزيرة، وعاد إلى رشده من إغماءة الرعب والمفاجأة التي استولت عليه، سأل كم الساعة، ثم

twitter @baghdad_library

صمت، وارتدى ثيابه، وذهب إلى الإسطبل، «يتبعه جميع الحاضرين، وحين وصل إلى حيث حماره، قبّله قبلة سلام على جبهته، وقال له والدموع في عينيه: "تعال إلي يا صاحبي وصديقي، يا حامل أعبائي وبؤسي. عندما كنا معاً ولم يكن يشغل تفكيري سوى العناية بإصلاح برذعتك وعدتك، وتغذية جسمك الضخم، كانت ساعاتي وأيامي وأعوامي هادئة. ولكن بعد أن تركتك وصعدتُ إلى أبراج الطموح والكبرياء، دخلت إلى روحي ألف بلية، وألف عمل، وأربعة آلاف نكبة». وبعد أن وضع البرذعة على ظهر الحمار، أضاف مسوغات أخرى لا تقل رصانة، طالباً أن يتركوه يعود إلى «حريته السابقة».

«أنا لم أولد لأكون حاكماً ـ قال ـ، ولا للدفاع عن جزر ولا مدن ضد أعداء يريدون مهاجمتها. وأفضل ما أجيد عمله هو حرث الأرض وحفرها، وأُحسن تقليم الكرمة أكثر من سن القوانين والدفاع عن الأقاليم والممالك. فالقديس بطرس يعيش على أحسن حال في روما. وأعني أنه من الأفضل لكل إنسان أن يمارس المهنة التي ولد لها». وأنت يا سانشو لم تولد لتأمر، وإنما لتكون مأموراً، ومن ولد ليكون مأموراً يجد حريته في أن يُؤمر وعبوديته في أن يكون آمراً. لم تولد لتقود آخرين، وإنما لتتبع سيدك دون كيخوته؛ وفي السير وراءه تكمن جزيرتك. أما ن تكون سيداً! فيا للشقاء والبؤس الذي سيحمله ذلك معه! لقد أحسنت القول تيريسا دي خيسوس حين حدثتنا في الفصل الرابع والثلاثين من مؤلفها *حياة* عن تلك السيدة التي أرادت مساعدتها في تأسيس دير القديس يوسف، وكيف مقتت تماماً الرغبة في أن تكون سيدة حين رأت عيشها، لأن «ذلك قيد، وواحدة من الأكاذيب التي يتداولها العالم، فإطلاق تسمية سادة على أشخاص مماثلين لا أرى فيهم إلا عبيداً لألف شيء».

لقد ظننتَ يا سانتشو أنك خرجت من بيت امرأتك وأولادك وتركتهم لتبحث لك ولهم عن حكم الجزيرة، ولكنك خرجت في الحقيقة مدفوعاً بروح بطولة سيدك ورحت تعرف، مع أنك لم تُدرك ذلك بوضوح، أن جزيرتك في اتباعك له وخدمته والعيش معه. ما عساك تفعل من دون سيدك ومالكك؟

وماذا أفادك حكم جزيرتك مادام سيدك دون كيخوته ليس معك هناك، ومادمت لا تستطيع أن ترى نفسك فيه، وتخدمه، وتقدره، وتحبه؟ لأن ما لا تراه العين لا يشعر به القلب.

«ولتبق في هذا الإسطبل - أضاف سانتشو - أجنحة النملة التي رفعتني في الهواء ليأكلني السنونو وغيره من الطيور، ولنعد للتجوال في الدنيا ببساطة...» لابد أنك سمعت مرات كثيرة يا سانتشو الطيب أنه على المرء أن يكون طموحاً وأن يسعى جاهداً للطيران كي تنبت له أجنحة، ولقد قلتُ لك ذلك مرات عديدة، وأعود فأكرر إن طموحك يجب أن يوجه نحو البحث عن دون كيخوته؛ فطموح من ولد ليكون مأموراً ينبغي أن يكون البحث عمن يأمره، وأن يتمكن من القول عنه ما كان البرتغاليون يقولونه عن «السيد»، كما تذكر *أنشودة السيد* القديمة:

رياه، ما أحسن التابعَ إذا وجد سيداً جيداً!

وعندما تركتَ ذلك الحكم الذي طالما تلهفتَ إليه، والذي بدا لك أنه سبب وغاية أعمالك الجوالة كلها، حين تركته وعدت إلى سيدك، وصلتَ إلى لباب ذاتك وصار بوسعك اكتساب الرجولة مع دون كيخوته والقول معه: «أنا أعرف من أنا». إنك بطل مثله، شديد البطولة مثله. والمسألة يا سانتشو أن البطولة تنتقل إلينا حين نقترب من البطل بقلب نقي. فتقدير البطل وحبه بنزاهة ودون خبث هو مشاركة في بطولته؛ وهو كمن يحسن الاستمتاع بشعر الشاعر؛ فهو بدوره شاعر مثله لأنه يحسن الاستمتاع بشعره.

لقد كنت تعتبر نفسك نفعياً وطماعاً يا سانتشو، وعندما خرجت من جزيرتك استطعت أن تصرخ: «خروجي عارياً مثلما أنا خارج، لا يحتاج إلى دليل على أنني حكمت كملاك». وهذه هي الحقيقة، وقد اعترف بها الدكتور رثيو. وعرضوا عليه مرافقته في الطريق، وكل «ما يشاء من هدايا لشخصه ومن أجل راحته في رحلته». ولكن «سانتشو أجاب بأنه لا يريد سوى القليل من

twitter @baghdad_library

الشعير لحماره، ونصف قطعة جبن ونصف رغيف خبز له». إنه لا ينسى صديقه ورفيقه الأشهب، ذلك الحيوان الصبور والنبيل الذي يربطه إلى الأرض. «عانقه الجميع، وبادلهم هو العناق باكياً، ومضى تاركاً إياهم في دهشة بالغة من حكمته ومن تصميمه الحاسم والواعي». وظل وحيداً في دروب العالم، بعيداً عن منزله، بلا الجزيرة وبلا دون كيخوته، مهملاً نفسه، وسيداً لنفسه. سيداً؟ «وأدركته ليلة حالكة الظلام». كان وحيداً، من دون سيده، وخارج بيته. فما الذي يمكن أن يحدث له؟ «سقط هو وحماره في حفرة عميقة».

انظر يا سانتشو، هذا ما سيحدث لك حين تكون بعيداً عن موطنك، عن موطن ذويك، بلا جزيرة، وبلا سيد؛ إنه السقوط في حفرة. ولكن لم يأتك أي ضرر من ذلك السقوط، لأنك هناك، في أعماق الحفرة، تمكنت من رؤية عمق هوة حياتك وكيف أن من رأى نفسه بالأمس حاكماً لجزيرة، «يأمر خدمه وأتباعه، سيجد نفسه اليوم مدفوناً في حفرة، دون أن يكون هنالك شخص واحد يعينه، ولا خادم أو تابع يهرع لنجدته». وهناك، في أعماق الحفرة، أدركت أنك لن تلقى فيها حسن الحظ الذي لقيه سيدك دون كيخوته في كهف مونتيسينوس لأنه «رأى هناك رؤى جميلة وهادئة ـ رحت تقول لنفسك ـ أما أنا فلن أرى هنا، على ما أعتقد، سوى ضفادع وأفاع». أجل يا أخي سانتشو. ليست الرؤى لسائر الناس وليس عالم الحفر والهاويات سوى انعكاس لعالم هاويات أرواحنا. وأنت كان يمكن لك أن ترى في كهف مونتيسينوس ضفادع وأفاع كما رأيت في هذه الحفرة التي سقطت فيها. ولو أن سيدك كان هنا في الحفرة لرأى رؤى جميلة وهادئة كتلك التي رآها في كهف مونتيسينوس. لا يمكن أن تكون هناك رؤى في نظرك سوى رؤى سيدك؛ فهو يرى عالم الرؤى وأنت ترى ذلك العالم من خلاله، هو يراه من خلال إيمانه بالرب وبذاته، وأنت تراه من خلال إيمانك بالرب وبسيدك. وليس إيمانك أقل عظمة من إيمان دون كيخوته. وليست الرؤى التي تراها من خلال سيدك أقل خصوصية بك من خصوصيتها به هو الذي يراها بنفسه. فالرب نفسه يوجدها له ويوجدها لك،

يوجدها له فيه هو نفسه، ويوجدها لك أنت فيه. وليس من يؤمن بالبطل أقل بطولة من البطل نفسه الذي يؤمن ببطولته.

ولكن سانتشو نفسه راح يندب في قاع الهوة ويبكي نكبته، وهو يرى أن عظامه ستخرج من هناك «جرداء، نظيفة، ونخرة» ومعها عظام حماره الطيب. وحين رأى أنه سيموت بعيداً عن موطنه وذويه، دون أن يغمض له أحد عينيه، ولا يتألم لموته أحد في لحظة الموت، وهذا أشبه بالموت مرتين، وأنه سيبقى وحيداً مع الموت. وطلع عليه الصباح وهو على تلك الحال. وما الذي سيفعله سانتشو المسكين وهو وحيد مع حماره، سوى الصراخ وطلب النجدة؟ وأن يستطلع الحفرة، فليس عبثاً أنه خدم دون كيخوته. وعندئذ هتف بتلك العبارات المثقلة: «أعني أيها الرب كلي القدرة! فهذه الحال التي تبدو لي نكبة، ستبدو لسيدي دون كيخوته مغامرة. لو أنه مكاني لرأى في هذه الأعماق حدائق غناء وقصور غاليانا. وكان سيأمل أن يعثر في نهاية هذه الأعماق الضيقة مرجاً مزهراً، أما أنا عاثر الحظ الذي لا ناصح لي ولا همة، فإنني أظن مع كل خطوة أنه ستنفتح تحت قدمي هاوية أعمق من الأخرى السابقة، وتنتهي إلى ابتلاعي نهائياً».

أجل، يا أخي سانتشو، أجل، فقدانك الهمة يحول وسيحول دون عثورك على حدائق غناء وقصور غاليانا في عمق الحفرة التي سقطت فيها. ولكن انظر، الآن في أعماق حفرة تعاستك، وأنت تعرف المدى الكبير الفاصل بينك وبين سيدك، الآن بالضبط أنت أقرب إليه، لأنك كلما شعرت أنك أكثر بُعداً عنه تكون أقرب إليه. ما يحدث لك مع سيدك، وإن يكن بصورة محدودة ونسبية، هو ما يحدث بصورة لا نهائية ومطلقة لسيدك، ولك، ولي، ولجميع البشر الفانين مع الرب، ذلك أننا حين نشعر أن اللانهاية تفصل بيننا وبينه، نكون أكثر قرباً منه، وكلما أصبنا أقل في تحديده وتشخيصه نزداد معرفة به وحباً له.

وبينما هو على هذه الحال مع حماره ومع أفكاره في تلك الأعماق، كان سانتشو يصرخ، وسَمع صرخاته... من تراه الذي سيسمعها؟ من سيكون سوى دون كيخوته نفسه؟ كان هذا قد خرج ذات صباح ليختبر قوة نفسه ويتأمل في ما

twitter @baghdad_library

سيفعله بمسألة شرف ابنة دونيا رودريغث، فساقه الرب إلى فوهة الحفرة، حيث سمع الأصوات التي يطلقها سانتشو. فظن دون كيخوته أنها روح معذبة، وأنها بحاجة لقداس راحة نفسها من أجل إخراجها من المطهر، ولأن مهنته نجدة الملهوفين في هذا العالم، فسوف يفعل ذلك أيضاً للملهوفين في العالم الآخر.

انظر يا سانتشو كيف أن سيدك، حين سمعك في الحفرة، وهو لا يراك، ظنك ميتاً، وعرض عليك قداساً لراحة نفسك. وعندئذ، حين سمعتَ أنت صوت سيدك، صحت مبتهجاً: «أنا لم أمت قطّ طيلة أيام حياتي!». ولم تعد تفكر في أنهم سيجمعون عظامك جرداء ونظيفة ونخرة، ولا في أنك ستموت وحيداً مع الموت. لقد سمعت سيدك، فنسيت أنك ستموت، ولم تتذكر إلا أنك لم تمت قطّ بعد. ونهق الحمار، وحين سمعه دون كيخوته أدرك أن المسألة ليست مسألة روح معذبة، وإنما هو تابعه الذي كان يرافقه. وتلك هي العلامة المؤكدة، لأنه حين يخرج مما نظنه العالم الآخر صوت نهيق، فذلك لا يعني إلا أنه من هذا العالم. وعمل دون كيخوته على إخراجك من الحفرة.

وهكذا أُخرج سانتشو من الحفرة التي سقط فيها بعد خروجه من حكم جزيرته ورؤيته نفسه وحيداً، خرج من تلك الحفرة وهو يقود الحمار وراءه. وهذا اختلاف آخر بين السيد والتابع؛ فذاك يسلم قياده لحصانه بينما التابع يقود حماره. وهكذا يحدث في المسير في العالم الآخر أن الكيخوتي يسلم قياده لبهيمته والسانتشي يقودها.

الفصل السادس والخمسون

[وفيه ما جرى لدون كيخوته مع دونيا رودريغث، وصيفة الدوقة، ووقائع أخرى جديرة بخلود الذكر]

في المغامرة الكئيبة للوصيفة دونيا رودريغث يجب الانتباه فقط إلى السذاجة

الفاتنة لهذه المرأة الطيبة التي لجأت حقاً، وسط كل أولئك الساخرين، إلى دون كيخوته. وعندئذ هُيأت المبارزة الفريد بين الفارس وتوسيلوس لإرغام من غرر بابنة دونيا رودريغث على اتخاذ هذه الأخيرة حماة له، والنهاية غير المتوقعة، بفضل وقوع توسيلوس المفاجئ في حب الآنسة السابقة وإعلان رغبته في أن يتخذها زوجة له. وهكذا، وسط الساخرين الكثيرين، أوصلت دونيا رودريغث الساذجة، البلهاء، ابنتها إلى عتبة الزواج بفضل دون كيخوته. إذ يحدث على الدوام أن من يلجأ إلى دون كيخوته بنقاء سريرة ونية طيبة حقاً وليس بسخرية، ينال ما يرغب فيه. من الصعب وجود مثل هذا الإيمان في عالم ساخرين، ولكن ألا ترون أن من يأخذون دون كيخوته على محمل الجد، مثل دونيا رودريغث وابنتها، يصل إلى بغيته، ما لم يعترض سبيله ساخرون، مثلما جرى اعتراض سبيلهما؟

وصحيح أنه عند اكتشاف أن الفارس الذي اعترف بهزيمته لم يكن هو من غرر بالفتاة، وإنما توسيلوس، أعلنت المغرر بها وأمها أن في الأمر غشاً، ولكن دون كيخوته أحسن القول للآنسة السابقة حين وجد نفسه إزاء حالة جديدة من السحر: «اتبعي نصحي، وتزوجي من هذا الرجل، على الرغم من خبث أعدائي، لأنه دون شك الرجل الذي كنت ترغبين فيه كزوج». إنه هو نفسه بالضبط! فقد رضيت به، لأنها تفضل أن تكون زوجة شرعية لخادم على أن تكون خليلة مغرراً بها لفارس.

لقد حصلت على يد دون كيخوته، على زوج غير متوقع، وهذه هي المفاجأة التي أوصلت فارسنا سريعاً إلى نهاية سعيدة. وقد حقق ذلك لأنه التقى بأناس بسطاء متواضعين، ممن يأخذون العالم على محمل الجد ويلجئون بجد إلى دون كيخوته؛ ولأنه التقى بفتاة مغرر بها وتتلهف إلى زوج، وتقنع بالذي يوفره لها دون كيخوته.

يا للتوافق الرائع! وهذا هو الشرط كي يتمكن البطل من تقديم نفعه لنا، وذلك بأن نكون مستعدين لأن نتلقى من يده ما يقدمه لنا، على أن يكون مما

twitter @baghdad_library

يغطي حاجتنا. هل أنت، أيتها القارئة، آنسة غرر بها وتريدين إصلاح نكبتك؟ أتحتاجين إلى زوج يغطي عارك؟ لا تطلبي إذاً أن يكون هذا الرجل أو ذاك، وأقل من ذلك أن يكون من غرر بك، واقنعي بمن يقدمه إليك دون كيخوته لأنه وسيط زواج جيد.

وفور انتهاء المؤرخ من رواية هذه المغامرة السعيدة، أضاف هذه الكلمات الرهيبة: «وهتف الجميع لفوز دون كيخوته، وأحس كثيرون بالأسف والكآبة لأنهم لم يروا تمزيق كل من المتبارزين للآخر». آه، كم هو الإنسان رهيب في سخرياته! فالخوف من سخرية الإنسان أعظم من مجابهة حيوان مفترس يهاجمك بدافع الجوع. وحين يقف البشر في مزالق السخرية فإنهم لا يتوقفون حتى النزول إلى منزلق الجرائم والنذالة؛ فبالمزاح بدأ الكثير من أفظع الجرائم، ومن أجل السعي إلى التسلية والمرح وصل كثيرون إلى التورط في القتل.

يا لفظاعة السخرية! يقولون إن تاريخ حياتك، يا سيدي دون كيخوته، قد كُتب على سبيل السخرية، من أجل معالجتنا من جنون البطولة، ويضيفون أن الساخر توصل إلى غايته. وقد تحول اسمك ليكون في نظر كثيرين رمزاً وخلاصة للسخرية، وتعويذة للتطهر من البطولة وتصغير العظمة. ولن نستعيد نفَسنا القديم طالما لم نتحول إلى سخرية حقيقية ونتحول إلى كيخوته بجد وليس كالتزام ودون أن نؤمن بك.

يضحك أكثرية من يقرؤون قصتك، أيها المجنون السامي، وهم لن يستطيعوا الانتفاع بجوهرك الروحي ما لم يبكونه. يا لبؤس ذاك الذي لم ينتزع تاريخك منه الدموع، أيها النبيل العظيم، دموع القلب لا دموع العيون.

في مُؤَلَّف ساخر كُثِّفت ثمرة بطولتنا، في مؤلف ساخر خُلدت العظمة العابرة لبلادنا إسبانيا، وفي مؤلف ساخر أُوجزت ولُخصت فلسفتنا الإسبانية، الفلسفة الوحيدة الحقيقية والعميقة، وبمُؤَلَّف ساخر وصلت روح شعبنا، مجسدة في رجل، إلى أعماق سر الحياة. وهذا المؤلف الساخر هو أشد تاريخ حزنٍ كُتب. إنه الأشد حزناً، أجل، ولكنه في الوقت نفسه الأشد عزاء لكل من يعرفون أن يتذوقوا، في

دموع الضحك، خلاص التعقل البائس الذي تحكم به علينا عبودية الحياة الحاضرة.

أنا لا أعرف إذا كان يمكن لهذا المُؤَلف الذي يساء فهمه ويساء الإحساس به أكثر، أن يكون له أي دور، ولكن المسألة أن جواً خانقاً من الرصانة المرهِقة يخيم فوق وطننا المسكين. ففي كل مكان هنالك رجال رصينون، رصينون بصورة هائلة، رصينون حتى البلاهة. يُعَلّمون برصانة، يعظون برصانة، يكذبون برصانة، يخدعون برصانة، يتنازعون برصانة، يلعبون ويضحكون برصانة، ويخلفون وعودهم برصانة، وحتى هذا الذي يسمونه الخفة والاستهتار بالرسميات هو من أشد ما عُرف من أشكال الخفة والاستهتار رصانة. وحتى عندما يكونون وحدهم يتمايلون أو يقفزون مرحاً، دون سبب، بحيث يبدو أنه قد استُنفد في تاريخ دون كيخوته احتياطي السخرية كله الذي كان موجوداً في إسبانيا، وأنه ليس من السهل اليوم العثور في العالم على شعب أعجز من الإسباني على فهم السخرية والإحساس بها. فهنا ينظرون بظرف إلى أشد النكات تفاهة ويضحكون لها. وهناك حمير بهيئة البشر، إذا قيل لأحدهم إن أذنيه تبدوان كأذني حمار، يحتفون بقوله كما لو أنه النكتة الأشد براعة.

بعد مغادرتك هذه الدنيا يا دون كيخوته وصل الأمر إلى الضحك من حماقات تافهة أطلقها المدعو فراي خيرونديو دي كامباثا، وبعد أن تخلى سانتشو عن النضال لإحراز إيمانه، جاءنا إيطالي يدعى برتولدو في مسعى إلى جعل شعبنا برتولدياً. ويبدو أمراً غير قابل للتصديق أن الشعب الذي رفع فيه دون كيخوته أبأس السخريات إلى مرتبة المآثر البطولية، يضحك لنكات ذلك الجنائزي المدعو كيبيدو، الرصين والمتيبس، إذا كانت قد وجدت حقاً، وقد ضُحك من تلك الظرافات المزعومة، وهي مجرد قشرة، إن لم نقل مجرد قشرة القشرة، أعني أنها مجرد ألفاظ، في مؤَلَّفه *البخيل العظيم*.

twitter @baghdad_library

الفصل السابع والخمسون

[وفيه كيف ودّع دون كيخوته الدوق وما حدث له مع اللعوب ألتيسيدورا وصيفة الدوقة]

ملّ دون كيخوته البطالة في منزل الدوق، وكان متألماً في أعمق أعماقه من السخريات التي تعرض لها، وان لم يشر مؤرخه إلى ذلك، فقرر الرحيل. وليس لدينا أدنى شك في أن تلك السخريات لم تنطلِ عليه ولم تمر دون آلام تخلفها في نفسه. فمع أن جنونه كان يعتبرها جيدة ويستغلها في البطولة، إلا أن تعقله، في الخفاء، لم يكن يتوقف عن العمل، وربما دون أن يلحظ هو نفسه ذلك.

وهكذا «طلب ذات يوم من الدوق والدوقة أن يأذنا له بالرحيل»، فأذنا له «بمظهر من يحزنهما جداً فراقه لهما». وقدما لسانتشو، خفية عن سيده «كيساً فيه مئتي اسكودو من الذهب»، هي الثمن المحزن للسخريات، وأجر الألاعيب. وبعد أن تعرض دون كيخوته مرة أخرى لسخريات ألتيسيدورا بسيل من المغازلات الخادعة «اتخذ طريقة إلى سرقسطة».

وبتحرر فارس الإيمان من البطالة، يمكننا التنفس معه بعمق.

الفصل الثامن والخمسون

[وفيه كيف تكاثرت المغامرات على دون كيخوته واحدة بعد أخرى]

حين وجد دون كيخوته نفسه في العراء، حراً ومتخلصاً من مغازلات ألتيسيدورا، بدا له أنه في وسطه، وأن روحه تتجدد ليواصل من جديد قضية فروسيته، فالتفت إلى سانتشو وقال له: «الحرية يا سانشو هي إحدى أثمن هبات السماء للبشر...»، وكل ما تبع ذلك.

أجل، صرتَ حراً من السخريات والمزاح، صرت حراً من الدوق وزوجته والوصيفات والخدم، صرت حراً من عار الظهور فقيراً. ويمكن أن نتفهم جيداً أنه «وسط تلك المآدب الفاخرة وتلك المشروبات المثلجة» كنت تشعر «أنك محشور وسط ضيق الجوع». وأحسنت في قولك: «ما أسعد ذاك الذي منحته السماء كسرة خبز، دون أن يكون مضطراً إلى شكر أحد باستثناء السماء». ومن هو هذا؟

«وفي أثناء تبادل هذه الأفكار وغيرها كان يمضي الفارس والتابع الجوالان»، وكان قلب دون كيخوته ممتلئاً بغم عبوديته في منزل الدوق وبذكرى وحدته وفقره، عندما التقى باثني عشر فلاحاً، يحملون تماثيل حفر بارز ونقش مغطاة بقطع قماش كبيرة من أجل مذبح القرية. فطلب منهم دون كيخوته بأدب أن يُروه تمثال القديس جورج، والقديس مارتين، والقديس دييغو ماتاموروس، والقديس بولس، فرسان المسيحية الجوالة الأربعة الذين قاتلوا على الطريقة الإلهية، وبعد أن رآها دون كيخوته، قال: «من حسن طالعي أيها الإخوة أنني رأيت ما رأيته، لأن هؤلاء القديسين والفرسان مارسوا المهنة التي أمارسها، وهي مهنة السلاح. ولكن الفارق بيني وبينهم هو أنهم كانوا قديسين، وقاتلوا على الطريقة الإلهية، بينما أنا خاطئ وأقاتل على الطريقة البشرية. هم اقتحموا السماء بقوة سواعدهم، لأن السماء تحتمل القوة. أما أنا فلا أدري ما الذي حصلت عليه حتى الآن لقاء أعمالي، ولكن إذا كانت دولثنيا دل توبوسو قد تخلصت مما تعانيه، فإن طالعي سيتحسن، ويستقيم عقلي، ويمكن لخطواتي أن تسلك سبيلاً خيراً من الذي أمضي فيه».

يا له من مقطع بالغ العمق! هنا ينصهر الجنون الآني للفارس دون كيخوته في الطيبة الأبدية لعقلانية النبيل ألونسو الطيب، وربما لا يوجد في ملحمة حياته الحزينة مقطعاً يؤثر فينا بحزن في القلب أعمق من هذا. هنا يتوغل دون كيخوته ويتعمق في تعقل ألونسو كيخانو الطيب، وبتوغله في ذاته، يعود ليكون طفلاً وليرضع، وفق ما تورده تيريسا دي خيسوس في كتابها «*حياة*» (13 ـ 2) بأنه

twitter @baghdad_library

«بشأن المعرفة الخاصة لا يمكن التخلي عنها أبداً، وما من نفس في هذا الطريق، مهما عظمت، إلا واحتاجت في أحيان كثيرة للعودة إلى الطفولة وإلى الرضاعة». أجل، دون كيخوته يعود هنا إلى طفولته الروحية، إلى الطفولة التي تشكل ذكراها طمأنينة لأرواحنا، لأن الطفل الذي نحمله جميعنا في أعماقنا هو من سيتولى تبرير وجودنا ذات يوم. يجب أن نجعل من أنفسنا أطفالاً كي ندخل ملكوت السماء. وهنا تضطرم في رأس وقلب دون كيخوته سنوات صباه النائية التي لا يقول عنها تاريخه أي شيء. تلك السنوات الغامضة كلها التي كان لا يزال فيها متحرراً من سحر كتب الفروسية، والتي كان يتأمل فيها بسلام، في سكون الأمسيات، وداعة أراضي المنتشا المطمئنة.

ألم يكن هناك، أيها الفارس المسكين، في ثمالة تحررك من ذلك السحر، ذكرى واحدة عن تلك المتأنقة ألدونثا التي ظللتَ تتنهد لهفة إليها طوال اثني عشر عاماً دون أن تكون قد رأيتها سوى أربع مرات؟ «لو أن دولثنيا دل توبوسو تخلصت من (الأعمال) التي تعاني منها..» هذا ما كنت تقوله يا دون كيخوته المسكين، وفي أثناء ذلك كان ألونسو كيخانو يفكر في أعماقك: آه، لو أن المستحيل، بحكم كونه مستحيلاً، يتحقق بفضل جنوني، ولو أن ألدونثا، مدفوعة بالشفقة ومسحورة بجنون مآثري، تأتي لتكسر خجلي، خجل النبيل المسكين المتقدم في السن والمترع بالحب. آه، عندئذ «سيتحسن طالعي ويستقيم عقلي» وستسلك خطواتي السبيل في حياة حب سعيد! آه، يا ألدونثا، يا حبيبتي ألدونثا، كان يمكن لك أنت حملي إلى طريق أفضل من هذا الذي أسلكه. ولكن... الوقت فات! لقد التقيتك في وقت متأخر من حياتي! آه لأسرار الزمن! كان يمكن لي معك أن أكون بطلاً، ولكن بطلاً بلا جنون. كان يمكن لجهودي البطولية معك أن تحقق مآثر من نوع آخر وذات شأن آخر. ومعك كنت سأنشر، بدل هذه السخريات، حقائق مثمرة في ربوع موطني!

والآن، فلنترك ألونسو الطيب، ولنرجع إلى دون كيخوته لنستمع إلى

الفارس في بطولته لتقويم اعوجاجات العالم، بهدف الوصول، إلى خلود الاسم والشهرة، فلنستمع إليه كيف يعترف بعدم معرفته ما يمكن له غزوه بقوة أعماله، ولنره يلتفت إلى خلاص روحه وإلى اقتحام السماء التي تحتمل القوة.

«ماذا ينفع الإنسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه؟ وماذا يعطي الإنسان فداء عن نفسه؟» هكذا يقول الإنجيل (متى الإصحاح 16، 26).

في هذه الكلمات المثبطة للعزيمة التي وردت في كتاب دون كيخوته، وهذا النكوص إلى تعقل ألونسو الطيب، تتكشف بوضوح أخوته الروحية مع صوفيي موطنه القشتالي، مع تلك الأرواح الممتلئة بعطش القفار الجافة التي تعيش فوقها، والسماء الساكنة الصافية والملساء التي يتلهفون تحتها. وهي في الوقت نفسه أنَّة الروح حين تجد نفسها وحيدة.

لماذا إجهاد النفس؟ لماذا كل ذلك؟ كل يوم تكفيه شروره. ولماذا الذهاب لتقويم اعوجاجات العالم؟ إننا نحمل العالم في داخلنا، وهو حلمنا، مثلما هي الحياة؛ نطهر أنفسنا فنطهره. النظرة النظيفة تنظف كل ما تنظر إليه. والآذان العفيفة تعاقب كل ما تسمع. وسوء النية في عمل، أهو في من يعمله أو في من يحكم عليه؟ والخبث الرهيب لأي قابيل أو يهوذا، ألا يكون إدانة ورمزاً لخبث من روّجوا أسطورتيهما؟ أليس خبثنا هو ما يجعلنا نكتشف مقدار خبث أخينا؟ أليست القشة التي تغبش عينك هي التي تتيح لك رؤية الخشبة في عيني؟ ربما يتحمل الشيطان وزر خطايا من يخافونه... لنسبغ القدسية على نوايانا فيتقدس العالم. ولنطهر ضمائرنا فتعبق الطهارة في الجو. «المحبة تستر الكثير من الخطايا»، هذا ما تقوله الرسالة الأولى المنسوبة إلى بطرس الرسول (الإصحاح الرابع، 8). فذوو القلوب النظيفة يرون الرب في كل شيء، ويصفحون باسمه عن كل شيء. والنوايا الأخرى تقع خارج تأثيرنا، وفي النوايا وحدها يكمن الشر.

وفوق هذا كله، ما الذي تسعى إليه بأعمالك البطولية؟ أهو تقويم اعوجاجات حباً بالعدالة، أم نيل خلود الاسم والشهرة بذلك التقويم؟ والحقيقة

twitter @baghdad_library

هي أننا نحن البشر الفانون لا ندري ما الذي نسعى إليه بقوة عملنا. فلنُحَسِّن طالعنا، ولنقوّم عقولنا ونسدد خطانا إلى طريق أفضل من الذي نسلكه، طريق آخر لا يكون طريق التبجح.

البحث عن السمعة والشهرة! لقد قال ذلك سيخيسموندو، أخو دون كيخوته:

من يُضيع مجداً إلهياً
من أجل تبجح إنساني؟
أي ماضٍ طيب لم يكن حلماً؟
من الذي نال سعادة بطولية،
ولم يقل بينه وبين نفسه
حين يستعيدها في ذاكرته:
لا شك أنني كنت أحلم
حين رأيته؟ فإذا كان هذا يلمس
خيبة أملي، وإذا كنت أعلم
أن اللذة لهب جميل
تحيله إلى رماد أي ريح تهب،
فلنهرع إلى ما هو خالد،
ألا وهو الشهرة الباقية
حيث لا تنام السعادة
ولا تستكين العظمة.

(*الحياة حلم*، الفصل الثالث، المشهد العاشر)

فلنلجأ إلى ما هو خالد. أجل، وهكذا، بتحسن حظنا وتقويم عقولنا، نسدد خطانا إلى طريق أفضل من الذي نسلكه، ونتوجه لاقتحام السماء التي تحتمل القوة.

... الشهرة الباقية
حيث لا تنام السعادة
ولا تستكين العظمة.

وقبل سيخيسموندو الكالديروني، قبله بزمن طويل، وعندما أنشد خورخي مانريكي الوقور موت أبيه دون رودريغو، معلم سنتياغو، تحدث لنا عن الحيوات الثلاث: حياة الجسد، وحياة شيوع الاسم، وحياة الروح. وعندما كان أبوه دون رودريغو يستريح بعد مآثر كثيرة

في منزله في أوكانيا،
جاء الموت إلى بابه
يدعوه قائلاً له:
أيها الفارس الصالح
دع العالم الخادع
ودع تملقه.
أظهر جهدك المشهور
وقلبك الفولاذي
في هذه الجرعة.
فأنت لم تهتم كثيراً
بحياتك وصحتك
في سبيل الشهرة،
فابذل جهود الفضيلة
لمعاناة هذه الإهانة
التي تدعوك.
لن تكون مريرة جداً عليك
المعركة الرهيبة التي تنتظرك،

twitter @baghdad_library

لأن حياة أخرى أطول،
حياة شهرة مجيدة
تتركها هنا.
ومع أن حياة الشرف هذه
ليست أبدية أيضاً،
ولا حقيقية،
لكنها مع ذلك أفضل بكثير
من تلك الأخرى المؤقتة.
الزائلة

بهذه الثقة
وبالإيمان الكامل
الذي تحتضنه،
امضِ بأمل طيب،
أمل أنك ستحظى
بهذه الحياة الأخرى الثالثة.

أليس أعظم جنون هو السماح بفقدان المجد الدائم من أجل مجد عابر، وخلود الروح بدل دوام اسمنا ما دام العالم موجوداً، لحظة أبدية؟ وفي معظم الأحيان، عند السعي إلى المجد السماوي، يتم كذلك اقتحام المجد الأرضي. وقد أحسن قول ذلك فرناندو دل بولغار، مستشار الملكين الكاثوليكيين وأمين سرهم وكاتب أخبارهم، والذي قال في كتابه ***مشاهير رجال قشتالة***، عند تكلمه عن كونت هارو، دون بيدرو فرناندث دي بيلاسكو، حيث يقول لنا: «هذا الكونت النبيل الذي لم يبلغ السيادة طمعاً في إحراز الشهرة في هذه الحياة، وإنما بلغ السيادة بطموحه في نيل المجد في الحياة الأخرى، وقد حكم الدولة باستقامة

فكان جديراً بالجائزة التي تقدمها عادة الفضيلة الحقيقية، ومعروفة أنها بلغت عنده حدّ الحصول على الكثير من والسلطة، بحيث إذا كان هناك في المملكة عمل يتطلب ثقة كبيرة، ويحتاج إلى شخص يتمتع بالصلابة أو بأية صفة أخرى، فإنه يُكلف به على الدوام». وهذا يعني أنه بالسعي إلى بلوغ ملكوت الرب وعدالته، ونيل المجد في الحياة الآخرة، يتم التوصل، فضلاً عن ذلك، إلى الشهرة في هذه الحياة، وبهذا يتبدى مرة أخرى أن خير تجارة هي الفضيلة، وأن المسيرة الأكثر ربحاً ومنفعة هي في كون المرء قديساً.

وبالفعل، المسيرة الأكثر ربحاً ومنفعة هي في كون المرء قديساً. وقد كان إينيغو دي لويولا في صباه، كما روى لنا الأب ريفادينيرا، صديقاً لقراءة كتب الفروسية، وسعى إلى «نيل الشهرة كرجل شجاع، وإحراز الشرف والمجد العسكريين» (*حياة*، الكتاب الثاني، الفصل الثاني). لكنه قرأ كتباً أخرى و«وحاول بحق بينه وبين نفسه أن يغير حياته، وأن يوجه قيدوم تفكيره نحو مرفأ آخر أكثر يقيناً وأمناً، وأن يحلّ خيوط ما كان قد نسجه، ويتخلى عن خدع وأحابيل غروره» (الكتاب الثاني، الفصل الثاني). ألم تكن لإينيغو هذا ألدونثا خاصة به، تنهد من أجلها لسنوات وسنوات وحملته إلى حياة القداسة بعد أن كُسرت ساقه؟

يا له من مقطع عميق الدلالة، مثقل بالكآبة، مقطع لقاء دون كيخوته بتماثيل الفرسان الأربعة الجوالين على السبيل الإلهي! لقد اعتبره الفارس فأل خير، وقد كان، بالفعل، فأل تحوله التالي وموته. فما إن تحسن حظه وتهيأ عقله، حتى سارع إلى تقويم خطاه إلى طريق أفضل، إلى طريق الموت.

يا له من مقطع عميق الدلالة! ومن منا، نحن الذين نتبع أو نريد أن نتبع دون كيخوته في شيء، لم يحدث له شيء مماثل؟ الأثر المحزن للفوز هو فك السحر. لا، لم يكن الأمر كذلك. فما فعلته أو قلته لا يستحق التصفيق الذي كافأك به أولئك الرجال. وتصل إلى بيتك، فتجد نفسك وحيداً فيه، وعندئذ تلقي بنفسك على السرير كما أنت بثيابك، وتطلق لخيالك العنان عبر الفراغ. لا تحدق إلى شيء، لا تركز خيالك على شيء. ويسيطر عليك خمود همة عظيم.

twitter @baghdad_library

لا ، لم يكن الأمر كذلك. لم تشأ أن تفعل ما جرى ، ولم تشأ أن تقول ما قد قيل. لقد صفقوا لك على ما هو ليس لك. وتأتي امرأتك ، طافحة بالحنان ، وحين تراك مستلقياً على تلك الحال ، تسألك ما بك ، ماذا أصابك ، لماذا أنت قلق ، فتصرفها ، ربما بشيء من الجفاء : دعيني بسلام! وتظل في حرب. وفي أثناء ذلك يظن من يراقبونك أنك منتشٍ بالانتصار ، بينما أنت في الحقيقة حزين ، حزين جداً ، خامد الهمة ، قانط تماماً. لقد صرت تشمئز من نفسك ، لا يمكنك الرجوع إلى الوراء ، لا يمكنك إعادة الزمن والقول لمن يأتون للاستماع إليك : «هذا كله كذب. وأنا مازلت لا أدري ما الذي سأقوله. لقد جئنا إلى هنا لنخدع أنفسنا. سأكون هنا في استعراض ، هيا إذاً ، فليذهب كل إلى بيته ، ولنرَ إن كنا نُحسّن حظنا ونهيئ عقولنا»

لا بد أن القارئ سيلاحظ أنني أكتب هذه السطور تحت وطأة خمود في الهمة. وهذا صحيح. فالوقت ليل ، وقد تحدثتُ هذا المساء أمام جمهور ، ومازالت تتردد في أذني أصداء التصفيق بصورة محزنة. وأسمع كذلك الانتقادات ، وأقول لنفسي : إنهم محقون! معهم حق : كان ذلك دوراً في مهرجان. معهم حق : إنني آخذ بالتحول إلى ممثل ، إلى مهرج ، إلى محترف كلام. وحتى صراحتي التي طالما تفاخرت بها ، آخذة بالتحول إلى خطابة نمطية. ألا يكون من الأفضل أن أعتكف في البيت فترة ، وأن أصمت وأنتظر؟ ولكن ، هل هذا ممكن؟ وهل يمكنني الصمود غداً؟ أليس من الجبن الهروب؟ ألا أحسن صنعاً للبعض بكلامي ، وإن كان هذا الكلام يخمد همتي ويحزنني؟ وهذا الصوت الذي يقول لي : اصمت أيها المهرج! ، أهو صوت ملاك من ملائكة الرب ، أم أنه صوت الشيطان المغوي؟ آه ، رباه ، أنت تعلم أنني لا أعرف إلى أين وعبر أي طريق تقودني ؛ أنت تعلم أنه إذا كان هناك من يحكم عليّ بقسوة ، فإنني أشد منه قسوة في الحكم على نفسي. أنت أيها الرب تعرف الحقيقة ، أنت وحدك. حسِّن حظي وقوّم لي عقلي ، لأرى إن كنتَ سأسدد خطاي في طريق أفضل من الذي أسلكه.

«لا أدري ما الذي حصلت عليه حتى الآن لقاء أعمالي» أقول هذا مع دون كيخوته. وقد كان على دون كيخوته أن يقوله في واحدة من تلك اللحظات التي يهز فيها الروح حفيفُ أجنحة ملاك الأسرار الخفية، في لحظة غمّ. فهنالك لحظات، دون أن ندري كيف ولا من أين، يباغتنا فجأة، وفي وقت لا يخطر على بال، ويسيطر علينا بصورة غير متوقعة الشعور بأننا إلى فناء. حين أكون أكثر انغماساً بمشاغل شؤون الحياة ومتطلباتها، أو منغمساً في حفلة أو في حديث ممتع، يبدو لي فجأة أن الموت يرفرف فوقي. ليس الموت بالضبط، بل ما هو أسوأ، إنه إحساس بالإعياء، بحالة قصوى من الضيق، تنتزعنا من المعرفة الظاهرية، وتقودنا بالضرب وبالهراوة إلى المعرفة الجوهرية للأشياء.

الإبداع كله هو شيء سنفقده ذات يوم، أو أنه سيفقدنا يوماً، وإلا أي معنى آخر لتلاشينا من العالم دون أن يتلاشى عالمنا الخاص؟ هل يمكنك أن تتصور نفسك كغير موجود؟ حاول ذلك، ركز مخيلتك في ذلك، وتخيل نفسك بالذات بلا رؤية، وبلا سمع، وبلا لمس، وبلا تذكر أي شيء. حاول ذلك، فقد تستحضر وتجتذب إليك ذلك الغم الذي ينتابنا في أوقات لا تخطر على بال، وتشعر بالغصة تشد على حنجرة روحك، حيث تتنفس روحك. ومثلما يفعل نقار الخشب بشجرة السنديان، هكذا يعمل الغم الدائم نقراً في القلب ليحفر فيه عشاً له.

وفي هذا الغم، في ذروة ضيق الاختناق الروحي ذاك، تتقطر منك الأفكار، فتحلقُ طائراً بقلقٍ لاستعادتها إلى المعرفة الجوهرية. وسترى أن العالم هو إبداعك، وليس تصورك كما قال الألماني. وبقدرة هذا العمل العظيم، عمل القلق، تتوصلُ إلى اقتحام الحقيقية التي ليست، لا، ليست انعكاس الكون في الذهن، وإنما هي مجلسه في القلب. فقلق الروح هو باب الحقيقة الجوهرية. عاني كي تؤمن وحين تؤمن تحيا. وفي مواجهة إنكارات **المنطق** التي تحكم العلاقات الظاهرية للأشياء. ينتصب التأكيد **القلبي** الذي يحكم علاقاتها الجوهرية. ومع أن عقلك يقول إن الوعي لديك سيتبدد ذات يوم، فإن قلبك المستيقظ المضاء

twitter @baghdad_library

بالقلق اللامتناهي سيعلمك أن هنالك عالماً ليس العقل فيه هو الدليل. الحقيقة هي ما تُمَكّن من العيش، وليست ما تُمَكّن من التفكير.

وحين رأى دون كيخوته التماثيل، عانى ومضة إغماء. ولو أنه لم يعانها قطّ لكان لا إنسانياً في إنساني خارق محض، ولكان بذلك نموذجاً مستحيلاً لبشر كل يوم العاديين. وكم كان سيعاني منها المسيح نفسه، المثقل بالأسى في جبل الزيتون، لو أنه طلب من أبيه السماوي إن كان بالإمكان تجنيبه ثمالة كأس المرارة؟ لقد ارتاب كيخوته خلال لحظة بالمجد، ولكن حبيبته هذه كانت تحبه بدورها وكانت، بالتالي، أمه مثلما هي لكل محب محبوبته الحقيقية. هنالك من لا يكتشف عمق المحبة التي تكنها له زوجته إلا حين يسمعها، في لحظة الغم، تتوجه إليه بأسى: «بني!» وتضمه بأمومة بين ذراعيها. حب أي امرأة، إذا كان حقيقياً وحميماً، هو حب أم. فالمرأة تتبنى من تحب. وهكذا فإن دولثنيا، ليست سيدة أفكار دون كيخوته وحسب، وإنما هي أمه الروحية، وحتى لو خطر لذهنه أن يتبرأ من أمومتها، سترون أنها ستستعيده بنداء حب، مثلما تستعيد البقرة، حين تشعر بامتلاء ضرعها، عجلها الرضيع الذي ابتعد عنها يتقافز طليقاً، تستعيده بإطلاق خوار عذب يخترق الهواء الفاصل بينهما. سترون كيف تستبقيه وتشده إليها بوثاق أخضر.

وبعد هذا الذي روي، مضى السيد وتابعه وهما يتبادلان الأحاديث؛ فدخلا غابة إلى جانب الطريق، «ووجد دون كيخوته نفسه، دون أن ينتبه، متشابكاً بشبكة خيوط خضراء ممدودة بين بعض الأشجار» وتبين أن فتيات باهرات الجمال وشباناً نبلاء، متنكرين بثياب رعاة وراعيات، يريدون تكوين أركاديا رعوية جديدة، ويمضون الوقت بإنشاد أناشيد رعوية لغارثيلاسو وكاموينس. فعرفوا دون كيخوته ورجوه أن يبقى معهم، وهذا ما فعله، وتناول الطعام برفقتهم. وعرفاناً منه بالجميل، ومكافأة لهم على استضافته، قدم إليهم ما يستطيع تقديمه وما هو في متناول يده، وذلك بوقوفه طوال يومين كاملين وسط ذلك الطريق العام المؤدي إلى ثراغوثا، والتأكيد لكل من يمر أن أولئك

السيدات المتنكرات بثياب الرعاة هن أجمل سيدات الدنيا وأكثرهن أدباً، باستثناء المنقطعة النظير دولثنيا دل توبوسو وحدها، سيدة أفكاره الوحيدة.

انظروا هنا كيف يعود فارسنا الرائع إلى جنونه! فبينما كان مستغرقاً في تأمل جنون جهود أعماله وعدم جدواها، تمسك به شباك خضراء وتعيده إلى حلم الجنون والحياة الندي. لقد عاد الفارس إلى حلم الحياة، إلى جنونه الكريم، منبعثاً، ومستعيداً التماسك، من التعقل الأناني لألونسو كيخانو الطيب. وعندئذ، حين يعود إلى جنونه السامي، فإنه يعود إلى شهامة نواياه ويعرض ما عرضه من التأكيد على شرف وفخار مضيفه. فمن ذلك الاستغراق في مهاوي عدم جدوى الجهد الإنساني، أخذ الفارس أنفاساً واستمدت الطاقة المولدة لفارس الإيمان صلابة جديدة، مثلما استمدهما أنتايوس[1] من ملامسته أمه الأرض؛ واندفع إلى الاستسلام المقدس للفعل، دون أن يلتفت بوجهه أبداً إلى الماضي، مثلما فعلت امرأة لوط، بل يتوجه دوماً إلى المستقبل، مملكة المثالية الوحيدة.

اندفع دون كيخوته إلى الطريق، ووقف في وسطه وأعلن نذره الذي وعد به. وهنا سيقول القارئ ما قيل مرات عديدة في سياق هذا التاريخ الجوال: ما علاقة صحة فرضية ما بشجاعة من يؤكدها وقوة ساعده؟ لأنه إذا انتصر مؤكد هذه الفرضية أو تلك بقوة السلاح، فهل سيجعل ما يؤكده هو أكثر حقيقية مما يؤكده المهزوم؟

لقد قلت لك أيها القارئ إن الشهداء هم الذين يصنعون الإيمان أكثر مما يصنع الإيمانُ الشهداءَ. والإيمان يصنع الحقيقة.

حقيقة بين مزاح ولعب، لأنها ابنة الإيمان،
تظل صخرة راسخة في الكائن، تصمد أمام الماء والرياح.

---

[1] أنتايوس: مارد جبار منحه أبوه بوزيدون قوة هائلة، وكانت أمه غايا إلهة الأرض تمده بالقوة كلما لمسها، وقد اكتشف هرقل سر قوته، فرفعه عالياً عن الأرض وخنقه.

twitter @baghdad_library

كما قال رودريغو دياث دي بيبار في الأنشودة الشهيرة.

وغاضباً أمام الملك
أمام من يحاكمهم، قبل سنوات عشر،

هذا صحيح، وأكرره لك، ما يحركنا إلى الفعل يجعل النتيجة تغطي هدفنا، وبالتالي فإن الفعل هو الذي يصنع الحقيقة. فدعك إذاً من المنطق. كيف يمكن للبشر أن يبدعوا الأشياء ويحملوها لتحقيق أهدافهم ما لم يحافظوا عليها بشجاعة؟ الناس يؤمنون أن الحقيقة هي العمل المنتصر بقوة وذراع من يؤكدها، وحين يؤمنون أنها حقيقية يجعلونها كذلك إذا ما حملتهم إلى العمل بنجاح. الأيدي، إذاً، تؤكد اللسان، وبعمق صائب قال بيرو بيرمودث متوجهاً إلى فيراندو، ولي عهد كاريون، في ذلك البلاط الشهير:

أمام السيد وأمام الجميع تبجحتَ
بأنك ستقتل المورو.
أنت فتى وسيم، ولكنك رعديد.
فكيف يمكن للسان بلا يدين، أن يجرؤ على الكلام؟
(أنشودة السيد 3، 324 ـ 3، 328)

ثم يواصل مواجهاً إياه بأنه هرب من الأسد الذي أخجله **السيد**، ولذا فهو أقل شأناً «فأنت أقل شجاعة اليوم» (3، 334) ـ وقد هجر بعد ذلك زوجته، ابنة السيد، و

لأنك هجرتها، أنت أقل قيمة اليوم
(3، 334)

وانتهى هاتفاً:

وكل ما هو حقيقة قلته أنا.
(3، 357)

وقد صدق الجميع فيراندو، لأنهم يجهلون الحقيقة، بأنه وسيم لكنه رعديد. ثم إن اللسان بلا يدين، كيف يجرؤ على الكلام؟

ولن نعدم مع ذلك مزعجاً اسكولائياً يأتيني بأنني أخلط بين الحقيقة المنطقية والحقيقة الأخلاقية، وبين الخطأ والكذب، وإنه قد يكون هناك من يعمل مدفوعاً بأوهام ويتوصل مع هذا إلى هدفه. فردّي على هذا بأن ذلك الوهم هو الحقيقة الأكثر حقيقية، وأنه لا منطق سوى الأخلاق. وكل ما أقوله أنا هو الحقيقة. وكفى.

اندفع دون كيخوته إلى الطريق، ووقف في وسطه وأعلن نذره الذي وعد به. وحدث عندئذ أن قطيعاً من الثيران طرحه أرضاً وداسه. فهكذا يحدث، حين تدعون فرساناً للدفاع عن الحقيقة، تأتي الثيران وحتى الجواميس وتدوسكم.

الفصل التاسع والخمسون

[وفيه الحادث الاستثنائي الذي يمكن اعتباره مغامرة وقعت لدون كيخوته]

نهض دون كيخوته، وامتطى حصانه، ودون أن يودع أركاديا المصطنعة، واصل طريقه وهو أشد حزناً. لأنه جاء حزيناً من منزل الدوق. وحين رأى سانتشو يأكل قال له: «كل يا صديقي، وأسند حياةً أعز عليك مما هي عليّ، ودعني أمت من همومي وتعاستي» دعني أمت! دعني أمت من همومي وتعاستي! أكنت تفكر أيها الفارس المسكين بانسحار دولثنيا، وكان ألونسو الذي فيك يفكر في فتنة ألدونثا؟

وواصل دون كيخوته القول: «لقد ولدت لأعيش وأنا أموت، وأنت لتموت وأنت تأكل.» يا له من حكم بالغ الصواب! أجل، فمن أجل أن يعيش وهو يموت، يولد كل نوع من البطولة. وحين رأى الفارس نفسه «مداساً

twitter @baghdad_library

ومهشماً تحت قوائم بهائم دنسة وخسيسة» فكر في أن يترك نفسه يموت جوعاً. واقتراب الموت الذي يأتي بخطى حثيثة للانقضاض عليه، راح يضيء ذهنه ويزيح عنه غشاوة الجنون. فأدرك أن بهائم دنسة وخسيسة هي التي داسته وهشمته، وليس بفعل سحر وشعوذة.

مسكين يا سيدي! لقد أدار لك الحظ ظهره وازدراك. ولكنك بالرغم من ذلك لست أقل انتظاراً له، وأملك هو حظك الحقيقي، وسعادتك هي انتظاره. ألم تنظر طوال اثني عشر عاماً مديداً وما زلت تنتظر المستحيل بأمل يزداد قوة فصار ما تنتظره أشد استحالة؟ أعرف جيداً أنك لم تنس ما قرأته في النشيد الثاني من ملحمة *أراوكانا* لمواطني أرثيّا، حيث يقول:

المؤكد تماماً من الحظ
هو عدم الحصول عليه مرة واحدة.

استراح السيد والتابع قليلاً ثم واصلا السير فوصلا إلى نزل، رأى فيه دون كيخوته نزلاً، لأنه خرج من منزل الدوق، كما رأينا، وهو يتماثل للشفاء من جنونه، وانقشاع الغشاوة عن بصره. فقد بدأت السخريات توقظه. لقد فتحت السخريات عينيه ليعرف الحيوانات الدنسة والخسيسة.

وقد اضطر مع ذلك إلى إثارة صخب في النزل، وكان ذلك حين علم بالأكاذيب الملفقة التي نسجها حوله الجزء الثاني الزائف من تاريخه.

الفصل الستون
[وفيه ما جرى لدون كيخوته وهو في الطريق إلى برشلونة]

مضيا في الطريق إلى برشلونة، وفي أثناء ذلك، بينما هما جالسان بين أشجار بلوط أو فلين كثيفة، حدثت أشد الحوادث حزناً بين الأحزان الكثيرة التي

يتضمنها تاريخ دون كيخوته. وكان ذلك مع قنوط دون كيخوته من تراخي تابعه سانتشو وعدم إحسانه، «لأنه لم يضرب نفسه، بحسب ما يعتقد، سوى خمس جلدات، وهو مقدار ضئيل جداً بالمقارنة مع ضخامة العدد المتبقي عليه» إذا أراد رفع السحر عن دولثنيا، وقرر أن يجلده على الرغم منه. وحاول ذلك، وقاومه التابع، فأصر دون كيخوته، وحين رأى سانتشو بانثا ذلك «نهض واقفاً، وانقض على سيده، وامسك به بيديه، وشبك رجله برجل سيده فأسقطه أرضاً ووضع ركبته اليمنى فوق صدره، وثبت بيديه يدي السيد بحيث لا يمكنه من الحركة ولا التنفس».

كفى، لأن قراءة هذه الخطوة الحزينة تؤدي إلى انهيار أشد العزائم. فبعد سخرية الدوق وزوجته، والغم الفقر، وقنوط البطولة حيال تماثيل القديسين الفرسان الأربعة، والتهشم تحت قوائم البهائم الدنسة والخسيسة، لم يعد ينقصه، كتعذيب أقصى، سوى تمرد تابعه. كان سانتشو قد رأى نفسه حاكماً، ورأى سيده ملقى تحت قوائم العجول. إنها خطوة عميقة الحزن.

وقال له دون كيخوته: «كيف أيها الخائن؟ أتتمرد على سيدك ومولاك الطبيعي؟ أتتطاول على من يقدم لك الخبز؟» الخبز؟ ليس الخبز فقط، وإنما المجد أيضاً والحياة الخالدة نفسها. فأجابه سانتشو: «أنا لا أخلع ملكاً، ولا أُنصِّب ملكاً، ولكنني أساعد نفسي بنفسي، لأنني سيد نفسي».

مسكين يا سانتشو، ويا لحضيض البلاهة الذي يدفع بك إليه الجسد الخاطئ! إنك تتمرد ضد سيدك ومولاك الطبيعي، ضد من يقدم لك خبزاً أبدياً لحياتك الأبدية، ظناً منك أنك سيد نفسك. لا يا سانتشو المسكين، لا. فالسانشيون ليسوا أسياد أنفسهم. وهذه الحجة الخبيثة التي تبرر بها تمردك «أنا سيد نفسي!» ليست إلا صدى لقول إبليس، أمير الظلمات: «لن أخدم!». لا يا سانتشو، أنت لست ولا يمكن لك أن تكون سيد نفسك، ولو أنك قتلت سيدك، فإنك في تلك اللحظة نفسها ستقتل نفسك إلى الأبد.

ولكننا إذا أمعنا النظر، فإنه من غير السيئ تماماً أن يتمرد سانتشو هكذا،

twitter @baghdad_library

لأنه لو لم يتمرد قطّ لما كان رجلاً، رجلاً حقيقياً وكاملاً. وهذا التمرد، إذا ما نظرنا إليه جيداً، كان عمل محبة، محبة عميقة لسيده الذي يتمرد ويخرج، في حزن جنونه الاحتضاري، على ممارسات الفروسية الصالحة. وبعد الذي حدث، بعد أن ثبته تحت ركبته، بعد أن انتصر عليه، تبين بصورة مؤكدة أن سانتشو قد أحب سيده واحترمه وقدره أكثر من السابق. هكذا هو الإنسان.

ووعده دون كيخوته بألا يمس شعرة من ثيابه، متقبلاً بذلك أن الهزيمة على يد تابعه. وهي أول مرة في حياته كلها يتقبل فيها فارس الأسود الهزيمة بمذلة ودون أن يدافع عن نفسه؛ يسمح بأن يُغلب على يد تابعه.

وسانتشو هذا نفسه الذي انقض على سيده ووضع ركبته على صدره، ارتجف خوفاً حين أحس بقدمي إنسان متنعلتين حذاء تتدليان من شجرة فوق رأسه، وراح يصرخ مستدعياً دون كيخوته لنجدته.

ما إن تمرد ضد سيده ومولاه الطبيعي بصرخته الثورية «أنا سيد نفسي»، حتى لم يعد سيد نفسه، بل صار يرتجف خوفاً حين أحس بوجود قدمين فوق رأسه، واستدعى سيده ومولاه الطبيعي ليحميه من الخوف. واستجاب دون كيخوته ـ طبعاً! ـ للنداء، لأنه كان طيباً. وتوقع أنها أرجل أشقياء وقطاع طريق جرى شنقهم على تلك الأشجار.

وقد رأيا عندما طلع الصباح أن الأمر كذلك بالفعل، وفوجئا كذلك «بأن أربعين من قطاع الطرق الأحياء قد أحاطوا بهما وأمروهما باللغة الكتلانية أن يبقيا هادئين وألا يتحركا إلى أن يأتي قائدهم». ووجد دون كيخوته المسكين نفسه «راجلاً وفرسه بغير لجام، ورمحه مستند إلى شجرة، وكان باختصار بلا أي دفاع، ورأى أنه من الأفضل أن يقاطع ذراعيه ويحني رأسه، وأن يحتفظ بنفسه لمناسبة أفضل». يا للفارس المثالي! وكم علمته سخريات الدوق، ودروس العجول، وهجمة سانتشو! إنه يستشعر، دون أن يدري، اقتراب الموت.

وجاء القائد روكي غينارت ورأى هيئة دون كيخوته الحزينة والكئيبة فشجعه. وكان قد سمع كلاماً عنه. وهناك عرف دون كيخوته مملكة قطاع الطرق

المنظمة، وحاول بالكلام الطيب وليس بالإكراه أن يقنع روكي غينارت بالتحول إلى الفروسية الجوالة. وأفاد اللقاء في أن تُعجب الفارس حياة قاطع الطريق الشهمة، وعدله في توزيع غنائم السرقة، وسخائه مع المسافرين. وهو نفسه، دون كيخوته، الذي أثار حفيظة أشخاص وقورين بإطلاقه سراح المحكومين بالتجذيف في السفن، لم يحاول بأي حال أن يقوض مملكة قطاع الطرق تلك.

ومسألة عدالة التوزيع وجودة نظام تقاسم الغنائم في عصابة روكي غينارت، هو شرط لازم لكل جمعية قطاع طرق. فعندما يحدثنا فرناندو دل بولغار في كتابه «*مشاهير رجال قشتالة*» عن قاطع الطريق رودريغو دي بييّادراندو، كونت ريباديو وكيف أنه، بوساطة عصابته وسلطته الواسعة، «سرق وأحرق وهدم ودمر وشرد بلدات وقرى وأمكنة في بورغونيا وفرنسا»، ويقول لنا إنه «كان يتمسك بشرطين أساسين: أولهما الحفاظ على العدل بين رجاله، وعدم السماح باستخدام القوة والسرقة، وغيرهما من الجرائم، وإذا ارتكب ذلك أحد رجاله فإنه يقتص منه بيده». وهنا يظهر كيف أنه في جمعيات السطو المنظمة تكون ملاحقة السرقة نفسها قاسية وصارمة، مثلما هي الحال في الجيوش، وهي المنظمة للإساءة والتدمير، يكون العقاب أشد قسوة على الإساءة وعلى ما يرمي إلى تدمير نظام الجيش نفسه. وهذا ما يمكن قوله عن كل نوع من العدالة الإنسانية التي تنبثق من الظلم، وعن حاجة هذه العدالة إلى تقوية نفسها واستمرارها. فالعدالة والنظام وجدا في العالم للحفاظ على العنف والفوضى. وقد أصاب أحد المفكرين حين قال إن الحرس المدني قد انبثق من قطاع الطرق المأجورين. والرومانيون، من صاغوا القوانين التي لا تزال سارية، من صاغوا ita ius esto «ايتا ايوس استو»، ألم يكونوا قطاع طرق بدؤوا حياتهم بالسرقة، بحسب الأسطورة التي صاغوها هم أنفسهم؟

من الملائم، أيها القارئ، أن تقف لتتأمل كيف أن تلك السوابق الأخلاقية والحقوقية قد ولدت من العنف ومن أنه، من أجل التمكن من قتل مجتمع بشري، قيل لكل فرد إنه عليهم عدم الاقتتال فيما بينهم، ووُعِظوا بعدم سرقة

twitter @baghdad_library

بعضهم بعضاً، كي يتفرغوا بذلك إلى السرقة كجماعة. هذا هو الأصل الحقيقي لقوانيننا ولأسلافنا، وهذا هو مصدر الأخلاق السائدة. وفيها يُكتشف أصلها ومنشؤها، ولهذا نشعر بميل إلى أن نغفر لأمثال روكي غينارت، وحتى أن نحبهم، لأنه لا وجود بينهم للازدواجية أو الزيف، وإنما تظهر عصاباتهم كما هي في الواقع، بينما الشعوب والأمم التي تدعي أنها مدعوة لتطبيق القانون وخدمة الثقافة والسلام ما هي إلا مجتمعات فريسية. أتعرفون ملمحاً كيخوتياً واحداً عند أمة من البشر كأمة؟

ونرى، من جهة أخرى، أن الشر يخرج من الخير ـ لأنه من الخير في نهاية المطاف، وإن كان خيراً عابراً، أن يكون هناك توزيع عادل ـ وجذور الخير تكمن في الشر، أو أنهما وجهان لصورة واحدة. ومن الحرب ينبثق السلام. ومن السرقة الجماعية تنبثق معاقبة السرقة. على المجتمع أن يأخذ الجرائم على عاتقه ليحرر من يألفونه منها ومن تأنيب الضمير. أليس هنالك، يا ترى، تأنيب ضمير اجتماعي موزع بين أفراده جميعاً؟ وواقع تأنيب الضمير الاجتماعي هذا الذي قلما يُلحظ، هو المحرك الأساسي، دون ريب، لكل تقدم للنوع البشري. وربما ما يدفعنا لأن نكون طيبين وعادلين مع من هم من مجتمعنا هو شعور غامض بأن المجتمع نفسه شرير وجائر. وربما تأنيب الضمير الجماعي الذي يراود جنود الحرب هو الذي يحركهم على تقديم الخدمات فيما بينهم، وحتى تقديمها، أحياناً، للعدو المهزوم. وبسبب معرفتهم وقاحة مهنتهم، يتمسك رفاق روكي بالإيمان فيما بينهم.

واقعة روكي غينارت الرائعة هذه تحتفظ بأشد رابطة حميمة بجوهر تاريخ دون كيخوته. وهي انعكاس، في الوقت نفس، للإشادة الشعبية باللصوصية، وهي إشادة لم تمح قطّ من بلادنا إسبانيا. وروكي غينارت هو سلف لكثير من قطاع الطرق الكرماء الذين حظيت مآثرهم بتقدير شعبنا وأَمتعته من خلال انتقالها وانتشارها بفضل الكراسات وأغاني العميان. إنه سلف لدييغو كوريتيس المكنى بلقب قاطع الطريق الكريم، والوسيم فرانثيسكو إستيبان، وخوسيه ماريا الملقب

ملك سيرا مورينا، والغاوتشي خوان موريرا، هناك في الأرجنتين، وآخرين كثيرين غيرهم، شفيعهم في سماء شعبنا هو القديس ديماس.

عندما صلبوا سيدنا يسوع المسيح، أهانه أحد الأشرار المصلوبين بجانبه بالقول له: «إذا كنت أنت المسيح فخلص نفسك وخلصنا» فأجابه مصلوب آخر وانتهره قائلاً: «ألا تخاف الله حتى وأنت تتلقى هذا تحت الحكم نفسه؟ الحقيقة أننا نحن نجازى بعدل على ما فعلناه، أما هذا فهو لم يفعل شيئاً خبيثاً.» ثم قال ليسوع: «تذكرني أيها السيد متى صرت في ملكوتك». فقال له يسوع: «الحق أقول لك إنك اليوم تكون معي في الفردوس.» (لوقا، الإصحاح الثالث والعشرون، الآيات 30 ـ 43).

ولم يوجد في الإنجيل تأكيد قاطع آخر بمثل جزم القول «تكون معي في الفردوس»، تأكيد مضمون بالخلاص. مرة واحدة طوّب يسوعُ قديساً، وكان قاطع طريق في لحظة الموت. وحين طوّبه، طوّب تواضع لصوصيتنا. ولماذا فعل ذلك، بينما ندد بقسوة بكثير من الكتبة والفريسيين ممن يعتبرهم القانون شرفاء؟ لقد فعل ذلك لأن هؤلاء كانوا يعتبرون أنفسهم عادلين كفريسيي المَثل، أما قاطع الطريق فاعترف بذنبه. وكان أن كافأ يسوع تواضعه. لقد اعترف قاطع الطريق بأنه مذنب وآمن بيسوع.

الشعب لا يمقت شيئاً أكثر من مقته كاتون الذي يعتبر نفسه عادلاً ويبدو أنه يمضي قائلاً: انظروا إليّ وتعلموا مني أن تكونوا شرفاء. ولم يكن روكي غينارت، بالمقابل، يمتدح نفسه، وإنما اعترف لدون كيخوته بأنه ما من طريقه للعيش في حال أكثر قلقاً وترويعاً من طريقته في الحياة، وأنه يصر عليها رغبة في الانتقام، على الرغم مما يدركه، وأضاف: «وكما أن الهاوية تدعو الهاوية، والخطيئة تدعو الخطيئة، فقد توالت أعمال الانتقام بحيث لم أعد أنتقم لنفسي فقط، وإنما آخذ على عاتقي أيضاً الانتقام لآخرين. ولكني، بعون الله، لم أفقد الأمل في الوصول إلى مرفأ آمن على الرغم من رؤية نفسي محشوراً في متاهة ضلالاتي». هذا صدى لصلاة القديس ديماس. ويبدو لنا أننا نسمع ما قاله القديس

twitter @baghdad_library

بولس دي تارسو: «أنا لا أفعل الصالح الذي أريده بل الشر الذي لا أريده. ويحي أنا الإنسان الشقي، من ينقذني من جسد هذا الموت» (الإصحاح السابع، 19، 24).

«أنا لا أفعل الصالح الذي أريده بل الشر الذي لا أريده.» كلمات يوحي بها لنا سلوك روكي غينارت، وتطلب منا صارخة أن نتوقف للتأمل والتفكير فيها. وفي التفكير في أن تطبيق القانون وكون المرء طيباً لا يعنيان الأمر نفسه. وهناك في الواقع من يموت دون أن يكون قد حقق أية رغبة طيبة، ودون أن يكون، على الرغم من ذلك، قد ارتكب خطيئة واحدة. وهناك بالمقابل من يأتيه الموت بعد حياة مثقلة بالجرائم وبرغبات صالحة في الوقت نفسه. فالنوايا وليس الأعمال هي التي تدنس روحنا وتلحق بها الأذى، وفي أحيان غير قليلة يؤدي فعل إجرامي إلى إنقاذ النية التي ولدته ويطهرها. وهناك أكثر من قاتل حاقد بدأ يشعر بالحب نحو ضحيته بعد أن شفي غليل حقده منه، بينما هنالك أناس لا يزالون يحقدون على عدوهم الميت، حتى بعد موته. أعرف أن كثيرين يتلهفون إلى إنسانية تُمنع فيها الجرائم، وإن ظلت المشاعر الخبيثة تسمم النفوس، ولكن الرب يعطينا إنسانية حادة الأهواء، من بغضاء وحب، من حسد وتقدير، من زهد وتهتك، حتى لو جاءت هذه الأهواء معها بثمراتها الطبيعية. والرؤية القانونية لا ترى إلا ما هو في الخارج، وتقيس القصاص على الفعل بناء على نتائجه. أما الرؤية الأخلاقية الخالصة فيجب أن تحكم على أسباب الفعل لا على نتائجه. وما يحدث هو أن أخلاقنا السائدة ملُطخة بالمحاماة، ورؤيتنا الأخلاقية مفسَدة بالقضاء. فالقتل ليس سيئاً لما يسببه من ضرر للميت أو أهله أو أقربائه، وإنما بسبب الفساد الذي ينقل إلى روح القاتل شعوراً يدفعه إلى حمل الموت إلى آخر. وليس الزنا خطيئة بسبب أذى يلحق بمن يزني بها ـ وعادة لا يلحق بها أذى، بل لذه فقط ـ ، وإنما لأن الشهوة القذرة تشغل الإنسان عن التأمل في مصيره بالذات وتصبغ بالزيف كل ما يحصل عليه. ويطلق الغاوتشو[1] بمشاعر

---

[1] غاوتشو gaucho، الرعاة القساة في سهوب البامبا الأرجنتينية.

أسى عميقة صفة «المصيبة» لا على موته وإنما على اضطراره إلى قتل آخر. ولهذا، حتى لو وقعنا في الجريمة، في عالم العبودية، في عالم انتهاك القانون الظاهري، فإننا ننجو إذا ما احتفظنا بنية سليمة في عالم الحرية، في العالم الجوهري للرغبات الحميمة.

وفضلاً عن ذلك، ألا يزيد عدم الثقة بالغفران من إساءات المجرم؟ ولنتذكر هنا المحكوم عليهم بالتجذيف في السفن. أنا أعتقد أنه إذا اقتنع الناس جميعاً بأن هناك مغفرة نهائية للجميع، وأن ثمة حياة دائمة، بطريقة أو بأخرى، فإنهم سيكونون جميعهم أفضل مما هم عليه. فالخوف من القصاص لا يحول دون وقوع الإساءات أكثر مما يتسبب بها اليأس من المغفرة. ولنتذكر بابلو الناسك وقاطع الطريق إنريكو في مسرحية تيرسو دي مولينا التي تحمل عنوان «المدان عديم الثقة»، إنه مشهد خامس عميق للإيمان الإسباني، تذكروا لو أن بابلو الذي يميت جسده في ممارسة التكفير، يضيع نفسه لعدم ثقته بخلاصه، بينما ينجو قاطع الطريق إنريكو لإيمانه بخلاصه. أعيدوا قراءة هذه المسرحية. تذكروا إنريكو ابن أناريتو الذي كان يجمع إلى شروره محبة قلبية لأبيه العاجز وإيمان برحمة الله، واعترافه بعدالة القصاص. تذكروه وهو يقول:

ولكن لدي الأمل
بأنني سأنجو،
لأن أملي
لا يرتكز إلى أعمالي،
وإنما إلى معرفة أن الرب
يؤاخي أعظم الخاطئين،
وينقذه برحمته.

(13 ـ 17)

وتذكروه يموت نادماً بفضل أبيه.

twitter @baghdad_library

أيتنافى هذا مع الحس الأخلاقي؟ إنه يتنافى مع الحس السانتشي، أجل. أما مع الحس الكيخوتيّ فلا. منذ فترة وجيزة، أثار فيلسوف ألماني، نيتشه، ضجة في العالم بكتابته حول ما وراء الخير والشر. هناك شيء ليس في ما وراء، وإنما ضمن الخير والشر، في جذرهما المشترك. ما الذي نعرفه نحن بني البشر الفانين المساكين عن الخير والشر كما تراهما السماء؟ أتراكم تستفظعون أن تغفر ميتة إيمان عن حياة شرور كاملة؟ أتراكم تعلمون إذا كان فعل الإيمان الأخير والتوبة ذاك ليس انبثاقاً إلى الحياة الخارجية، وهي آخذة بالانتهاء، لمشاعر الطيبة والحب التي كان يختلج في الحياة الداخلية، حبيسة تحت قشرة سميكة من الشرور؟ وهل لا وجود لدى الجميع، لدى الجميع بالمطلق، لتلك المشاعر التي من دونها لا يكون الإنسان إنساناً؟ أجل، أيها البشر المساكين، فلنثق بأننا جميعنا طيبون.

ستصرخون: وهل سنعيش هكذا غير آمنين أبداً! ألا ينتهي النظام الاجتماعي بمثل هذه النظريات! ومن قال لكم، يا ذوي الأرواح الخوافة، أن مصير الإنسان النهائي مرتبط بضمان النظام الاجتماعي على الأرض وتفادي تلك الأضرار الظاهرية التي نسميها جرائم وإساءات؟ آه، يا لكم من مساكين أيها البشر! إنكم ترون، على الدوام، في الرب فزاعة أو دركياً، وليس أباً، أباً يغفر دوماً لأبنائه، لا لشيء إلا لأنهم أبناؤه، أبناء دخيلته، وباعتبارهم أبناء الرب، فإنهم طيبون دوماً في أعماق الأعماق حتى وإن كانوا هم أنفسهم لا يعرفون ذلك ولا يصدقونه. ولهذا أرى أن روكي غيبارت وأصحابه كانوا أفضل مما يظنون هم أنفسهم. فقد كان روكي الطيب يعترف بغطرسة مهنته، ولكنه مقيد إليها كقدر محتوم. إنها نجمه. وكان يمكن له أن يقول مع الغاوتشو مارتين فييرو:

هيا بنا أيها الحظ، فلنمض معاً،
لأننا ولدنا معاً،
ومعاً نعيش،

دون أن نقوى على الفراق،
سأشق أنا بمديتي
طريق المسير.

وبالعودة إلى تاريخنا، من الملائم أن نتذكر هنا ما قاله دون فرانثيسكو مانويل دي ميلو في «تاريخ الحركات في كتالونيا والانفصال والحرب في عهد فيليب الرابع»، وهو كتاب نُشر بعد حوالي أربعين عاماً من نشر تاريخ فارسنا، ويقول عند وصف الكتالونيين: «أغلبيتهم الساحقة رجال من طبيعة شديدة الصلابة» وهم «بالغو الانفعال في مواجهة الإهانات، ويميلون بسبب ذلك إلى الانتقام»، ويضيف: «وأرضهم شديدة الوعورة تساعد وتهيئ روحهم الانتقامية لاقتراف أعمال رهيبة لأسباب تافهة. والمتذمر منهم أو المهان يهجر القرى ويتوغل للعيش في الغابات، حيث يرهق الدروب بأعمال سطو متواصلة. ويعيش هؤلاء على حصيلة أعمالهم. وهم يطلقون عادة تسمية الانشغال بالعمل على الوقت الذي يقضونه في تلك الطريقة في الحياة، كإشارة ليعرفوا أنهم في وضع مضطرب. وليس في عمل ذلك لديهم ما يشين، بل إن المتذمر أو المهان يتلقى على الدوام مساعدة ذويه وأصدقائه». ويتحدث بعد ذلك عن عصابتي نياروس وكاديلس المشهورتين، «وهما لا تقلان شهرة وضرراً على بلادهم من عصابات الغويلفيين والجيبيلينين في ميلان، وعصابات بافوس وميديسي في فلورنسا، والبيامونتيين والاغرامونتيين في نافارا، والغامبوينيين والاونياسينيين في فيسكايا القديمة».

وإلى عصابة نياروس كان ينتمي روكي غينارت، وبما أنه كان قد أرسل من هذه العصابة رسولاً إلى برشلونة ليخبر أصدقاءه بقدوم دون كيخوته «كي يتسلوا به، وأنه يريد أن يُحرم من هذه المتعة خصومه من آل كاديل. ولكن ذلك كان مستحيلاً، لأن حكمة وجنون دون كيخوته، إضافة إلى مرح تابعه سانتشو بانثا، لا يمكن إلا أن تبهج الجميع بلا استثناء». يا لتعاستك يا دون كيخوته!

twitter @baghdad_library

إنهم يريدون جعلك احتكاراً لعصابة واحدة وجعل الاستمتاع لها وحدها! يا لما يخطر لكتلانيّ، حتى لو كان قاطع طريق!

الفصول الحادي، والثاني، والثالث والستون
[وفيها ما حدث لدون كيخوته عند دخوله برشلونة وأشياء أخرى حقيقية أكثر منها حصيفة]

بعد ثلاثة أيام «سلك روكي ودون كيخوته وسانتشو دروباً غير مطروقة، مع ستة أعوان، متوجهين إلى برشلونة» فوصلوا إلى شاطئها ليلاً، عشية عيد القديس يوحنا، وهناك ودعهما روكي وأعطى لسانتشو عشرة إسكودو.

صار دون كيخوته الآن في مدينة، وليست إلا كونتية برشلونة المدينة العظيمة والزاهرة، «مقام الأدب، ومأوى الغرباء، ومستشفى الفقراء، ووطن الشجعان البواسل، وملاذ المظلومين، والمركز المشترك لكل الصداقات المخلصة، فريدة في جمال الموقع»، مثلما يصفها المؤرخ فيما بعد، في الفصل الثالث والسبعين. وأشرق الصباح، جال بنظراته على البحر فبدا له فسيحاً جداً وطويلاً، ورأى السفن الكبيرة، ووجد نفسه في احتفال. وجاءت سخرية المواطنين من أصدقاء روكي الذين أحاطوا بدون كيخوته، واقتادوه على أنغام النايات وقرع الدفوف إلى المدينة، حيث جعله الصبية يسقط عن صهوة روثينانته بوضعهم الشوك تحت ذيل الحصان.

هاأنتذا يا سيدي دون كيخوته قد صرت مهزلة المدينة وألعوبة صبيتها. لماذا خرجتَ من الريف ومن دروبه الحرة، الميدان الوحيد لبطولتك؟ فهناك، في برشلونة عرضوه على شرفة منزل في أحد شوارع المدينة الرئيسية، «على مرأى من الناس والصبيان الذين كانوا ينظرون إليه كما لو أنه قرد». وهناك جالوا به في

الشوارع على متن بغل بطئ الخطى، وعلى ظهره برشمان كُتب عليه «هذا هو دون كيخوته دي لامنتشا»، الأمر الذي جعل كل الصبية الذين لم يروه قط يعرفونه، وسط عجب الفارس.

يا لك من مسكين يا دون كيخوته، تجول في المدينة وعلى ظهرك رقّ **هذا هو الرجل** ecce homo![1] لقد تحولتَ إلى محط فضول الأهالي. ولم تعدم قشتالياً يسميك مجنوناً ويوبخك على جنونك. وبعد ذلك، في منزل دون أنطونيو مورينو الذي استضافه، أقيمت سهرة راقصة وجعلوه يرقص إلى أن اضطر إلى الجلوس «في وسط القاعة على الأرض مجهداً ومحطماً من كثرة تلك التمارين الراقصة».

وهذا الذي يحدث له هنا يفوق في الحزن كل ما مرّ منذ اليوم المشؤوم الذي التقى فيه بالدوق. فهم يطوفون به في الشوارع، وقد تحول إلى قرد للصبية، ثم يجعلونه يرقص. ويتخذون منه لعبة، خذروفاً، للهو والتسلية. والآن، الآن يا سيدي، حيث يصبح من الصعب إتباعك؛ الآن حيث ينبغي على المؤمنين بك يختبروا إيمانهم. «فليرقص. فليرقص» ـ هذه إحدى صيحات الهزء التي تسخر بها الحشود الإسبانية من الرجال ـ وأنت يا سيدي دون كيخوته، جعلوك ترقص في برشلونة حتى تحطيمك ورض عظامك.

أن يكون المرء هدفاً لفضول الجموع الكسولة، وسماعهم عند مروره يقولون بصوت خافت: «هذا! هذا هو!». وتحمّل نظرات الحمقى الذين ينظرون إليه لأنهم رأوه في الأوراق العامة، ثم تقنع نفسك بأن هؤلاء الناس لا يعرفون أعمالك، مثلما لا يعرف مآثر دون كيخوته، ولا روحه البطولية، الصبيةُ الذين يهتفون باسمه في شوارع برشلونة، وأنك لست سوى اسم في نظرهم، أتدرون ما هذا؟ أتدرون ما يعنيه أن يعرف الناس اسمكم فقط وأن يعرفونه في كل مكان، بينما لا يعرفون في كل مكان ما الذي فعلتموه؟ يمكن لتعليقاتي هذه حول حياة

---

[1] هو ذا الرجل، العبارة التي توضع باللاتينية فوق رسم المسيح المصلوب والمكلل بتاج من الشوك. ونلاحظ في ثنايا الكتاب إلحاح أونامونو على الربط بين دون كيخوته والمسيح.

twitter @baghdad_library

سيدي دون كيخوته أن تثير في بلادنا إسبانيا، مثلما أثار غيره من أعمالي، جدلاً وصراخاً. حسن إذاً، أؤكد لكم منذ الآن أن أشد الناس غضباً في الصراخ ضده سيكونون ممن لم يقرؤه. ومع ذلك، بائس جداً هو الإنسان الذي يفضل الاسم دون العمل على العمل دون اسم مؤلفه؛ يفضل ترك صورته مسكوكة بالنحاس على ترك ذهب خالص من روحه، ولكن حيث تمحى الصورة والأسطورة.

وهنالك، في مدينة برشلونة المدينة الصناعية، أروه، وما يمكن أن يُروه إياه سوى عجائب الصناعة؟ هناك رأى وسمع الرأس المسحور، وهناك زار المطبعة. «وحدث أنه بينما كان يمر في أحد الشوارع، رفع دون كيخوته رأسه فرأى مكتوباً فوق أحد الأبواب بأحرف كبيرة "**هنا تطبع كتب**" فابتهج كثيراً، لأنه لم يكن قد رأى مطبعة قطّ، وكان يرغب في معرفة كيف هي». فضول طبيعي لدى من بحث في الكتب عن بلسم لحب كبير، ومن حملته الكتب إلى الدخول في غمار مخاطر مسيرته المجيدة. تصوروا الفارس الخمسيني الذي كان يغذي وحدته بالقراءة، هناك في بيته في لامنشا، حيث كانت الكتب أفضل وأوفى صديق له، وستدركون عندئذ بأي حماسة دخل إلى المطبعة. وفيها تصرف كعاقل وأعلن أنه يعرف شيئاً من اللغة التوسكانية، وأنه يتلذذ بإنشاد بعض أشعار أريوستو. وهنا تُطل منه بعض لمحات السخرية من المترجمين والترجمات.

هذا المقطع وغيره من المقاطع الأدبية الخاصة في تاريخنا هي أكثر ما اعتاد اقتباسها أولئك الذين يسمون أنفسهم ثربانتسيين، ولكنها تكاد لا تستحق ذلك في الحقيقة. إنها حذلقات وتكلف أبناء المهنة التي يمر بها الآخرون دون اهتمام. لا بأس في أننا نحن الكتاب نعنى بصنعة عملنا ونقلب ونعيد تقليب اللغة والأسلوب، ولكن لا شيء من هذا يهم من يقرؤنا. لا بأس في أن ينسج الكاتب فقراته ثم يفككها بعد ذلك؛ فيجملها، ويلمعها، ويقصها، ويكبسها ليفصلها ويخيطها بعد ذلك ويصنع منها بدلة لأفكاره، ولكن لفائدة من سيقرؤها. أنا نفسي، في هذه الصفحات، أعترف بأنني قد نمقت وصقلت خطابي، ولكن أكثر ما عملت عليه بجد هو إخراجي إلى سطح اللغة المكتوبة أصواتاً من اللغة المحكية

الدارجة، والنبش عن كلمات تقطر حيوية في تداولها غضة من فم لفم، ومن أذن لأذن بين أهالي قشتالة وليون الطيبين. يجب منح مرونة وغنى للغة القشتالية المتصلبة، هذا ما يقولونه في ما وراء البحار. لا شك في أنه يجب أن تمنح مزيداً من الطلاقة والثراء، ولكنِ لغة الصحف والمقاهي الهزيلة والمحشورة. ومن أجل ذلك لا حاجة للذهاب خارجاً واستعارة أصوات أو عبارات من لغات أخرى؛ يكفي نبش أسرار لغة الرومانس القشتالية نفسها. وعلى كل شخص أن يُسمِّن نفسه.

يأتي آخرون ويقولون لنا لا، وإن الضروري والملح هو تشذيب لغتنا وتقليمها ومنحها دقة وثباتاً. ويقول هؤلاء إن لغتنا تعاني من التعقيد والبسالة الوحشية، وإنه تطل منها وتبرز في كل ناحية فروع ضارة، وإنهم يريدون أن يحولوها لنا كشجيرة حديقة، أو كشجرة حبيسة في قفص. ويضيفون أنها ستكتسب بذلك مزيداً من الوضوح والمنطق. ولكن، أترانا سنكتب بها «*خطاب في المنهج*»؟ فليذهب المنطق والوضوح إلى الشيطان! وليُحتفظ بذلك التشذيب والتقليم للغات يراد بها تجسيد منطق المنطق الماحك. ولكن، ألا تعرف لغتنا يا ترى أن تكون، قبل كل شيء وفوق كل شيء، أداة عاطفة وعباءة لتطلعات كيخوتية متقحمة؟

وفي مسألة الوضوح هذه بالذات ينبغي أن يُفهم أن هناك من يتطلعون إلى أن تقدم إليهم الأفكار ممضوغة ومبللة باللعاب ومتحولة إلى كُريّة قابلة للبلع كيلا يتكلفوا جهد عمل آخر سوى ابتلاعها، أو ما هو أكثر من ذلك، أن تُشبعهم.

الفصل الرابع والستون

[وفيه حديث أشد المغامرات غماً بين كل ما حدث لدون كيخوته حتى الآن]

وهناك، في برشلونة انتهت مغامرات فروسية فارسنا دون كيخوته. فهناك

twitter @baghdad_library

هُزم على يد فارس القمر الأبيض. كان هذا هو من سعى إلى اللقاء والمنازلة للخلاف بينهما حول أي من سيدتيهما هي الأجمل، فجندله على الأرض وطلب منه تنفيذ شروط المبارزة. لكن دون كيخوته العظيم، فارس الإيمان الذي لا يلين، والبطل المجنون، والمحطم والدائخ أجاب «كأنه في أعماق قبر، بصوت ضعيف ومريض، قال: دولثنيا دل توبوسو هي أجمل امرأة في العالم، وأنا أشقى الفرسان على الأرض، ولن يحملني شقائي على خيانة هذه الحقيقة؛ فادفع برمحك أيها الفارس، وانتزع مني الحياة بعد أن انتزعت مني الشرف».

فانظر هنا، عندما انهزم فارس الإيمان الغلاب، كيف أن الحب هو الذي انتصر فيه. هذه الكلمات السامية التي قالها دون كيخوته هي صرخة سامية لانتصار الحب. فقد اسلم نفسه لدولثنيا دون أن يسعى إلى جعل دولثنيا تستسلم له، وهكذا فإن هزيمته لا تؤثر في شيء على جمال سيدته. إنه هو من صنعها، وهذا صحيح، هو من صنعها من الإيمان المحض، هو من خلقها من نيران عاطفته؛ ولكنه بعد أن خلقها، صارت هي حياته ومنها يستمد الحياة. أنا أصوغ حقيقتي بإيماني، رغم الجميع، ولكنني بعد أن أصوغها، أصوغ حقيقتي، فإنها تعتمد على نفسها وتتماسك وحدها وتظل حية بعدي وأحيا أنا فيها.

آه يا سيدي دون كيخوته، بينما أنت على بُعد إصبعين من خلاصك الأبدي، وبعد أن شفيت من الغرور، لم تعد تتكلم عن قوة ذراعك، وإنما تعترف بالضعف! وكيف يشع عليك النور المُطَهِّر للموت القريب! كيف كمن من قبر تتحدث، كمن من قبر العالم الذي يسخر من الأبطال ويطوف بهم في الشوارع ورقعة رقٍّ على ظهورهم! وبينما أنت مهزوم ومحطم وحزين ومكروب ومدرك ضعفك، تصر مع ذلك على الإعلان أن دولثنيا دل توبوسو هي أجمل امرأة في العالم. آه أيها الفارس الكريم! أنت لست مثل أولئك الباحثين عن المجد الذين ما إن يروا أنفسهم مزدرين بسببه حتى يتنكروا له ويعيبونه ويتهمونه بأنه باطل ومسبب للأذى. أنت لست ممن يتهمون المجد بضعفهم وبأنهم لم يتمكنوا

من إحرازه. فأنت، في هزيمتك وتحطمك، تفضل الموت على إنكار من كانت السبب في دخولك مسار البطولة.

ولأنك مؤمن بها، بدولثيناكَ، وتشعر أنها حين تتظاهر بالتخلي عنك، وتتركهم يهزمونك، إنما لكي تحتضنك بعد ذلك بين ذراعيها المرتعشتين بلهفة جائعة، وتضمك إلى صدرها المتأجج إلى أن تتسق ضربات قلبها وقلبك، وتلصق فمها على فمك لتتنفس أنفاسك، وتتنفس أنت أنفاسها، ويظل الفمان ملتصقين هكذا إلى الأبد في قبلة مجد وحب أبديين لا تنتهي. إنها تسمح بهزيمتك كي تدرك أنك لا تدين بحياتك الخالدة لمتانة ذراعك، وإنما لحبك لها. لقد أحببتها يا فارس الإيمان الظافر أعظم الحب وأشده نقاء، أحببتها حباً تغذى على رفضها وصدها لك. لم تتضاءل همتك الباسلة حين رأيتها متحولة إلى فلاحة فظة، ولم تتساءل عن باطل أباطيل كل بطلان الملك الحكيم المتعفن بالتخمة. وعندما هُزمتَ، كانت صيحة نصرك أيها الفارس الظافر هي الهتاف لجمال منقطعة النظير دولثنيا.

وهكذا، عندما نُهزم، نحن أتباعك الأوفياء، وعندما يسحقنا العالم، وتثقل الحياة على قلوبنا، وتذوب آمالنا جميعها، امنحنا روحاً أيها الفارس، امنحنا روحاً وشجاعة لنصرخ من أعماق تفاهتنا: امتلأ، الامتلاء، وكل تمام التمام، وكل التمام! أأموت أنا في مسعاي؟ إذاً يزداد هذا تعاظماً بموتي. أأهزمُ وأنا أناضل في سبيل حقيقتي؟ ليس مهماً! لا يهم، لأنها ستحيا، وببقائها حية ستثبت لكم أنها لا تعتمد علي وإنما أنا الذي أعتمد عليها.

ليس هذا أناي الهش الباطل، ليس هذا أناي الذي يأكل من الأرض والذي ستأكله الأرض ذات يوم، هو الذي سينتصر، ليس هذا، وإنما هي حقيقتي، أناي الأبدية، نموذجي ونمطي منذ قبل ما قبل، إلى بعد ما بعد. إنها فكرة الرب، ضمير الكون، عني. وهي فكرتي الإلهية هذه، دولثنياي هذه، تزداد عظمة وجمالاً بهزيمتي وموتي. وهذه هي مشكلتك كلها: هل عليك أن تطمس

twitter @baghdad_library

فكرتك هذه وتمحوها وتجعل الرب ينساك، أم أنه عليك أن تضحي بنفسك من أجلها وتجعلها تحيا إلى الأبد في ضمير الكون الأزلي واللامتناهي. إما الرب أو النسيان.

إذا كنت تطفئ النور من أجل الاحتفاظ بفتيلتك، وإذا كنت تبدد فكرتك من أجل توفير حياتك، فإن الرب لن يتذكرك، وستغرق في نسيانه كما في الغفران السامي. ما من جحيم غير هذا، جحيم نسيان الرب لنا وعودتنا إلى اللاوعي الذي انبثقنا منه. «اذكرني يا سيد»، لنقل هذا مع الشقي الذي كان يموت إلى جانب يسوع (لوقا، الإصحاح الثالث والعشرون، 42) اذكرني يا سيد، ولتكن حياتي كلها إحياءً لفكرتي الإلهية، وإذا طمستها في جسدي، إذا أفسدتها في أناي هذا الباطل والأرضي، وعندئذ ويحي يا سيد لأنك ستغفر لي متناسياً إياي! إذا تطلعتُ إليك، سأحيا فيك. وإذا ابتعدت عنك، سأنتهي إلى ما ليس لك، إلى ما هو خارج عنك، إلى العدم.

وهازم دون كيخوته، فارس القمر الأبيض الذي أخرجه أيضاً من طمأنينته الريفية حب دولثنيا، لم يقتل فارسنا، وإنما هتف: «فلتعش، لتعش شهرة جمال دولثنيا دل توبوسو تامة!» واكتفى بأن طلب من المهزوم أن يعتزل في بيته ويظل فيه مادام يأمره بذلك... أن يعتزل ليموت! وشمشوم كاراسكو، المجاز من سلمنكا، كان هو نفسه فارس القمر الأبيض، وقد جاء أيضاً للبحث عن مجد، ولكي يقترن اسمه في الشهرة باسم دون كيخوته. ألا يكون قد جاء أيضاً كي يكتسب الجدارة في نظر تلك الأندلسية المدعوة كاسيلدا التي وقع في حبها في أحد أزقة سلمنكا، مدينة نهر التورميس الذهبية؟

وسانتشو، سانتشو المخلص «ظل حزيناً ومغموماً، لا يدري ماذا يمكنه أن يفعل أو يقول. وبدا له أن ذلك كله يحدث في حلم وأن تلك المكيدة برمتها هي عمل من أمور السحرة. كان يرى سيده مهزوماً، مرغماً على البقاء بلا سلاح طيلة عام كامل. وتصور إظلام نور مجد مآثره، وآمال وعوده الجديدة تتبدد كتبدد الدخان مع الريح».

فلنتوقف للتأمل في هذه النهاية لمسيرة دون كيخوته المجيدة، وكيف هُزم في برشلونة على يد مواطنه المجاز شمشوم كاراسكو. وهنا لابد لي يا سيدي دون كيخوته من الاعتراف لك بنذالة قديمة اقترفتُها.

منذ بضعة أعوام نشرتُ، في مجلة أسبوعية حققت في إسبانيا مكانة وشهرة واسعة، هذه الصرخة الحربية ضدك أيها النبيل الكريم: فليمت دون كيخوته![1] فترددت أصداء هذه الصرخة، وبخاصة في برشلونة هذه التي هُزمتَ فيها، وحيث تُرجمت مقالتي إلى اللغة الكتلانية. ترددت الصرخة ووجدت صدى وانضم إليها وصفق لي كثيرون. طلبتُ أن تموت كي ينبعث فيك ألونسو الطيب، عاشق ألدونثا، كما لو أن طيبته ما كانت ستتبدى أشد روعة إلا في مآثرك الجنونية. وأعترف لك اليوم يا سيدي بأن صرختي تلك التي نالت إعجاب كثيرين في برشلونة، حيث هُزمت، كانت صرخة أوحى لي بها قاهرك المجاز شمشوم كاراسكو. لأنه إذا كنتَ قد هُزمت في برشلونة هذه، منارة ومركز الحياة الصناعية الجديدة في إسبانيا، وإذا كان في هذه المدينة يتعاظم الصراخ ضد الكيخوتية، فإن روح المجازين، روح المراءاة والحسد هي التي تثير ذلك. لقد هُزمتَ في برشلونة، أجل، هُزمت في برشلونة، ولكنك هُزمت على يد شخص من لامانشا مجاز من سلمنكا. وفي برشلونة، أجل، يتعاظم ازدراء روحك، ولكن ما يحملهم على هذا الازدراء هي روح المجازين المانتشيين والسلمنكيين التافهة. لأنه هنالك، في برشلونة، انتصر المجاز شمشوم كاراسكو.

وعندما أخبر كاراسكو بحقيقته دون أنطونيو مورينو، قال دون أنطونيو: «آه! يا سيدي! فليسامحك الله على إساءتك للناس جميعاً برغبتك في أن تعيد إلى التعقل أظرف مجنون في العالم. ألست ترى، أيها السيد، أنه لا يمكن للفائدة من تعقل دون كيخوته أن تعادل المتعة التي يوفرها جنونه؟» وعلى هذا الخيط

[1] يشتير أونامونو هنا إلى مقالته *فليمت دون كيخوته!* التي نشرت في مجلة «الحياة الجديدة»، العدد السادس والعشرون، حزيران، 1898.

twitter @baghdad_library

راح ينظم آراءه. يا لها من طريقة محزنة في التفكير، إنه لا يريد له الشفاء، لأنه يبدو مجنوناً «ظريفاً»، ومن أجل «المتعة» بجنونه! ولا يُعرف ما الذي يؤسف له أكثر، أهو صغر نفس شمشوم كاراسكو أم دون أنطونيو مورينو.

إنه يحب دون كيخوته ليضحك من ظرفه والاستمتاع بجنونه، ولأنه أضحكهم في الماضي عليهم أن يبكوا الآن، ولأنهم استمتعوا بجنونه فإن حياته ستسوء اليوم.

أنا أطلقت ضدك، يا سيدي دون كيخوته، دعوة الموت تلك. فاغفر لي، اغفر لي، لأنني أطلقتها ممتلئاً بنية سليمة وطيبة، وإن كانت خاطئة، أطلقتها بحب لك. ولكن الأرواح الشحيحة، تلك التي أفسدها صُغارُها أخذت كلامي على عكس ما أردته، وبينما أنا أسعى لخدمتك، ربما أكون قد أسأت إليك... سامحني إذاً يا عزيزي دون كيخوته على ما يمكن أن أكون قد سببته لك من أذى حيث أردت لك الخير. أنت من أقنعتني بخطر الوعظ بالعقل بين تلك الأرواح المتحجرة. أنت من بينت لي الشر الذي يتبع توبيخ رجال ميالين إلى أشد أشكال المادية فظاظة، حتى لو تنكروا بالروحانية المسيحية.

انقل إليّ عدوى جنونك يا عزيزي دون كيخوته، انقله إليّ كاملاً. وليسموني بعد ذلك بالمتعجرف أو بما يشاؤون. فأنا لا أريد البحث عن المنفعة التي يبحثون عنها. وليقولوا: ماذا يريد؟ وعم يبحث؟ وبتكهنهم بطرقهم، لن يجدوا طريقي. هم يبحثون عن منفعة هذه الحياة الفانية، وينامون على الاعتقاد الروتيني بالحياة الأخرى؛ أما أنا، يا دون كيخوته، فدعني أناضل نفسي بنفسي، دعني أعاني! وليحفظوا لأنفسهم التطلع إلى منصب نائب في مجلس محلي؛ أما أنا فأعطني حصانك كلافيلينو، وحتى لو لم يحركني عن الأرض، فسوف أحلم بأنني أصعد به إلى فضاء الهواء والنار الدائمين. يا روح روحي، وقلب حياتي، يا ظمأ لا يرتوي إلى الخلود واللانهاية، كن خبزي كفاف يومي! بارع؟ لا، لا أريد أن أكون بارعاً. لا أريد أن أكون عقلانياً وفق تلك العقلانية التي تقدم الطعام للأحياء. امنحني الجنون يا دون كيخوته.

فليعش دون كيخوته! فليعش مهزوماً ومغلوباً! فليعش دون كيخوته ميتاً! فليعش دون كيخوته! أهدي إلينا جنونك يا دون كيخوتينا الأبدي! أهدي إلي جنونك ودعني أفرّج عن نفسي في أحضانك! لو كنت تدري ما أعانيه يا عزيزي دون كيخوته بين مواطنيك هؤلاء الذين أخذتَ منهم كل احتياطي الجنون البطولي، وتركت لهم فقط الزهو المتكبر الذي سيضيعك... لو أنك تعلم كم يزدرون من باطلهم السخيف والمهين كل غليان في الروح وكل لهفة إلى حياة حميمة! ولو أنك تعلم بأي وقار حماري يضحكون من الطرائف التي يحسبونها جنوناً، ويستمتعون بما يعتبرونه هذياناً! آه يا عزيزي دون كيخوته، يا لها من عجرفة، يا لها من عجرفة غبية، العجرفة الصامتة لأولئك الأفظاظ الذين يصفون بالتناقض ما هو غير مصنف ببطاقة في رؤوسهم، ويصفون كل اضطراب في الروح تطلعاً إلى الأصالة! لا وجود في نظرهم لدموع حارقة تذرف بصمت، في صمت الغموض، لأن هؤلاء البرابرة يعتقدون أن كل شيء ناجز الحل بالنسبة لهم؛ ولا وجود في نظرهم لقلق روحي، لأنهم يعتقدون أنهم قد ولدوا مزودين بالحقيقة المطلقة. ولا وجود بالنسبة لهم إلا للعقائد الجامدة، والصيغ، والوصفات. لهؤلاء جميعهم روح مجازين. ومع أنهم يكرهون برشلونة فإنهم يذهبون إلى برشلونة، وهناك يهزمونك.

«ستة أيام بقي دون كيخوته طريح الفراش، حزيناً، مهموماً، محطم الأعصاب، معكر المزاج، تذهب به التخيلات وتجيء حول واقعة هزيمته المشؤومة»، دون أن تفيده في شيء مواساة سانتشو الوفي. وكان هذا الأخير يرى أنه هو الخاسر الأكبر، وأن يكن سيده هو الذي نال أسوأ معاملة. وبعد أيام قليلة انطلقا في مسيرة العودة إلى القرية، «وكان دون كيخوته أعزل من السلاح، وسانتشو ماشياً على قدميه، لأن الحمار حمل السلاح». هكذا هي الحال منذ أن اعتزل دون كيخوته: الحمير هي التي تحمل سلاحه.

وفي الطريق التقى بالخادم توسيلوس الذي روى له كيف أن الدوق جلده،

twitter @baghdad_library

وأن دونيا رودريغث قد عادت إلى قشتالة، وأن ابنتها دخلت الرهبنة. وهكذا انتهت واحدة من المغامرات التي أوصلها دون كيخوته إلى نهاية موفقة.

الفصل السابع والستون
[وفيه قرار دون كيخوته بأن يصير راعياً وأن يعيش حياة البراري خلال عام اعتزاله، وأحداث أخرى طيبة وشيقة]

وبينما هما يسيران ويسيران، وصلا إلى المكان الذي التقيا فيه «بالراعيات النبيلات والرعاة الظرفاء حيث كانوا يحاولون تجديد ومحاكاة الحياة في أركاديا الرعوية». وحين تعرف دون كيخوته على الموضع قال: «إن كان يروقك ذلك يا سانتشو، فلنتحول إلى رعاة، ولو خلال المدة التي علي البقاء فيها معتزلاً. سأشتري بعض النعاج، وكل الأشياء اللازمة لحياة الرعاة، وسأطلق على نفسي اسم *الراعي كيخوتيث*، وعليك أنت اسم *الراعي بانثينو*، ونمضي عبر الجبال والغابات والمروج، نغني هنا، ونتألم هناك، ونشرب من ماء الينابيع البلوري، أو من الجداول النظيفة أو الأنهار الغزيرة. وتجود علينا أشجار البلوط بثمارها الحلوة، وتقدم لنا أشجار الفلين مقاعد مريحة، ويوفر لنا الصفصاف ظلاً ظليلاً، والورود رائحة زكية، والمروج الفسيحة سجادة متعددة الألوان، والنسيم العليل أنفاساً بليلة، والقمر والنجوم أنواراً زاهية على الرغم من ظلام الليل، ويوفر لنا الغناء متعة، والبكاء سعادة، وأبولو أشعاراً، والحب تصورات، وبهذا يمكننا أن نصبح خالدين ومشهورين ليس في زمننا الحاضر فقط، وإنما في العصور المقبلة أيضاً».

فلينجنِ الرب! ويا للحكمة التي قيل بها «كل مجنون وموضوعه»، وكم كانت ابنة أخت دون كيخوته تعرف خالها حين وجد الكاهن والحلاق، أثناء فحصهما كتب مكتبته، كتاب «*ديانا*» لخورخي دي مونتمايور وأرادا العفو عنه،

فصاحت بهما: «آه، يا سيدي! يحسن بسعادتك أن تأمر بإحراقه كغيره من الكتب؛ فليس مستغرباً إذا ما شفي خالي من داء الفروسية، أن يقرأ أمثال هذا الكتاب فيخطر له أن يصبح راعياً فيمضي في الغابات والمروج مغنياً ونافخاً في المزمار».

ويبدو أن دون كيخوته وهو عائد من برشلونة، كان يمضي على طريق الشفاء من جنونه البطولي، ويتهيأ لميتة صالحة، ولكنه ما إن رأى المرج الذي عرفه من قبل، حتى عاد يحلم مجدداً في أن يصبح خالداً ومشهوراً، ليس في الزمن الحاضر فقط، وإنما في العصور المقبلة أيضاً. لأن هذا هو جذر جنونه، وحافز سلوكه، وهذا، كما رأينا في بداية تاريخه، هو الدافع الذي دفعه إلى أن يصير فارساً جوالاً. فاللهفة إلى المجد والشهرة هي روح الكيخوتية الحميمة، وجوهرها وعلة وجودها، وإذا لم يكن بالإمكان نيلها بالانتصار على مردة وتقويم اعوجاجات، فإنه سينالها بالتغني بالقمر والتحول إلى راع. والمسألة هي خلود الاسم عبر العصور، والبقاء حياً في ذاكرة الناس. المسألة هي في عدم الموت! في عدم الموت! عدم الموت! هذا هو الجذر الأخير، جذر جذور الجنون الكيخوتي. عدم الموت! عدم الموت! اللهفة إلى الحياة؛ اللهفة إلى حياة أبدية هي حياة خالدة يا سيدي دون كيخوته. فحلم حياتك كان وما زال الحلم بعدم الموت.

ولأنك لا تريد الموت استبدلت مهنتك كفارس جوال بمهنة الراعي المغني. وهكذا هي إسبانياكَ، يا سيدي دون كيخوته، حين اضطرت إلى أن تنكفئ إلى قريتها مهزومة ومهانة، تفكر في التفرغ للرعي وتتحدث عن استيطان داخلي، وعن مستنقعات، وعن ري، وعن مزارع.

وتحت هذه اللهفة إلى عدم الموت، ألم يكن يكمن، يا ألونسو المسكين، حبك الطاغي؟ لقد قلت: «الراعيات اللواتي سنكون عشاقاً لهن، سنختار أسماءهن مثلما ننتقي حبات الكمثرى، وبما أن اسم سيدتي يناسب اسم راعية مثلما يناسب اسم أميرة، فلست بحاجة إلى التعب في البحث عن اسم آخر يناسبها». أجل، لقد كانت على الدوام دولثنيا، المجد، ومن ورائها على الدوام

twitter @baghdad_library

كان اسم ألدونثا لورنثو التي تنهدتَ حباً بها طوال اثني عشر عاماً. وكم ستتنهد الآن من أجلها! كم ستدعو باسمها! وكم ستحفر ذات يوم اسمها على لحاء الأشجار، وحتى على صفحة قلبك ذات يوم! وإذا ما بلغتها تلك الأخبار وجاءت إليك متخلصة من السحر؟

تريد أن تكون راعياً! هذا هو أيضاً، يا سيدي دون كيخوته، ما خطر لشعبك أن يفعله بعد عودته من أميركا مهزوماً في لقائه مع روبنسون. وهو يتحدث الآن عن التفرغ للعناية بأملاكه وزراعتها، وحفر الآبار وشق قنوات لري أراضيه الجافة. إنه يتكلم الآن في السياسة المائية. ألا يمكن أنه يشعر بتأنيب الضمير من فظائعه السابقة في أراضي إيطاليا، والفلاندر، وأميركا؟

اقرأ قصيدة *وطن* البديعة للغويرا جونكيّرو، شاعر شعبنا الشقيق، الشعب البرتغالي. اقرأ تلك القصيدة الهجائية المريرة لتصل إلى نهايتها، حين يظهر ـ مرتدياً ثوب راهب كرملي ـ شبح القائد نونالفاريس، قاهر الجوباروتا، والذي دخل بعد ذلك إلى الدين. اسمعه يتكلم. اسمعه يتحدث عن الألم الذي يطهر وينقذ، عن الألم الذي...

كما الريح في الفضاء تلي الريح
وكما الموجة في البحر تلطم الموجة
يدوي الألم، ألم الصمت

وصلْ من القصيدة إلى حيث يُنزل بنشوة سيف الجوباروتا القديم المخضب بدم أخوي، ويهتف:

ولكن إذا كان الوطن، في نهاية المطاف
غمّ يزيد ويُنقص في المسير من ألمي
فإن بلاد العبيد بلاد أجنبية

سيف لامع أهزه بشعور فخار!

خيراً من فلاح عجوز متسول
ينتصب فوق الأرض، مشفقاً وإنسانياً!

عد إلى محراث الفولاذ القديم
وانتهي من حرث حقول الرب
لتُزرع قمحاً.

ثم يلقي بسيفه في هوة الليل هاتفاً:

فيكن الرب معكم! وليتبارك الرب!

وبعد ذلك يدخل إلى المشهد «المجنون» ـ *o doido* ـ، الشعب البرتغالي المسكين، شقيقنا، ويتشوق إلى الزمن الذي كان فيه فلاحاً.

فلاح لوحته الشمس
يحرث الأرض في الصباح باسماً وجدياً،
بروح حمامة وقلب العادلين!

مازلت أسمع الموسيقى الناعمة
من صدر البراءة البرية السعيد،
فمن الآجام يتعالى تغريد الطيور الرقيق!

لم تُنشدَ قصتي قطّ،
والشهرة تجهل اسمي
وظلي البائس تجهله أضواء المجد

أعيش مجهولاً وكئيباً، كعشبة الطين،
ومع ذلك فإنني أُذكر أحياناً
بين من يتقبلهم الرب، من يحبهم الرب.

إنه على العكس تماماً من دون كيخوته وسانتشو. ففارسنا يسعى من خلال

twitter @baghdad_library

حياة الرعي إلى الخلود والشهرة؛ بينما يسعى ذلك المجنون البرتغالي المسكين إلى أن يُنسى، وأن يكفّر عن ذنوبه، ويجد خلاصه في الألم.

ألم الخوف، ألم وثني،
الألم، ابنة الرب، وأم الكون!

ألا يسعيان، في العمق، إلى الشيء نفسه؟ ألا يسعى إلى الشيء نفسه دون كيخوته حين يلقي جانباً بعالم تقويم الاعوجاجات وينوي الانكباب على الممارسة الرعوية؟ ألا يسعى شعبنا الآن، بحديثه عن المستنقعات وقنوات الري والسياسة المائية، إلى الشيء نفسه الذي سعى إليه بفظائعه في أميركا؟

والمجنون البرتغالي المسكين ـ *o doido* ـ بعد أن اعترف بذنوبه، بأمجاده

أمجادي!... شنار وعار!
لص، وقرصان، وقاتل!

يطلب الصليب، يطلب الألم، ويموت على الصليب الذي كُتبت على أعلاه المخضب بالدماء هذه العبارة الساخرة: «أيتها البرتغال، اضحكي من الشرق!». إنه يموت مباركاً الدموع التي تتدفق من عينيه

لأنه بحر دموع
أذرفه عبر العالم تكفيراً عن جرائمي...

ويبارك الدم الذي يسيل من جراحه، لأنه

بحر دماء
كبريائي وخطيئتي...

أهذا هو ما يسعى إليه مجنوننا، شعبنا الإسباني المجنون؟ لا، ليس هذا بالضبط. وليس أن التاريخ لن يتغنى بأعماله، وأن صوت الشهرة سيتجاهل اسمه، وأن أنوار المجد ستهمل ذكره. لا، ليس هذا ما يهمه.

إنه ينسحب إلى الحياة الرعوية، بعد أن هُزم في حياة الفارس الجوال، كي يتمكن من أن يصبح خالداً ومشهوراً، ليس في الزمن الحاضر فقط، وإنما في العصور المقبلة. إنه يغيّر الطريق، ولكنه لا يغير النجم الذي يهديه.

أينبغي على الشعب أن يتخلى عن كلِ عمل كيخوتي ويقبع في مرعى مسقط رأسه ليكفّر عن ذنوبه القديمة، مكرساً نفسه للاهتمام بماشيته أو حراثة أرضه، دون أن يوجه نظره إلا إلى السماء؟ هل عليه أن يفكر فقط في أن يكون هناك في الأعالي في عداد من يحبهم الرب؟ هل عليه أن يعود إلى حياته الهادئة التي سبقت اندفاعه وراء مشاريعه المغامرة؟ وهل كانت لنا هكذا حياة من قبل؟ هل نعمنا بالسلام؟

لا يكفي كمثل أعلى في حياة شعب الحفاظ على الحياة نفسها بأكبر قدر من الرفاهية والهناء، وحتى السعادة لا تكفي. وأقل من ذلك تقبل الألم. لا يمكن أن يكون المثل الأعلى لشعب هو الزهد المدمر للحياة.

التطلع إلى السماء؟ لا. إلى ملكوت الرب! ففي كل ساعة، ويوماً بعد يوم، ترتفع من آلاف أفواه أبناء شعبنا هذه الصلاة إلى أبينا الذي في السماء: «ليأت إلينا ملكوتك». «ليأت إلينا ملكوتك!» وليس «خذنا إلى ملكوتك»؛ ملكوت الرب هو الذي سيهبط إلى الأرض، وليس الأرض هي التي ستصعد إلى ملكوت الرب، هذا الملكوت سيكون إذاً ملكوت أحياء لا أموات. وهذا الملكوت الذي نطلب رؤيته كل يوم، علينا أن نبدعه، ليس بالصلوات وحدها، وإنما بالنضال.

واستطعتُ، بروح حرة ومصممة،
بعينين ناريتين من الفجر الوليد،
رفع الذراعين لمواصلة النضال!

لا، كما في مرة أخرى إلى النضال المتأجج
عظمة ضربة الحظ ليست سوى بطلان...
فالحظ هو الظل الذي يرافقنا

twitter @baghdad_library

إنها ساعة حرب الأبدية
على رمال الكون الضيقة التي لا تكل
معركة الحب والحقيقة!

إنها هكذا، معركة **الحب والحقيقة**! وعلى الشعب كله في هذا الصراع أن يكون دون كيخوته، أو الراعي كيخوتيث بكلمة أدق.

يا فارس الرب، انتصب وتقدم!
أنشب أظفارك في سندان يسوع؛
اصدح بالغناء... وارفع حربة رمحك الحديدية!

محور رمح صليب!
انطلق أيها الفارس بخوذة تكشف وجهك؛
ووجه ضربات حراب نور عظيمة!...

لابد من القتال، أجل، بحراب النور.

فلنعتكف، لا بأس، في مراعي مسقط رأسنا، ولكن لكي نكتسب شهرة ونحن ترعى الماشية وننشد الأغاني. هذا تفرع من العمل البطولي، وهو مهمة أخرى جديدة. ولنستخدم عصا الراعي بيد يحركها القلب نفسه الذي جعلنا نستخدم السيف. فالممارسة الرعوية هي التي تهيمن، وهي كما يقول المعلم فراي لويس دي ليون في *أسماء يسوع* الكتاب الأول، الفصل الرابع، «لا تتلخص في وضع قوانين، ولا في إصدار المراسيم، وإنما في رعاية وإطعام من يُحكمون» رعايتهم وإطعامهم بماذا؟ بالحب والحقيقة.

لقد دُعي شعبك يا دون كيخوته بالشعب المحتضر، لأن أولئك الثملين بالنصر العابر ينسون أن الحظ يدور أكثر مما تدور الأرض، وأن ما قد يجعلنا أقل أهلية لنمط الحضارة السائد في العالم اليوم، ربما يكون هو نفسه ما سيجعلنا أكثر أهلية لحضارة الغد. العالم يدور والحظ أكثر منه دوراناً.

يجب التطلع، على أي حال، إلى أن نكون خالدين ومشهورين، ليس في الزمن الحاضر فقط، وإنما في العصور المقبلة أيضاً. لا يمكن أن يحافظ على بقائه كشعب ذلك الشعب الذي لا يُمثل رعاته وعيه بمهمة تاريخية وبمثل أعلى خاص يجب تحقيقه على الأرض. على هؤلاء الرعاة التطلع إلى اكتساب شهرة وهم يرعون ويغنون، وهكذا، باكتسابهم الشهرة يوصلونه إلى قدره. ألا توجد في الوعي الخالد وغير المتناهي فكرة خالدة لشعبك يا سيدي دون كيخوته؟ ألا توجد إسبانيا سماوية، لا تكون إسبانيا الأرضية هذه سوى انعكاس لها في عصور البشر الفقيرة؟ ألا توجد روح لإسبانيا خالدة كروح كل واحد من أبنائها؟

باجتيازهم البحر في سفن شراعية سهلة التحطم، ذهب أجدادنا لاكتشاف العالم الجديد الذي كان يهجع تحت نجوم لم تُعرف من قبل. ألا يكون هنالك عالم جديد للروح حجز لنا الرب مسألة اكتشافه عندما نمتلك الجرأة، مثل أبطال كومونس، على اقتحام «بحار لم يبحر فيها أحد من قبل» بسفن روحية بنيت من خشب غابات شعبنا؟

يقال في بلادي الباسكية إن أجداد أجدادي، الصيادين البواسل في خليج بيثكايا، كانوا يذهبون وراء الحوت حتى شواطئ تيرانوفا قبل قرون من طرق كولومبس أبواب دير رابيدا. وهو ما يقوله باعتزاز شعار ليكيتيو:[1] Reges debellavit horrenda cete subiecit, terra marique potens, Lequeitio. ومن أجل إخضاع حيتان هائلة ذهب، يقول الشعار، صيادو الحيتان من أبناء سلالتي حتى شواطئ أميركا النائية التي كانت مجهولة في ذلك الحين. بل يقال ما هو أكثر من ذلك، إذ أن هناك أسطورة متداولة عن أن بحاراً باسكياً يدعى أنديالوتزا، أي الحياء الكبير، هو أول من قدم لكولومبس خبراً عن العالم الجديد، لأن ذلك الحيي الكبير لم يجرؤ، دون شك، على اكتشافه.

---

[1] هذا السطر يرد باللغة الباسكية، والسطر الذي يليه هو ترجمة لمعناه.

twitter @baghdad_library

لقد كان يخاف المجد. أتكون هذه نبوءة؟ وإذا ما تخلى مواطني الطيب أنديالوتزا عن حيائه الفطري، فهل ينتظر خروج كولومبس من روح إسبانيا الجديدة؟

هل هنالك فلسفة إسبانية؟ أجل، فلسفة دون كيخوته. ومن المناسب لفارس الإيمان هذا، فارس إيماننا، أن يترك رمحه في الترسانة وحصانه روثينانته في الإسطبل ويعلق سيفه، وبتحوله إلى الراعي كيخوتيث، يحمل عصا الرعاة بيد ثابتة، ويحمل معه المزمار، وفي الظل الوارف لأشجار البلوط ذات الثمر الحلو، وبينما نعاجه ترعى العشب مطأطئة رؤوسها، ينشد هو، بوحي من دولثنيا، رؤيته للعالم والحياة، كي يحرز، بغنائه لها، خلود الاسم والشهرة. وليس رؤيته بالضبط، وإنما بعبارة أدق إحساسه القلبي بهما. ومن أجل إحراز الشهرة، قدم لنا المجد كنجم قطب للحياة.

ونونالفاريس الشاعر يخبركم عن الشهرة التي هي

شهرة عظيمة في عالم خسيس،
نفخ أبواق الحماسة، لا يُحلق
حيث يحلق، مغرداً، عصفور.

ولكن لا تثقوا بمثل أصوات اليأس هذه، لأنه إذا كانت الشهرة تحلق، وتحلق إلى ما وراء العالم، فإن أغاني الحب والحقيقة تحلق إلى ما أبعد من ذلك.

وعلى أصداء أغنية الحب هذه التي يصدح بها الراعي كيخوتيث قد يسقط مهزومين المردة المتظاهرون بأنهم طواحين هواء، وربما كبحت جماح المحكومين بالتجديف في السفن، وسرّحت روكي غينارت وأفراد عصابته، وأخرست الكهنة القانونيين والاسكولائيين الوقورين، وحملت الرماة على الاعتراف بأن صحن الحلاق في يد النبيل صاحب المعجزات هو خوذة، ودفعت أمثال المعلم بيدرو إلى التخلي عن دمى مسرح عرائسهم، وفتحت لنا دواخل كهف مونتيسينوس، وقومت كل اعوجاج، وأحبطت كل إساءة، وأعادت العذرية

للفتيات المقبلات على الزواج، وأتتنا بملكوت الرب، وحققت على الأرض العصر الذهبي الذي أذهل دون كيخوته رعاة المعزى برؤياه له.

يجب توجيه «ضربات رماح عظيمة من نور»، أو أفضل من ذلك، يجب إطلاق الحقيقة على العالم، بينما الماشية ترعى، على وقع المزمار الرعوي، إطلاق الكلمة المقدسة التي ستُحدث المعجزة. يجب أن نطلب من أبولو أشعاراً، ومن الحب مفاهيم، وعلى الأخص مفاهيم من الحب.

هل هنالك فلسفة إسبانية يا سيدي دون كيخوته؟ أجل، إنها فلسفتك، فلسفة دولثنيا، فلسفة عدم الموت، فلسفة الإيمان، فلسفة خلق الحقيقة. وهذه الفلسفة لا يمكن تعلمها في الجامعات، ولا عرضها من خلال المنطق الاستقرائي أو الاستنتاجي، ولا تُستخرج بالقياس، ولا من مختبرات، وإنما هي تنبع من القلب.

كنتَ تفكر يا سيدي دون كيخوته في التحول إلى الراعي كيخوتيث، وفي أن يمنحك الحب المفاهيم. فكافة مفاهيم الحياة، كافة المفاهيم السرمدية، تنبع من الحب. وألدونثا يا سيدي الراعي كيخوتيث، ألدونثا هي ينبوع الحكمة على الدوام، ومن خلالها، من خلال ألدونثا، من خلال المرأة، ترى الكون كله.

ألا ترى هذا الشعب يؤله مثال المرأة أكثر فأكثر كل يوم، يؤله المرأة بامتياز، **الأم العذراء**؟ ألا تراه مستسلماً لهذه العبادة، حتى إنه يكاد ينسى عبادة **الابن**؟ ألا ترى أنه لا يفعل إلا امتداحها ورفعها أكثر فأكثر، ساعياً إلى أن يضعها إلى جانب **الأب** نفسه، لتكون نداً له في الثالوث الذي سيتحول رباعياً ما لم يكونوا قد طابقوا بينها وبين **الروح** مثلما طابقوا بين **الابن والكلمة**؟ أولم يعلنوها **فادية**؟ وهذا، لماذا يفعلونه؟

إن مفهوم الرب الذي جرى نقله إلينا كان مفهوماً، ليس شبه بشر، وإنما شبه ذكر؛ ونحن نمثله، لا كشخص بشري ـ *homo* ـ، وإنما كذكر ـ *vir* ـ؛ فالرب كان ومازال في أذهاننا مذكراً. طريقته في محاكمة البشر وإدانتهم طريقة ذكورية، وليس طريقة شخص بشري بلا جنس؛ إنها طريقة **أب**. ومن أجل

twitter @baghdad_library

التكافؤ هنالك حاجة إلى أم. **الأم** التي تسامح دائماً، **الأم** التي تفتح ذراعيها دائماً للابن حين يهرب من يد **الأب** المرفوعة أو تقطيب حاجبيه غضباً. **الأم** التي يُحث في حضنها، كعزاء، عن ذكرى غامضة من براءة ذلك السلام الدافئ داخل ذلك الحصن حيث كان الفجر الذي سبق ولادتنا، وطعم من ذلك الحليب الحلو الذي بلسم أحلام براءتنا. **الأم** التي لا تعرف عدالة سوى الغفران، ولا تعرف قانوناً سوى الحب. دموع الأمومة تمحو ألواح الوصايا العشر. ومفهومنا البائس والناقص عن رب ذكر، رب ذي لحية طويلة وصوت راعد، رب يفرض الوصايا ويُصدر الأحكام، رب سيد البيت، *Pater-familias* على الطريقة الرومانية، يحتاج إلى ما يعادله ويكمله، وبما أننا لا نستطيع، في العمق، أن نتصور الإله الشخصي والحي، ليس بمعزل عن ملامح بشرية وحسب، بل بمعزل حتى عن ملامح ذكورية، وأقل من ذلك قدرتنا على تصور إله محايد أو خنثى ***hermafrodita***، فإننا نلجأ إلى أن نقدم له رباً أنثوياً، وإلى جانب **الرب الأب** وضعنا **الربة الأم** التي تسامح دوماً لأنها تنظر بحب أعمى، وترى على الدوام عمق الخطيئة، وفي ذلك العمق ترى عدالة الصفح الوحيدة، المواسية دائماً، الأم شديدة العذوبة، أم الرب، الأم العذراء. إنها الأم العذراء، الأم كاملة الطهارة، والتي ليست إلا أماً، ولأنها كل ما يجعل المرأة امرأة، فهي نقية من الوحل البشري من أجل أن تشع وتتنفس منها النفحة الإلهية وحدها.

إنها الأم العذراء، إنها أم الرب. هي أم الرب، هي الإنسانية المسكينة المعذبة. ومع أن الإنسانية مؤلفة من رجال ونساء، فإن الإنسانية امرأة، إنها أم. وكل مجتمع هو كذلك. وكل شعب هو كذلك. والحشود مؤنثة. اجمعوا الرجال وكونوا واثقين من أن الأنوثة فيهم، ما هو فيهم من أمهاتهم، هي التي تجمعهم. الإنسانية المسكينة المعذبة هي أم الرب، ففيها، في أحشائها يتجلى، يتجسد ضمير الكون الخالد وغير المتناهي. والإنسانية طاهرة، شديدة الطهارة، نظيفة من أي لطخة، وأن كان كل رجل وامرأة منا يولد ملطخاً، فلينجكِ الرب أيتها الإنسانية، فأنت مليئة بالنعم!

انظر أيها الراعي كيخوتيث كيف تُرى الإنسانية انطلاقاً من ألدونثا، عذراء توبوسو الفطنة. انظر كيف تمنح الحب كمفهوم. وانظر إن كان بالإمكان وضع فلسفة حب إسبانية على وقع نايك الرعوي، حتى لو نعقت، لتكتم نغماته، الغربان الضخمة المعششة عند فوهة كهف مونتيسينوس.

إذا ما عاد دون كيخوته إلى الدنيا مجدداً فسيكون الراعي كيخوتيث وليس الفارس الجوال ذا السيف، سيكون راعي أرواح، وسيحمل ريشة الكتابة بدل عصا الرعاة، أو سيوجه كلماته المتأججة إلى رعاة الماعز جميعهم. ومن يدري إن كان لن يبعث حياً!...

إذا ما رجع دون كيخوته إلى الدنيا سيكون راعياً، أو أنه سيكون راعياً حين يعود، راعياً للشعوب. وسيعمل على أن يقدم له الحب مفاهيم، ومن أجل جعل هذه المفاهيم تعيش وتنتصر سيبذل كل الشجاعة والبسالة التي بذلها في الهجوم على طواحين الهواء وتحرير المحكومين بالجذيف. ونحن نفتقده بشدة، لأن جبن التفكير هو ما يبقينا على هذا القدر من الإحباط. إنه الجبن عن مواجهة المشاكل الأبدية؛ إنه الجبن عن النبش في القلب، إنه الجبن عن تحريك القلق الخاص في الأحشاء الأبدية. وهذا الجبن يحمل كثيرين إلى التبحر في العلم، إلى تخدير القلق الروحي أو الانشغال بالكسل الروحاني، شيء أشبه بلعب الشطرنج.

«لا أريد دراسة علم الأمراض ـ قال لي أحد الجبناء ـ، بل إنني لا أريد أن أعرف أين هو مكان الكبد، ولا ما هي فائدته، لأني إذا ما درست ذلك سيصل بي الأمر إلى الاعتقاد بأني مصاب بالمرض الذي انتهيت من قراءة أعراضه. الطبيب موجود، ومهنته أن يعالجني، وأنا أدفع له مقابل ذلك، ألقي عليه مسؤوليتي، وإذا مت فهو وشأنه؛ ولكنني سأموت، على الأقل، بلا هواجس ولا هموم. ولدي كذلك الكاهن. لا أريد أن أشغل نفسي بالتفكير في أصلي ولا في مصيري، من أين جئت وإلى أين أذهب، وإذا كان يوجد إله أم لا وكيف هو، وإذا كانت هنالك حياة أخرى أم لا، وما كنهها. فهذا لا ينفع إلا في وجع

twitter @baghdad_library

الرأس، وإضاعة وقتي والطاقة التي أحتاج إليها لكسب لقمة عيش أولادي. الكاهن موجود، ومهنته البحث عما هو موجود، يرتل لي قداساً ويمنحني المغفرة عندما أعترف له بخطاياي عند الموت. وإذا كان يخدع نفسه ويخدعني، فهو وشأنه. هو المسؤول عن نفسه. وبالنسبة لي، ليس في الإيمان خدعة».

كم نحن بحاجة إليك أيها الراعي كيخوتيث، لتنقض بمفاهيمك التي أملاها الحب، برماح نور شهمة ضد تلك الأكذوبة الموبوءة، ولتحرير المحكومين بالتجذيف مساكين الروح! حتى لو رجموك بعد ذلك بالحجارة، وسيرجمونك، بالتأكيد، إذا حطمت أصفاد الجبن التي تقيدهم. سيرجمونك!

سيرجمونك. فالمحكوم عليهم بالتجذيف الروحانيون يرجمون من يحطم الأصفاد التي تقيدهم، ولهذا السبب بالذات، لأنهم سيرجمون محررهم، ينبغي تحريرهم. وأول استخدام لحريتهم سيكون رجمهم لمن يحررهم.

إن أنقى منفعة هي تلك التي تقدم لمن لا يعترف بها. وأعظم صدقة يمكنك تقديمها لقريبك ليست في تلبية رغباته ولا في سدّ حاجاته، وإنما في تأجيج رغباته وخلق حاجات له. حرره، وإذا رجمك بعد ذلك لأنك حررته، ومرّن بذلك ذراعيه الطليقتين، سيبدأ بالرغبة في الحرية.

سيرجمونك لأنهم يرون أنفسهم ضائعين. وسيقولون: حرية؟ حسن. وما نفعل بها؟ لي صديق من المحكومين بالتجذيف كنت أعكف على برد حديد سلاسله الروحية وغرس القلق والشك في روحه، قال لي ذات يوم: «اسمع، اتركني بسلام ولا تزعجني. فأنا أعيش جيداً هكذا. ولماذا المحن والأحزان؟ أأكون مجرماً إذا أنا لم أؤمن بالجحيم». فأجبته: «لا، ستظل على ما أنت عليه، تفعل ما تفعله ولا تفعل ما لا تفعله. فإذا اعتبرت نفسك مجرماً عندئذ، فهذا هو ما أنت عليه الآن». فأجابني: «إنني بحاجة لأن أكون صالحاً، بحاجة إلى أساس موضوعي أبني عليه سلوكي، إنني بحاجة لمعرفة لماذا يكون سيئاً ما يمقته ضميري». فقلت: «لأن الضمير يقلق حيث يوجد الرب». فعاد يرد علي: « لا أريد أن أجد نفسي كغريق وسط المحيط، أغرق تائهاً دون أن تكون لدي خشبة

أتشبث بها». فعاودت الرد عليه: «خشبة؟ الخشبة هي أنا بالذات. لست بحاجة إليها لأني أطفو في هذا المحيط الذي تتحدث عنه، والذي هو ليس إلا الرب. الإنسان يطفو في الرب دون حاجة لأيٍ خشبة، والشيء الوحيد الذي أرغب فيه هو انتزاع الخشبة منك، وتركك وحيداً، وبث الحماسة فيك لتشعر بأنك تطفو. أتقول أساس موضوعي؟ وما هو هذا؟ أتريد لنفسك ما هو أكثر موضوعية منك؟ يجب إلقاء البشر وسط المحيط وانتزاع أي خشبة منهم، وليتعلموا أن يكونوا بشراً، أن يطفوا. ألديك ضعف ثقة بالرب وأنت فيه، به نحيا ونتحرك ونوجد (أعمال الرسل، الإصحاح السابع عشر، 28)، أتحتاج إلى خشبة تتشبث بها؟ هو سيسندك من دون خشبة. وإن غرقتَ فيه، ماذا يهمك؟ فهذه الأحزان والمحن والشكوك التي تخشاها كثيراً هي بداية الغرق، هي المياه الحية والأزلية التي تمنحك مظهر الاطمئنان الظاهري الذي أنت آخذ بالموت فيه ساعة إثر ساعة. أسلم نفسك للغرق، اترك نفسك تمضي إلى الأعماق وتفقد الحس وتصبح كقطعة إسفنج، وستعود بعد ذلك إلى سطح الماء، حيث ترى نفسك، وتلمسها، وتشعر بها في المحيط». فقال لي: «أجل ميتاً» فأجبته: «لا، منبعثاً، وحياً أكثر من أي وقت مضى». وهرب مني صديقي المسكين المحكوم بالتجذيف يملؤه الخوف من نفسه. ثم راح يرجمني بالحجارة، وحين أحسست بحجارته فوق خوذة مَمبرينو التي أغطي بها رأسي، قلت في قلبي: شكراً لك يا رب، لأنك لم تجعل كلماتي تقع في روح صديقي كما على صخرة جرداء، وإنما جعلتها تعلق فيه!

ولو سمعت أيها الراعي كيخوتيث سجناء الروح يتحدثون عن إيمانهم ومعتقداتهم!... لو سمعت أيها الراعي الطيب رعاتهم يتحدثون في ذلك!... لقد عرفتُ أحد أولئك الرعاة وهو يرى أن فضيلة الصفير الذي يدعو به نعاجه هي حقيقة العقيدة التي يلقنها إياها، وما لم تحترمها ينكر عليها الصحة الأبدية. وتصور على أي شيء تستند تلك العقيدة، على أنها الأكثر أسبانية! والهرطقة، في نظره، ليست إلا خيانة للوطن. وأعرف كلب راع، نبَّاح من وطننا المجيد

twitter @baghdad_library

وحارس لتقاليدنا، والدين بالنسبة إليه ليس إلا جنس أدبي، وربما هو فرع من العلوم الإنسانية، أو أحد الفنون الجميلة في أقصى الحالات. وضد هؤلاء التعساء، أيها الراعي كيخوتيس، نحتاج إلى أن نطهر بأغنياتك هذه الأرواح ونبث الشجاعة في نفوسنا جميعاً لننزل إلى كهف مونتيسينوس وننظر هناك، وجهاً لوجه، ما سيتبدى لنا.

ومن المفهوم جيداً أن اليسوعيين الذين يُحكمون القيود على سجناء التجذيف يكنون لك ضغينة، يا سيدي دون كيخوته، ويحرقون وسط الهياج كتابك تاريخ حياتك، مثلما أكد لنا فعلهم ذلك ذات مرة شخص حطم أصفاد الطائفة: اليسوعي السابق مؤلف كتاب «كنس إلى الخارج في فرقة يسوع».

تعال أيها الراعي كيخوتيث لترعانا وتنشد مفاهيم أوحى لك بها الحب.

الفصل الثامن والستون

[وفيه مغامرة الخنازير التي وقعت لدون كيخوته]

بعد قليل من إعلان دون كيخوته عن نواياه الرعوية، وصل قطيع من أكثر من ستمئة خنزير وداست عليه. لقد تلقى الفارس تلك الإهانة جزاء على خطيئة، لكنها لم تحزنه إلى حدّ تحول معه دون أن ينظم تلك القصيدة الغزلية التي يقول فيها ضمن أمور أخرى:

هكذا تقتلني الحياة،
فيعيدني الموت إلى الحياة.
آه لحال لم يُسمع بمثلها
ما يفعله بي الموت والحياة!

ويا له من حكم رائع يُعلن من أعمق حميمية الروح الكيخوتية! وانظر

كيف أن دون كيخوته حين عبر عن أعمق خفايا جنونه بالمجد وأشدها حميمية، فعل ذلك شعراً، بعد أن هُزم، وبعد أن داسه قطيع الخنازير. والشعر، دون شك، هو اللغة الطبيعية لأعماق الروح، وبالشعر لخص سان خوان دي لا كروث والقديسة تيريسا أشد مشاعرهما حميمية. وهكذا توصل دون كيخوته إلى الكشف بالشعر عن مهاوي جنونه، حيث الحياة تقتله والموت يعيده إلى الحياة، وحيث تلهفه كان تلهفاً إلى حياة لا تنتهي وأبدية، حياة في الموت، حياة دائمة.

هكذا الحياة تقتلني
فيعيدني الموت إلى الحياة.

أجل يا سيدي دون كيخوته، لقد أعادك الموت إلى الحياة، إلى حياة لا تفنى. فالحياة تقتلنا. وقد قالت ذلك أختك تيريسا دي خيسوس حين أنشدت:

أخرجني من ذلك الموت،
يا إلهي، وامنحني الحياة.
لا تتركني عاجزة
بهذا الوثاق المتين.
انظر إليّ أموت من أجل رؤيتك
ولا أستطيع العيش من دونك،
وأموت لأنني لا أموت.

الفصل التاسع والستون
[وفيه أغرب حدث في سياق هذا التاريخ العظيم كله]

بينما دون كيخوته ينشد أغنيته، وسانتشو يغفو عن الحياة، حلّ عليهما يوم

twitter @baghdad_library

جديد، وحلت عليهما مع مساء ذلك اليوم مزحة الدوق الأخيرة. فقد أحاط بهما عشرة رجال على الخيول وأربعة أو خمسة مشاة، واقتادوهما وسط السباب والشتائم إلى قصر الدوق. وهناك وجدا نفسيهما على كومة تراب قبر وفوقه جسد ألتيسيدورا الميت، ومن أجل إعادته إلى الحياة، أمر ردامانتي أن يصفع وجه سانتشو أربعاً وعشرين صفعة، وأن يُقرص اثنتي عشرة قرصة، ويوخز بمسلة في ذراعيه وظهره ست وخزات. وعلى الرغم من مقاومته فقد نفذت ذلك ستُ وصيفات، فانبعثت ألتيسيدورا حية. وحين رأى دون كيخوته تلك الميزة التي وضعتها السماء في جسد سانتشو، جثا على ركبتيه أمامه وطلب منه، بما أن لديه مثل تلك الميزة، أن يجلد نفسه بضع جلدات لرفع السحر عن دولثنيا.

والصحيح، على الرغم من سخريات الدوق السمجة، أن جسد سانتشو يملك ميزة رفع السحر وإعادة الحياة إلى الوصيفات. فمن جسد سانتشو يتغذى الدوق وزوجته وخدمة ووصيفاته؛ ومن جسد سانتشو، في اللحظة الأخيرة، يحدث أن دولثنيا تتمكن من حمل الأثيرين لديها إلى معبد أبدية الشهرة. وسانتشو يجلد نفسه للعمل من أجل أن يتمكن آخرون، متحررون منه، من حب دولثنيا. جلد سانتشو لنفسه يجعل من البطل بطلاً، ومن مغنيه مغنياً مشهوراً، ومن القديس قديساً، ومن القدير قديراً.

وهنا يقول المؤرخ حقيقة هائلة، وهي «إن الساخرين لم يكونوا أقل جنوناً ممن سُخر منهم، وأن الدوق وزوجته لم يكونا على بُعد أكثر من إصبعين ليبدوا مجنونين، ذلك أنهما بذلا جهوداً ضارية في السخرية من مجنونين...» قف هنا، فليس بالإمكان تسمية دون كيخوته وسانتشو بالمجنونين. ونعم، يمكن القول إن الدوق وزوجته كانا مجنونين، بل إنهما غبيان بالكامل، وغبيان مثلما هم الأغبياء جميعهم عادة، خبثاء وأنذال. ليس هناك، بالفعل، غبي طيب. فالغبي، وبخاصة إذا كان محباً للسخرية، يجتر عشب الحسد المر. وفعلاً، لا يمكن للدوق وزوجته أن يغفرا لدون كيخوته ما اكتسبه من شهرة، وهما يتطلعان إلى

ربط اسميهما باسم الفارس الخالد. ولكن المؤرخ الحكيم أحسن في معاقبتهما بإغفاله ذكر اسميهما، وبهذا لم يحققا مآربهما. وسيظلان «الدوق وزوجته» وحسب، كرمز واختصار لدوقين مجنونين وخبثي النوايا.

بعد قليل من انبعاث ألتيسيدورا حية، دخلت هذه الوصيفة الوقحة إلى حجرة دون كيخوته، وخلال الحديث الذي تبادلاه قال الفارس تلك الكلمات التاريخية «لا وجود لأنا آخر في العالم»، إنها الحكمة التوءم لتلك الأخرى «أنا أعرف من أكون!».

لا وجود لأنا آخر في العالم! إنه حكم يجب ألا ننساه أبداً، ولاسيما حين نقلق من أننا سنختفي ذات يوم، ويأتي من يخبرنا بالسماجة المضحكة بأننا مجرد ذرة في الكون، وأن الكواكب ستواصل مداراتها من دوننا، وأن الخير سيتحقق حتى من دون مساعدتنا، وأنه من العجرفة التصور إن هذا البنيان الهائل كله إنما صُنع من أجل صحتنا. لا وجود لأنا آخر في العالم! كل واحد منا هو وحيد ولا بديل له.

لا وجود لأنا آخر في العالم! كل واحد منا كائن مطلق. وإذا كان هنالك من صنع العالم وحافظ عليه، فقد صنعه وحفظه من أجلي. لا وجود لأنا آخر! قد يوجد آخرون أكبر وأصغر، أفضل وأسوأ، ولكن لا وجود لأنا آخر. أنا شيء جديد بالكامل. فيَّ تُختزل أزليه ماض ومني تنطلق أبدية مستقبل. لا وجود لأنا آخر! هذه هي القاعدة المتينة الوحيدة للحب بين البشر لأنه لا وجود لأنت آخر، ولا لهو غير هو.

ويتواصل الحديث، وفيه تعبر التيسيدورا الطائشة، وهي لا تزال تسخر، عن ألمها واستيائها من صدود دون كيخوته عنها. ومن المستحيل أن تتظاهر آنسة بأنها عاشقة، ولو مزاحاً، ثم لا تستاء إن هي لم تقابل بتجاوب حقيقي. وقد كان غضبها شديداً لأنها لم تنل ذلك، حتى إنها أطلقت على دون كيخوته تسمية «الدون مهزوم، والدون مهشم العظام بضرب الهراوات»، وصرحت له بأن انبعاثها حية لم يكن سوى سخرية.

يجب أن يكون هذا الملمح كافياً لإقناعنا بمدى واقعية وحقيقية هذا التاريخ

twitter @baghdad_library

الذي أشرحه وأعلق عليه، إذ أن وصول وصيفة مزدراة إلى تحويل السخرية إلى جدّ ليس من الأمور التي تُختلق أو التي يمكن اختلاقها. وأنا على ثقة من أنه لو قُدّر لدون كيخوتي أن يضعف ويتنازل ويرغب فيها، لكانت قد استسلمت له روحاً وجسداً، ولو لمجرد أن تتمكن من القول إنها قد ضاجعت مجنوناً تملأ شهرته العالم بأسره. وكل خبث تلك الوصيفة يتولد من البطالة، كما أعلن دون كيخوته للدوق والدوقة. لا شك في ذلك، ولكن ينقصنا أن نعرف من أي أنواع البطالة تولد خبثها.

الفصل الحادي والسبعون
[وفيه ما حدث لدون كيخوته مع تابعه سانتشو في الطريق إلى قريتهما]

خرج السيد وتابعه من منزل الدوق وجددا المسير إلى قريتهما. وفي أثناء الطريق عرض دون كيخوته على سانتشو أن يدفع له الجلدات المستحقة، «وحيال هذا العرض فتح سانتشو عينيه وأذنيه بطول شبر، ووافق في قلبه على جلد نفسه عن طيب خاطر»، لأن حبه لأبنائه وزوجته أظهره بمظهر النفعي، مثلما صرح هو نفسه. وقدّر سانتشو الثمن بثمانمئة وخمسة وعشرين ريالاً، فهتف دون كيخوته: «بوركت يا سانتشو! أي سانتشو المحبوب! وكم سنجد دولثنيا وأنا نفسينا مجبرين على خدمتك طوال ما تمده السماء في عمرينا.» ومع حلول الليل، انتحى سانتشو جانباً بين الأشجار، «وجعل من رسن حماره سوطاً قوياً ومرناً»، وبعد أن عرّى نصف بدنه العلوي، «بدأ يجلد نفسه وراح دون كيخوته يعدّ الجلدات»، وعند الجلدة السابعة أو الثامنة طلب سانتشو زيادة الثمن فضاعفه له سيده، «ولكن الماكر توقف عن توجيه الضربات إلى ظهره،

وصار يجلد الأشجار، وهو يطلق الزفرات بين حين وآخر، فيبدو كما لو أن روحه تُنتزع منه مع كل زفرة».

انظر يا سانتشو، هذا الذي جرى في حساب جلداتك بينك وبين سيدك هو رمز دقيق لما يجري في حياتك. لقد قلت لك من قبل إننا جميعنا نعيش على جلدك لنفسك، بمن في ذلك نحن الذين نتفلسف حول تلك الجلدات أو نصوغها في أشعار. فمنذ زمن وسيدك يحاول إجبارك بالقوة على جدل نفسك، واستعبادك، ولكن يأتي اليوم الذي تفعل فيه ما فعلته بسيدك ومولاك الطبيعي دون كيخوته، والتمرد ضد من يريد إجبارك على جلد نفسك، ووضع ركبتك على صدره والصراخ به: «سيدي هو أنا نفسي!». وعندئذ غيّر تكتيكه وعرض عليك أن يدفع لك ثمن تلك الجلدات، وهذا ليس إلا خدعة جديدة، فمنها سيخرج أيضاً الثمن الذي سيدفعونه لك عنها. وأنت، يا سانتشو المسكين، تقبل العرض مدفوعاً بحبك لأبنائك وامرأتك، وتقرر أن تجلد نفسك. ولكن، كيف ستفعل ذلك بمشيئتك وبصدق ما دمت غير مقتنع بقيمة جلداتك؟ توجه ست جلدات أو ثمان إلى جسدك بينما توجه الثلاثة آلاف ومئتين واثنتين وتسعين جلدة المتبقية إلى الأشجار، ويضيع معظم عملك. فمعظم العمل الإنساني يضيع، ومن طبيعي أن يكون الأمر كذلك، إذ بأي إخلاص سيصقل المجوهرات بائسٌ يعمل في صقلها من أجل كسب لقمة العيش، وهو غير مقتنع بالقيمة الاجتماعية لتلك المجوهرات؟، وبأي جدّ سيصنع دمى لأبناء الأغنياء من يصنعها ليكسب قوت أبنائه الذين لا دمى لديهن يلعبون بها؟

إن معظم العمل البشري ما هو إلا مثل عمل سيزيف، والشعب لا يدري أن الأمر مجرد ذريعة ليعطوه أجره اليومي، وليس كشيء له، وإنما كشيء لا يخصه ويتفضلون عليه بجعله يكسبه. والمسألة هي في أن يتلقى سانتشو أجره كشيء لا يخصه وإنما بفضل الجلدات التي وجهها لنفسه ولأنهم تفضلوا عليه بتقديم ذلك الضرب بالسوط له، ومن أجل تأكيد وتأييد أكذوبة حق الملكية واحتكار الأقوياء المتنفذين للأراضي يخترعون الجلد بالسوط، مهما بدا ذلك

twitter @baghdad_library

غير معقول. وهكذا يجلد سانتشو نفسه بالاهتمام نفسه الذي ينزع به حجارة الشوارع أولئك التعساء الذين ترسلهم البلديات في شهور فصل الشتاء، عندما يقل الجلد، لانتزاع حجارة الشوارع كي يعيدوا رصفها من جديد، ويسوغون بذلك الصدقة المخجلة التي توزع عليهم.

حياكة بينلوبي وبرميل بنات دانايوس هما أكثر ما يشبه جَلدك لنفسك يا سانتشو؛ المسألة أنك تتكلف جهداً في كسب قمة العيش وعليك أن تشكر من يقدمون لك الجلدات، وأن تعترف بأنهم يدفعون لك مما لديهم وبأن لا تضع قدمك في حقول زرعهم مثلما وضعت ركبتك على صدره. وإنك لتحسن صنيعاً إذاً عندما تسلخ لحاء الأشجار بضربات رسن دابتك، لأنهم هكذا سيدفعون لك، وهو ما يدفعونه لك، لا لأنك تجلد نفسك، وإنما لأنك لا تتمرد. إنك تحسن صنعاً ولكن صنيعك سيكون أفضل إذا ما تحولت بسوطك ذات مرة ضد أسيادك لتجلدهم هم وليس الأشجار، وتطردهم بالجلد من حقول زرعهم أو فليفلحوها ويزرعوها معك باعتبارها شيئاً لكليكما.

الفصلان الثاني والسبعون والثالث والسبعون
[وفيهما كيف وصل دون كيخوته وسانتشو إلى قريتهما]

واصلا طريقهما والتقيا في نزل بدون ألبارو تارفي؛ وبعد يومين أنهى سانتشو جلد نفسه الجلدات المحسوبة، وبعد قليل من ذلك لمحا القرية. فدخلاها وذهب كل منهما إلى بيته. وحين صرح دون كيخوته للكاهن والمجاز بنيته في امتهان مهنة الرعاة، اكتشف كاراسكو داءه، إنه الجنون الذي انتقلت إليه عدواه من دون كيخوته، وحمله إلى هزيمة هذا الأخير حين قال له: «أنا، كما يعلم الناس جميعاً، شاعر مشهور جداً». ألم أقل لكم إن المجاز مصاب بلوثة جنونِ الفارس نفسها؟ أولم يحلم بين حجارة سلمنكا المذهبة حلم الخلود وعدم الموت؟

وهرعت مدبّرة المنزل حين سمعت بمسألة الرعاة لتنصح سيدها، وقالت له: «ابق في بيتك، واهتم بأملاكك، واعترف بخطاياك بين حين وآخر، وأحسن إلى الفقراء، وإن أصابك سوء سأكون المسؤولة.»

مدبرة المنزل الطيبة تلك قليلة الكلام، ولكنها حين تبدأ التكلم تُفرغ ما لديها بكلمات قليلة. ويا لحسن تبصرها!، ويا لكبر عقلها! إن ما نصحت به سيدها هو ما ينصحنا به من يقولون إنهم يحبوننا حقاً.

يحبوننا حقاً!... يحبوننا حقاً!... آه، أيها الحب، أيها الحب، كم أخاف منك! فحين أسمع صديقاً يقول: «أنا أحبك كثيراً»، أو «استمع لنصحنا نحن الذين نحبك كثيراً؟»، أبدأ بالارتعاش. من يحبونني حقاً... ومن هم الذين يحبونني حقاً؟ إنهم من يريدونني أن أكون كما يريدون ليحبوني. آه، يا أيها الحب، أيها الحب الرهيب، يا من تحملنا إلى البحث في المحبوب عما صنعناه منه! من ذا الذي يحبني كما أنا؟ أنت، أنت وحدك يا إلهي، بحبك لي تجدد خلقي باستمرار، لأن وجودي نفسه هو عمل حبك الدائم.

«ابق في بيتك...» ولماذا سأبقى في البيت؟ فليبق كل منكم في بيته، ولن يكون هناك من إله يوجد في بيت الجميع.

«اهتم بأملاكك...»، وما هي أملاكي؟ أملاكي هي مجدي.

«واعترف بخطاياك بين حين وآخر...» حياتي وأعمالي هما اعتراف متواصل. تعيس هو الإنسان الذي عليه أن يلتزم بمواعيد وأمكنة بعينها كي يعترف بخطاياه. ومسألة الاعتراف تلك الذي تتحدث عنه مُدَبّرة منزل دون كيخوته، ألا تعلمنا أن نكون متحفظين وثرثارين في آن واحد؟

«وأحسن إلى الفقراء...» أجل، ولكن إلى الفقراء الحقيقيين، إلى فقراء الروح، ليس بالإحسان الذي يرغبون فيه، وإنما بالذي يحتاجون إليه.

انظر أيها القارئ، على الرغم من أني لا أعرفك، إلا أنني أحبك كثيراً إلى حد أنني إذا ما استطعت الإمساك بك بين يدي، سأفتح صدرك وأُحدث في لبٍّ

twitter @baghdad_library

قلبك الداخلي جرحاً وأضع لك فيه خلاً وملحاً كيلا تتمكن من الراحة أبداً وتعيش في قلق دائم وفي لهفة لا تنتهي. وإذا كنتُ لم أتمكن من إقلاقك من خلال هذا الكيخوته الخاص بي فصدقني أن السبب في ذلك هو غبائي، ولأن هذا الورق الميت الذي أكتب عليه لا يصيح، ولا يصرخ، ولا يتنهد، ولا يبكي، ولأن اللغة التي يمكن أن نتفاهم بها أنا وأنت لم تُخترع بعد.

وهلم بنا الآن لنشهد ميتة دون كيخوته الصالحة.

الفصل الرابع والسبعون(الأخير)
[وفيه مرض دون كيخوته، ووصيته، وموته]

أسلم الروح لمن منحه الروح،
لمن سيضعها في السماء
في مجده،
ومع أن الحياة ماتت،
فقد خلّف لنا عزاء كبيراً
في ذكراه.

(نهاية مقاطع خورخي مانريكي التي نظمها في رثاء أبيه،
رودريغو مانريكي، معلم سنتياغو العظيم.)

آه أيها القارئ، لقد وصلنا إلى النهاية! إلى نهاية هذا التاريخ المؤثر، إلى تتويج حياة دون كيخوته، أو موته بكلمة أصح. فكل حياة تتوج وتكتمل بالموت وعلى ضوء الموت يجب النظر إلى الحياة. والحال هكذا، بحيث أن تلك الحكمة القديمة القائلة: «مثلما كانت الحياة، يكون الموت» ـ *sicut vita finis ita* ـ يجب استبدالها بالقول «كمثل الموت كانت الحياة». فميتة حميدة ومجيدة تكفل

حياة كاملة، مهما كانت تلك الحياة خبيثة وشنيعة، والميتة الخبيثة تشوه حياةً تبدو شديدة الصلاح. ففي الموت يتكشف غموض الحياة، سرها العميق. وفي موت دون كيخوته تكشف سر حياته الكيخوتية.

ظلَّ ستة أيام طريح الفراش ومحموماً، يئس الطبيبُ من شفائه، وبقي وحيداً فنام أكثر من ست ساعات متواصلة. «استيقظ بعدها، وصاح قائلاً بصوت قوي: "تباركت سلطة الرب الذي أنعم عليّ بالكثير من النعم! فرحمته، في نهاية المطاف، واسعة بلا حدود، لا تمنعها ولا تحول دونها خطايا البشر".» يا للكلمات الورعة! وسألته ابنه أخته عما أصابه، فأجابها: «الرحمة، يا ابنة أختي، هي ما منحني الرب إياها الآن، ولم تَحُل دون ذلك خطاياي، كما قلت. لقد صار عقلي حراً وواضحاً، بلا سحب الجهل القاتمة التي نشرتها عليه قراءتي المتواصلة لكتب الفروسية المقيتة. إنني أعرف الآن سخافاتها وأكاذيبها، ولا يضايقني إلا أن زوال الغشاوة عني قد جاء متأخراً بحيث لا يتيح لي تعويض ما سلف، بقراءة كتب أخرى تكون نوراً للروح. أشعر يا ابنة أختي بأنني على وشك الموت، وأريد أن أموت بطريقة يرى الناس فيها أن حياتي لم تكن شديدة السوء، وألا اشتهر كمجنون، لأنني كنت كذلك، ولا أريد تأكيد هذه الحقيقة بموتي».

مسكين دون كيخوته! مع اقتراب الموت، ونور الموت، يعترف ويعلن أن حياته لم تكن سوى حلم جنوني. الحياة حلم! هذا هي، في المحصلة الأخيرة، الحقيقة التي توصل إليها دون كيخوته لدى موته، وهو يلتقي بها مع أخيه سيخيسموندو[1]

ويأسف أكثر لأنه لن يتمكن من قراءة كتب أخرى تكون نوراً للروح. كتب؟ ألم تتخلص أيها النبيل الشريف من غشاوة الكتب؟ فكتب هي التي

[1] سيخيسموندو Segismundo: بطل مسرحية *الحياة حلم* للكاتب الإسباني كالديرون دي لاباركا (1600- 1681).

twitter @baghdad_library

جعلتك فارساً جوالاً، وكتب هي التي حملتك لأن تكون راعياً. وماذا لو أن هذه الكتب التي هي نور للروح ستوصلك إلى فروسية أخرى، إلى ضرب جديد من الفروسية؟ أيكون من المناسب هنا أن نتذكر مرة أخرى إينيغو دي لويولا في فراشه، جريحاً في بامبلونا، يطلب أن يأتوه بكتب فروسية ليقتل بها الوقت، فقدموا إليه كتاب حياة سيدنا المسيح، وكتاب **فلوس سانكتوروم** ***Flos Sanctorum*** دفعاه إلى أن يصير فارساً جوالاً على الطريقة الإلهية؟

استدعى دون كيخوته أصدقاءه الطيبين: الكاهن، والمجاز شمشوم كاراسكو، والمعلم نيكولاس الحلاق، وطلب أن يقدم اعترافه ويملي وصيته. وما كاد يرى الثلاثة يدخلون حتى قال: «هنئوني أيها السادة الطيبون على أنني لم أعد دون كيخوته دي لا مانشا، وإنما ألونسو كيخانو الذي منحته عاداته الشهرة بلقب الطيب». وقبل أيام قليلة من ذلك كان يتحدث إلى ألبارو دي تارفي وحين وصفه هذا بالطيب، قال له: «أنا لا أعرف إذا كنتُ طيباً، ولكنني أعرف أنني لست خبيثاً»، ربما كان يتذكر ما جاء في الإنجيل: «لماذا تدعوني صالحاً؟ ليس أحد صالحاً إلا واحد هو الله» (متى، الإصحاح التاسع عشر، 17)، وبينما هو الآن على حافة الموت، وينير نور الموت بصيرته، يقول إن عاداته منحته «الشهرة بلقب الطيب» الشهرة! الشهرة! كم هو قاس، يا سيدي دون كيخوته، انتزاع جذر الجنون من حياتك! شهرة بالطيب! شهرة بالطيب! شهرة!

وواصل التحدث بورع، فأعرب عن مقته لأماديس دي غاولا و«عصبة سلالته كلها»، وحين سمعه الأصدقاء الثلاثة ظنوا «أن جنوناً جديداً قد أصابه». وهكذا كان حقاً، فقد أصابه الجنون الأخير، الجنون الذي لا شفاء منه، جنون الموت. الحياة حلم، هذا صحيح، ولكن أخبرنا يا دون كيخوته البائس، أنت الذي استيقظت من حلم جنونك لتموت لاعناً إياه، أخبرنا: أليس الموت حلماً أيضاً؟ آه!، وإذا كان حلماً أبدياً وحلماً بلا أحلام ولا يقظة، أيكون تعقل موتك عندئذ، يا عزيزي الفارس، أثمن من جنون حياتك؟ وإذا كان الموت حلماً، يا دون كيخوتي، فلماذا ينبغي للمردة أن يكونوا طواحين هواء،

وللجيوش أن تكون نعاجاً، ولدولثنيا أن تكون فلاحة جلفة، وللبشر أن يكونوا ساخرين؟ إذا كان الموت حلماً، أيكون تلهفك إلى الخلود مجرد جنون ولا شيء سوى جنون عميق!

وإذا كان جنونك حلماً وباطلاً، فما هي كل بطولة إنسانية غير كونها حلماً وباطلاً، وكل جهد في سبيل خير القريب، وكل مساعدة للمحتاجين، وكل حرب على الظالمين؟ وإذا كان حلماً وباطلاً جنونك بعدم الموت، فعندئذ لا يكون أحد على حق في العالم سوى أمثال المجاز كاراسكو، والدوق، ودون أنطونيو مورينو، وباختصار كل الساخرين الذين يتخذون من الشجاعة والطيبة تسلية ومتعة لبطالتهم. وإذا كانت لهفتك إلى حياة خالدة مجرد حلم، فإن الحقيقة كلها متضمنة في تلك الأبيات من الأوديسة:

Τόν δέ θεοί μέν τενξαν, έπεχλωσαντο δ'ό'λεθρου
άυθρωποις, ϊυα χαί εσσμένοισιν άοιδή

VIII, 579-580.

«الآلهة تحوك وتنجز ضياع البشر الفانين/ كي يكون للآتين ما يروونه.» (النشيد الثامن، البيتان 579 - 580) وعندئذ يمكن لنا، أجل، أن نقول مع أخيك سيخيسموندو إن «أعظم جرائم الإنسان هي كونه قد ولد». فإذا كان الأمر كذلك، فإنه من الخير لنا ألا نكون قد رأينا ضوء الشمس، ولا امتلأت صدورنا بهواء الحياة.

ما الذي جرك يا سيدي دون كيخوته إلى جنونك بالسمعة والشهرة، وإلى لهفتك للعيش بالمجد في ذاكرة البشر إلا لهفتك للخلود، هذا الإرث الذي نرثه عن آبائنا، «بأن لدينا شهية للإلوهية، والجنون والهوس بأن نكون أكثر مما نحن عليه»، مستخدماً كلمات الأب ألونسو رودريغث، معاصرك؟ (***ممارسة الكمال وفضائل مسيحية***، المبحث الثامن، الفصل الخامس عشر). «وماذا سوى الذعر من أن نصل إلى أن نكون عدماً، يدفعنا لأن نكون كل شيء، كعلاج وحيد لعدم الوقوع في تلاشينا المخيف؟.

twitter @baghdad_library

ولكن هنالك سانتشو في قمة إيمانه التي بلغها بعد كثير من السقوط، والتقهقر، والتعثر. وحين سمعه مجرداً من الأوهام، قال له: «الآن يا سيد دون كيخوته، وبعد أن بَلَغَنا خبر أن السيدة دولثنيا لم تعد مسحورة، تخرج علينا حضرتك بهذا؟ والآن ونحن على وشك أن نصير رعاة لنقضي الحياة في الغناء كالأمراء، تريد حضرتك التحول إلى ناسك؟ اسكت بحياتك، وثب إلى رشدك، ودعك من هذه الحكايات». يا للكلمات الباهرة! ثب إلى رشدك! «ثب إلى رشدك، ودعك من هذه الحكايات». ولكن، آه يا صديقي سانتشو، فسيدك لم يعد قادراً على العودة إلى رشده، وإنما عليه أن يعود إلى باطن الأرض الولود كلية القدرة التي تخرجنا جميعنا إلى النور، وتضمنا جميعاً في الظلمة. يا لك من مسكين يا سانتشو، ستبقى وحيداً بإيمانك، بالإيمان الذي منحك إياه سيدك.

دعك من هذا الكلام! وردّ دون كيخوته: «ما كان حتى الآن أسباباً حقيقية في الضرر بي، سيحوله موتي، بعون السماء، إلى خير لمصلحتي». أجل يا سيدي دون كيخوته، هذه الحكايات هي مصلحتك. لقد كان موتك أكثر بطولة من حياتك، لأنك حين وصلت إليه أنجزت تنازلك الأكبر، تنازلك عن مجدك، تنازلك عن إنجازك. لقد كان موتك تضحية سامية. ففي ذروة شغفك، وأنت مثقل بالسخرية، تتنازل، ليس عن نفسك بالذات، وإنما عما هو أعظم منك، تنازلت عن إنجازك. ويحتضنك المجد إلى الأبد.

«أخرج الكاهن الجميع، وبقي وحيداً معه ليتلقى اعترافه». وبعد انتهاء الاعتراف، خرج الكاهن قائلاً: «إنه يموت حقاً، وحقاً أن ألونسو كيخانو الطيب في تمام عقله. يمكننا الدخول كي يملي وصيته». فانفجر سانتشو وقيّمة المنزل وابنة الأخت في البكاء، لأن دون كيخوته «سواء حين كان ألونسو كيخانو الطيب وحسب، أو حين كان دون كيخوته دي لا مانشا، كان دائماً لطيف المزاج، حلو المعشر، حسن الشمائل، ولهذا لم يكن محبوباً من أهل بيته وحسب، وإنما من جميع من عرفوه». لقد كان طيباً على الدوام، طيباً قبل كل شيء وفوق كل شيء، طيباً طيبة فطرية، وهذه الطيبة التي كانت ركيزة تعقل

ألونسو كيخانو، وأفادت هذه الطيبة نفسها، لدى موته النموذجي، أفادت كركيزة لجنون دون كيخوته ولحياته بالغة النموذجية. فجذر جنونك بالخلود، جذر لهفتك للعيش على مدى العصور، جذر توقك إلى عدم الموت، كان في طيبتك يا عزيزي دون كيخوته. فالطيب لا يذعن للفناء، لأنه يشعر بأن طيبته تشكل جزءاً من الرب، الرب الذي هو رب الأحياء، وليس رب الموتى، لأنهم بالنسبة له أحياء جميعهم. والطيبة لا تخشى اللانهاية ولا الأبدية. الطيبة تعترف بأنها لا تبلغ الكمال وتنتهي إلا في الروح الإنسانية. والطيبة تعرف أنه من الكذب القول إن الخير يتحقق في سيرورة الجنس البشري. المسألة هي في أن يكون المرء طيباً، مهما كان حلم حياته. وقد قال ذلك سيخيسموندو (الفصل الثاني، المشهد الرابع).

أن أكون حالماً وأرغب
في عمل الخير، فعمل الخير
لا يضيع حتى في الحلم.

وإذا كانت الطيبة تخلدنا، فأي تعقل أكبر من أن نموت؟ «إنه يموت حقاً، وحقاً أن ألونسو كيخانو الطيب في تمام عقله»، إنه يموت على جنون الحياة، إنه يستيقظ من حلمه.

أملى دون كيخوته وصيته، وفيها ذكر سانتشو لأنه يستحق ذلك. فإذا كان سيده قد هيأ له وهو مجنون أن يحكم الجزيرة، «فإنه يمكن لي وأنا عاقل أن أقدم له حكم مملكة، لأن بساطته ووفاءه يستحقان ذلك». والتفت دون كيخوته إلى سانتشو يريد زعزعة إيمانه وإقناعه بأنه لم يحدث أن وجد فرسان جوالة في العالم قطّ، فيردّ على ذلك سانتشو الممتلئ إيماناً والمجنون تماماً بينما سيده يموت عاقلاً: «آه، لا تمت يا سيدي، بل اعمل بنصيحتي وعش أعواماً طويلة، لأن أكبر جنون يمكن لإنسان أن يرتكبه في هذه الحياة هو في ترك نفسه يموت بلا أخذ ولا رد». أهو أكبر جنون يا سانتشو؟

twitter @baghdad_library

وأرضى موتي
بإرادة راضية
واضحة ونقية.
فرغبة المرء في العيش
حين يريد الرب له الموت،
مجرد جنون.

كان يمكن لسيدك أن يردّ عليك، بكلمات المعلم دون رودريغو مانريكي، مثلما وضعها على لسانه ابنه خورخي، صاحب هذه المقاطع الشعرية الخالدة.

وبعد حديثه عن جنون الاستسلام للموت، عاد سانتشو إلى حديث المغامرات، فتحدث إلى دون كيخوته عن رفع السحر عن دولثنيا وعن كتب الفروسية. آه يا سانتشو البطولي، ما أقل من يلحظون بلوغك ذروة الجنون، في الوقت الذي يتدهور فيه سيدك إلى أعماق هوة التعقل، وعلى فراش موته يشع إيمانك، إيمانك أنت يا سانتشو، إيمانك أنت الذي لم تمت ولن تموت! لقد فقد دون كيخوته إيمانه ومات، وأنت استعدت الإيمان وتعيش. كان لابد من أن يموت في زوال الوهم من أجل أن تعيش أنت في الخدعة منعشة الحياة.

آه يا سانتشو، وكم هو كئيب تذكرك لدولثنيا الآن، بينما سيدك يتأهب للموت! لم يعد دون كيخوته، وإنما هو الآن ألونسو كيخانو الطيب، النبيل الخجول الذي قضى اثني عشر عاماً يحب ـ كحبه لنور عينيه، تينك العينين اللتين سيأكلهما التراب عما قريب ـ ألدونثا لورنثو، ابنة لورنثو كورتشويلو وألدونثا نوغاليس، ابنة توبوسو. وحين ذكّرته بسيدته، وهو على فراش الموت، يا سانتشو، إنما ذكّرته بالفتاة الأنيقة التي لم ينعم منها، خفية، إلا برؤية عينيها أربع مرات خلال اثني عشر عاماً طويلة من الوحدة والعفة. ويراها النبيل متزوجة الآن، محاطة بأبنائها، معتزة بزوجها، جاعلة الحياة مثمرة في توبوسو. وعندئذ، في فراش موته كأعزب، ربما يكون قد فكر في أنه كان يمكن أن يكون

قد أخذها هو وشرب منها في الحياة. ولكان مات بلا مجد، ودون أن تدعوه دولثنيا من سماء الجنون، ولكنه يشعر على شفتيه الباردتين بشفتي ألدونثا المتأججتين، ويرى نفسه محاطاً بأبنائه الذين سيحيا فيهم. أتجدها هناك، في الفراش الذي تموت فيه أيها النبيل الطيب، والذي اختلطت فيه مرات كثيرة من قبل، في حياة واحدة، حياتاكما المفترقتان. تجدها هناك، تمسك بيدها يدك وتمنح بيدها حرارةً تفلت من يدك، وترى في عينيها الباكيتين والخائفتين مجيء نور السر الأخير المبهر، نور الظلمات، ومعلقتين بعينيها ستنتقل عيناك إلى الرؤيا الأبدية! ستموتُ دون أن تكون قد نعمت بالحب، بالحب الوحيد القادر على قهر الموت. وعندئذ، لدى سماعك سانتشو يتحدث عن دولثنيا، لا بد أنك راجعت في قلبك تلك الأعوام الاثني عشر من عذاب الخجل القهّار. كانت هذه هي معركتك الأخيرة يا سيدي دون كيخوته، والتي لم ينتبه إليها أحد من المحيطين بفراش موتك.

سارع المجاز لمساعدة سانتشو، وحين سمعه دون كيخوته قال بطمأنينة فانية: «أيها السادة، فلنمضِ قليلاً قليلاً، ففي أعشاش السنة الماضية لا وجود لعصافير هذه السنة. لقد كنتُ مجنوناً، والآن صرت عاقلاً. كنت دون كيخوته دي لا منتشا، وأنا الآن، كما قلت، ألونسو كيخانو الطيب. ولعل توبتي وحقيقتي أن يستردا تقديركم السابق لي». لقد شفيتَ أيها الفارس كي تموت. عدتَ ألونسو كيخانو الطيب كي تموت. انظر يا ألونسو كيخانو المسكين، انظر إلى شعبك، وتأمل إن هو لم يشف من جنونه كي يموت بعد ذلك. كان محطماً ومهاناً، ثم انتهوا هناك، في أميركا، إلى هزيمته، فعاد إلى قريته. أتراه عاد ليشفى من جنونه؟ من يدري!... ربما عاد ليموت. ربما ليموت إذا لم يبق هنالك سانتشو يحل محله وهو ممتلئ بالإيمان. لأن إيمانك أيها الفارس مكتنز اليوم في سانتشو.

سانتشو الذي لم يمت هو وريث روحك أيها النبيل الطيب، ونحن المؤمنون بك ننتظر أن يشعر سانتشو يوماً أن روحه قد امتلأت بالكيخوتية، وأن تزهر ذكريات حياته الماضية كتابع، وأن يذهب إلى بيتك ويرتدي دروعك، وليكلف

twitter @baghdad_library

حداد القرية بإعدادها لتناسب مقاسه وجسمه، ويُخرج روثينانته من إسطبله ويمتطي صهوته، ويحمل رمحك، الرمح الذي حررت به المحكومين بالتجذيف وأسقطت به فارس المرايا، ودون أن يولي اهتماماً لأصوات ابنة أختك، يخرج إلى البرية ويعود إلى حياة المغامرات، متحولاً إلى فارس جوال. وعندئذ يا سيدي دون كيخوته، عندئذ تستقر روحك في الأرض. فسانتشو، تابعك الوفي سانتشو، سانتشو الطيب الذي جن عندما شفيت من جنونك على فراش الموت، سانتشو هو من سيوطد الكيخوتية على أرض البشر إلى الأبد. عندما يمتطي سانتشو، يا فارسي النبيل، صهوة حصانك روثينانته، مرتدياً دروعك، وممسكاً رمحك، عندئذ ستبعثُ حياً فيه، وعندئذ يتحقق حلمك. ستجمعكما دولثنيا معاً، تضمكما بذراعيها إلى صدرها، وتجعلكما واحداً.

«فلنمضِ قليلاً قليلاً، ففي أعشاش السنة الماضية لا وجود لعصافير هذه السنة»، وتلاشى الحلم.

علمتني التجربة
أن الإنسان الحي يحلم
بما هو عليه، إلى أن يستيقظ.
يحلم الملك أنه ملك ويحيا
في هذه الخدعة وهو يأمر
وينهى ويحكم.

(الحياة حلم، الفصل الثاني، المشهد 19)

وقد حلم دون كيخوته أنه كان فارساً جوالاً إلى أن تحولت مغامراته كلها

إلى رماد حوله الموت
تعاسة قوية!

الفصل الثاني، المشهد 19

ما الذي كانت عليه حياة دون كيخوته؟

ما هي الحياة؟ إنها وهم،
طيف، خيال،
وأكبر خير صغير،
فالحياة كلها حلم،
والأحلام ليست سوى أحلام
(19،2)

«آه، لا تمت يا سيدي، بل اتبع نصيحتي وعش أعواماً كثيرة!»

أمرة أخرى ـ ما هذا أيتها السموات! ـ
أتريدينني أن أحلم برفعة
سيبددها الزمن؟
أمرة أخرى تريدينني أن أرى
وسط الظلال والخطوط
الجلال والأبهة
مبددة مع الريح؟
(3، 8).

«فلنمضِ قليلاً قليلاً، ففي أعشاش السنة الماضية لا وجود لعصافير هذه السنة.»

ابتعدي أيتها الظلال، يا من تتبدين
لحواسي الميتة اليوم
أنك جسداً وصوتاً، والحقيقة
أن لا صوت لك ولا بدن.
فأنا لا أحب مهابة زائفة،

twitter @baghdad_library

وأبهة لا أريد
ولا أوهام متخيلة
يمكن لأخف نسمة أن تبددها،
مثل شجرة اللوز المزهرة
حين تبكر أزهارها
دون إذن ودون نصيحة،
فتنطفئ مع أول نسمة،
ذاوية وباهتة
وتجرد الأكمام الوردية
من الجمال والنور والزينة.
(3، 8)

دعني أقول مع أختي تيريسا دي خيسوس:

حياة الأعالي تلك
هي الحياة الحقيقية،
وإلى أن تموت هذه الحياة
لا متعة ما دمت حية
فيا أيها الموت، لا تتجنبني.
إنني أحيا وأنا أموت أولاً،
فأموت لأني لا أموت.

«فلنمضِ قليلاً قليلاً، ففي أعشاش السنة الماضية لا وجود لعصافير هذه السنة!» أو كما قال إينيغو دي لويولا عندما كان على وشك الاستيقاظ من حلم الحياة، وهو يحتضر، وأرادوا أن يقدموا إليه قليلاً من الغذاء: «لم يعد الوقت مناسباً لهذا» (ريبادينيرا، الكتاب الرابع، الفصل السادس عشر)، ومات

إينيغو، كما سيموت دون كيخوته بعده بحوالي خمسين عاماً، دون كيخوته، هكذا ببساطة، بلا أية مسرحية، ودون اجتماع أناس حول فراشه، ودون أن يجعل من الموت استعراضاً، مثلما يموت القديسون الحقيقيون والأبطال الحقيقيون، مثلما تموت الحيوانات تقريباً: يستلقي ليموت.

وواصل ألونسو كيخانو إملاء وصيته، وأوصى بممتلكاته كلها لأنطونيا كيخانا، ابنة أخته، ولكنه فرض عليها شرطاً كي تحصل عليها، بأنها «إذا أرادت الزواج، فلتتزوج من رجل تكون قد استعلمت مسبقاً أنه لا يعرف أية أشياء عن كتب الفروسية. وإذا تبين لها أنه يعرف، وأصرت ابنه أختي بالرغم من ذلك على الزواج منه وتزوجته، تفقد كل ما أمرتُ لها به، ويمكن لمنفذا الوصية توزيعه في أعمال الخير وفق إرادتهما».

وكم أحسن دون كيخوته في إدراك أن هنالك بين مهنة الزوج والفارس الجوال عدم تلاقٍ متبادل وقوي! وحين أملى ذلك، ألم يفكر النبيل الطيب بألدونثا، وأنه لو كشف لها عن حبه الشديد لكان وفر على نفسه مشقات الفروسية، وظل حبيس ذراعيها إلى جانب مدفأة المنزل؟

وصيتك ستُنفذ يا دون كيخوته، وسيتخلى شباب هذا الوطن جميعهم عن كل فروسية ليتمكنوا من التمتع بأملاك بنات أختك اللاتي هن جميع الإسبانيات تقريباً، والتمتع ببنات أختك أنفسهن. فبين أذرعهن تغرق كل بطولة. وهن يرتجفن خوفاً من أن يصيب خُطّابهن وأزواجهن الهوس نفسه الذي أصاب خالهن. ابنة أختك يا دون كيخوته، ابنة أختك هي من تسود اليوم وتحكم في إسبانياك؛ إنها ابنة أختك وليس سانتشو. إنها الخويفة، البيتيه، الهيابة أنطونيا كيخانا التي كانت تخشى تحولك إلى شاعر، هذا «الداء العضال والمعدي»، ومن ساعدت بحرص شديد الكاهن والحلاق على حرق كتبك، ومن نصحتك دائماً بألا تُدخل نفسك في مشاجرات، وألا تخرج إلي الدنيا بحثاً عن خبز القمح الفاخر، ومن تجرأت على التأكيد أمام لحيتك أن كل ما يقال عن الفروسية الجوالة ليس سوى خرافات وأكاذيب، جرأة الأوانس تلك التي

twitter @baghdad_library

اضطرتك أن تهتف: «أقسم بالرب الذي يعينني، لو لم تكوني ابنة أختي، أختي بالذات، لأنزلتُ بكِ، بسبب ما قلتِه من تجديف، عقوبة تتردد أصداؤها في العالم بأسره». وهذه هي «الصغيرة البلهاء التي تكاد لا تحسن تحريك اثنتي عشرة صنارة حياكة» وتتجرأ مع ذلك على التكلم عن قصص الفروسية الجوالة وتنتقدها. هذه هي التي تحرك أبناء إسبانيا كالدمى وتهزهم، وترهقهم. ليست دولثنيا دل توبوسو، لا؛ وليست كذلك ألدونثا لورنثو التي تنهدتَ من أجلها اثني عشر عاماً دون أن تكون قد رأيتها سوى أربع مرات، ودون أن تكون قد بحت لها بحبك. بل هي أنطونيا كيخانا التي تكاد لا تحسن تحريك اثنتي عشرة صنارة حياكة، هي من تحرك اليوم الرجال في وطنك.

إنها أنطونيا كيخانا هي من تكبح زوجها، لبؤس روحها، ولاعتقادها بأن زوجها مسكين، وتمنعه من الانطلاق إلى مغامرات بطولية يكتسب فيها السمعة والشهرة. لو أنها كانت دولثنيا على الأقل!... دولثنيا، أجل، مهما بدا ذلك لكم غريباً. فدولثنيا يمكنها أن تحرك أحدنا للتخلي عن كل مجد، وأن يتخلى المجد عنها. فدولثنيا، أو ألدونثا بكلمة أدق. ألدونثا المثالية، يمكنها أن تقول لك: «تعال، تعال إلى ذراعي وفرّج بالدموعِ عن جزعك على صدري، تعال هنا. إنني أرى، إنني أرى لك نصباً شامخاً في عصور بني البشر، وقمة يراك منها جميع إخوانك. إنني أراك والأجيال تهتف لك. ولكن تعال إليّ، وتخلَ من أجلي عن هذا كله. ستكون بذلك أعظم يا ألونسو، ستكون أعظم. خذ فمي بكامله وأشبعه قبلات حارة في صمتك، وتنازل عن أن يدور اسمك بارداً على أفواه من لن تعرفهم أبداً. هل ستسمع بعد موتك ما سيقولونه عنك؟ ادفن في صدري حبك كله، فمن الأفضل أن تدفنه فيّ إذا كان كبيراً على أن تهدره بين بشر عابرين فارغي الرؤوس! إنهم غير جديرين بأن يقدروك يا ألونسو، غير جديرين بأن يقدروك. ستكون لي وحدي وبذلك تكون أفضل للعالم كله وللرب. سيبدو بذلك أن قوتك وبطولتك ستضيعان، ولكن لا تهتم. أتعلم، مصادفة، أن تدفق الحياة الهائل، دون أن يلحظه أحد، ينطلق من حب بطولي

صامت ثم ينتشر إلى ما هو أبعد من البشر جميعاً حتى تخوم آخر النجوم؟ أتعرف أن الطاقة الخفية التي تشع على شعب بكامله وعلى أجياله المقبلة إلى نهاية العصور تنبثق من زوجين سعيدين حيث يستقر الحب ظافراً وصامتاً؟ أتعرف ما هو الاحتفاظ بلهب الحياة المقدس وتأجيجه أكثر فأكثر في عبادة صامتة ومنزوية؟ الحب، وبالحب وحده، ودون عمل أي شيء آخر، ينجز عملاً بطولياً. تعال إليّ وتخلَ عن أي عمل بين ذراعيّ، ففيهما سيكون مصدر أعمالك والضياء لمن لن يعرفوا أبداً اسمك. وحين يتلاشى صدى اسمك في الهواء، حين يتبدد، ستدفئ جذوة حبك حتى أطلال العوالم. تعال وقدم نفسك إليّ يا ألونسو، فحتى لو لم تخرج إلى الدروب لتقوّم اعوجاجات، لن تضيع عظمتك، لأنه لا شيء يضيع في أحضاني. تعال، وسأحملك من راحة حضني إلى الراحة الأبدية اللانهائية».

هكذا كان يمكن أن تتكلم ألدونثا، وكان ألونسو سيصبح عظيماً بتخليه بين ذراعيها عن كل مجد. ولكنكِ أنتِ يا أنطونيا لا تعرفين التكلم هكذا. أنت لا تؤمنين بأن الحب أثمن من المجد. ما تعتقدينه أنت هو أنه لا الحب ولا المجد أثمن من هدوء البيت الناعس، وأنه لا الحب ولا المجد يساويان أمان طهو الحمص، أنت تعتقدين أن البعبع يأخذ من ينامون قليلاً، ولا تعرفين أن الحب، مثل المجد، لا ينام، وإنما يسهر مؤرقاً.

وأنهى ألونسو كيخانو إملاء وصيته، وتلقى المراسم الدينية، ولعن كتب الفروسية مجدداً، «وسط زفرات وعبرات الحاضرين هناك أسلم روحه، أعني أنه مات.» هذا ما يضيفه المؤرخ.

«أسلم روحه!» لمن أسلمها؟ أين هي اليوم؟ أين تحلم؟ أين تعيش؟ وما هي هاوية التعقل التي تقبع فيها الأرواح التي تشفي من حلم الحياة، من جنون عدم الموت؟ آه يا إلهي! يا من منحت دون كيخوته حياة وروحاً في حياة شعبه وروحه، يا من ألهمت ثربانتس هذه الملحمة عميقة المسيحية. أنت يا إله

twitter @baghdad_library

أحلامي، أين تحشر أرواحنا نحن الذين نعبر حلم الحياة هذا وقد مسنا جنون الحياة لعصور العصور الآتية؟ لقد منحتنا لهفة السمعة والشهرة، كظل لمجدك. سينقضي العالم، فهل سنمضي نحن معه أيضاً يا رياه؟

الحياة حلم! أيكون حلما كذلك، يا رب، هذا الكون الذي أنت ضميره الأبدي واللانهائي؟ أيكون حلمك؟ أيكون أنك تحلم بنا؟ أنكون نحن الحالمين بالحياة حلمك أنت؟ وإذا كان الأمر كذلك، ماذا سيكون الكون كله، وما الذي سنصير إليه نحن، وما الذي سأصيرُ إليه، يا رب حياتي، عندما تستيقظ؟ احلم بنا يا رب! ألا يكون أنك تستيقظ من أجل الطيبين عندما يستيقظون للموت من حلم الحياة؟ وهل يمكننا نحن، الأحلام المسكينة التي يُحلم بها، أن نحلم ما هي عليه يقظة الإنسان في يقظتك الأبدية يا ربنا؟ ألا تكون الطيبة بريق اليقظة في ظلمات الحلم؟ خير لنا من تقصي أحلامك وأحلامنا، ومن تفحص الكون والحياة، خير لنا ألف مرة أن نفعل الخير.

ففعل الخير لا يضيع
حتى لو كان في الحلم.

خير من تقصي ما إذا كانت طواحين هواء أو مردة تلك التي تبدو لنا ضارة، أن نصغي لصوت القلب وننقض عليها، لأن كل انقضاض كريم يفوح من حلم الحياة. ومن أعمالنا وليس من تأملاتنا نستخلص الحكمة. احلم بنا يا رب أحلامنا.

احفظ لسانتشو حلمه وإيمانه يا رب، واجعله يؤمن بحياته الدائمة، وأن يحلم بأن يكون راعياً هناك في لانهائية حقول حضنك، وأن يكون سعيداً بلا نهاية في الحياة التي لا نهاية لها، والتي هي أنت نفسك. احفظها يا رب إسبانياي! انظر يا رب، في اليوم الذي يشفى فيه عبدك سانتشو من جنونه، سيموت، وعند موته ستموت إسبانياه، إسبانياكَ يا إلهي. لقد أسستَ شعبك هذا، شعب عبديك دون كيخوته وسانتشو، على الإيمان بالخلود الشخصي.

وانظر يا رب، هذه هي علة حياتنا، وقدرنا بين الشعوب: أن تنير حقيقة قلوبنا الأذهان ضد ظلمات المنطق والتعقل، وتواسي قلوب المحكوم عليهم بحلم الحياة.

«هكذا تقتلنا الحياة
فيعيدنا الموت إلى الحياة.»

ويضيف المؤرخ أن الكاهن طلب من الكاتب بالعدل أن يوثق أن «ألونسو كيخانو الطيب، والمشهور باسم دون كيخوته دي لامنتشا قد فارق هذه الحياة، ومات ميتة طبيعية، وهذه الشهادة يراد منها سدّ السبيل أمام إقدام مؤلف آخر على ادعاء بعثه زيفاً». ثم يضيف في ما بعد أنه يرقد «ممدداً بطوله، وغير قادر على القيام بمهمة ثالثة وخرجة جديدة».

ولكن، هل تظنون أن دون كيخوته لن يبعث حياً؟ هنالك من يعتقد أنه لم يمت، وأن الميت، والميت الحقيقي، هو ثربانتس الذي أراد قتله، وليس دون كيخوته. هنالك من يعتقد أنه انبعث إلى الحياة في اليوم الثالث لموته، وأنه سيعود إلى الأرض بجسد فانٍ ويقوم بأعماله. وسيعود عندما يشعر سانتشو، المثقل اليوم بالذكريات، بفوران دمائه التي تزوده بها في جولاته كتابع، ويمتطي، كما قلتُ، صهوة روثينانته، ويرتدي دروع سيده، ويحمل الرمح وينطلق ليجعل من نفسه دون كيخوته. وسيأتي سيده عندئذ ويتجسد فيه. تشجع يا سانتشو البطولي، وأنعش ذلك الإيمان الذي أشعله فيك سيدك، والذي تكلفت مشقة كبيرة في تأجيجه وترسيخه، تشجع!

ولن تروى معجزة حققتها وأنت ميت، مثلما يروى عن **السيد** الذي كسب المعركة وهو جثة، ويروى عنه أنه وهو ميت أيضاً أراد يهودي أن يلمس لحيته التي لم يمسسها أحد في حياته.

وقبل أن يصل إلى اللحية، كان السيد قد استل سيفه،

twitter @baghdad_library

وجرده مقدار شبر.
وما إن رأى اليهودي ذلك حتى استولى عليه خوف عظيم،
وسقط على ظهره فوق الأرض، ميتاً من الرعب.

لا أعرف أن دون كيخوته قد كسب معركة بعد موته، وأعرف أن يهوداً كثيرين يتجرؤون على لمس لحيته. ولا يُعرف عن دون كيخوتي أنه حقق معجزة بعد موته. ولكن، ألا يكفي ما حققه في حياته، وهل كانت مسيرته من المغامرات إلا معجزة متواصلة؟ وبخاصة، كما يذكر الأب ريبادينيرا في الفصل الأخير من كتابه الذي استشهدنا به كثيراً، حيث يحدثنا عن معجزات حققها الرب من خلال القديس إغناثيو، إذ لم تلد امرأة، كما يقول الإنجيل، أعظم من القديس يوحنا المعمدان، مع أنه كما يقول الإنجيل نفسه لم يحقق أي معجزة. وإذا كان الورع الذي كتب سيرة حياة إغناثيو دي لويولا يرى أن أعظم معجزة حققها هذا هي تأسيسه فرقة يسوع، أفلا يكون من حقنا نحن أن نعتبر أن أعظم معجزة حققها دون كيخوته هي أنه جعل من يكتب سيرة حياته رجلاً مثل ثربانتس، أظهر في كتاباته الأخرى ضُعف عبقريته، وقد كانت تتطلب ما هو أدنى بكثير، في النظام الطبيعي للأمور، مما تتطلبه رواية مغامرات النبيل العبقري، ومثلما رواها هو.

لا مجال للشك في أن **النبيل العبقري دون كيخوته دي لا مانتشا** الذي وضعه ميغيل دي ثربانتس سافيدرا قد ظهر فيه متجاوزاً جداً ما يمكننا توقعه منه بالمقارنة مع مؤلفاته الأخرى. لقد تفوق كثيراً على ذاته. وهذا ما يدفع إلى الاعتقاد بأن المؤرخ العربي سيدي حامد بن إينخيلي لم يكن ذريعة أدبية محضة، وإنما هو ينطوي على حقيقة عميقة، وهي أن هذا التاريخ قد أملاه على ثربانتس شخص آخر كان يحمله في داخله، وأنه لم يتعامل معه مرة أخرى، لا قبل كتابته هذا التاريخ ولا بعده: روح كانت تسكن في أعماق نفسه. وهذا البعد الشاسع بين تاريخ حياة فارسنا وكافة المؤلفات الأخرى التي كتبها ثربانتس، هذه

المعجزة الظاهرة والرائعة هي السبب الرئيسي ـ إذا كان ثمة حاجة لأسباب بائسة لا حاجة لها ـ لنؤمن ونؤكد أن هذا التاريخ كان واقعاً حقيقياً، وأن دون كيخوته نفسه، متستراً بشخصية سيدي حامد بن إينخيلي، قد أملاه على ثربانتس. وأصل إلى الشك بأنه، بينما كنت أشرح هذه الحياة وأعلق عليها، قد زارني دون كيخوته وسانتشو بصورة سرية، وكشفا لي، دون أن أدري، عن مكنون قلبيهما.

وعليّ أن أضيف هنا أننا ننظر في أحيان كثيرة إلى الكاتب على أنه شخص حقيقي وواقعي وتاريخي، لأننا نراه من لحم وعظم، وأن الشخوص الذين يصورهم في تخييله مجرد وهم، ويحدث العكس، إذ يكون أولئك الشخوص في الحقيقة واقعيين تماماً ويستخدمون ذاك الذي يبدو لنا من لحم وعظم ليكتسبوا كياناً وهيئة أمام الناس. وعندما نستيقظ جميعنا من حلم الحياة، ستُرى في هذا الشأن أشياء شديدة التنقل وسيصيب الفزع العلماء حين يرون ما هو الحقيقة وما هو الكذب، وكم نوغل في الضلال حين نظن أن لذلك اللغز الذي نسميه منطقاً أي فائدة خارج هذا العالم البائس الذي يحتجزنا فيه الزمان والمكان: مستبدا الروح.

سنعرف أشياء كثيرة هناك بشأن الحياة والموت. وهنالك سيتبدى مدى عمق مغزى المقطع الأول المنقوش على ضريح دون كيخوته، والذي نظمه شمشوم كارسكو، إذ يقول:

هنا يرقد النبيل القوي
من بلغ الشجاعة القصوى
حتى يبدو أن الموت
لم ينتصر على حياته بالموت.

وهكذا هي الحال، فدون كيخوته خالد بفضل موته. والموت هو مخلدنا.

لا شيء ينقضي، ولا شيء يتلاشى، لا شيء يفنى. فأصغر جزيء من المادة

twitter @baghdad_library

يظل خالداً، وكذلك أضعف صدمة قوة، ولا وجود لرؤية، مهما كانت متهربة، إلا ويظل لها انعكاس دائم في مكان ما. وهكذا كما لو أنه لدى المرور من نقطة ما، في لانهائية الظلمات، يضيء ويلمع للحظة كل ما يمر هناك، هكذا يلمع للحظة في وعينا الحاضر كل ما يمر مما لا يمكن إدراكه من المستقبل إلى ما لا يمكن إدراكه من الماضي. وما من رؤية أو شيء أو لحظة منها إلا وتنزل إلى الأعماق الأزلية التي خرجت منها وتبقى هناك. الحلم هو هذا الاشتعال المفاجئ والآني للماهية الغائمة، وحلم هي الحياة، وحين ينطفئ الوميض العابر ينزل انعكاسه إلى أعماق الظلمات، وهناك يبقى ويدوم إلى أن تعيد إشعاله هزة عليا إلى الأبد، لأن الموت لا ينتصر على الحياة بموتها. الموت والحياة مصطلحان بائسان نستخدمهما في سجن الزمان والمكان هذا؛ ولهما جذر مشترك، وجذر هذا الجذر متغلغل في أبدية اللانهاية: في الرب، ضمير الكون.

ومع انتهاء القصة علق المؤرخ قلمه وقال له «هنا ستظل معلقاً إلى هذا المسمار وبهذا السلك المعدني، ولست أدري إن كنتَ جيد البري أم رديئه، يا قلمي الصغير، ستبقى حياً لقرون طويلة، ما لم ينتزعك من مكانك مؤرخون أدعياء ليدنسوك».

فلينجنِ الرب من التدخل في رواية أحداث غابت عن مؤرخ دون كيخوته المدقق؛ فأنا لم أعتبر نفسي علامة ولم أتدخل قطّ في تفحص وتقصي أرشيف فروسية المانتشا. ولم أشأ سوى شرح حياته والتعليق عليها.

«نعم، من أجلي أنا ولد دون كيخوته، ومن أجله ولدت أنا. لقد أحسن العمل وأحسنتُ الكتابة»، هذا ما جعل المؤرخُ قلمَه يقوله. وأنا أقول إنه من أجل أن يروي ثربانتس سيرة حياة دون كيخوته، وأقوم أنا بشرحها والتعليق عليها ولد دون كيخوته وسانتشو. لقد ولد ثربانتس ليرويها، وولدت أنا لشرحها والتعليق عليها... لا يستطيع رواية حياتك، ولا شرحها ولا التعليق عليها، يا سيدي دون كيخوته، إلا من به مس من جنونك نفسه بعدم الموت.

فتدخل لأجلي إذاً يا سيدي ومولاي، كي تأخذ دولتنيا بيدي، بعد أن تخلّصتْ من السحر بفضلِ جلدات سانتشو، وتقودني إلى خلود الاسم والشهرة. وإذا كانت الحياة حلماً، فدعني أحلم بأنها بلا نهاية.

لكي نسود، أيها الحظ، هلم بنا
لا توقظني إذا كنتُ أحلم.

(الحياة حلم، الفصل الثاني، المشهد الرابع)

και μνχόμην πατ' εμ' αντόν εγώ
ΙΛΙΑΛΟΣ Α' σοα

twitter @baghdad_library

مكتبة بغداد
twitter@baghdad_library

يهرب ميغيل دي أونامونو في «حياة دون كيخوته وسانتشو» من الطريقة التقليدية في قراءة عمل ثربانتس التي سار عليها التجديديون من أبناء جيله. ففي طرحه أسطورة الكيخوته، لم يتبع أونامونو الدروب التي خطها غيره من التجديديين الإصلاحيين، وإنما استفاد من شخصية الكيخوته بصورة أساسية ليحدد نفسه في دور المثقف المصمم على لعب دور البطولة. وهو يُبقي خطابه موجهاً، حصرياً، إلى ذاتية القارئ. فنراه ينطلق في خطابه على الدوام من «تجربة» واردة في الكتاب، تُرفع هذه «التجربة» لديه إلى مقولة فلسفية، ثم تُحوّل إلى نظرية، وأخيراً، وفي حركة ثالثة، ينزلق اهتمام النص إلى مناحي الحياة العامة.

لا يكتفي أونامونو في تفسيره لنص ثربانتس بتقديم روايته الخاصة، بل إنه يمضي إلى ما هو أبعد من ذلك. فما يفعله، أو يحاول على الأقل أن يفعله، هو تحرير دون كيخوته من سجن التخييل الروائي، لجعله ينطلق من جديد في دروب الواقع.

دار رفوف للنشر

twitter @baghdad_library